سِيِّد قُطُب

مَعَالِمُ فِي الطَّرِيق

اعتنى به وقدَّم له

مع تنبيهاتٍ مُهِمَّة على المواضع المُشكلة فيه

عبد الله بن عبد الحميد الأثري

نسخة نت

الغرباء
guraba

مَعَالِمُ فِي الطَّرِيق

سيد قطب

الغرباء
guraba



هذا الكتاب

حقًّا هو معالمُ في الطَّريقِ إلى الله تعالىٰ والعُرُوج إليه سبحانه .. كتابُ عقيدة، ومنهج، وإرشاد، وبيان لطريقِ السَّعادة في الدَّارين.

كتبه سيِّد قطبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُنيرَ مَعَالمَ طريقِ القيادةِ والرِّيادةِ والسِّيادةِ لهذه الأُمَّة؛ فصَار محطَّ أنظارِ وعنايةِ أبناءِ العصر، بَيْدَ أنَّ الآراءَ قد اختلفت حولَ أفكارِهِ وعباراتِهِ وأهدافِه: فمِن مُنصفٍ مُتبصِّرٍ واعٍ.. رأىٰ فيه مُعينًا ينهلُ من فكرهِ الوقَّادِ، ومنارةً تنيرُ له طريقَ دعوتِه إلىٰ الله، وقائدًا يبيِّنُ له خطواتِ إصلاحِ مجتمعه.. وَمِن مُعَادٍ مُتحاملٍ عليه، مُتَّهِمٍ له بتكفيرِ المسلمين، والدَّعوةِ إلىٰ اعتزالِ المجتمع، وهو براء من كلِّ هذه الأباطيل ..

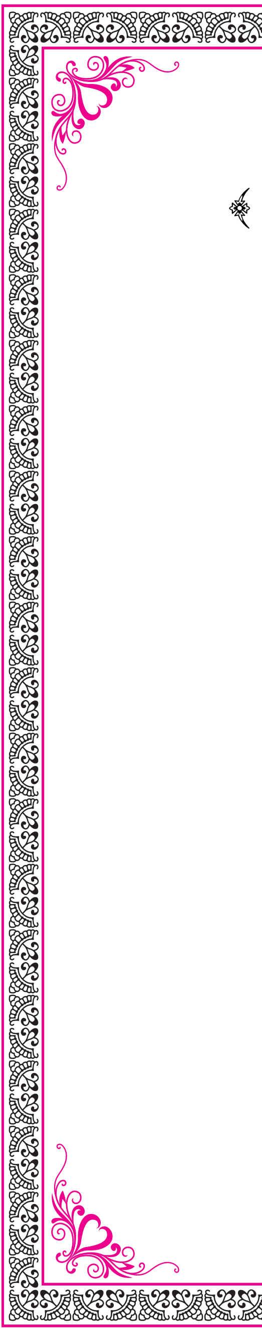
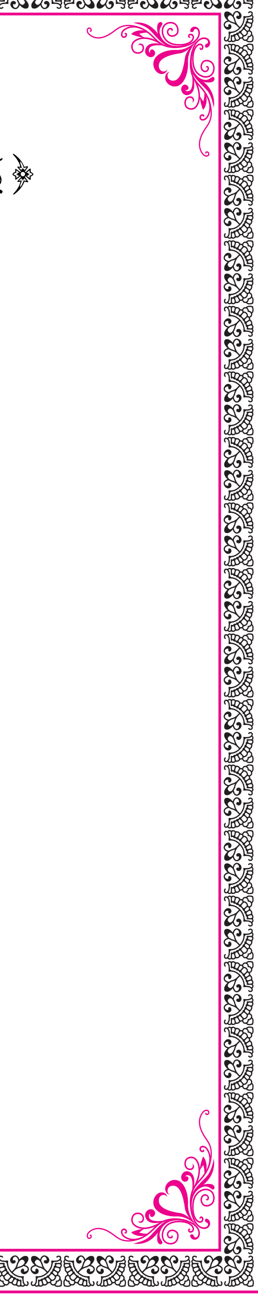
من هنا فقد أَوْلينا هذا الكتابَ القيِّم الرائد عنايتَنا، وحَرصْنا علىٰ نشره بين أبناءِ هذا الجيلِ المبارك؛ ليحملوا التربية الإسلاميَّة العالية التي كان سيِّد قطب يسعىٰ لها ، وزيادة في الفائدة قدَّمنا بين يدي الكتاب بمقدمة مُهِمَّة بعنوان: «مَعَالم إلى المَعَالم» ووضعنا تنبيهات مُهمَّة علىٰ بعض العبارات المُوهمة والمُشكِلة فيه.. والله ولي التوفيق.

النَّاشِر

هدفنا نشر الإسلام الحق

الغرباء
guraba



﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾



معالم في الطريق







ISBN: 978- 605- 2107- 39- 3

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م









GURABA YAYINCILIK TİC. LTD. ŞTİ.

الدار الأثرية للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

Çatalçeşme Sok. Defne Han No: 27/5
Cağaloğlu - Fatih / İstanbul / TÜRKİYE

gurabayayinlari | (0090) 212 526 06 05
guraba yayinlari | (0090) 507 286 14 14
www.guraba.com.tr | guraba@hotmail.com



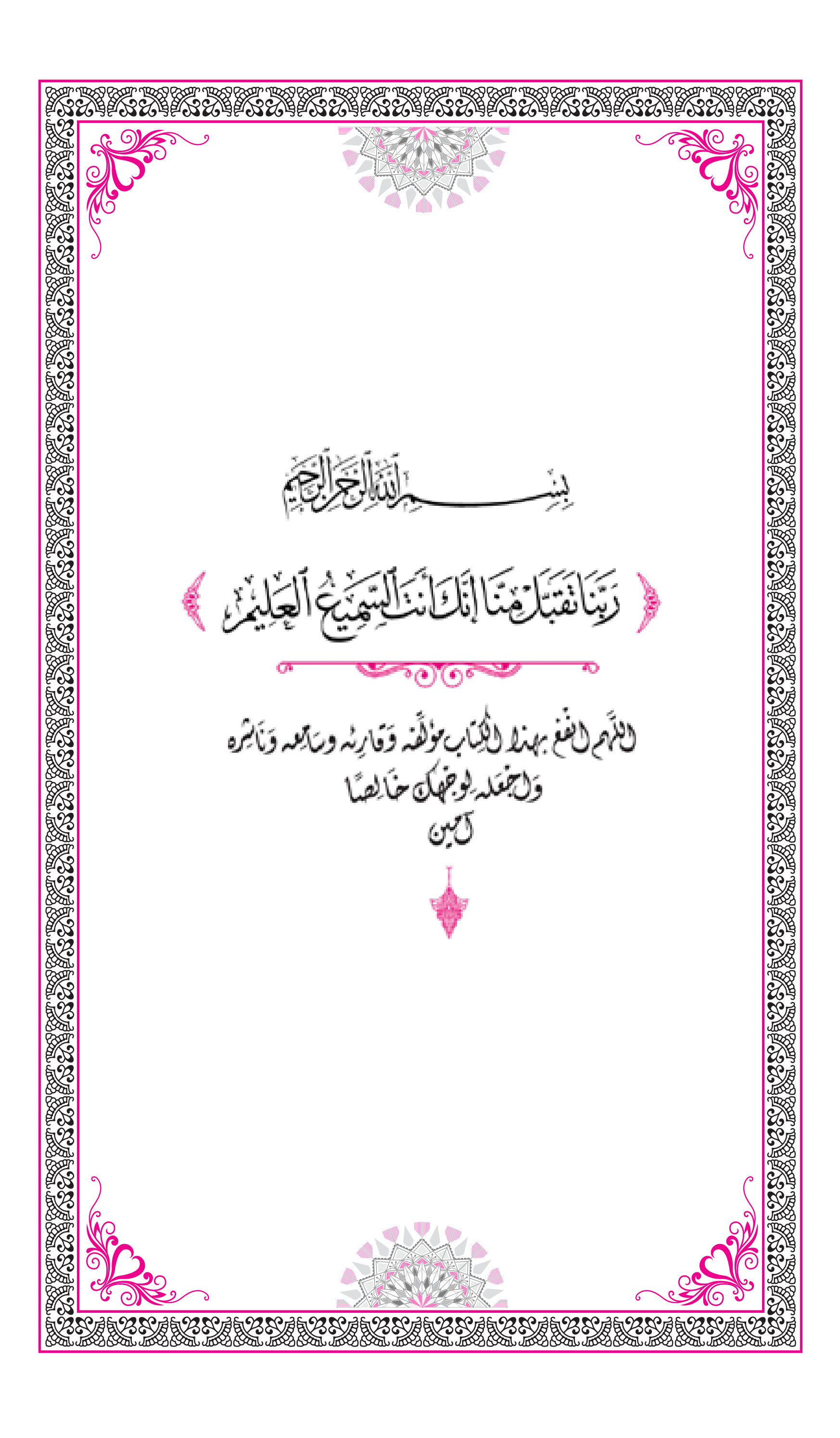

سَيِّد قُطُب

مَعَالِمُ فِي الطَّرِيق

اعتنى به وقدَّم له
مع تنبيهاتٍ مُهمَّة على المواضع المُشكلة فيه
عبد الله بن عبد الحميد الأثري




الغرباء
guraba



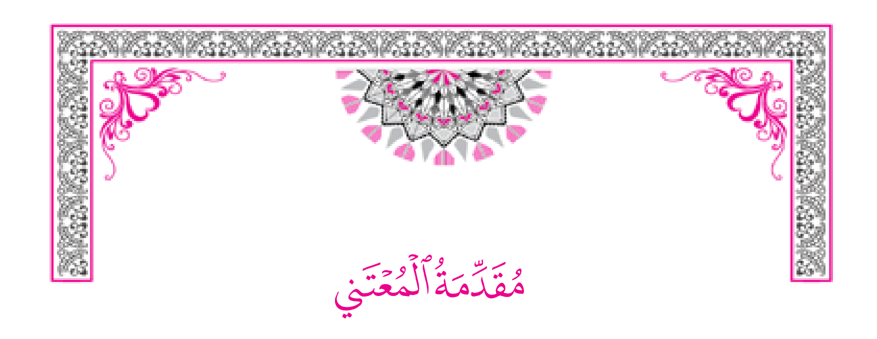
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

اللهم انفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه وسامعه وناشره

واجعله لوجهك خالصا

آمين



مُقَدِّمَةُ ٱلْمُعْتَنِي

الحَمَدُ لله.. الهَادِي المُعِين.. رَافِعُ ذكرِ أَنبيائه.. والهُدَاةِ المُخْلِصين، وقاهر الطُّغاةِ والجبابرة.. الحائدِين عن سبيلِ الحقِّ المُبين.

والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ قائد الغُرِّ المُحَجَّلين.. وسيِّدِ المُرسَلين.. وإمام المتَّقين.. الصَّادق الوعدِ الأَمين.. نبيِّنا ومُرشدِنا وقائدنا وهَادِينا إلى الحقِّ والصِّراط المستقيم.. المُوصِّل إلىٰ جنَّات النَّعيم.

وعلىٰ آلِه الطَّيبين الطَّاهرين.. وصَحْبِه الكرامِ المَيامِين؛ خير أُمَّةٍ لبَّتْ نداءَ ربِّها.. فأَعْلَتْ رايةَ دينه.. وأَقامَتْ شريعتَه.. ومزَّقت رايةَ الباطلِ.. وأَزهقتِ الظُّلمَ البَهيمَ.. **أَمَّا بعدُ:**

فإنَّ تاريخَنا الإسلاميَّ المجيد حافلٌ بالعلماء الأَفذاذ.. والدُّعاةِ المخلصين؛ ممَّن حَمَلُوا دينَ الله.. ونشروا رسالتَه، وبلَّغوا منهجَه الحقَّ.. الَّذي لا زالَ يُنيرُ للبشرية دَربَها بنورِ رَبِّها الكريم، وينتشلُها من حضيضِ الجهلِ والكفرِ والتَّخبطِ في عقائدَ محرَّفةٍ باليَةٍ.. لم تزدِ ابنَ آدمَ إلَّا ضياعًا وانغماسًا في الحياةِ الماديَّة الَّتي سَلبَتْهُ حُرِّيَّتَهُ، وكرامتَهُ، وفِطرتَه..

إلَّا أَنَّ مِنْ بين هؤلاءِ العُلماءِ العظام والدُّعاةِ الصَّادقين.. مَن كان له الأَثرُ البالغُ في ضمير هذه الأُمَّة ومسارِ حياتِها؛ بتمثُّلِهم للعقيدةِ، واتِّخاذِهم



لها منهجَ حياةٍ.. يعيشونَه في فِكْرهم وسُلوكِهم ووجدانِهم..لا مجرَّدَ شعاراتٍ جوفاءَ لا حياةَ فيها.. ثمَّ بتضحيتِهم في سبيل تبليغِها بأَثمنِ ما يمكنُ للعبد الضعيفِ أَن يقدِّمَه؛ فكانوا نِعْمَ الخَلَفِ لمسيرة الأَنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قبلهم، وغدَوا مشاعلَ نورٍ لواقعِهم.. وللأَجيال المسلمة مِن بَعْدِهم، وعلاماتِ هدايةٍ في التَّاريخ..

قال الله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأَحزاب: ٢٣].

والناظر لموقف الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومَ الردَّةِ.. وموقف الإمام أَحمدَ بنِ حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يومَ الفتنة.. وموقفِ شيخِ الإسلام ابنِ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ مع خصومه.. وغيرِهم من الأَئمَّة العِظام.. ممَّنْ تتأَسَّى الأُمَّةُ بهم، وتسيرُ علىٰ نهجِهم وفي رَكْبِهم.. إلَّا دليلٌ واضحٌ علىٰ فَهْمِهم العميق لمعاني هذا الدِّين، وصِدْقِ إيمانِهم الَّذي يختلجُ في أَعماق قلوبِهم، وجَعْلِ الإيمان واقعًا مُعَاشًا، وليس مجرَّدَ مثاليَّاتٍ وشِعاراتٍ خاويةٍ لا تمتُّ للواقع بصِلة؛ فمَنَحَتْ مواقفُهم العظيمة للأُمَّةِ الثَّبات.. فحذا أَبناؤها حذوَهم، وصاروا مناراتٍ للدُّعاة.. يستضيئونَ بنور بصيرتِهم، ويسيرونَ علىٰ خُطا تضحياتِهم؛ فلا أَصدقَ ولا أَبلغَ من أَنْ يُقَدِّمَ صاحبُ الدَّعوة حياتَه ودمَه ثمنًا لها؛ لتكونَ شاهدًا علىٰ صِدْقِ دعوتِه، وإصرارِه علىٰ تبليغ معتقدِه للأَجيال مِن بَعْده قولًا وعملًا!

وفي كلِّ مرحلة من تاريخنا تسطعُ في سماء أُمَّتِنا الصَّافيةِ.. نجومٌ لامعةٌ تَهدي الحائرين.. وتُنوِّرُ طريقَهم بنور رَبِّهم إلىٰ يوم الدِّين.

وفي تاريخ الفكرِ الإسلامي؛ علاماتٌ مضيئةٌ من العلماء العاملين، والقادة المجدِّدين، والدُّعاة الصَّادقين.. سَطَّروا بيَرَاعِهم أَنصعَ الصَّفحات.. ومن هؤلاء العظام في تاريخنا المعاصرِ:

الأُستاذُ الكبير، والمفكِّرُ العملاق، والدَّاعيةُ اللَّبيب، والأَديبُ النَّاقد.. صاحبُ القلم السَّيَّال، والأُسلوبِ الرَّفيع:

سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

١٩٠٦ـ١٩٦٦م

❋ **فهو** مَعْلَمَةٌ.. إيمانيَّةٌ.. تربويَّةٌ.. دعويَّةٌ.. إصلاحيَّةٌ.. أَدبيَّةٌ؛ أَضاءَتْ علىٰ مدىٰ عُقودٍ معالمَ منهجٍ فكريٍّ حركيٍّ رائدٍ، وجدَّدت ـ بمفاهيمَ عديدة ـ نمطيَّةَ التَّفكيرِ السَّائدةَ في عصره.

❋ **وهو** رَائِدٌ من رُوَّاد الفكر الإسلاميِّ في العصر الحديث، ومفكِّرٌ عملاقٌ.. رحلَ عنَّا منذ عقودٍ عديدةٍ.. إلَّا أَنَّ ذكراه باقيَة في كُتبه ومؤلفاته.. فقد حفظ القرآن وهو طفل صغير.. وعاش الشَّطر المثاني من حياته مع القرآن علمًا وعملًا، ومات في ظلاله شهيدًا.. وتعلَّم منه جيلُه ومَنْ بعد.. كيفَ يتذوَّقونَ معاني القرآنِ العظيم، وكيف يفهمونَ ما وراء السُّوَر من الحِكَمِ، والدَّلالاتِ الثريَّةِ للآيات، وما تدعو إليه من قِيَمٍ جماليَّةٍ وأَخلاقيَّةٍ وتربويَّةٍ وإيمانيَّة.

❋ ومضىٰ كأَبرزِ المفكِّرينَ الَّذينَ قدَّموا حقيقةَ دينِ الإسلام بلُغَةِ عصرنا.. بشمولِه وحيويَّتِه وصلاحيَّتِه لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وإنسانٍ.. وقدرتِه على الحكم والإدارة، وعلىٰ علاج مشكلات الحضارة، وتحقيقِ التَّوازنِ بين متطلَّباتِ الرُّوحِ والمادة، والحياةِ الدُّنيا والآخرة.

* صاحبُ مشروعٍ لنهضة الأُمَّة من جديد؛ قدَّم مفهومًا جديدًا للتَّغييرِ الشَّاملِ الكامل.. الَّذي يتجاوزُ حـدودَ المجتمع إلى العالمِ بأَسرِه.. من خلال استبدالِ النِّظام الجاهليِّ بالنِّظام الإسلاميِّ، وفقَ عمليَّةٍ محكَمةٍ، مدروسةٍ ومتدرِّجة.

* من القِلَّة الَّذين ماتوا وآثارُهم لم تَمُتْ؛ فقد خلَّف من بعده تُراثًا عظيمًا، وآثارًا جليلةً، ومواقفَ بطوليَّةً.. ستُبقي ذكـرَه خـالدًا، ومكانتَه مميَّزةً في النُّفوس.

* صاحبُ مدرسةٍ فريدةٍ؛ تُمَثِّلُ علامةً فارقةً في مجرىٰ تاريخِ الفكرِ الإسلاميِّ.. وهي المنعطفُ الَّذي ولَّى فيه التَّاريخُ وجهَه شطرَ العودة إلىٰ أُصول الشَّريعةِ.. فـكرًا وتـنـظِيرًا وتأْليفًا وقولًا وعملًا؛ بحيث يمكن أَن يؤرَّخَ الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ منها، فيقال:

(ما قبلَ سيِّد قُطُب، وما بعدَ سيِّد قُطُب!) .

* من أَصحابِ الأَقلام المؤثِّرة؛ له أُسلوبٌ تعبيريٌّ ربَّانيٌّ، قلَّ أَنْ تجدَ نظيرَه.. وذلك لما تميَّز به من عُمق التَّفكير، وسَعَةِ النَّظرِ، وملامسةِ الواقع.. وكان صاحبَ تجربةٍ إيمانيَّةٍ مريرةٍ قاسيَةٍ في مدرسة اليوسفيَّة ـ علىٰ صاحبه الصَّلاة والسَّلام ـ جعلته ينظُرُ لواقع الأُمَّة بمنظارٍ ربانيٍّ نبويٍّ.. إيمانيٍّ عمليٍّ.. بعيدٍ عن الفرضيَّاتِ والنَّظريَّات.

* من الكُتَّاب القِلَّةِ الَّذينَ تركوا أَثرًا إيجابيًّا في الأَجيال.. فما من مجموعةٍ مسلمةٍ أَثَّرت في مجتمعِها.. إلَّا وكان لفكرِه وكتاباتِه ﵀ أَثرٌ في نفوسِ أَبنائِها.. قليلًا كان أَم كثيرًا.

* منظِّرٌ مُلهَمٌ أَكَّدَ علىٰ وجود الجماعةِ المسلمة؛ وعدَّها ضَرورةً شَرعيَّةً تتمثَّلُ في إقامةِ شرعِ الله، وقيادةِ البشريَّة.. كما تُشَكِّلُ ضرورةً تربويَّة تتجسَّدُ في كونِ هذه الجماعةِ.. هي المسؤولةُ عن تربيةِ الفردِ المسلم، ورعايةِ الأُسرةِ المسلمة.

* أثرى المكتبةَ الإسلاميَّةَ بفكرِه ونظرتِه الشُّموليَّةِ لواقع الأُمَّة؛ فأَيقظها من سُباتها وصحَّح بوصلتَها.. وكانت كتاباتُه عن العقيدة من أَهمِّ عواملِ الصَّحوة الإسلاميَّة.. حيث تركَ أَثرًا عميقًا في نفوس أَبناءِ الجيلِ العائدِ إلى الله؛ فجعل جُلَّ اهتمامه في مؤلَّفاته لقضيَّة بناء العقيدة في المجتمع المسلم.. وتربيتِه التربيةَ الإيمانيَّةَ الرَّبانيَّةَ.. وتهيئتِه لإقامةِ ركائزِه.. وتحكيمِ شريعةِ الله الَّتي ارتضاها لعبادِه؛ فرأَىٰ أَنَّ ضياعَ المسلمينَ ناتجٌ عن عدمِ فهمِهم للإسلام الحقِّ؛ فيجب دعوتُهم إلى العقيدة الصَّحيحة.. وتعلِيمُهم معنىٰ «لا إله إلَّا الله» باعتبارِها منهجَ حياةٍ.. كما علَّمَ النبيُّ ﷺ أَصحابَه الكرام، وربَّاهم علىٰ ذلك.. في مدرسةِ دارِ الأَرقمِ المكيَّة.

* إنَّ الَّذي كتبَ الحياةَ لأَفكارِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو إخلاصُه لمبادئه.. وإيمانُه بها.. وتجسيدُه لها في حياتِه الدعويَّة بكلِّ صدقٍ.. مما جعلَ منها نموذجًا للمؤمنِ الصَّادق؛ الذي يحتم علينا ـ نحن الدُّعاةَ ـ أَن نحافظَ علىٰ هذا النَّموذجِ الفَذِّ.. ونربِّيَ الجيلَ الناشئَ عليه؛ لكي نُعيدَ الاعتبارَ لحضارتِنا العريقةِ الَّتي عَرَفَت هذا النَّموذجَ الفريد مِن قَبل.. والَّذي يفضِّلُ الموتَ على الخضوعِ لحاكمٍ مستبدٍّ.. والسَّيرِ في رِكَابِه كأَحدِ غِلْمانِه..

فسلكَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطَّريقَ الَّذي سلكَه سلفُه الصَّالحُ من العلماء الصَّادقين؛ أَمثالِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ، وأَبي حنيفةَ، ومالكٍ، والشَّافعيِّ، وأَحمدَ بنِ



حنبلَ، وابنِ تيميَّةَ، والعزِّ بنِ عبدِ السَّلام.. وغيرِهم من العلماءِ العاملينَ ﷺ الَّذينَ حملوا رسالةَ الإسلام.. وما لَانُوا في الحقِّ أَمامَ حاكمٍ؛ بل ثبتُوا علىٰ مبادئهم على الرُّغمِ من الحبسِ والتَّعذيبِ والتَّقتيل!

وظل ﷺ متمسِّكًا بالحقِّ، ثابتًا عليه فما لَانَ ولا هانَ.. بل مضىٰ يُرَدِّدُ نشيدَ الخلودِ وحبُّ الشَّهادة.. ويستهينُ بالموتِ في سبيلِ الحقِّ الَّذي وهبَ له حياتَه وفكرَه.. فأَصبحَ بقوَّةِ إيمانِهِ يهزأُ بالتَّهديدِ الَّذي يُطلِقُهُ العملاءُ الَّذين باعوا دينَهم وأُمَّتَهم.. وجلبوا الهوانَ والعارَ والذِّلَّةَ لبلادِهم.. وقد رضيَ منهُ الحاكمُ الغاشمُ بأَقلِّ اعتذارٍ؛ لكنَّهُ بصلابتِه واستعلائِه بإيمانِهِ الصَّادقِ، وعقيدتِه الراسخةِ الَّتي نافحَ بها عن الإسلام عقيدةً وسلوكًا ومنهجَ حياةٍ.. ورفضَ تقديمَ أَيِّ اعتذارٍ..فكلَّفَهُ ذلك حياتَهُ؛ لأَنَّه كان قويَّ القلبِ والإيمانِ والعزيمةِ.. رغم ضعفِ بُنيتِهِ!

❋ سيِّد قُطُب ﷺ أَديبٌ ومفكِّرٌ إسلاميٌّ.. مَن قرأَ له واستوعبَ مقاصدَه فيما يكتُب؛ يجبُ عليه أَن يفهمَ فكرَه وآراءَه بحقٍّ.. وأَن يحيطَ بمراحلِ حياتِه وتطوُّرِه فيها.. كي يعرفَ حقيقةَ موقفِه الَّذي انتهىٰ إليه.

❋ بدأَ حياتَه كاتبًا وشاعرًا وأَديبًا وناقدًا.. ثمَّ مفكِّرًا إسلاميًّا.. ثمَّ منظِّرًا حاذقًا؛ فلم يكُنْ عالمًا شرعيًّا وفقيهًا.. بالمعنى الاصطلاحيِّ المتداوَل.. ولذلك كان لا يلتزمُ بمصطلحاتِ العلماء في بعض كتاباته.. وعندما نزلَ السَّاحةَ الدعويَّة، وبدأَ يكتبُ فيها بأُسلوبٍ أَدبيٍّ بليغٍ ولغةٍ عَذْبةٍ راقيةٍ، جذبَ إليه القُرَّاءَ.. وقد وفَّقه الله تعالىٰ في كثيرٍ من المواضع والشُّروحِ والمعاني الرَّائعةِ واللَّفتاتِ القيِّمة.. حتَّىٰ إنَّ كتابَه «في ظلال القرآن» لم

يحملْ في طيَّاته تفسيرًا لأَحكامٍ أَو فتاوىٰ فقهيةٍ كباقي كُتبِ التَّفسير؛ بل ركَّزَ علىٰ إظهارِ روحِ القرآن ذاتِه ومعانِيه.. وربطِه بواقعِ حياةِ المسلمينَ بلغةِ عصرِهم، ولربَّما خالفهُ بعضُ مَنْ لم يُنْعِمِ النَّظر في جُملهِ وعباراتهِ، وحملَها على محاملَ بعيدةٍ عن مقاصِدهِ.

* كثيرة هي الأُطروحاتُ الَّتي تناولت أَفكاره، وتباينَت بينَ غلوٍّ وجفاءٍ.. وقليلةٌ هي تلك الدِّراساتُ الَّتي تميَّزت بالإنصاف!

لقد ظُلِمَ سيد قُطُب مرَّتين.

- مرةً حينَ أَغفلَ **الجُفَاةُ** البيئة الَّتي كانت تحيطُ به من كونِه أَديبًا تحوَّلَ للكتابة في الفكرِ الإسلاميِّ؛ فحاكمُوه علىٰ ماضيه.. وأَخذوا يجلدونَهُ بسبب كتاباتِه الَّتي سبقَت توجُّهَه الإسلاميَّ؛ فلم يَعْذُروهُ.. كما عذرُوا الحكَّامَ الجائرين! ولم يُراعُوا بأَنَّه أَديبٌ عالجَ القضايا في مؤلَّفاتِه معالجةَ الأَديب والمفكِّرِ المُتَأَلِّم على أُمَّته المكلُومة؛ فتناسَوا حسناتِه.. فنسفوها وأَغفلوها.. وذكروا سيِّئاتِه وأَخطاءَه.. ونفخُوا فيها!

- ومرَّةً حين ذهب.. **غُلاة** آخرون يدافعونَ عنه؛ فلا يَقْبَلونَ أَنْ تُسْندَ إليه خطيئة!

وهذا خَلْطٌ بين ما قدَّمه من مواقفَ عظيمةٍ، وبين بعضِ ما وقعَ فيه من أَخطاء.. وحقيقة الأَمر أَنَّ سيِّدًا ﵀ كان بين الأَجر والأَجرين.. وخصوصًا في المراحل الأَخيرة من حياته.

ومُعظمُ مَن كتبَ عنه ـ ناقدًا أَو مُتَّهِمًا ـ ركَّزَ في كثيرٍ من الأَحيان علىٰ مقاطعَ مُجتزأَةٍ ممَّا كتبهُ هو، أَو ممَّا كتبهُ آخرون عنه.



ولربَّما وجدنا في كتاباتِه بعضَ الأَلفاظِ الَّتي قدْ تحتاجُ مزيدًا من الدِّقَّةِ، لتتوافقَ أَكثرَ مع المصطلحاتِ الشَّرعيَّةِ في العقيدة الإسلاميَّة، وهذا لا بُدَّ منه لأَنَّه بشرٌ يخطئُ ويصيبُ؛ أَمَّا أَن يصلَ الأَمرُ إلىٰ أَنْ يُنسبَ إليه ما لمْ يقلْهُ.. ولمْ يُرِدْهُ من العقائدِ الفاسدةِ الضَّالَّةِ.. كـوحدةِ الوجودِ وغيرِها.. فهذا غيرُ مقبولٍ أَلبتَّة.

إنَّ الَّذينَ ركَّزوا علىٰ بعض الجوانبِ المُلْتبِسةِ في كتاباته.. وغضُّوا النَّظرَ عن أَدبيَّاتِه الرَّائعة، ونصوصِه الإبداعيَّةِ والتَّجديديَّةِ، وروحِه الثَّوريَّة، ومواقفِه الَّتي دفع حياتَه ثمنًا لها؛ ظلمُوه ولم ينصفُوه، وحاولوا أَن يُعدموهُ مَيْتًا بعد أَن أُعدِمَ حيًّا.. وعَمِلوا على وضعِ حاجزٍ نفسيٍّ بين المسلمين وفكره.. ولم يخدمُوا بذلك سوىٰ أَنظمةِ الفسادِ والاستبدادِ.. وتيَّاراتِ التَّغريب.

إنَّ سيِّد قُطُب ـ كغيره من بني آدمَ ـ له أَخطاؤه وعثراتُه.. فلا ضَيْرَ أَنْ تُعرَفَ أَفكارُه.. ثمَّ يُنقدَ النقدَ العلميَّ الموضوعيَّ.. كغيره من العلماءِ والمفكِّرينَ والمُصْلحين.. لا حرجَ في ذلك ولا عيبَ.. بل هو المطلوبُ، وكفى المرءَ نُبلًا أَن تُعَدَّ مَعَايبُه؛ أَمَّا أَن يتمَّ تشويهُ الشَّخص، وإلغاءُ دورِهِ بإجحافٍ ودون إنصاف؛ فهذا ليس في ميزانِ العدلِ بشيءٍ!

إنَّنا لا ننكرُ أَنَّ بعضَ محاولاتِ النَّقدِ كانت منبعثة من قلوبٍ مخلصةٍ، ومُحبَّةٍ لإظهار الحقِّ؛ فالحقُّ لا يعلو عليه أَحدٌ، فلا ننزِّهُ سيِّدًا من الخطأ ـ وحاشَا لله ـ أَن ندَّعيَ له العصمةَ: (**فَما منْ إنسانٍ إلَّا ويؤخذُ**

منه ويردُّ عليه إلَّا صاحبَ هذا القبرِ ﷺ) كما كان الإمامُ مالكٌ إمامُ دارِ الهجرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردِّدُه.

إنَّ محاولةَ النَّيلِ من شخصيَّةِ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفكرِه.. عبثٌ وسذاجة! والنُّزولَ معه في معركةٍ لَسوف يبوءُ صاحبُها بالخيبةِ والخسرانِ؛ فالرَّجلَ قد بَلَّغَ فِكْرَه بِكُلِّ صدقٍ، وحمىٰ كلماتِه بروحِه ودمِه.. وسار إلىٰ ربِّه ـ جلَّ في عُلاه ـ مرفوعَ الرأْسِ، قريرَ العين، شامخًا عزيزًا شهيدًا.. إنْ شاءَ الله تعالىٰ!

إِنَّنَا نقول بكلِّ ثقة واطمئنان : إنَّ كتابةَ «**في ظلال القُرآن**» هو عمدةٌ لمستقبل هذه الأُمَّة المرحومة، فهو ليس مجردَ تفسير أَدبيٍّ بلاغيٍّ، بل هو خواطر وانطباعات من فترةِ الحياة في ظلال القرآن.. كُتِبت في معترك الحياة الإيمانية.. وفي المدرسة اليُّوسفيَّة العمليَّة.. ذات النَّبع الصَّافي الَّذي تمتدُّ جذوره لمدرسة دار الأَرقم المكيَّة.. فالظِّلال دستورٌ لمقاومة الاحتلال والاستبداد، وطاقةُ نورٍ للأُمَّة المُقَاوِمة المجاهدة..

* لقد آنَ الأَوانُ لإنصافِ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأَن تُقرأَ كتاباتُه بشكلٍ موضوعيٍّ، وأَنْ تُحْفَظَ مكانتُه.. باعتبارِه أَحدَ أَبرزِ روَّادِ الفكرِ الإسلاميِّ والإصلاحِ والتَّجديدِ في القرنِ العشرين..

راجينَ أَنْ يكونَ ملهمًا لنا في بعثِ الوعيِ والصَّحوةِ في هذه الأُمَّة من جديد..ومصحِّحًا لما انحرفَ وشذَّ من أَفكارٍ ومفاهيمَ دخيلةٍ علىٰ هذا الدِّين القويم.

من هذا المُنطلق الجليلِ.. كانَ الاهتمامُ بنشر هذا الكتاب الفريدِ الرَّائدِ، دليل الصَّحوة المباركة في العصر الحديث..

وقد تمَثَّل العمل فيما يلي:

١ـ اعتمادُ نسخة وزارة المعارف السُّعوديَّة الَّتي طُبعت بإشراف شقيقه الأُستاذ الكبير محمد قُطُب رَحِمَهُ اللَّهُ وكانت تُدرس بمدارس المملكة العربيَّة السعوديَّة.

٢ ـ **ضَبطُ ما يُشكل من كلمات وعبارات بالكتاب**؛ لئلَّا تلتبس المَعَاني على القارئ الكريم.. مع وضع علامات التَّرقيم المناسبة، وتلوين بعض الكلمات الَّتي كان يضعها رَحِمَهُ اللَّهُ بين تنصيص لأَهميتها .

٣ ـ **وَضْع عناوين توضيحية**.. وتمييزها بلون مميز؛ لمساعدة القارئ علىٰ حُسن الفهم والمتابعة..

٤ ـ وَضْع الآيات القرآنية بالرسم العثماني من مصحف المدينة النَّبوية.

٥ ـ تخريج الأَحاديث وعزوها إلىٰ مصادرها.

٦ ـ تَمَييز تعليقات المؤلِّف بوضع كلمة **(المُؤَلِّف)** في آخر كلِّ تعليق.

٧ ـ التعليق على الكتاب ببعض الفوائد والتوضيحات.

٨ ـ وَضع تنبيهات مختصرة علىٰ بعض المواضع المشكلة من الكتاب.. والَّتي يستغلها الغُلاة، وفي مُقابلهم الجُفَاة.. الَّذين يُشوهون صورته.

٩ ـ وَضَعْتُ بأَوَّلِ الكتاب مَدْخلًا يُلْقِي الضوء علىٰ سيِّد قُطُب الإنسان

والمُفَكِّر.. وأَبرز الانتقادات الَّتي وُجِّهت لفكره.. وشهادات العلماء له.. وسمَّيته: «**المَعَالمَ إلى المَعَالم**»..

وأَشكر الله العليَّ القدير.. الَّذي أَنعم عليَّ بنعمة العقل والدِّين..

قال تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

كما أَشكره تعالىٰ علىٰ توفيقه أن أعانني على خِدْمة هذا الكتاب المبارك.. وأَرجو الله أَن يُصْلِح به ما فَسد من العقائد والمناهج، وأَن يجعله نافعًا.. ودافعًا للرُّجوعِ إلى الحقِّ والصِّراط المستقيم.

قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[١].

ووفاءً وتقديرًا واعترافًا بالجميل.. أَتقدَّم بجزيل الشُّكر لكلِّ مَن كان لهُ فضلٌ عليَّ في إتمامِ هذا العمل المتواضع.. من إبداءِ رأيٍ أَو مُراجعةٍ أَو نصيحةٍ.. أَو كلِّ مَن استفدت من كتاباته ومقالاته[٢] من الَّذين كتبوا عن سيِّد قُطُب بإنصاف.. وسبقونا بالخير؛ فجزاهم الله خيرًا.

هذا جُهْدُ المُقِلِّ، وضعتُهُ بينَ يدي القارئ الكريم؛ فإن أَصَبْتُ فمن الله وحدَهُ، وإن أَخطأتُ فمِن نَفْسِي والشَّيطان.

---

(١) رواه أَبو داود (١٦٧٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) استفدتُ أَخبار الأستاذ سيِّد قُطُب رحمه الله من الكتابات التي كُتِبَت عنه، خاصة كتاب: «**سيِّد قُطُب من الميلاد للاستشهاد**» للدكتور صلاح الخالدي، وأَيضًا من شقيقه شيخنا الأستاذ محمد قطب رحمه الله فقد لازَمْتُه عندما كان يزور إصطنبول للإجازة في الفترة (١٩٨٨ – ١٩٩١م).



أَسـأَلُ اللهَ ـ تبـارك وتعالـىٰ ـ أَن يجعلَ عملي خالصًـا لوجهه الكريم.. وأَن يتقبَّلـهُ منِّـي.. وينفعَ به المسـلمين.. اللَّهُمَّ آمين!

وأَبْرَأُ إلى الله ممَّا خالفَ كتابَهُ وسُنَّةَ نبيِّهِ ﷺ وفهمَ السَّلف الصَّالح.

واللهُ من وراءِ القصد، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

كتبه

عَبدُ اللهِ بن عَبدِ الحَميدِ الأَثَري

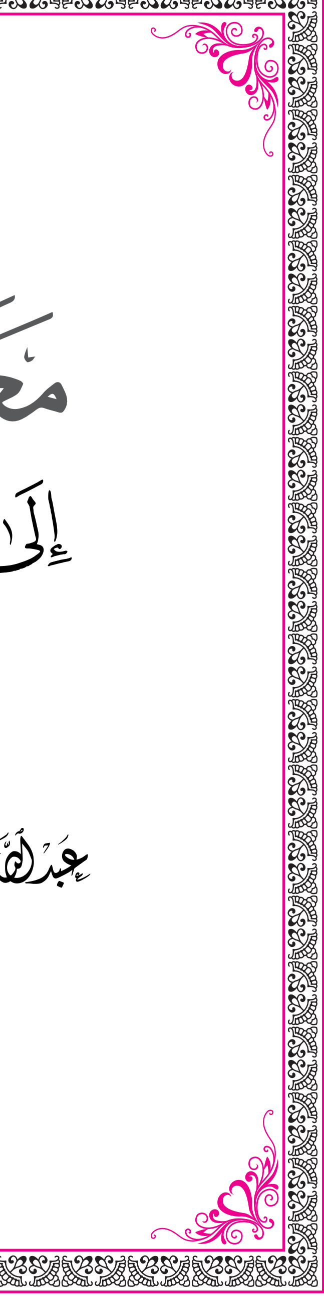
نزيل إصطنبول عفا الله عنه

عضو الهيئة العُليا لرابطة علماء المسلمين

ومُؤسِّس مكتبة الغرباء

١٨ ربيع الآخر ١٤٣٨هـ

١٦ ديسمبر ٢٠١٧م



مَعَالِمُ

إِلَى ٱلْمَعَالِم

بقلم

عبد الله بن عبد الحميد الأثري




(إنَّ الحكمَ على النَّاسِ يَسْتَلزمُ وجودَ قرينةٍ قاطعةٍ لا تقبلُ الشَّكَّ، وهذا أَمرٌ ليسَ في أَيدينا، ولذلك فنحنُ لا نتعرَّضُ لقضيَّة الحكمِ على النَّاس.. فضلًا عن كونِنا دعوةً ولَسْنَا دولةً.. دعوةٌ مُهمَّتُها بيانُ الحقائقِ للنَّاسِ.. لا إصدارُ الأَحكامِ عليهم).

سيِّد قُطُب



١
سيِّد قُطُب الإنسان

جمـع سـيِّد قُطُب ﵀ العديد مـن الصِّفـاتِ.. النَّفسـيَّةِ.. والفكريَّةِ.. والخُلُقيَّةِ الحَسَـنة.

كان ﵀ أَسمرَ اللَّونِ، مجعَّدَ الشَّعرِ، أَميلَ إلى القِصَرِ منهُ إلى الطُّولِ، رقيقَ الإحساسِ، لطيفَ المجلسِ، حلوَ المعشرِ.. لا تفارقُه ابتسامة الوَقورُ، ذو دعابةٍ متَّزنة، رحيمًا محبًّا لمساعدةِ الآخرين.. ولم يتزوَّجْ بسببِ ظروفِه القاهرة.

كان يحمـلُ جملةً من الصِّفـاتِ الحميدةِ منها: الصِّدقُ.. والشَّـجاعةُ.. والرُّجولـةُ.. والكـرمُ.. والتَّواضـعُ.. والسَّـخاءُ.. والحـبُّ.. والوفـاءُ.. والعاطفـةُ الفيَّاضـةُ، وكانَ يتمتَّـعُ بذاكرةٍ قويَّـةٍ، حاضرَ البديهةِ، قـويَّ الحجَّةِ فـي نقـدِه.. شـغوفًا بالمعرفـة والاطِّـلاع، كثيـرَ القـراءةِ والتَّأَمُّـلِ.. شـديدَ الغيـرةِ علـىٰ دينـه، لا يغضـبُ إلَّا للحـقِّ، جريئًا في الحـقِّ غيرَ مهـادنٍ فيه.. وكانَ بطـلًا فـي الثَّبـاتِ علـى المبـدأ والإصـرارِ عليـهِ، والاسـتعلاءِ علـى المسـاوماتِ والإغـراءاتِ.. والزُّهدِ في متـاعِ الحياة، والصَّبـر على المحنِ، والرِّضـا بقضـاءِ الله تعالىٰ.

وإذا كان لكلِّ أَحدٍ من اسمه نصيب.. فليس من المصادفاتِ أَن يكونَ اسمُه «سيِّد قُطُب!» فهذه دلالةٌ واضحةٌ تُعبِّرُ عن سيادتِهِ بما خُتمَ له من الخيرِ؛ سيرةٌ عطرةٌ.. وإرثٌ فكريٌّ موفَّقٌ مبارك..

وليس غريبًا أَن يكونَ قُطبًا للفكرِ والأَدبِ والدَّعوةِ؛ فقامتُه الكبيرةُ، وإيمانُه الرَّاسخُ، وثباتُه الشَّامخ، ومواقفُهُ البُطوليَّةُ.. ثبَّتت اسمَه في القُلوب، ورسْمَه في العقول، وذِكْرَه في التَّاريخ.. بتعظيمٍ وإجلالٍ وحبٍّ ووفاءٍ؛ لأَنَّه عاشَ بكيانِه وأَحاسيسِه يُبيِّنُ للنَّاس الخير.. ويصف لهم في حياته طريقَ الدِّرايةِ والهدايةِ والنَّجاة.. بما قدَّم من مواقفَ جليلةٍ، وتضحياتٍ عظيمةٍ.. وبعد مماتِه بفكرِه المُسَدَّدِ، ومشروعِه العملاقِ، وكتاباتِه المباركة!

فمن إنتاجه الفكريِّ الرَّصينِ.. تولَّدت النُّجومُ المضيئةُ في سماءِ تاريخِنا المعاصر.. فانْبَعَثت منها الصَّحوةُ الرَّاشدة.. ففكرُهُ شخَّص أَمراضَ العصرِ، وقدَّم العلاجَ.. وأَحدث يقظةَ الحسِّ والوجدانِ، وبعث الشُّعورَ بالحقِّ، وأَزال الرُّكامَ الَّذي غَشِيَ الفطرةَ السَّليمةَ.

حُوكِمَ ظُلمًا وجَورًا بالسِّجنِ خمسةَ عشَرَ عامًا مع الأَشغالِ الشَّاقة.. رغم مرضَهِ المُزْمنِ؛ فلم يكن ﵀ يتمتَّعُ بصحَّةٍ جيِّدةٍ منذُ صغرِه، وفي أُخْرَيَاتِ حياتِه كان يُعاني من أَمراضٍ شتَّىٰ في معدتِه، والتهابٍ مزمنٍ في رئتِهِ، كان يضطرُّه أَنْ يحملَ معه أَينما ذهبَ الأَدويةَ اللازمةَ لعلاجه.

عاش ﵀ عزيزًا.. وماتَ شامخًا؛ لأَنَّهُ جعل شرعَ الله أَغلىٰ من حياتِه، ورفضَ أَن يشتريَ الحياةَ بمبادئه، واختار أَن يُعلَّق علىٰ أَعواد المشنقة فداءً لعقيدتِه، والتزامًا بدينِه.. ورفض إلىٰ آخرِ لحظةٍ من حياتِه أَن يساومَ علىٰ

مبادئه وأَفكارِه.. على الرُّغمِ من الإغراءِ بعدم تنفيذِ حكمِ الإعدامِ فيه إنْ صدرَ منه استعطافٌ لرئيسِ الدَّولة.. فقال ﷺ كلمتَه المشهورَة:

(إنَّ إصبعَ السَّبابةِ الَّذي يشهدُ لله بالوحدانيَّة في الصَّلاة.. ليرفضُ أَن يكتبَ حرفًا واحدًا.. يُقِرُّ بِهِ حكمَ طاغية)[1].

وعندما شنقوه ﷺ غيَّبوا جسدَه الفاني.. وأَمدُّوا فكرَه الرَّائدَ بالحياةِ والدَّيمومةِ؛ فإعدامُه حقَّقَ عكسَ ما أَرادوا.. فحوَّله من مفكِّرٍ ومنظِّرٍ.. إلىٰ رائدٍ للفكرِ الإسلاميِّ المعاصرِ، ومَعْلَمٍ من معالمِ الدُّعاة والمصلحينَ في بلاد العربِ والمسلمين.. امْتَطَىٰ جوادَ الصَّحوة لينطلقَ به إلى التَّغييرِ والإدراكِ والمعرفة.

* فسيِّد قُطُب: **جرَّمته الأَنظمةُ فأَعدمتْهُ.. واحتضنتْهُ الأُمَّةُ فأَحيتْهُ؛ فالأُمَّة الباقيةُ عزيزةٌ كريمةٌ.. والأَنظمةُ الزَّائلةُ منسيَّة.**

وهكذا أُسدِلَ السِّتارُ ـ بكلِّ كرامة وعزٍّ ـ علىٰ حياة مفكِّر إسلاميٍّ عظيم، وأَديب أَلمعيٍّ، عن عمرٍ يناهزُ السِّتينَ عامًا.

ولكن هل ماتَ سيَّد قُطُب؟!

كلَّا! فما زال حيًّا في أَعماقِ القلوب بأَعمالِه الجليلة.. وخدمته العظيمةِ لِدِينِه.. وبَقيت مؤلفاتُه وآراؤه تُنير الفكر علىٰ مدى السِّنينِ الطَّويلة..

ولكن الطَّاغيةَ.. قد ماتَ ونُسِيَ وولَّىٰ.. ولا كرامةَ له.. ولا لأَعوانُه الظَّلمةُ؛ ذهبوا إلىٰ مزبلة التَّاريخ.

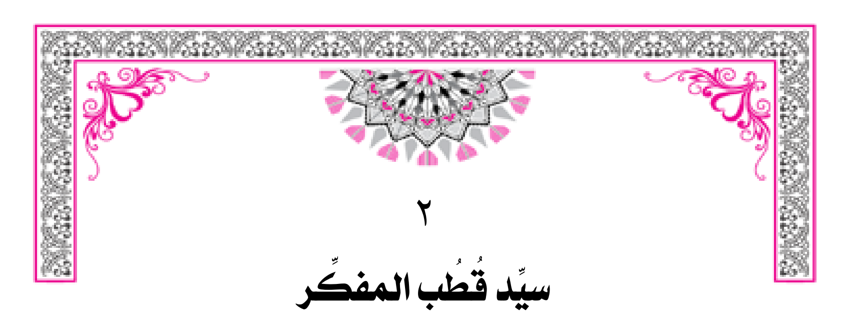
(١) «أَيام من حياتي»: لزينب الغزالي، ص ١٨١.



فَرَحْمَةُ الله ومغفرتُه علىٰ سيِّد قُطُب وإخوانِه الشُّهداءِ..

وهنيئًا لمنْ يعملُ لرضى الله.. ولْينتظرِ القتلةُ والطُّغاةُ ما وعدَهمُ به الله من العذابِ.. وعندَ الله تجتمعُ الخصوم! قال تعالىٰ:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١].



٢
سيِّد قُطُب المفكِّر

أَوَّلًا ـ المراحل الفكرية لحياته:

مرَّ سيِّد قُطُب ﵀ بعدَّةِ مراحلَ في حياتِه الفكريَّةِ.. وكان خلالَها يكتبُ المقالاتِ، ويؤلِّفُ الكُتبَ.. وكلُّ كتابٍ يعبِّرُ عن فكرِه في تلكَ المرحلةِ؛ فمَن يقرأُ مقالاتِه القديمةَ يرىٰ في أُسلوبِه شيئًا واضحًا من النَّزعةِ الوطنيَّةِ والقوميَّةِ، ومَن قرأَ له في بدايةِ توجُّهِهِ نحو الفكرِ الإسلاميِّ رأَىٰ جهدَه الواضحَ في محاربةِ الاشتراكيَّةِ والرأْسماليَّةِ والحضارةِ الغربيَّةِ، ومَن قرأَ كُتبَه الأَخيرةَ رأَى التَّأْثيرَ الشَّرعيَّ القويَّ في طرحِه، ويرى العاطفةَ الجيَّاشةَ تجاهَ قضايا الإسلام الكُبرىٰ، ومن أَخصِّها العقيدةُ، وخصوصًا شرحُ كلمةِ التَّوحيدِ «لا إله إلَّا الله».

فالمراحلُ الَّتي مرَّ بها أَربعة:

١ـ مرحلةُ الأَديبِ المثقَّف (١٩٢٥ ـ ١٩٣٩م) تقريبًا.

٢ـ مرحلةُ الأَديب الإسلاميِّ (١٩٣٩ ـ ١٩٤٧م) تقريبًا.

٣ـ مرحلةُ المفكِّر الإسلاميِّ (١٩٤٧ ـ ١٩٥٣م) تقريبًا.

٤ ـ مرحلةُ المنظِّر الإسلاميِّ: (١٩٥٣ـ ١٩٦٦م).

وهي المرحلة الأَخيرة الَّتي بدأَتَ عام (١٩٥٣م) وانتهتْ



باستشـهادِهِ ﵀ عـام (١٩٦٦م) فَكُتُب هذه المرحلة أَودعَ فيها خلاصةَ تجربتِه، وعصارةَ أَفكارِه، وزبُـدةَ عملِه.. وهـي:

«**هذا الدِّين**» و«**المستقبلُ لهذا الـدِّين**» و«**خصائصُ التصوُّر الإسـلاميِّ**» و«**مُقَـوِّمـاتُ التصوُّرِ الإسلاميِّ**» و«**معالمُ في الطَّريق**» و«**في ظلال القرآن**»[(١)].

وهذه الكُتُبُ تُبيِّنُ الفرقَ الشَّاسعَ بين سيِّد قُطُب الأَديبِ النَّاقدِ.. وبين سيِّد الدَّاعية المجاهدِ، والمفكِّرِ الإسلاميِّ ومُنَظِّرِ الأُمَّة.

ثانيًا ـ مشروعُه الفكري لنهضةِ الأُمَّة:

إنَّ الأُمَّـةَ الإسلاميَّة اليومَ أَحوجُ ما تكون من كلِّ فترةٍ مرت بها عبرَ التَّاريخ إلى الحديثِ عن الإصلاحِ، وعن مشروعِ نهضتِها، وعن إنقاذِها من غزواتِ العدوِّ الكاسحةِ.. وتنطلقُ هذه الحاجةُ من هذا الواقعِ المؤلمِ لحالِ الأُمَّة الجريحةِ.. فهي اليومَ في أَمسِّ الحاجةِ إلىٰ إحيائِها، ونفخِ الرُّوح في جسدِها، وتقويمِ بنائِها، وإعادةِ وهجِها للحياةِ من جديد.

وصناعةُ مشروعِ الأُمَّة.. ليس لآحادِ أَفرادِها؛ بل كلُّ فردٍ مطالَبٌ ـ حسَب وسعِه ـ بالمساهمةِ في إعدادِه، والمشاركةِ في إقامتِه، وبنائِه في الأَرض بناءً يمكِّنُها من صناعة الحياةِ فيها من جديد؛ امتدادًا لتاريخِ هذه الأُمَّة في البناءِ، وتمكين أَفرادِها من العمل الجادِّ بقوَّةٍ، تحقيقًا للخيريَّةِ المبثوثةِ في نفوسِهم، والَّتي هي من أَهمِّ صفاتِهم الحميدة.

---

(١) وقد عزمنا على نشر هذه الكتب في ثوب جديدٍ بمكتبة الغرباء بإذن الله.

إنَّ العلماءَ في الأُمَّة كثيرونَ.. ولكنَّ العاملينَ منهم قليلونَ، والرَّبانيِّينَ أَقلُّ بكثيرٍ! وأَقلُّ منهم مَن له مشروعٌ في إنقاذِ الأُمَّة ونهضتِها! وكذا الكُتَّابُ الإسلاميُّونَ كثيرونَ.. لكنَّ المفكِّرينَ الموفَّقينَ قليلونَ، والمنظِّرينَ لمشاريعِ الأُمَّة أَقلُّ بكثيرٍ جدًّا؛ لأَنَّ المشاريعَ الفكريَّةَ الكُبرىٰ تصنعُها العقولُ الكبيرة!

ويُعدُّ الأُستاذُ العبقريُّ سيِّد قُطُب ﵀ من أَبرزِهم في عصرِه؛ فمشروعُه هو مركزيَّةُ الإسلام في الحياةِ البشريَّةِ لتمكينهِ فعليًّا، ودفعهِ روحيًّا للاستمرارِ في الوجود.. بمعنىٰ أَنَّ الإسلامَ هو غايةُ الوجودِ.

يقول ﵀ في افتتاحِ كتابِه «المستقبل لهذا الدِّين»:

(الإسلامُ منهجٌ.. منهجُ حياة.. حياةٍ بشريَّةٍ واقعيَّةٍ بكلِّ مقوِّماتِها.. منهجٌ يشمَلُ التصوُّرَ الاعتقاديَّ الَّذي يفسِّرُ طبيعةَ الوجودِ، ويحدِّدُ مكانَ الإنسانِ في هذا الوجودِ، كما يحدِّدُ غايةَ وجودِه الإنسانيِّ، ويشملُ النُّظُمَ والتنظيماتِ الواقعيةَ الَّتي تنبثقُ من ذلك التصوُّرِ الاعتقاديِّ وتستندُ إليه، وتجعلُ له صورةً واقعيَّةً متمثِّلةً في حياةِ البشر، كالنِّظام الأَخلاقيِّ والينبوعِ الَّذي ينبثقُ منه، والأُسسِ الَّتي يقومُ عليها، والسُّلطةِ الَّتي يستمدُّ منها، والنِّظام السياسيِّ وشكلِه وخصائصِه، والنِّظامِ الاجتماعيِّ وأُسسِهِ ومقوِّماتِه، والنِّظام الاقتصاديِّ وفلسفتِه وتشكيلاتِه، والنِّظامِ الدَّوليِّ وعلاقاتِه وارتباطاتِه.

ونحنُ نعتقدُ أَنَّ المستقبلَ لهذا الدِّين، بهذا الاعتبار، باعتبارِه منهجَ حياةٍ، يشتملُ علىٰ تلك المقوِّماتِ كلِّها مترابطةً، غيرَ منفصلٍ بعضُها عن بعضٍ، المقوِّماتِ المنظِّمةِ لشتَّىٰ جوانبِ الحياةِ البشريَّةِ، الملبِّيةِ لشتَّىٰ حاجاتِ الإنسانِ الحقيقيَّةِ، المهيمنةِ علىٰ شتَّىٰ أَوجهِ النَّشاطِ الإنسانيَّة.



وهذا الدِّينُ ـ بهذا الاعتبارِ ـ ليس مجرَّدَ عقيدةٍ وجدانيَّةٍ منعزلةٍ عن واقع الحياة البشريَّةِ في كلِّ مجالاتِها الواقعيَّة ـ إنْ صحَّ أَنَّ هناك دينًا إلهيًّا يمكنُ أَنْ يكونَ مجرَّدَ عقيدةٍ وجدانيَّةٍ منعزلةٍ عن واقعِ الحياة البشريَّة ـ وليسَ مجرَّدَ شعائرَ تعبديَّةٍ يؤدِّيها المؤمنونَ بهذا الدِّينَ فُرادىٰ أَو مجتمعينَ، فتكونَ لهم صفةُ هذا الدِّين! وليس مجرَّدَ طريقٍ إلى الآخرةِ لتحقيقِ الفردوسِ الأُخرويِّ؛ بينما هناك طريقٌ آخرُ أَو طرقٌ أُخرى لتحقيقِ الفردوسِ الأَرضيِّ، غيرُ منهج الدِّين، وغيرُ نظمِ وتنظيماتِ الدِّين...)[1].

فمشروعُ سيِّد قُطُب رحمه الله ظهرَ في مرحلةٍ تاريخيَّةٍ كانت الأُمَّةُ فيها بحالةٍ صعبةٍ جدًّا؛ لأَنَّ الفكرَ العربيَّ والإسلاميَّ، بدأَ رحلتَه في التَّاريخِ الحديثِ بعد انهيار رمزِ دولةِ الخلافة.. بشيءٍ من الصَّدمةِ والذُّهولِ أَمام اكتشافِه للفارقِ الحضاريِّ الكبيرِ.. بينَه وبينَ العالمِ الغربيِّ الكافر؛ فوقعَ التَّمزُّقُ النَّفسيُّ في الأُمَّة المظلومةِ.. وفي رجالاتِها ونُخَبِها.. بينَ ما يؤمنُ به من أَنَّ دينَه هو الدِّينُ الحقُّ، وأَنَّ أُمَّتَه هي الأَعلىٰ بالإيمان.. وبينَ الواقعِ الَّذي انكشفَ أَمامَه؛ بين ذلَّتِه وعلوِّ الآخرين، وهوانِه واستكبارِ الآخرين، وضعفِه وقوَّةِ الآخرينَ، وتخلُّفِه وتقدُّمِ الآخرينَ!

ومشروعُه رحمه الله مشروعُ تجديدِ إيمانِ المؤمنِ بمبادئِ دينِهِ العظيمِ.. وشَحْذِ هممِهِ نحوَ نهضةِ أُمَّتِهِ.. وصناعةِ مستقبلٍ أَفضلَ لها مع شريعةِ الله تعالى الَّتي تضمنُ السِّيادةَ والرِّيادةَ في هذهِ المعمورةِ، والسَّعادةَ في الدَّارين.. والتَّحذيرَ الدَّائمَ من الخضوعِ لنمطيَّةِ الواقعِ، أَو التقولبِ في عصرٍ من العصورِ البائسةِ.. وإنَّما عصرُ السَّعادةِ؛ هو عصرُ

---

(١) «المستقبل لهذا الدين» : ص ٥ ـ ٦، ط الشروق .

النُّبوَّةِ، عصرُ الجيلِ القرآنيِّ الفريدِ بمرحلتيهِ المكِّيَّةِ والمدنيَّةِ، وهو عصرُ الإسلام الحقِّ الَّذي يؤسِّسُ لحضارةٍ جديدةٍ.. يُظِلُّها شرعُ الله الحكيم، وهديُه القويم.

* إنَّ من أَبرزِ القضايا الَّتي تبنَّاها سيِّد قُطُب.. وعاشَ من أَجلها.. واستُشهدَ ثمنًا لها، هي:

الحاكميَّة، مكانةُ الشَّريعة، الهويَّةُ والولاءُ ومعنى الأُمَّة، إيجادُ المجتمع المسلمِ الَّذي يبني دولةَ الإسلام، تشخيصُ أَمراضِ الأُمَّة.. وتقديمُ العلاجِ، الهزيمةُ النَّفسيةُ لأَفرادِ الأُمَّة.. تشخيصٌ وعلاجٌ، النِّظام الاجتماعيُّ في الإسلام، تحقيقُ العدالةِ الاجتماعيَّةِ وفقَ منهجه، ملامحُ النِّظام السِّياسيِّ الإسلاميِّ الرَّاشدِ، المنظومةُ الأَخلاقيَّةُ في الإسلام، حقيقةُ الجهاد في سبيلِ الله.. وإيجابيَّتُه ودورُه التحريريُّ.. والفرقُ بينَه وبينَ الإكراهِ على العقائدِ، العُزلةُ الشُّعوريةُ وضرورتُها.. معَ معايشةِ الأُمَّة وقضاياها، الإسلامُ هو الحضارةُ، التَّفسيرُ الإسلاميُّ للتَّاريخ، دفعُ شُبهاتِ الأَعداءِ عن الدِّين، الصِّراعُ مع الأَعداءِ.. وكشفُ مخطَّطاتِهم وإفشالُها.

ثالثًا ـ منهجه الدَّعويُّ:

هو دعوةُ الأُمَّة للاجتماعِ علىٰ كتابِ الله تعالىٰ وسنَّةِ رسوله ﷺ والتَّحاكمِ إليهما، ونبذِ الجاهليَّة بجميعِ صورِها وأَشكالِها، والدَّعوةِ إلىٰ كلِّ ذلكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والصَّبرِ على الفتنِ والمحنِ في سبيلِ ذلك، وإعدادِ القوَّةِ المكافئةِ عندَ كلِّ مواجهةٍ، وبناءِ القاعدةِ الصُّلبةِ الَّتي تكونُ نواةَ المجتمع الَّذي يحملُ مبادئ هذه الدَّعوةِ، وينشرُها بين النَّاسِ

عمليًّا، ويواجهُ بها طغيانَ الغربِ والشَّرقِ؛ لتكونَ رسالةُ الإسلام العالميَّةُ هي العُليا، وتـكـونَ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ الأُمَّةَ الشَّاهدةَ، كما كانت من قَبْلُ.

فالأُمَّةُ اليومَ غيرُ مطالبةٍ بتقديم إبداعٍ خارقٍ للعادة.. لكنَّ المطلوبَ منها العملُ على التَّربيةِ والدَّعوةِ والإعدادِ الجادِّ للجيلِ المنشودِ.. وجَعْلِ العقيدة الإسلاميَّة حجرَ أَساسٍ لتربيةِ النَّشء..ومعَ الزَّمنِ تنتجُ جيلًا ربَّانيًّا يزيحُ الغربَ عن تملُّكِ الأَنظمةِ العالميَّة والسيطرةِ عليها، وتهميشِ أُمَّتنا بشكلٍ واضحٍ وعلنيٍّ.

فالأُمَّةُ الإسلاميَّةُ من خصائصها الفريدةِ؛ تخليصُ البشريَّةِ من جميعِ مظاهرِ الجاهليَّة والتخلُّفِ.. والعبوديَّةِ لغيرِ الله.. ومن أَيِّ مظهرٍ يعتدي علىٰ سلطانِ الله تعالىٰ في ملكِه سُبحانه.

فشموليَّةُ الطَّرحِ في فكرِ سيِّد الدعويِّ لم تستوعبها الحركةُ الإسلاميَّةُ كاملةً.. كما أَرادَها هو ـ مع الأَسف ـ فأَحيانًا تُؤخذُ بعضُ الأَفكارِ دونَ أُخرىٰ.. دونَ اكتمالٍ للحركةِ والرُّؤية؛ فينتجُ منها الغلوُّ والجفاءُ، والإفراطُ والتَّفريطُ.. وينعكسُ كلُّ ذلك سلبًا على العملِ الإسلاميِّ في السَّاحةِ.. ويُسْتَخدمُ من قِبَلِ الأَعداءِ لضربِ الحركاتِ الإسلاميَّة!

فالَّذي كان يطمحُ إليه سيِّد رَحِمَهُ اللهُ هو تربيةُ قادةٍ يحملونَ هَمَّ هذه الأُمَّة، ويتبنَّونَ قضاياها، ويتحرَّكونَ بعقيدةٍ سليمةٍ.. في إدراكٍ لكلِّ جزئيَّةٍ في هذا الواقعِ؛ اجتماعيًّا، أَو فكريًّا، أَو نفسيًّا، أَو سياسيًّا، أَو اقتصاديًّا، أَو دوليًّا؛ حتَّىٰ يمهِّدوا الطَّريقَ لعودةِ الأُمَّة الإسلاميَّة للحياةِ من جديد!

ومنهجُ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللَّهُ في الدعوة ليس الهروب من المجتمعات، والاختفاءَ عنها أَو تكفيرَها؛ بل فكرُه هو ميلادٌ للمجتمعِ الرَّبانيِّ من جديدٍ.. وهذا الميلادُ يكونُ للمجتمعِ بكلِّ فئاتِه ومؤسَّساتِه؛ فالمسلمُ موجودٌ في كلِّ مفاصلِ الحياةِ؛ كالطبيبِ الحاذقِ في أَوقاتِ الوباءِ، يحصِّنُ نفسَه قدْرَ ما يستطيعُ، ولا يهربُ.. ويُشخِّصُ المرضَ.. وينطلقُ في العلاجِ؛ فمجالُ عملِه هذا الواقعُ مهما كانَ خطرًا.. والدَّاعيةُ مجالُ دعوتِه هو النَّاسُ.. مهما كانَ حالُ أُولئكَ المدعوِّينَ، يستخدمُ كلَّ وسائلِ عصرِه المشروعةِ؛ فيطبِّقُ أَحدثَ نظريَّات التَّنظيمِ والإدارةِ، وكلَّ جديدٍ في العمل المؤسَّساتيِّ ذي الأُفقِ الواسعِ الَّذي يسخِّرُ كلَّ طاقاتِ أَبناءِ الأُمَّة في بناءِ الأُمَّة؛ دونَ حزبيةٍ ضيِّقةٍ مقيتةٍ.. تفرِّقُ الأُمَّةَ ولا تجمعُها؛ فمصلحةُ الدَّعوةِ تقتضي تحرُّرًا من فكرةِ الجماعةِ الأُمِّ.. والقائدِ الفذِّ الملهَمِ.. وخروجًا من فكرةِ الشَّيخِ والمريدينَ على طريقةِ التَّبعيَّةِ العَمياءِ الصَّمَّاءِ.. والَّتي ساقتِ الأُمَّةَ إلى البدعِ والخرافاتِ والضَّلالاتِ.. والتخلُّفِ الَّذي كانَ سببًا لتسلُّط الأَعداء!

رابعًا ـ هل لسيِّد قُطُب جَمَاعةٌ وأَتْبَاعٌ؟

قدَّمَ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللَّهُ فكرَهُ وإنتاجَهُ العلميَّ، وتنظيرَهُ للعملِ الدَّعويِّ.. ثمَّ شاءتْ إرادةُ الله تعالىٰ وقدَرُهُ أَنْ يموتَ دونَ أَنْ يكونَ له رفاقُ دَربٍ.. أَو تلاميذُ تربَّوا علىٰ يديه.. أَو دعاةٌ ربَّاهم بمسيرةِ الدَّعوةِ.. أَو قادةٌ درَجُوا أَمامَ عينِه؛ فأَكثرُ أَيّامِ حياتِهِ الفكريَّةِ التَّنظيريَّةِ قضاها في السِّجنِ بين التَّأْليفِ والمرضِ المزمنِ.. حتَّىٰ توفَّاهُ اللهُ علىٰ يدِ الظَّالمِ، وشهدَ بدمائِه الطَّاهرةِ



علىٰ صدقِ كلماتِهِ الإيمانيَّةِ الموفَّقةِ.

وكلُّ مَنْ أَتىٰ بعدَه وقرأَ لهُ.. كانَ يمثِّلُ فهمَهُ الشَّخصيَّ لِمَا قرأَهُ عن سيِّد قُطُب.. وتأْويلاتِه الخاصةَ به؛ لأَنَّ سيِّدًا لم يتسنَّ له أَنْ يُقدِّمَ فكرَهُ، ويشرحَ رأْيَهُ ـ نظريًّا أَو عمليًّا ـ في جماعةٍ، أَو جمعيةٍ، أَو حركةٍ، أَو كيانٍ اجتماعيٍّ عمليٍّ، أَو دروسٍ فرديَّةٍ!

وبعض الجماعات اليوم تستغلُّ اسم سيِّد قُطُب ﵀ لِتَبْنِي عليه اطروحاتها المُخالفة لمنهج أَهل السُّنَّة والجماعة، وربما تُوالي وتُعَادي علىٰ شَخْصِه وعلىٰ فَهْم خاطئ نسبُوه له وهو منه براء، وما يفعله هؤلاء يُسْهِم بشكلٍ كبيرٍ في تقزيم فِكْر الرَّجل ودعوته وتشويهها إلىٰ حدٍّ كبيرٍ.

ومشكلةٌ أُخرىٰ في تراثِ سيِّد قُطُب؛ هي أَنَّ كلَّ فكرٍ راقٍ وعالي المستوىٰ.. يحتاجُ إلىٰ مستوىً من الثَّقافةِ والوعي والرُّقيِّ.. لفهمِهِ واستيعابِ مقاصدِهِ، وأَغلبُ مَن حاولوا تمثيلَ فكرِه لم يوفَّقُوا في ذلك؛ ربَّما لأَنَّهم دونَ المستوىٰ، أَو لمْ يأْخذُوا بمجامعِ فكرِه كلِّهِ، فأَخذُوا ما وافقَ هواهُم، أَو إنَّ عندَهم خللًا في الأُصولِ؛ فوقعوا في أَخطاءٍ لم تُقِرَّها الشَّريعةُ!

فأَعداءُ الدِّين المتربِّصونَ بنا؛ استغلُّوا هذه النقطةَ في الإساءةِ لفكرِهِ.. واستغلُّوا بعضَ المواقفِ لهؤلاء.. وقدَّموا فكرَه علىٰ أَنَّه تطرُّفٌ وإرهابٌ، واستثمروا ذلكَ للإساءةِ لهُ، وكلُّ ذلكَ لضربِ مشروعِهِ النَّاجحِ لإنقاذِ الأُمَّة.. حتَّىٰ أَصبحَ مجرَّدُ ذكرِ اسمِهِ وكتبِهِ تهمةً تحتاجُ إلىٰ دفاعٍ.. وشبهةً تحتاجُ إلىٰ توضيحٍ!

إنَّ إلصاقَ فكرِ سيِّد قُطُب ﵀ بجماعةٍ ما هو تقليلٌ من شأنِ ذلك الفكر

الَّذي أَرادَ له أَن يكون مُطَبَّقًا بمراحلِهِ وحيثياتِهِ، وتهوينٌ لشأنِهِ، ذلك أَنَّ أكثر الجماعاتِ الَّتي تَدَّعي أَحقيَّتها بفكر سيِّد من غيرها لم تستطعْ تقبُّلَ فكرِهِ كليًّا، كما أَنَّها لم تستطعْ لَفْظَه كليًّا، لما لصاحبِ هذا الفكرِ من رمزيَّةٍ سامقةٍ في نفوسِ الأَجيالِ المتلاحقةِ، لذلكَ تراها تتخبَّطُ كثيرًا في مناهجها وآرائها، تميلُ أَحيانًا إلىٰ مُهادنة جلَّاديها، وأحيانًا أخرىٰ تُنافسهم علىٰ سُلطتهم، وفي كِلا الحالتينِ تسقطُ سُقوطًا شنيعًا، وتُودِي بحياةِ أَرواحٍ طاهرةٍ، فهم لم يتعلَّموا الدَّرسَ الَّذي تكرَّر كثيرًا، ولم يفهموا منهج سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ الذي كتبه وأَرَادَهُ.. والله المستعان!

خامسًا ـ عقيدةُ سيِّد قُطُب ونقده للمخالفين لمنهج السَّلف.

سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ اهتمَّ بالعقيدة وخصائِصِها ونواقضِها، وانتقدَ منهجَ مخالفي السَّلفِ الصَّالح من المتكلِّمينَ والفلاسفةِ وغُلاةِ المتصوِّفةِ، وبيَّن نواقضَ الإيمانِ الَّتي يقرِّرُها أَهلُ السُّنَّةِ والجماعة، مع اهتمامِه الشَّديدِ بـشركِ الحاكميَّةِ المرتبطِ بنبذِ شرعِ الله تعالىٰ، وتبنِّي تشريعاتٍ مناقضةٍ للدِّينِ وتعاليمِه ، فاهتمَّ بترسيخِ العقيدة في كتاباتِه وجعلَهُ من أَولويَّاتِه؛ لأَنه يرىٰ أَنَّ العقيدةَ هي أَكبرُ القيم حسبانًا في ميزانِ الله، وأَنَّ أَهمَّ السِّلعِ سلعةُ الإيمانِ بالله تعالىٰ.

ومن خلال استقراءِ كُتبِه الأَخيرةِ رَحِمَهُ اللهُ **يتبيَّنُ أَنَّ عقيدتَه موافقةٌ لعقيدةِ أَهلِ السُّنَّة والجماعةِ في الجملة:**

* **فوافقَهم في مصادرِ تلقِّي العقيدة:** الكتابِ، والسُّنَّةِ، والفطرةِ، والعقل.



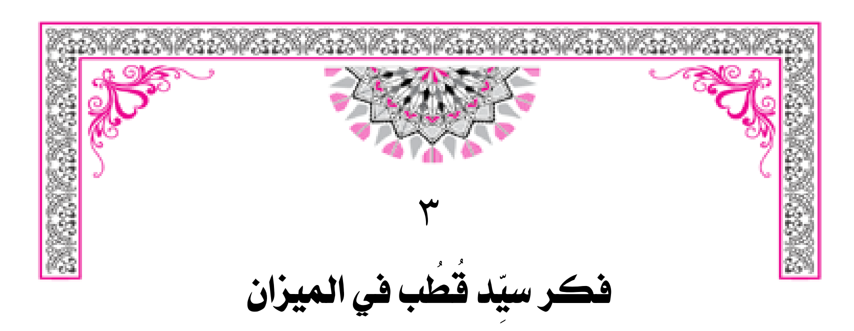
* **ووافقَهم في مخالفةِ منهج الفلاسفةِ وعلماءِ الكلامِ في تقريرِ العقيدة**، وفي مخالفةِ أَهلِ البدعِ والأَهواءِ، وموقفِهم من أَهلِ الكتابِ والمشركينَ والوثنيِّينَ والملاحدةِ عمومًا؛ في اعتقادِ كفرِهم ووجوبِ بغضِهم والتميُّزِ عنهم.

* **ووافقَهم في تعريفِ الإيمانِ وعلاقتِه بالعملِ، والعلاقةِ بين الإيمانِ والإسلام، وزيادةِ الإيمانِ ونقصانِه، وحكمِ مرتكبِ الكبيرة.**

أَمَّا فيما يتعلَّقُ بقضيَّة التَّكفيرِ وما ثارَ حولَها من جدلٍ؛ فيَتبيَّنُ من خلال جمعِ النُّصوصِ المتعلِّقَةِ بهذه القضيَّة أَنَّه يفرِّقُ في الحكمِ بين القولِ والقائلِ، وبين الحكمِ على الأَنظمةِ والأَوضاعِ وبينَ الحكمِ على الأَفراد، والَّذين اعتمدُوا بعضَ النُّصوصِ دونَ بعضِها الآخر، أَو فقراتٍ مجتزأَةً من سياقِها، أَو أَغفلوا الضَّوابطَ الَّتي ذُكرَت في سياق بعضِ النُّصوصِ؛ فهمُوا كلامَه علىٰ غيرِ ما أَراد.

* **ووافقَهم في بابِ مسائلِ القدرِ عمومًا**، وفي حقيقة التَّوحيدِ وشمولِه للأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّة والأَسماءِ والصِّفاتِ، وإِن كان له رأيٌ في بيانِ معنى الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّة على غير ما عليهِ السَّلفُ؛ لكنَّهُ خلافٌ لفظيٌّ.

* **ووافقَهم في باب نواقضِ التَّوحيدِ والإيمانِ**؛ حيث ذكرَ النَّواقضَ المتمثِّلةَ بالشِّركِ وأَنواعِه، والكفرِ وأَنواعِه، والنِّفاقِ وأَنواعِه، مع اهتمامه ببيانِ شركِ الحاكميَّةِ وما تفرَّعَ عنه.. باعتبارِه أَبرزَ أَنواعِ الكفرِ في هذا العصرِ، وعنه ينتجُ ما سواه.



٣
فكر سيِّد قُطُب في الميزان

سيِّد قُطُب ﵀ مفكِّرٌ إسلاميٌّ قديرٌ.. أَثارَ فكرُهُ جدلًا كبيرًا بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ ومنتقدٍ.. وهذا مظهرٌ من مظاهرِ القوَّةِ والحيويَّةِ والأَصالةِ والعظمةِ؛ فالعُظماءَ العباقرةَ تبقىٰ أَفكارُهم حيَّةً بعد رحيلِهم لقوَّتِها وأَصالتِها وإحكامِها.

أَوَّلًا ـ مميِّزاتُ فكرِه:

القرآنَ العظيم كلامُ ربِّ العالمين.. وكتابُ الأُمَّة ودستورُها.. وهو منهجٌ شاملٌ ومنظومةٌ كاملةٌ.. فيه هدىً وشفاءٌ للنَّاس؛ فمفسِّرُ القرآنِ مُلزَمٌ ـ بضوابطِ وقواعدِ الشَّرعِ ـ أَنْ يتأَمَّلَ في آياتِ الغيبيَّاتِ والعباداتِ والمعاملاتِ والمواريثِ والأَخلاقِ والتَّاريخِ والمخلوقاتِ.. وكلُّ هذا العلوم فرعٌ عن التَّوحيدِ الَّذي هو أَصلُ الإسلام كلِّه.

ومن هنا اتَّسعت رؤيةُ المفسِّرِ سيِّد قُطُب ﵀ وأُفُقُه في فهمِ نظامِ الإسلام ومرادِه.. وإدراجِ الفروعِ تحتَ الأُصولِ.. وإدراجِ الأُصولِ تحتَ الأَصلِ الأَكبرِ الَّذي هوَ التَّوحيدُ الخالصُ؛ فكانتْ كتاباتُه مشروعًا فكريًّا متكاملًا يُقدِّمُ الحلولَ الشَّرعيَّةَ لمشكلاتِ عصرِه، ويُخاطبُ المسلمَ المعاصرَ بلغتِه.. وبكلِّ سهولةٍ ويُسْرٍ.



فلو عاش سيِّد معركتَه بعيدًا عن القرآنِ العظيم.. واكتفىٰ بفقِه المسائلِ فقط.. لما بلغَ ما بلغَ من القبولِ في الأُمَّة، لقد أَعطتهُ عظمةُ القرآنِ الصِّدقَ والرَّبانيَّةَ.. واتِّساعَ النَّظرةِ وشمولَ الرُّؤيةِ؛ فأَتىٰ بفهمٍ جديدٍ مميَّزٍ.. يخاطبُ ـ بكلِّ سلاسةٍ ـ جيلَ عصرِه ويدخلُ في قلوبِهم دون تكلُّفٍ، وأَعانَهُ علىٰ ذلك عقلُه الحكيمُ الَّذي وافقَ فطرتَه السليمةَ في فهم كتابِ الله تعالىٰ؛ فعقلٌ واعٍ كهذا، لا يوازيه إلَّا أَصالةُ قلمٍ.. فقد جمعَ بين الحسنيَين: قوةِ الفكرةِ وجمالِ القلمِ.. ونادرًا ما يجتمعان!

فسيِّد قُطُب رحمه الله يمثِّلُ علامةً مميَّزةً في مسيرةِ حركةِ الفكرِ الإسلاميِّ المعاصِر؛ لأَنَّ هناكَ كُتَّابًا إسلاميِّينَ كثيرينَ.. لكنَّ المفكِّرينَ الموفَّقينَ قليلونَ، وكان سيِّد من أَبرزِهم في عصرِه؛ فتميَّزت كتاباتُه الملهمةُ بمميِّزاتٍ كثيرةٍ بمقارنتها بمثيلاتها من الكتاباتِ المعاصرةِ.. كتابات فذَّةً مشرقةً تملكُ قلبَ قارئِها.. فامتازَت بأَمورٍ منها: **نفاذُ البصيرةِ، وعمقُ النَّظرِ، وبُعدُه عن الفلسفةِ، وسعةُ الأُفقِ، والصِّدقُ، والجدِّيَّةُ، وتعظيمُ شعائرِ الله تعالىٰ، والورعُ، والهيبةُ أَمامَ النُّصوصِ الشَّرعيَّة، والتَّركيزُ علىٰ أُصول العقيدة، والعلمُ الَّذي يصدِّقُهُ العملُ، ووضوحُ معالمِ المنهج، واستخدامُ اللُّغةِ والبلاغةِ في الدَّعوة، ومخاطبةُ النَّاسِ بلغةِ عصرِهم.**

ثانيًا ـ تأثير كلامه وكتاباته:

لسيِّد قُطُب رحمه الله أُسلوبُه الَّذي يتميز به في كتابته، أُسلوبُه الَّذي يُعدُّ بمثابة بطاقةٍ شخصيَّةٍ له؛ فله أَلفاظ ومصطلحات خاصة به لطالما

كرَّرها وجعل منها محورَ قضيتِه الَّتي من أَجلها كَتَبَ.. ومن أَجلها جاهد وناضل.. وفي سبيلها بذل روحَه؛ «قضية التَّوحيد، حاكميَّة الله سبحانه، التَّصور الإسلامي، الجاهلية المعاصرة...».

ما نتكلم عنه هنا ليس مجردَ أُسلوبِه الأَدبيِّ السَّاحرِ، وقدرتِه علىٰ رصْف الكلمات والتراكيب والترابط بين الأَفكار وفقط؛ فهذه الأَشياء متوافرة عند سيِّد وعند كثيرٍ من الكتَّاب غيرِه.. بل هناك شيء آخر بالإضافة إلىٰ ذلك.. إنَّه السِّر الَّذي أَبقىٰ كلماتِه تنبِضُ بالحياة عشرات السنين بعد موته.. والَّذي جعل منهاجه مدرسة تتخرَّج فيها الأَجيال علىٰ طول الزَّمان.. إنَّه الصِّدق الخالص لله تعالىٰ.. فيما يكتب وفيما يُعلِّم.

وإنَّ المواظبة علىٰ قراءة فكر سيِّد قُطُب ﵀ تعطي صاحبها منهجًا جديدًا للتعامل مع كتاب الله تعالىٰ؛ فيمتلك من خلال قراءته أَداةً للغوص في فهم معاني كلامِ الله تعالىٰ، وربطِ موضوعات السُّورة ببعضها، والسَّيرِ مع السِّياق القرآني بانسجام مع الوحدة الموضوعيَّة للسُّورة، والتوقفِ مليًّا عند الأَلفاظ القرآنيَّة ذاتِ الدلالات العميقة، واستنباطِ المعاني الجديدة للآيات، والتفريعِ عليها بما يتناسب مع ثقافة عصرنا.. كل ذلك علىٰ طريقة سيِّد ﵀.

والقراءة في كتب سيِّد قُطُب ﵀ تزوِّد صاحبَها بثروةٍ من الأَفكار المتميزة.. وتجعله يقف بثباتٍ وشُموخٍ في مواجهةِ الأَفكارِ المنحرفة الَّتي تتطاول علىٰ شرع الله تعالىٰ بالإنكار والنقد، أَو ادِّعاء عدمِ صلاحيته لعصرنا؛ فتكون هذه الأَفكار بمثابة رؤيةٍ جديدةٍ تُنير بصائرَ



المسحورين بأَفكار العَلمانيين الَّذين يريدون أَن يصنعوا واقعًا من نسْج شهواتهم الضَّالة المنحرفة.. وهي أَفكارٌ تمنح الأَجيالَ ثقةً بهذا الدِّين وهذه العقيدة الرصينة؛ فيستقر في أَعماق نفوسهم أَنَّ دينَ الله تعالىٰ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.. وأَنَّه لا يَصلُح للتشريع إلَّا الخالقُ العليمُ بما خلق. انظر علىٰ سبيل المثال أَفكارَه عن تعدُّدِ الزوجات، وإعطاءِ الذَّكَر ضعفَ حظ الأَنثىٰ من الميراث، ومسأَلةِ قَوامة الرجل على المرأَة، وفلسفةِ الزواج، والتكاملِ بين الرجل والمرأَة.. كل ذلك في ظلاله عن سورة النساء.

وكلمات سيِّد ﷺ تُورِثُ قارئها عظمة الله تعالىٰ من خلال عظمة خلْقه؛ فأُسلوبه في كتابة ظلال الآيات الَّتي تتحدث عن الكون والطبيعة، وجمالِ تناسقِها، وسحرِ أَلوانِها، وحِكْمةِ خلْقِها، وتسبيحِها وسجودِها لله تعالىٰ وإيمانِها وفطرتِها.. بأُسلوب رفيع وإحساس شفيف.. ليعمل عمله في قلب الإنسان؛ فتمتلئ نفسُه عَظَمَةً وحُبًّا وخضوعًا لله تعالىٰ..

انظر علىٰ سبيل المثال كلامَه عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ...﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وكذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ...﴾ [فاطر: ٢٧].

وكذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦].

وغيرها كثير.

ثالثًا ـ الهجمةَ الشَّرسةَ علىٰ فكره:

قدَّمَ سيِّد قُطُب ﵀ لأُمَّتِه مشروعًا كبيرًا وعظيمًا، له فيه اجتهاداتُه ورؤيتُهُ.. ومن الإجحافُ في حقِّه والظلم البيِّن.. محاسبتُه عن تأْويلاتِ غيرِهِ لكلامِه!

إنَّ هذه الهجمةَ الشَّرسةَ علىٰ سيِّد قُطُب وكُتبِه.. وما يُثارُ حولَهُ من افتراءٍ وافتئاتٍ عليه.. ما هو إلَّا ضرب لمشروعهِ الفكريِّ العظيمِ المبدع.. الذي شخَّصَ فيه مرض الأُمَّة، وقدَّمَ حلولًا إيمانيَّةً عمليَّةً لإنقاذِها، ولم يخرجْ بها عن منهج سلفِه الصَّالحِ، وأَيقظَ الأُمَّةَ به من سُباتِها، وأَزعج العدو في مخطَّطاتِه! فانتشرتْ كُتبُه.. وانتشرَ مشروعُه.. انتشارًا واسعًا في العالمِ الإسلامي، وتأَثَّرَ بِهِ كثيرٌ من أَفرادِ وحركاتِ التَّيارِ الإسلاميِّ، وحركاتِ المقاومةِ ضدَّ الاستعمارِ.

وكان أَعداءُ الإسلام حريصينَ علىٰ أَنْ يُحدِثُوا الهزيمةَ النَّفسيَّةَ، ويُرسِّخُوا قِيَمَهمُ الغربيَّةَ داخلَ الشَّخصيَّةِ المسلمة؛ ليتمكَّنوا من السَّيطرةِ عليها من داخلِها.. ثمَّ السَّيطرةِ علىٰ أَرض الواقعِ وميدانِ المعركةِ.

ولقد وجدُوا أَنَّ كتاباتِ سيِّد قُطُب تتميَّزُ بالرَّفضِ الشَّديدِ لهذهِ القِيَم الَّتي يحملُها المشروعُ الغربيُّ، والمفاصلةِ الكاملةِ معَهُ، ويبعثُ في روحِ الأُمَّة وشبابِها الاستعلاءَ بالإيمانِ، والاعتزازَ بالعقيدة والقِيَم، ومقاومةَ الاستعمارِ والاحتلالِ.. فيكون دافعا للتصدي لهيمنتِهم؛ فقرَّرُوا أَنْ يضربُوا جذورَ هذا الفكرِ، وأَنْ يضربُوا معنى الجهاد، ويغيِّرُوا مدلولَه لتضعفَ



المقاومةُ، وتخضعَ الشُّعوبُ لسلطانِهم وسيطرتِهم؛ **فأَعدمُوا جسدَهُ أَوَّلًا.. ثمَّ شوَّهُوا فكرَه ومشروعَه ثانيًا.. ثمَّ ثلَّثُوا بحرقِ كُتبِهِ بأَيديْ بنيْ جلدتِنا!**

وهذه الهجماتُ المتتاليةُ.. لا شكَّ أَنَّها تُدارُ من قبلِ العدوِّ، فتهدأُ لفترةٍ، ثمَّ لا تلبثُ أَنْ تنشطَ حسَبَ ما تقتضيهِ مصلحتُهم ـ ومعَ الأَسف ـ انضمَّ لهذه الحملةِ الخبيثةِ بعضُ الكُتَّابِ مِنَ المسلمينَ.. ممَّنْ يشتغلونَ في مجالِ الدَّعوةِ أَو الثَّقافةِ، وهـؤلاءِ مستواهمُ العلميُّ متفاوتٌ؛ فبعضُهم وعَّاظ، والبعض الآخر طلَّابُ علمٍ.. ولكنَّ مدارسَهم بعيدةٌ كلَّ البُعدِ عن فقهِ السِّياسةِ الشَّرعيَّةِ، وبعضُهم دعاةٌ متحمِّسونَ، وبعضُهم مثقَّفون ، وبعضُهم كُتَّابٌ نفعيُّونَ أَصحاب أَقلامٍ مأْجورةٍ؛ فيتحمَّسونَ حماسًا شديدًا لهذهِ الحملةِ الجائرةِ، ويُسخِّرونَ الأَدلَّةَ الشَّرعيَّةَ والعقليَّةَ.. بتكلُّفٍ واضحٍ وغيرِ منصفٍ لإنجاحِ هذهِ الحملةِ الشَّرسةِ؛ **فخدمُوا بعملِهم هذا مشروعَ العدوِّ لا غير.. بعلمٍ أَو بغيرِ علم!**

فموقفُهم هذا يلتقي مع مواقفِ أَعداءِ الإسلام.. ولا يمكنُ أَنْ يكونَ المسلمُ وعدوُّهُ في صفٍّ واحدٍ.. ويقاتلَ معهُ في نفسِ الخندقِ، وخصوصًا في هذا الوقتِ الحرجِ من تاريخِ الأُمَّة الَّذي نحتاجُ فيهِ إلىٰ إيقاظِها وحشدِ أَفرادِها لمقاومةِ الأَعداءِ ومواجهةِ مخطَّطاتِهم المدمِّرةِ!

وهم في المقابلِ لم يُظهِرُوا نصفَ هذا الحماسِ ضدَّ مشروعِ الأَعداءِ ومؤامراتِهم، والقيمِ الغربيَّةِ الَّتي تغزو أُمَّتنا، وتستهدفُ قيمَها وتنخرُها نخرًا.

ويا ليتَ الحملةَ كانت علميَّةً صادقةً تستهدفُ النَّقدَ البنَّاءَ، والنَّصيحةَ الخالصةَ، وتطرحُ المسائلَ الَّتي فيها إشكالٌ، وتعرضُ التَّصوُّرَ الصَّحيحَ المستندَ للأَدلَّةِ الشَّرعيَّةِ؛ بلِ استخدمتِ الأُسلوبَ الإعلاميَّ الرَّخيصَ، وإطلاقَ الأَحكامِ، وإلصاقَ التُّهَمِ، دونَ تمحيصٍ علميٍّ.

إنَّ العدلَ في الإسلام؛ يُوجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ عندَ التَّقييمِ أَنْ يميِّزَ بينَ الطَّعنِ في الأَشخاصِ، وبينَ مناقشةِ أَفكارِهم؛ وهكذا ينبغي علىٰ كلِّ مَن يريدُ أَن يحكمَ علىٰ كتاباتِ سيِّد ﷺ أَو غيرِه؛ أَن يستخدمَ الأُسلوبَ العلميَّ المحايدَ بقواعدِهِ وضوابطِهِ الشَّرعيةِ المعروفةِ عندَ العلماء، وأَنْ يتجرَّدَ مِنْ أَيِّ انحيازٍ شخصيٍّ ناتجٍ عنِ التَّيارِ الَّذي ينتمي إليه، أَو تحاملٍ علىٰ شخصِه وذاتِه، أَو شعورٍ بالغيرةِ منه.

رابعًا ـ فئاتُ الَّذين واجهوا فكرَه:

١ ـ أَعداءُ الإسلام:

من اليهودِ والنَّصارىٰ والشُّيوعيِّينَ والعَلمانيِّينَ وأَعوانِهم من الظَّالمينَ والطُّغاةِ ومَن شايَعَهم.. فهؤلاء تولَّوا فكرَه من منطقِ مهاجمةِ الإسلام نفسِهِ، ومحاربةِ علمائِهِ ودعاتِهِ.

٢ ـ السَّطحيُّونَ:

الَّذينَ لم يُحسنُوا فهمَ فكرِهِ واستيعابَه؛ لضيقِ أُفقِهم، وقلَّةِ علمِهم، ولهوىً في نفوسهم.. فقوَّلوه ما لم يقلْ، وأَسندوا إليه أَفكارًا باطلةً بفهمٍ قاصرٍ.



٣ ـ المُتَعَصِّبونَ ضدَّ فكرِه، وهم على أَنواع :

منهم الَّذين يستعينونَ بالسَّلاطينِ علىٰ مخالفيهمْ، ويستعينُ بهم السَّلاطينُ على المصلحين؛ فهؤلاءِ خُصومُ العلماءِ الرَّبانيِّينَ والدُّعاةِ المخلصين في تاريخِ الدَّعوةِ.. وهم مطيَّةٌ للعدوِّ والاستعمارِ، والتَّاريخُ يشهد لهذا! ودافعُهم الأَساسُ لهذه الخصومةِ الجائرةِ؛ إمَّا جهلٌ مركَّبٌ، أَو تعصُّبٌ مقيتٌ، أَو حسدٌ قاتلٌ.. وإذا اجتمعت جميعُها في شخصٍ كانَ ذلك طامَّةً علىٰ شبابِ الأُمَّة!

ومنهم المتعصِّبونَ من بعضِ الدُّعاةِ الذين تعصَّبوا ضدَّ فكرهِ وآرائِه في فقهِ الدَّعوةِ والحركةِ، واتَّهموا فكرَه بأَنَّه مرفوضٌ غريبٌ على العملِ الإسلاميِّ؛ لأَنَّهُ نتاجُ التَّجربةِ المريرةِ الَّتي عاشَها في السِّجن!

٤ ـ المعتدلونَ المنصفونَ:

وهمُ الَّذينَ تعاملوا مع فكرِه باعتدالِ منهج أَهلِ السُّنَّة والجماعةِ ووسطيَّتِهِ وشموليَّتهِ، وبالمنهجيَّةِ العلميَّةِ؛ فلم يبالِغوا في تقديرِه إلىٰ مرحلةِ التَّقديسِ، وادِّعاء العصمةِ، وقبولِ كلِّ حرفٍ كتبَه، ولم يغالُوا في التعصُّبِ ضدَّه، ومجافاتِه ومهاجمتِه، كما فعلَ الآخرون.

ووزنُوا فكرَه بميزانِ الإسلام العادلِ، المتمثِّلِ بالكتابِ والسُّنَّةِ وفقَ قواعدِ وضوابطِ الأَئمَّة الأَعلامِ؛ فأَخذُوا ما وافقَ منه الحقَّ، وهو كثيرٌ ـ ولله الحمدُ ـ ورفضُوا من فكرِهِ ما جانبَ الحقَّ، وهو قليلٌ نادرٌ.

خامسًا ـ نقدٌ واعتراضاتٌ علىٰ فكره:

إنَّ كثرةَ نقدِ غير المنصفين لفكرِه ﵀ واعتراضِهم علىٰ بعضِ الأُمورِ ـ سواءٌ من الموافقينَ له أَم المخالفينَ ـ أَحدثَ شُبهاتٍ حولَ فكرِه ومشروعِه العملاق.. وقد ساهمتْ هذه الشُّبهاتُ في تشويهِ صورتهِ عند المسلمينَ عامَّةً، والمثقَّفينَ وشبابِ الصَّحوةِ خاصَّةً.. وأَحدثتْ نوعًا من التَّشنُّجِ في النَّظر إلىٰ كُتبهِ وأَفكارهِ؛ فظُلِمَ سيِّد قُطُب بغيرِ حقٍّ.. وأُسيءَ إليه بلا جريرةٍ ولا ذنبٍ.

والسَّببُ الرئيسُ لهذه المشكلةِ الجائرةِ في حقِّهِ ﵀ هي في كيفيَّةِ التَّعاطي مع كتاباتِه ومنهجِهِ.. فالمشكلةُ في قُرَّائِهِ؛ لأَنَّ كلَّ قارئٍ كان يأْخذُ منه ما يفهمُ وما يشتهي علىٰ ضوءِ ما لديهِ من خلفيةٍ ثقافية:

ـ فبعضُهم بحُسنِ نيَّةٍ.. مثل التَّياراتِ المغاليةِ الَّتي حاولتِ استنطاقَ كلماتِهِ وعباراتهِ بما يؤدِّي إلى التَّكفيرِ ومشتقَّاتِهِ؛ حسَبَ قواعدِهم وضوابطِهم الغاليَة.

ـ وبعضهم بسوء نيَّة.. وتربُّصِ العداء للإسلام والمسلمين.. مثل العلمانيين والحداثيين الَّذين اندفعوا في تأْييدهم لمشاريع الغرب وخدمتها، وترجموها في خصومتهم مع الإسلاميين في السَّاحة؛ فصفُّوا حساباتهم مع فكر سيِّد قُطُب!

ـ وبعضهم أَصحابُ قراءات مريضة؛ فهؤلاء آفتهم في عقولهم



وقلوبهم، أَو في نيَّاتهم؛ فيحكمون على المقابل من غير إنصاف وعدل! بأَفكار خاصة معيَّنة سطحيَّة في بعض فروع العقيدة والدَّعوة.

ـ وهناك قراءات خبيثة ماكرة لفكر سيِّد قُطُب من قبل الأَجهزة الأَمنية في النُّظم القمعية؛ فيهدفون لتحويل شخصيته وفكره وكتاباته.. إلىٰ شمَّاعة يعلِّقون عليها الثمرات المرَّة لسياساتهم القمعية في السُّجون والمعتقلات؛ مما أَفرز لنا دوَّامات التطرف الَّتي لا تنتهي!

واعلم ـ أَيُّها القارئ اللَّبيبُ ـ أَنَّ سيِّد قُطُب ﵀ تبنَّىٰ قضايا شرعيَّةً كبيرةً، أَوضحها في كتاباتِه الَّتي كتبها بماءِ عينه.. ثمَّ ختمها بدمهِ الطَّاهرِ.. وعاشَ في ظلالِه مناضلًا.. وضحَّى بالغالي والنَّفيسِ من أَجلِها.. وكلُّ ذلك كانَ علامةً دالَّة علىٰ فكرِه وفهمِه ومشروعِه لنهضةِ الأُمَّة من سُباتها.

ولكنَّ الغريبَ في الأَمرِ؛ أَنَّ المسلمينَ ابتعدوا عن مضمونِ ما قدَّمَهُ هذا الرَّجلُ العملاقُ من خيرٍ عظيمٍ؛ بسبب استخدامٍ أَمنيٍّ مقصودٍ تحتَ حجَّةِ الإرهابِ، وغبارِ التَّكفير.. ولتصيُّد البعض لأَلفاظٍ بعينِها؛ بسبب بدع غالبة من الغُلاة، أَو انحرافٍ نفسيٍّ مرضيٍّ، أَو جهلٍ عقيمٍ، أَو قصورٍ عقليٍّ.

وتحتَ هذا الرُّكام بين الاتِّهامِ ونفيِه؛ ضاعتِ القضايا الأَصليَّةُ، والمشروعُ الجبَّار! وكانت علامةُ الخبثِ الواضحةُ عند الكثير منهم؛ فلم يلتفتوا إلى القضايا الَّتي دعا إليها.. وهي محلُّ إجماعِ الأُمَّة..وغيابُها هو سببُ تخلُّفِ الأُمَّة وتبعيتِها.

هؤلاءِ الَّذينَ وقفوا علىٰ كلماتٍ انتزعوها من سياقِها، لم يتبنَّوا تلكَ

القضايا، ولم يحملوها مع تجنُّبهم لما يرونَه خطأً بزعمِهم؛ بل اكتفَوا بالتَّشغيبِ والتَّغبيرِ.. ثمَّ تواطؤوا علىٰ كتمانِ الحقِّ.. بلْ تمادَوا أَكثرَ من هذا، فقالوا: إنَّ مَن يبيِّنُ الحقَّ متَّهمٌ بنفس الاتِّهاماتِ الموجَّهةِ لسيِّد.. منعًا لأَيِّ بيانٍ للحقِّ.. والله المستعان!

*** ولعلَّ أَبرز ما يستوقفنا عند مناقشة الأَخطاءِ الَّتي وقعَ فيها سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ تتلخص فيما يلي:**

١ـ قضايا علميَّة خلافيَّة ـ سواءٌ كانت معتبرةً أَو غير معتبرةٍ ـ كالموقفِ من حديثِ الآحاد، وقضيَّة سحرِ النَّبيِّ ﷺ.

٢ـ أَخطاء في الكتبِ الَّتي أَلَّفها قبل بداية تحوُّلِه للكتابةِ في الفكرِ الإسلاميِّ، وقبلَ تعمُّقِه في الدِّراساتِ الإسلاميَّة.. ومن الإنصاف أَن نذكر أَنَّه تراجع عن الكثير منها في طبعاتِها المنقَّحةِ، وفي كتبِه المتأَخِّرَةِ ما يخالفُها أَو ينقضُها.

٣ ـ كتاباته الأَدبيَّة والبلاغية؛ فيجبُ أَن نعلمَ أَوَّلًا أَنَّ المعانيَ تُطلبُ من المفاهيمِ لا من الأَلفاظِ؛ فمَن طلبَ المعانيَ من الأَلفاظِ ضلَّ.. وقوامُ الكتاباتِ الأَدبيَّةِ يقوم على التَّشبيهِ والتَّخييلِ والتَّمثيلِ، ورقَّةِ العبارةِ، وسعةِ التَّعبير.. وفي هذا غلبةٌ للحسِّ على اللَّفظِ، وللعاطفةِ على الفكر.

ومشكلةُ سيِّد قُطُب ـ غفرَ الله له ـ أَنَّهُ خاضَ بعباراتِه الأَدبيَّةِ المَرِنةِ هذه في قضايا ومسائلَ عقَديَّةٍ.. وهي في الأَساس توقيفيَّةٌ بالنُّصوص الشَّرعيَّة، ولا تتحمَّلُ أَلفاظًا أَدبيةً؛ فكلامُه الأَدبيُّ رَحِمَهُ اللهُ حولَ بعضِ المسائلِ



موهمٌ فعلًا؛ ولذا استنتجَ بعضُهم منه أَنَّهُ يقرِّرُ خلافَ ما عليه أَهلُ السُّنَّةِ والجماعة.. ولكنَّنا نجدُ له ـ أَيضًا ـ كلامًا آخرَ أَكثرَ وضوحًا حولَ تلكَ المسائلِ يوافقهم فيه: كالقولِ بخلقِ القرآنِ، ووحدةِ الوجودِ[١]، وتأويلِ بعضِ الصِّفات ونحوِها.

وأَكثرُ الانتقاداتِ الَّتي وجِّهتْ إليه في العقائدِ؛ لأَنَّ سيِّدًا رحمه الله كان يهتمُّ بنقلِ الصُّورةِ الجماليَّةِ لمعاني القرانِ بأُسلوبٍ فريدٍ لم يُعهَدْ عليه أَحدٌ من قبلِه.. فكان يصوِّرُها حسبَ تصوُّرِه البشريِّ.. والعقائدُ لا تؤخذُ إلَّا نصًّا من الكتابِ والسُّنَّة؛ لأَنَّ العقلَ البشريَّ لنْ يستطيعَ أَنْ يصلَ إلىٰ معرفةِ الغيبيَّاتِ وكُنْهِها، وخصوصًا إلى الذَّات الإلهيَّةِ وصفاتِها ولا إلىٰ كيفيَّتِها.. فلا يصحُّ فيها التَّفسيرُ التَّصويريُّ أَلبتَّة!

أَمَّا تصويرُ سيِّد قُطُب رحمه الله للمشاهدِ الَّتي في القصصِ.. فقد كانَ رائعًا وموفقًا جدًّا؛ فهو من بديعِ مخاطبةِ الأَجيالِ الحديثةِ.. ونقلِهم إلى التَّصوُّرِ القرآنيِّ الفريد.

سادسًا ـ توضيحٌ لأَهمِّ مصطلحَينِ عند سيِّد قُطُب أُسِيء فهمُهما: (الجاهليَّة) و(الحاكميَّة).

١ ـ مصطلح « الجاهليَّةُ » وهل يعني به تكفيرَ المجتمعات؟

سيِّد قُطُب رحمه الله عاشَ في كنفِ هذهِ الدَّعوة المباركة؛ يحطِّمُ

(١) انظر مقدمة محمد قُطُب لكتاب «مقومات التصور الإسلامي» ص٨ ـ ٩، حيث ردَّ على هذه التهمة وغيرها.

جيوشَ الطَّواغيتِ والظَّلمةِ.. بقلمه السيَّال المبارك.. الَّذي كان في يدِه كسَوطِ صاحبِ الحقِّ.. لا يُخْطىءُ متجبِّرًا على الله تعالىٰ.. ولا مُعتديًا علىٰ شرعه الحكيم.. ولا ظالمًا لعباده المكرمين؛ فَطَاردَهم في عالمِ الأَفكارِ والضَّمائر.. وفي واقعِهم، وبيَّنَ أَنَّهم يمثِّلونَ الجاهليَّةَ بجميعِ سماتها وأَشكالها. والجاهليَّةُ ليست فترةً تاريخيَّةً.. وإِنَّما هي حالةٌ نفسيَّةٌ ترفضُ الاهتداءَ بهديِ ربِّها الكريم، ووضعٌ تنظيميٌّ يرفضُ الحكمَ بما أَنزلَ اللهُ تعالىٰ! ثـمَّ سَخَّرَ حياتَه الدَّعويَّةَ لمكافحةِ الظُّلم بكلِّ أَنواعِه.. وحرَّضَ ضـدَّ قـوى البغيِ ورموزِه.. وجعلَ ذلك من مقتضياتِ الإِسلام.. ووقفَ مع المظلومينَ وقفةً قويَّةً.. وعرضَ الدِّينَ الحنيفَ بحرارةِ إِيمانِهِ الصَّادقِ.. وطرحَهُ تصوُّرًا حيًّا يستقْطُبُ القلوبَ المؤمنةَ، بقدرِ ما يزعجُ أَنصارَ الإِسلام الأَمريكانيِّ!

كما أَزالَ التُّرابَ عن إِسلامِ الخرافةِ.. الَّذي تحبُّهُ وتنشرهُ الجاهليَّةُ قديمًا وحديثًا.. وتستخدمُه مطيَّةً لأَطماعِها؛ فأَبرزَ دينَ الإِسلام الحقَّ.. إِسلامِ الحرِّيَّةِ والقوَّةِ والتَّمكينِ.. الَّذي لا يعرفُ الانحناءَ لغيرِ الله تعالىٰ.. ولا يؤمنُ بأَنصافِ الحلولِ مع نظامِ الجاهليَّة؛ لأَنَّ دينَ الإِسلام هو منظومةٌ متكاملةٌ.. عقيدةٌ في القلبِ، وشريعةٌ في الحياة.. الإِسلامُ تصوُّرٌ واضحٌ للكونِ والدِّين والإِنسانِ والحياةِ.. لا يسعُ العبادَ إِلَّا أَن يقبلوهُ كاملًا أَو يُعرضوا عنه.

وهكذا عرَّفَ سيد قُطُب ﵀ الإِسلامَ بعيدًا عن التَّشويهاتِ الَّتي

عَلِقت به منذُ عصورِ الانحطاطِ، وحَصَرتْهُ في تديُّنٍ فرديٍّ، أَو في مظاهرَ أَقربَ إلى العاداتِ والتَّقاليدِ؛ فذهبَ بهاءُ الإسلام، وحُجبت حقائقُهُ عن النَّاسِ.. بل عنِ المسلمينَ أَنفسِهم!

وَاجَهَ سيِّد قُطُب ﵀ نظامَ الجاهليَّة بجميعِ أَنواعِها وأَشكالِها؛ جاهليَّةِ الحكمِ بغيرِ ما أَنزلَ اللهُ، جاهليَّةِ القصورِ.. جاهليَّةِ الفنِّ المنحرفِ.. جاهليَّةِ الغربِ.. جاهليَّةِ العلماءِ المنحرفينَ! فلا غرابةَ إذًا.. أَن يتبنَّى أَبناءُ الأُمَّة في الحركاتِ الإسلاميَّة فكرَهُ ومشروعَهُ، ويحبَّهُ كلُّ مسلمٍ له فهمٌ دقيقٌ لدينِه.

وقد اعترضَ البعضُ علىٰ استعمالِ كلمةِ «الجاهليَّة» وقالوا: إنَّها تعني الحكمَ بالكفرِ على الأَفرادِ والمجتمعاتِ. وقالَ آخرونَ: لا يجوزُ وصفُ المجتمعاتِ المعاصرةِ ـ بعدَ أَنْ وصلتْ درجةً متقدِّمةً من العلومِ والمخترعاتِ والتكنولوجيا ـ بالجاهليَّة!

ونسي هؤلاء أَنَّ سيِّدَ قُطُبِ المفسِّرِ لكتابِ الله قد استعمل كلمة «الجاهليَّة» علىٰ أَنَّها مصطلحٌ قرآنيٌّ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. والجاهليَّةُ في القرآن ليسَت محدَّدةً بزمنٍ معيَّنٍ أَو مكانٍ معيَّنٍ؛ فهيَ تعني الجهلَ بحقيقةِ الأُلوهيَّةِ، والجهلَ بما يحبُّهُ الله تعالىٰ من إخلاصِ العبوديَّةِ له وحدَه لاشريك له، ولا يُقصَدُ بها إطلاقُ الكفرِ أَلبتَّة؛ بل يقعُ تحتَ مسمَّى الجاهليَّة أَصنافٌ شتَّىٰ من النَّاسِ الَّذينَ يسودُهم ويحكمُهم ويُنَظِّمُ حياتَهم نظامٌ غيرُ إسلاميٍّ.

ثمَّ إِنَّهُ استخدمَ مصطلحَ «الجاهليَّة» ولم يستخدمْ لفظَ الكفرِ في وصفِ المجتمعاتِ الإسلاميَّة؛ فلم يصرِّحْ بتكفيرِ فردٍ أَو مجتمعٍ في كلِّ كتاباتِه.

ولفظُ «الجاهليَّة» استُخدمَ في النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ، وأُريدَ به العملُ بالمعصيةِ؛ لأَنَّ الأَفرادَ أَو المجتمعاتِ الَّتي تعملُ أَو تسلكُ سلوكَ الجاهليَّة توصفُ بذلك، ولا يُشترطُ أَنْ تكونَ كافرةً؛ لأَنَّها لم تعتقدِ الجاهليَّة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأَحزاب: ٣٣]. فالجاهليَّةُ المنهيُّ عنها هنا جاهليَّةُ العملِ ـ أَي: المعصية ـ وليست جاهليَّةَ الاعتقاد.

وقد وصفَ النَّبيُّ ﷺ استعدادَ الأَوسِ والخزرجِ للقتالِ بينَهم بقوله: «**أَبِدَعْوَى الْجاهليَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ...؟!**». وكذلك قولُ النَّبيِّ ﷺ لأَبيِّ ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه عندما عيَّرَ رجلًا بأُمِّهِ حيثُ قالَ له: يا ابنَ السَّوداء! فقالَ له ﷺ: «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**» أَيْ: بعضُ عاداتِها، ولم يقلْ أَحدٌ: بأَنَّ أَبا ذرٍّ قد كفرَ بهذا العملِ! فلو كانتِ الجاهليَّةُ هنا هي الكفرُ؛ لحَكم بردَّتِه وطلبَ استتابَتَهُ؛ لأَنَّ الكفرَ الَّذي يُخْرِجُ صاحبَه من الملَّةِ هو الَّذي يخالفُ أَصلَ الإيمانِ قليلًا كانَ أَو كثيرًا.

فالحكمُ هنا في بعضِ سماتِ الجاهليَّة وأَعمالِها.. وهذه الأَعمالُ مهما كثُرت لا تُخرجُ عن الملَّةِ؛ إلَّا إذا اقترنتْ باعتقادٍ جاهليٍّ مهما قلَّ هذا الاعتقادُ، والمعصيةُ لا تُخرجُ العبدَ من الإيمانِ مهما كثرتْ؛ طالما أَنَّه لا يستحلُّها؛ لأَنَّ الكفرَ ـ عند أَهل السُّنَّةِ والجماعةِ ـ يتحقَّقُ باعتقادِ



مسألَةٍ.. ولو لم يصاحبِ هذا الاعتقادَ أَيُّ عملٍ؛ فمنِ اعتقدَ أَنَّ الزِّنا ليسَ حرامًا، أَو أَنَّه علاج لمشكة، أَو أَنَّ حكمَ الإسلام فيهِ أَنَّهُ متشدد، أَو أَنَّ الخمرَ ليست حرامًا، أَو أَنَّ حكمَ الإسلام فيها قد جانبَ الصَّوابَ؛ فمثلُ هذا الشَّخصِ يُعَدُّ كافرًا، ولو لم يرتكبْ هذا الفعلَ أَو ذاك؛ لأَنَّ الإيمانَ بشرعِ الله تعالىٰ ورسولهِ ﷺ والتَّصديقَ بهِ سببُ الدُّخولِ في الإسلام؛ فإنكارُ الحكمِ وجحودُه سببُ الرِّدَّةِ عن الإسلام، ولو لم يقترنْ هذا الجحودُ بأَيِّ عملٍ من أَعمالِ الجاهليَّة والكفر.. ولهذا وصفَ اللهُ من اقتتلَ من المسلمينَ بالإيمانِ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتالُهُ كُفْرٌ**» متفق عليه.

فأَهلُ مكَّةَ قبلَ الفتحِ كانَ ينطبقُ عليهم تعريفُ المجتمع الجاهليِّ؛ فهل يُكفَّرُ كلُّ شخصٍ كان في هذا المجتمع، ولقد كان بينَهم مَن يخُفي إسلامَه؟ كالعبَّاس رضي الله عنه عمِّ النَّبيِّ ﷺ.

قال سيِّد قُطُب رحمه الله في تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]:

(فهؤلاءِ الأَفرادُ ليسوا أَعضاءً في المجتمع المسلمِ، ومن ثَمَّ لا تكونُ بينَهم وبينَه ولايةٌ، ولكنْ هناك رابطةُ العقيدة).

فليسَ كلُّ شخصٍ يعيشُ في المجتمع الجاهليِّ كافرٌ..

وعليه: فإنَّ وصفَ سيِّدِ قُطُب المجتمعاتِ بالجاهليَّة.. لا يعني أَنه حُكمٌ علىٰ كلِّ أَفرادِها بالكفرِ.. كما يظنُّ بعضُ السَّطحيِّين!

وقال بعضُ من تَغْلُبَ عليهم عقيدةُ الإرجاءِ: إنَّ مصطلحَ المجتمع الجاهليِّ.. هو وصفٌ لازمٌ للتَّكفيرِ!

سبحانَ الله! فهذا القولُ يلزم منه أَنْ نقولَ: إنَّ أَئمَّةَ أَهلِ السُّنَّة والجماعة يُكفِّرونَ العبادَ! وهذا قولٌ باطلٌ بالإجماع؛ لأَنَّ من قواعدِ التَّكفيرِ عندَهم: التفريق بين التَّكفيرِ المطلقِ والتَّكفيرِ المعيَّنِ؛ فالتكفير المطلق يكون للاعتقاد والأَقوال والأَعمال.. ولا يعني هذا تكفير فاعله أَو تكفير الأَعيان بالضرورة؛ حتَّى تُقام عليه الحُجَّةُ وتُبَيَّن له المَحَجَّةَ؛ لأَنَّ مَن ثبتَ إسلامه بيقين لم يُزَل ذلك عنه بالشَّكِّ ؛ بل لا يزول إلَّا بعد إقامة الحجة وإزالة الشُّبهة.

وفي تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣]. قال سيِّد قُطُب رحمه الله: (**يدخلُ الكافرُ في الإسلام بالنُّطقِ بالشَّهادتينِ؛ حتَّىٰ لو كانَ يظهرُ الإيمانَ ويبطنُ الكفرَ؛ لأَنَّ اللهَ أَمرنا في هذه الدُّنيا أَن نأْخذَ بظاهرِ أَحوالِ النَّاس وأَنْ نتركَ البواطنَ لحكمِ الله في الآخرة**).

فتهمةُ تكفيرِ المجتمعاتِ تهمةٌ لا أَصلَ لها في فكرِ سيِّد قُطُب رحمه الله وأَحسنُ أَحوالها أَنْ تكون قراءةٌ فقهيَّةٌ اجتهاديَّةٌ لنصٍّ شرعيٍّ، وأَسوأُ أَحوالِها أَنَّها قراءةٌ مريضةٌ للسَّطحيِّينَ، أَو قراءةٌ علمانيَّةٌ ماكرةٌ خبيثةٌ؛ غرضُها تشويهُ فكرِ سيِّد قُطُب ومشروعِه، لا صيانةُ الإسلام من الغُلوِّ!



٢ ـ حقيقةُ مصطلح « الحاكميَّة » وماذا يعني به؟

ومن الشُّبَه الَّتي أُثيرت حولَ فكرِ سيِّد قُطُب رحمه الله قولهم: أَنَّهُ يُنادي بالحاكميَّةِ، ويركِّزُ عليها، وقد انفردَ بإطلاقِ هذا المصطلحِ، ولم ينصَّ عليه كتابٌ ولا سُنَّةٌ؛ بل إنَّ أَوَّل مَن قالَ بهِ هم الخوارج!

وصفوةُ القول: أَنَّ أَصل مصطلحِ الحاكميَّة؛ ليس من مفرداتِ سيِّد، ولا أَبي الأَعلى المودودي مِن قبلِه رحمهما الله بل هو مأْخوذٌ من علمِ أُصولِ الفقه، واتَّفقَ عليه الأُصوليُّونَ، وصرَّحوا في مبحثِ الحكمِ: أَنَّ الحاكمَ هو الله، لا حاكمَ غيرُه. نعم! إنْ أَرادَ المعترضونَ كلمةَ الحاكميَّةِ؛ فهي لم تردْ في القرآن والسُّنَّة بالحرفِ، ولكنَّ معناها واضحٌ في القرآنِ.. فالحاكميَّةُ لله يوضحُها قولُه تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ والحكمُ هنا مصدرٌ، والحاكميَّةُ مصدرٌ أَيضًا، بنفسِ المعنىٰ و«إنْ» هنا بمعنى «ما» أَي: ما الحكمُ إلَّا لله، وهذا تأكيدٌ بـ «ما » و « إلَّا » الَّتي تفيدُ الحصرَ.

إذًا.. لا ضررَ في استخدامِ هذا المصطلحِ علميًّا؛ فإنَّه لا مشاحَّةَ في الاصطلاحِ، وليستْ كلُّ المصطلحاتِ العلميَّةِ قد وردتْ في القرآنِ والسُّنَّة، ومن غيرِ المعقولِ أَنْ نرفضَ كلَّ مصطلحٍ لم يرِدْ فيهما.

فالحاكميَّةُ في المفهومِ الشَّرعيِّ؛ إنَّما هيَ لله وحدَهُ لا شريكَ له؛ فهو المشرِّعُ لعبادِه في جميعِ شؤونِ دنياهم وآخرتِهم، وإليهِ المرجعُ في كلِّ أَمورِهم، ومن جحدَ ذلك فقد كفرَ، وقامَت علىٰ ذلك الأَدلَّةُ العقليَّةُ والنقليَّةُ من القرآنِ والسُّنَّةِ، وقد أُجْمِعَ علىٰ هذا.

أَي: إنَّ الحاكميَّةَ لله مطلقًا؛ تعني المشروعيَّةَ العُليا للدَّولةِ وشؤونِها، حتَّىٰ لا تحرفها تصرُّفاتُ الحاكمينَ عن هذا المبدأ.

فمصطلحُ الحاكميَّة: مصطلحٌ شاملٌ جامعٌ مانعٌ.. فهو من الإبداعاتِ الأَدبيَّةِ لسيِّد قُطُب؛ فلا يجوزُ ردُّها بسببِ استخدامِ الخوارجِ له، واستخدامُ الخوارجِ كانَ خاطئًا، ولذا لا يجوزُ التَّشنيعُ على المصطلحِ لمجرَّدِ استخدامِ الخوارجِ له.

واعلم أَنَّ من عقيدةِ أَهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ الإيمانُ بالله تعالىٰ، ومن الإيمانِ بالله؛ الإيمانُ بوحدانيتِه وأُلوهيَّتِهِ وأَسمائِه وصفاتِه، وذلك بإقرارِ أَنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ واعتقادِها والعملِ بها، وهي: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، وتوحيدُ الأُلوهيَّة، وتوحيدُ الأَسماءِ والصِّفات.

وإنَّ منْ مقتضياتِ الإيمانِ؛ الإقرارُ بحقِّ التَّشريعِ لله وحدَه، فالحُكمُ لله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، قال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]. فالحكمُ لله، والعبادةُ لله، ولا تجوزُ منازعةُ الله في حكمِه، ولا يجوزُ صرفُ شيءٍ من ذلك لغيرِه مطلقًا!

فالحاكميَّةُ تعني: أَنَّ اللهَ هو الحاكمُ الأَوحدُ، وهذه الحاكميَّةُ نابعةٌ من أَنَّ اللهَ خالقُ الكونِ بكلِّ ما فيه، وأَنَّ اللهَ وحدَه المستحقُّ للعبادةِ والطَّاعةِ؛ بل إنَّ الطَّاعةَ المطلقةَ حقٌّ ينفردُ به الخالقُ، ومن ثَمَّ يمنحُه لمن شاءَ من عبادِه بالحدود الَّتي يشاءُ، فالنَّبيُّ والحاكمُ والأَبُ والزَّوجُ طاعتُهم ممنوحةٌ ومشروطةٌ.

وقد أَمرَ اللهُ تعالىٰ عبادَه المؤمنين أَنْ يتحاكموا إلىٰ شريعتِه الَّتي تصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وشرعُ الله وحدَه هو الذي ينشرُ العدلَ والنَّفعَ والخيرَ.. والتَّاريخ شاهدٌ لمن لم يُصدِّق!

فتوحيدُ الحاكميَّةِ نوعٌ من أَنواعِ التَّوحيدِ؛ فمن حيثُ الحكمُ والأَمرُ والنَّهيُ والتَّصرُّفُ يدخلُ في توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ لأَنَّ الله تعالىٰ له الحكمُ والأَمرُ وحدَه. أَمَّا من حيثُ التَّطبيقُ والعملُ، فالعبدُ مكلَّفٌ باتِّباعِ حكمِ الله؛ فيدخلُ توحيدُ الحاكميَّةِ في توحيدِ العبادةِ والأُلوهيَّة.

فتوحيدُ الحاكميَّةِ يتكوَّنُ من قسمين:

الأَوَّل: ما يتعلَّقُ بتقديرِ الحُكمِ الكونيِّ، وتشريعِ الحكمِ الشَّرعيِّ، فهذا داخلٌ تحتَ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، لأَنَّه من فعلِ الرَّبِّ سبحانه، وهو المشرِّعُ وحدَه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالىٰ منكرًا علىٰ مَن جعل للبشرِ حقَّ التَّشريعِ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

الثَّاني: هو ما يتعلَّقُ باستجابةِ العبادِ للحكمِ الكونيِّ والشَّرعيِّ لله ربِّ العالمين، وتَحَاكُمِهم إلىٰ شرعِه ورضاهُم به، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فالتحاكُمُ من العبادِ عبادةٌ، لا يجوزُ صرفُها لغيرِ الله، وهو من إفرادِه ﷻ

بالعبادة في التَّحاكمِ إلىٰ شرعِه، وهذا داخلٌ تحتَ توحيد الأُلوهيَّة.

ومعنىٰ مصطلحِ الحاكميَّة عند سيِّد قُطُب هو ردُّ الحكمِ والتَّشريعِ إلى الله وحدَه، وليس لأَحدٍ كائنًا من كانَ أَن ينتزعَ هذه الحاكميَّةَ لنفسهِ أَو لأَيِّ شخصٍ آخرَ؛ فالحاكميَّةُ إنَّما هيَ لله وحدَه وهو المشرِّعُ لعبادِه في شتَّىٰ شؤونهم المتعلِّقةِ بدنياهُم وآخرتِهم، وهو المرجعُ في حَلِّ كلِّ مشكلةٍ من مشكلاتهم. وأَمَّا جعلُ توحيدِ الحاكميَّة نوعًا رابعًا من أَنواعِ التَّوحيدِ فليسَ له وجهٌ؛ لأَنَهُ داخلٌ في الأَنواعِ الثلاثةِ، والتقسيمُ بلا مقتضٍ يكونُ زيادةَ كلامٍ لا داعيَ له.

ثمَّ اعلم أَنَّ تقسيمَ التَّوحيدِ بأَنواعِه غيرُ منصوصٍ عليهِ شرعًا؛ بل هو مأْخوذٌ من الاستقراءِ والتأَمُّلِ؛ فعلماءُ أَهلِ السُّنَّة والجماعة لما استقرؤوا ما جاءتْ بهِ نصوصُ الكتابِ السُّنَّةَ ظهرَ لهم هذا، وزادَ بعضُهم نوعًا رابعًا هو توحيدُ المتابعَةِ، وهذا كلُّه بالاستقراء.

فلا شكَّ أَنَّ من تدبَّرَ القرآنَ العظيمَ وجدَ فيه آياتٍ تأْمرُ بإخلاصِ العبادةِ لله وحدَه، فهذا هو توحيدُ الأُلوهيَّةِ والعبادة، وهناكَ آياتٌ تدُلُّ علىٰ أَنَّ اللهَ هو الخلَّاقُ والرزَّاق ومدبِّرُ الأُمور؛ فهذا هو توحيدُ الرُّبوبيَّةِ، كما أَنَّ هناكَ آياتٍ أُخرىٰ تدلُّ علىٰ أَنَّ له الأَسماءَ الحُسنىٰ والصِّفاتِ العُلىٰ، وأَنَّه لا شبيهَ له ولا كفؤَ له؛ فهذا هو توحيدُ الأَسماءِ والصِّفاتِ، وآياتٌ أُخرىٰ تدُلُّ علىٰ وجوبِ اتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ ورفضِ ما خالفَ الشَّرعَ؛ فهذا هو توحيدُ المتابعةِ.. فتقسيمُ التَّوحيدِ قد عُلِمَ بالاستقراءِ وتتبُّعِ الآياتِ ودراسةِ السُّنَّة.

وفي تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأَنعام: ٤٤]. يقولُ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(بهذا الحسمِ الصَّارم الجازمِ، وبهذا التَّعميم الَّذي تحملُه مَن الشَّرطيَّةِ وجملةُ الجواب؛ بحيث يخرجُ من حدودِ الملابسةِ والزَّمانِ والمكانِ، وينطلقُ حكمًا عامًّا علىٰ كلِّ مَن لم يحكمْ بما أَنزلَ اللهُ في أَيِّ جيلٍ ومن أَيِّ قبيلٍ، والعلَّةُ هيَ الَّتي أَسلفنا؛ هي أَنَّ الَّذي لا يحكمُ بما أَنزلَ اللهُ، إنَّما يرفضُ أُلوهيَّةَ الله، فالأُلوهيَّةُ من خصائصِها ومن مقتضاها الحاكميَّةُ التَّشريعيَّةُ، ومن يحكمُ بغيرِ ما أَنزلَ الله، يرفضُ أُلوهيَّةَ الله وخصائصَها في جانبٍ، ويدَّعي لنفسِه هو حقَّ الأُلوهيَّةِ وخصائصَها في جانبٍ آخرَ، وماذا يكونُ الكفرُ إنْ لم يكنْ هو هذا وذاك؟ وما قيمةُ دعوى الإيمانِ أَو الإسلام باللِّسانِ، والعملُ ـ وهو أَقوىٰ تعبيرًا من الكلامِ ـ ينطقُ بالكفرِ أَفصحَ من اللِّسان؟!).

فاستعمالُ مصطلحِ الحاكميَّةِ ليسَ فيهِ محذورٌ شرعيٌّ؛ لأَنَّ العبرةَ بالمدلولِ الشَّرعيِّ للَّفظِ، والحاكميَّةُ كمصطلح له نفسُ الدَّلالةِ الشَّرعيَّةِ الَّتي تكلَّمَ عنها أَئمَّةُ أَهلِ السُّنَّة والجماعة، وإنَّ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يجعلْ من الحاكميَّةِ توحيدًا مستقلًّا، نظَّرَ له ودعا إليه؛ بل جعلَه من بابِ الشَّرحِ والتَّوضيحِ لما يقتضيهِ حالُ الأُمَّة من عدمِ تحكيمِ شرعِ الله تعالىٰ.

ففكرةُ الحاكميَّةِ قد أَساءَ فهمها كثيرون، وأَدخلوا في مفهومِها ما لم يُردْه سيِّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وملخَّصُ ما أَرادَه من مصطلحِ الحاكميَّةِ هو:**

١ ـ الحاكميَّةُ بالمعنى التَّشريعيِّ: مفهومُها أَنَّ اللهَ هو المشرِّعُ لخلقِه، وهو الَّذي يأْمرُهم وينهاهُم، ويُحلُّ لهم ويُحرِّمُ عليهم، وهذا ليسَ من ابتكارِ سيِّد؛ بل هو أَمرٌ مقرَّرٌ عندَ المسلمينَ جميعًا، ولهذا حينَ قال الخوارجُ لعليٍّ: لا حُكمَ إلَّا لله! لم يعترضْ عليٌّ رضي الله عنه على المبدأِ، وإنَّما اعترضَ على الباعثِ والهدفِ المقصودِ من وراءِ الكلمة، فقال ردًّا عليهم: (**كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطلٌ**).

٢ ـ الحاكميَّةُ لا تعني أَنَّ الله تعالى هو الَّذي يولِّي العلماءَ والأُمراءَ ليحكموا باسمه؛ بل المقصودُ بها الحاكميَّةُ التَّشريعيَّةُ فحسب، أَمَّا سندُ السُّلطةِ السياسيَّةِ فمرجعُهُ إلى الأُمَّة ـ المُتمَثِّل بأهل الحَل والعَقْد ـ فهي الَّتي تختارُ حكَّامَها، وهي الَّتي تُحاسبُهم وتراقبُهم؛ بل تعزلُهم. والتَّفريقُ بينَ الأَمرينِ مهمٌّ، والخلطُ بينهما موهمٌ ومضلِّلٌ، فليس معنى الحاكميَّةِ الدَّعوةُ إلىٰ دولةٍ ثيوقراطية.

٣ ـ الحاكميَّةُ التَّشريعيَّةُ الَّتي يجبُ أَنْ تكونَ لله وحدَه، وليست لأَحدٍ من خلقِهِ هي الحاكميَّةُ العُليا والمطلقةُ الَّتي لا يحدُّها ولا يُقيِّدُها شيءٌ؛ فهي من دلائلِ وحدانيَّةِ الأُلوهيَّةِ، بل من مقوِّماتِ التَّوحيدِ، كما بيَّنَ القرآنُ في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وهذه الحاكميَّةُ لا تنفيْ أَنْ يكونَ للعبادِ قَدْرٌ من إصدار أَحكامٍ في مسائلِ النوازل بضوابط شرعيَّة؛ لأَنَّ النصوصُ الشرعيَّة في غالبِ



الأَمرِ كليَّةً إجماليَّةً لا تفصيليَّةً.. إنَّما هي تمنعُ أَنْ يكونَ لهم استقلالٌ بالتَّشريعِ غيرُ مأْذونٍ به من الشَّارع الحكيم؛ كالتَّشريعِ في أَمرِ العباداتِ، والتَّشريعِ الَّذي يُحِلّ ما حَرَّم الله، ويُحَرِّم ما أَحل الله، ويُسْقِط ما فرض الله؛ لأَنَّ هذه المسائل من العبادات التوقيفيَّة.

أَمَّا التَشريعُ في النوازل، أَو فيما لا نصَّ فيه، أَو في المصالحِ المرسلةِ.. أَي فيما للاجتهادِ فيه نصيبٌ ـ بضوابطه الشرعية ـ فهذا من حقِّ العلماء العاملين؛ لأَنَّهم ورثة الأَنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.





٤

شهاداتُ العلماءِ والمفكِّرينَ في سيِّد قُطُب

الفَهْـمُ الصَّحيحُ لمنهج سـيِّد قُطُب ﷺ وفكرِه وآرائـه.. لا بُدَّ أَنْ يكونَ عـن طريقِ العلمـاءِ والمفكِّرينَ الصَّادقينَ.. المشـهودِ لهم بالعلـمِ والعدلِ.. والَّذيـن عاصـرُوه وعرفوهُ عن قُـرْبٍ.. وأَدركوا عمقَ كلامِـه وفهمُوا مراميَه؛ أَثنَـوا عليـه وعلـىٰ مـا قـدَّمَ، وترحَّمـوا عليـه، وشـهدُوا علىٰ استشـهادِه في سـبيلِ دينِـهِ، ودافعُـوا عنـه.. ولـم يُكفِّـروه ولم يبدِّعْـهُ أَحـدٌ منهم أَلبتَـةَ! بل وقـفَ أَكثرُهـم في وجْهِ مـن كفَّـرهُ وبدَّعَه..

ومن هؤلاءِ الكرامِ:

١ ـ أُستاذُنا المفكر الكبيرُ.. محمد قُطُب ﷺ:

فهو من أَلصقِ النَّاسِ بأَخيهِ الكبيرِ وأُستاذِهِ.. وأَبصرِهم بأَفكارِه ومقاصدِ عباراتِه وأَلفاظِه.. وقد وضَّحَ وجهَ الحقِّ في كثيرٍ من القضايا المثارةِ، فقال:

(ما دارَ من لغطٍ في محيطِ الإخوانِ حولَ كتاباتِ الشَّهيدِ سيِّد قُطُب، وما قيلَ من كونِها مخالفةً لفكرِ الإخوانِ أَو جديدةً عليهِ، وأُحِبُّ في هذا المجالِ أَنْ أُثبتَ مجموعةً من الحقائقِ، أَحسُّ بأَنَّني مطالبٌ أَمامَ الله بتوضيحِها حتَّىٰ لا يكونَ في الأَمرِ شبهةٌ. إنَّ كتاباتِ سيِّد قُطُب قد تركَّزتْ



حولَ موضوعٍ معيَّنٍ، هو بيانُ المعنى الحقيقيِّ لـ «لا إله إلَّا الله» شعورًا منه بأَنَّ كثيرًا من النَّاسِ لا يدركونَ هذا المعنى علىٰ حقيقتِه، وبيانُ المواصفاتِ الحقيقيَّةِ للإيمانِ كما وردتْ في الكتابِ والسُّنَّة، شعورًا منه بأَنَّ كثيرًا من هذه المواصفاتِ قد أُهملَ أَو غَفلَ النَّاسُ عنه، ولكنَّهُ مع ذلكَ حرصَ حرصًا شديدًا علىٰ أَنْ يبيِّنَ أَنَّ كلامَه ليس مقصودًا به إصدارُ أَحكامٍ على النَّاس، وإنَّما المقصودُ بِهِ تعريفُهم بما غفلُوا عنه من هذهِ الحقيقةِ، ليتبيَّنوا هم أَنفسهم إنْ كانوا مستقيمينَ علىٰ طريقِ الله كما ينبغي، أَم أَنَّهم بعيدونَ عن هذا الطَّريقِ فينبغيْ عليهم أَنْ يعودُوا إليه، ولقد سمعتُه بنفسي أَكثرَ من مرَّةٍ يقول: (نحنُ دعاةٌ ولسنا قضاةً، وإنَّ مَهمَّتنا ليستْ إصدارَ الأَحكام على النَّاس، ولكنَّ مَهمَّتنا تعريفُهم بحقيقةِ لا إله إلَّا الله؛ لأَنَّ النَّاسَ لا يعرفونَ مُقتضاها الحقيقيَّ، وهو التَّحاكمُ إلىٰ شريعةِ الله)...

كما سمعتُه أَكثرَ من مرَّةٍ يقولُ: (إنَّ الحكمَ على النَّاسِ يستلزمُ وجودَ قرينةٍ قاطعةٍ لا تقبلُ الشَّكَّ، وهذا أَمرٌ ليسَ في أَيدينا، ولذلك فنحنُ لا نتعرَّضُ لقضيَّة الحكمِ على النَّاس، فضلًا عن كونِنا دعوةً ولسنا دولةً، دعوةٌ مَهمَّتُها بيانُ الحقائقِ للنَّاسِ لا إصدارُ الأَحكامِ عليهم...)[1].

٢ ـ الأُستاذ سالم البهنساوي رَحِمَهُ الله:

هو ممَّنِ اهتمَّ بفكرِ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ الله وكتب فيه، يقولُ:

(فما نُسِبَ إلىٰ سيِّد قُطُب من القولِ بتكفيرِ المسلمينَ الَّذينَ يشهدونَ أَن لا إله إلَّا الله ويقيمونَ الصَّلاةَ؛ فهذا أَثَرُ ونتيجةُ الحكمِ بالهوىٰ، والابتعادِ

(١) «مجلة المجتمع» العدد: ٢٧ الصادر في: ١٧ شوال ١٣٩٥هـ ـ ٢١/ ١٠/ ١٩٧٥م.

عن الموضوعيَّةِ ونزاهةِ القصدِ، والدَّليلُ علىٰ ذلكَ، وعلىٰ سبيلِ المثالِ: مفهومُ المجتمع الجاهليِّ. وردَ بالمعالمِ تحتَ بندِ «لا إله إلَّا الله منهجُ حياةٍ»: إنَّ المجتمعَ الجاهليَّ هو المجتمعُ الَّذي لا يُخلِصُ عبوديَّتَهُ لله وحدَهُ.. ثمَّ ذكَرَ أَنَّهُ يدخلُ في ذلك: المجتمعُ الشُّيوعيُّ، والمجتمعاتُ الوثنيَّةُ واليهوديَّةُ والنَّصرانيةُ، والمجتمعاتُ الَّتي تزعمُ لنفسِها أَنَّها مسلمة.

ثمَّ شرحَ سيِّد قُطُب هذهِ العباراتِ ليوضحَ المقصودَ منها، ولكنَّ بعضَ مَن ادَّعوا محبَّتَهُ، وكذا مَنْ يُناصبونَ منهجَهُ العداءَ لعلمانيَّتهم أَو لتبعيَّتهم الآخرين، قد زعمُوا أَنَّه يقولُ بكفرِ المسلمينَ في عصرِنا، ومنهم مَن رتَّبَ علىٰ ذلك أَحكامًا تتفاوتُ باختلافِ قصدِهِ.

ومنهم مَن زعمَ أَنَّ سيِّد قُطُب أَعلنَ لهم: أَنَّ النُّطقَ بالشَّهادتينِ لا يعدُّ دليلًا علىٰ إسلامِ المرءِ؛ فلا يُعتبرُ مسلمًا مَن صلَّىٰ وصامَ، ولم ينخرطِ في الجماعةِ الَّتي تبني الحاكميَّةَ وفقَ مفهومِ المخالفين.

وسيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بريءٌ من هذهِ الانحرافاتِ، وقد كانَ يصلِّي في سجنِ ليمان طره خلفَ إمامٍ من غيرِ الإخوانِ؛ لأَنَّه الأَكثرُ حفظًا في الوقتِ الَّذي كانت تقامُ فيه بعضُ الصَّلوات.

فهذه العباراتُ والأَوصافُ الَّتي أَطلقها كلٌّ من الشَّهيدِ سيِّد قُطُب وأَستاذِنا المودوديِّ أَو غيرُهم ـ ممَّن يصِفونَ المجتمعاتِ بالجاهليَّة ـ قد علمنا أَنَّ هذا الوصفَ يرادُ به جاهليَّةُ الكفرِ والاعتقادِ، كما في قولِ الله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقد يُرَادُ به جاهليَّةُ المعصيةِ والعملِ، لأَنَّ المجتمعاتِ أَو الأَفرادَ



الَّذينَ يعملونَ أَو يسلكونَ سلوكَ الجاهليَّة يوصفونَ بذلك، ولكنهم ليسوا كفرةً، لأَنَّهم لم يعتقدوا الجاهليَّةَ، كما في قولِ الله لنساءِ النَّبيِّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأَحزاب: ٣٣]. وكما في قولِ النَّبيِّ ﷺ لأَبِي ذرٍّ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» أَي: بعضُ عاداتِها، فالكفرُ يتحقَّقُ بالاعتقادِ، ولو لم يصاحبِ العقيدةَ أَيُّ عملٍ؛ فمنِ اعتقدَ أَنَّ الزِّنا ليسَ حرامًا أَو أَنَّه أَصلحُ لعلاجِ الشَّبابِ، أَو أَنَّ حكمَ الإسلام فيهِ جائرٌ، أَو أَنَّ الخمرَ ليست حرامًا، أَو أَنَّها تصلحُ للمعدةِ، أَو أَنَّ حكمَ الإسلام فيها قدْ جانبَ الصَّوابَ، مثلُ هذا الشَّخصِ يعدُّ كافرًا ولو لم يرتكبْ هذا الفعلَ أَو ذاكَ، وهؤلاءِ الَّذينَ يعنِيهم سيِّد قُطُب.

والقاعدةُ الشَّرعيّة هنا: أَنَّ الوصفَ بالجاهليَّة قد يرادُ به جاهليَّةُ الكفرِ أَو المعصيةِ، حسب نوعِ العملِ الَّذي وُصِفَ المجتمعُ من أَجلِه بهذا الوصفِ. فمن رأَىٰ مسلمينَ يشربونَ الخمرَ فنبذَهم وقالَ: هذا مجتمعٌ جاهليٌّ.. فلا يمكنُ القولُ بأَنَّهُ أَرادَ تكفيرَهم؛ لأَنَّ العملَ هنا معصيةٌ وليسَ كفرًا. ومنْ ناقشَ الَّذينَ يضعونَ تشريعاتٍ وقوانينَ تخالفُ تشريعَ الله، ويصرُّونَ علىٰ أَنَّهم أَفضلُ وأَحسنُ، فوصفَهم بالجاهليَّة، كان مرادُه هنا جاهليَّةَ الكفرِ؛ لأَنَّ العملَ هنا كفرٌ.

وبهذا نفهمُ أَقوالَ الشَّهيدِ سيِّد قُطُب؛ فإِنَّه تكلَّم عن حاكميَّةِ العبادِ، ورفْضِ حاكميَّةِ الله مطلقًا، ثم قال: (بهذا يدخلُ تحتَ عنوانِ المجتمع الجاهليِّ كلُّ مجتمعٍ لا يحكمُ الإسلامُ حياتَه)(١).

---

(١) «فكر سيِّد قُطُب في الميزان» سالم البهنساوي.. بتصرف.

٣ ـ شيخُنا العلَّامةُ.. بكر بن عبد اللَّه أَبو زيد رحمه الله:

وهو مِنَ العلماءِ الصَّادقينَ.. الَّذين فهمُوا فكرَ سيِّد قُطُب رحمه الله فذادُوا عنه بجرأَةٍ وإنصافٍ؛ فردَّ علىٰ مَن تحاملَ عليه من المتنطِّعينَ وأَنصافِ المثقَّفينَ.

قال في ردِّهِ علىٰ ربيع بن هادي المدخلي برسالةٍ طويلةٍ، منها:

(... ومن العناوينِ الاستفزازيـةِ قولُكم: (قولُ سيِّد قُطُب بوحدةِ الوجودِ). إنَّ سيدًا قالَ كلامًا متشابهًا حلَّقَ فيه بالأُسلوبِ في تفسيرِ سورتي الحديدِ والإخلاصِ، وقد اعتمدتمْ عليه بنسبةِ القولِ بوحدةِ الوجودِ إليه، وأَحسنتُم حينما نقلتُم قولَهُ في تفسيرِ سورةِ البقرةِ من ردِّهِ الواضحِ الصَّريحِ لفكرةِ وحدةِ الوجودِ، ومنه قولُه: (ومن هنا تنتفي من التَّفكيرِ الإسلاميِّ الصَّحيحِ فكرةُ وحدةِ الوجود) وأَزيدُكم أَنَّ في كتابه «مقوِّمات التَّصوُّر الإسلاميِّ» ردًّا شافيًا على القائلينَ بوحدةِ الوجودِ! لهذا فنحنُ نقولُ: غفرَ اللهُ لسيِّد كلامَهُ المتشابهَ الَّذي جنحَ فيه بأُسلوبٍ وسَّعَ فيه العبارةَ، والمتشابهُ لا يقاومُ النصَّ الصَّريحَ القاطعَ من كلامِه، لهذا أَرجو المبادرةَ إلىٰ شطبِ هذا التَّكفيرِ الضِّمنيِّ لسيِّد رحمه الله تعالى وإنِّي مشفقٌ عليكُم...

أَقولُ ـ أَيُّها المحبُّ الحبيبُ ـ لقدْ نسفتَ بلا تثبُّتٍ جميعَ ما قرَّرهُ سيِّد رحمه الله تعالىٰ من معالمِ التَّوحيدِ ومقتضياتِه، ولوازمِهِ الَّتي تحتلُّ السِّمةَ البارزةَ في حياتِه الطَّويلةِ.. فجميعُ ما ذكرتَهُ تلغيهِ كلمةٌ واحدةٌ، وهي أَنَّ توحيدَ الله في الحكمِ والتَّشريعِ من مقتضياتِ كلمةِ التَّوحيدِ، وسيِّد رحمه الله تعالىٰ ركَّزَ علىٰ هذا كثيرًا لما رأَىٰ من هذه الجرأَةِ الفاجرةِ علىٰ إلغاءِ تحكيمِ شرعِ الله من القضاءِ وغيرِهِ، وإحلالًا للقوانينِ الوضعيَّةِ بدلًا عنها،



ولا شكَّ أَنَّ هذهِ جرأَةٌ عظيمةٌ ما عهدتها الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ في مشوارِها الطَّويلِ قبلَ عامِ (١٣٤٢هـ)... لأَنَّني من قبلُ ليسَ لي عنايةٌ بقراءةِ كتبِ هذا الرَّجلِ وإنْ تداولَها النَّاسُ.. لكنَّ هولَ ما ذكرتُم دفعني إلىٰ قراءاتٍ متعدِّدةٍ في عامَّةِ كتبهِ؛ فوجدتُ في كتبهِ خيرًا كثيرًا وإيمانًا مشرِّفًا وحقًّا أَبلجَ، وتشريحًا فاضحًا لمخطَّطاتِ العداءِ للإسلام.. علىٰ عثراتٍ في سياقاتِهِ واسترسالٍ بعباراتٍ ليتَه لم يفُهْ بها، وكثيرٌ منها ينقضُها قولُه الحقُّ في مكانٍ آخرَ والكمالُ عزيزٌ، والرَّجلُ كان أَديبًا نقَّادةً.. ثمَّ اتَّجهَ إلىٰ خدمةِ الإسلام من خلال القرآنِ العظيمِ والسُّنَّةِ المشرَّفةِ، والسِّيرةِ النَّبويَّةِ العطرةِ؛ فكان ما كانَ من مواقفَ في قضايا عصرِهِ، وأَصرَّ علىٰ موقفِهِ في سبيلِ الله تعالىٰ، وكشفَ عن سالفتِهِ، وطُلبَ منه أَن يسطِّرَ بقلمهِ كلماتِ اعتذارٍ، فقالَ كلمتَه الإيمانيَّةَ المشهورةَ: (إنَّ أُصبعًا أَرفعهُ للشَّهادةِ لن أَكتبَ به كلمةً تضارُّها!) أَو كلمةً نحوَ ذلك، فالواجبُ على الجميعِ الدُّعاءُ لهُ بالمغفرةِ، والاستفادةُ من علمِهِ، وبيانُ ما تحقَّقنا خطأَهُ فيهِ، وإنَّ خطأَهُ لا يوجبُ حرمانَنا من علمهِ ولا هجرَ كتبهِ!

اعتبرْ ـ رعاك الله ـ حالَه بحالِ أَسلافٍ مضَوا، من أَمثالِ أَبي إسماعيلَ الهرويِّ والجيلانيِّ.. كيف دافعَ عنهما شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ مع ما لديهمَا من الطَّوامِّ؛ لأَنَّ الأَصلَ في مسلكِهما نصرةُ الإسلام والسُّنَّة، وانظر «منازلَ السَّائرين» للهرويِّ رحمه الله تعالىٰ ترَ عجائبَ لا يمكنُ قبولُها.. ومع ذلك فابنُ القيِّمِ يعتذرُ عنه أَشدَّ الاعتذارِ ولا يجرِّمُه فيها، وذلك في شرحهِ «مدارج السَّالكين» وقد بسطتُ في كتابِي: «تصنيف النَّاس بين الظَّنِّ واليقين»...)[1].

(١) «الخطاب الذهبي في الرد على ربيع المدخلي» بكر أَبو زيد.

٤ ـ شيخُنا العلَّامةُ.. عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز رحمه الله:

سُئِلَ عن كُتب سيِّد قُطْب والمودوديِّ وأَبي الحسنِ النَّدْويِّ؟

فأَجابَ: (**كتبُ هؤلاءِ الثَّلاثةِ رحمهم الله كلُّها كتبٌ مفيدةٌ.. فيها خيرٌ كثيرٌ.. ولا تخلو من بعضِ الأَغلاطِ، كلُّ إنسانٍ يؤخذُ من قولِه ويتركُ، ليسُوا معصومينَ، وطالبُ العلمِ إذا تأَمَّلها عرفَ ما فيها من الأَخطاءِ، ووجهَهُ من الحقِّ، وهم رحمهم الله قد اجتهدوا في الخيرِ ودعَوا إلى الخيرِ وصبرُوا على المشقَّةِ في ذلك...**)[١].

٥ ـ شيخُنا المُحَدِّثُ العلَّامةُ.. محمد ناصر الدِّين الأَلباني رحمه الله:

قال في سيِّد قُطُب: (**الرَّجلُ ليسَ عالمًا؛ لكنْ له كلماتٌ عليها نورٌ عليها علمٌ... وهناكَ فصلٌ قيِّمٌ جدًّا في كتابِ «معالم في الطَّريق» أَظنُّ عنوانَه: «لا إله إلَّا الله منهجُ حياة» وأَنا أَعتقدُ أَنَّ العنوانَ هذا كثيرٌ من إخوانِنا السَّلفيِّينَ ما تبنَّوا معناه...**). وقال في مكانٍ آخرَ: (**يكفي أَنَّهُ رجلٌ مسلمٌ، وكاتبٌ إسلاميٌّ ـ علىٰ حسَبِ مفهومِهِ للإسلام كما قلتُ أَوَّلًا ـ وأَنَّهُ قُتلَ في سبيلِ دعوتهِ للإسلام، والَّذينَ قتلوهُ هم أَعداءُ الإسلام، وأَنَّهُ كانَ غيورًا على الإسلام، وعلى الشَّبابِ المسلمِ، وأَنَّهُ يريدُ إقامةَ الإسلام، ودولةِ الإسلام...**).

وقال أَيضًا: (**هذا رَجُلٌ نحنُ نُجِلُّهُ علىٰ جهادِهِ...**)[٢].

---

(١) فتاوى برنامج «نور على الدرب» وانظر: الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز: https://binbaz.org.sa/old/38125

(٢) انظر: كلمة كلمة حق وإنصاف في مؤلفات سيد قُطُب رحمه الله في موقع طريق الإسلام الرابط: https://ar.islamway.net/lesson/37412

و«حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧.



٦ ـ شيخُنا العلَّامة.. عبد اللَّه بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله:

سُئِلَ عن سيِّد قُطُب وكتبِه، فقالَ: (إنَّ سيِّد قُطُب وحسن البنا من علماءِ المسلمينَ ومن أَهلِ الدَّعوةِ، وقد نصرَ اللهُ بهما وهدىٰ بدعوتهما خلقًا كثيرًا، ولهما جهودٌ لا تُنكرُ، ولأَجلِ ذلك شفعَ الشيخُ عبد العزيز بن باز في سيِّد قُطُب عندما قُرِّرَ عليهِ القتلُ، وتلطَّفَ في الشَّفاعةِ.. فلم يقبلْ شفاعتَه الرئيس جمال ـ عليه من الله ما يستحقُّ ـ ولما قُتلَ كلٌّ منهما أَطلقَ علىٰ كلِّ واحدٍ أَنَّه شهيدٌ؛ لأَنَّهُ قُتِلَ ظلمًا، وشهدَ بذلك الخاصُّ والعامُّ، ونُشِرَ ذلكَ في الصُّحفِ والكتبِ بدونِ إنكارٍ، ثمَّ تلقَّى العلماءُ كتبَهما، ونفعَ الله بهما، ولم يطعنْ أَحدٌ فيهما منذ أَكثرَ من عشرينَ عامًا، وإذا وقعَ لهم مثلَ ذلك كالنَّوويِّ والسُّيوطيِّ، وابنِ الجوزيِّ وابنِ عطيَّةَ، والخطَّابيِّ والقسطلانيِّ، وأَمثالهم كثير...)[1].

٧ ـ فضيلةُ الشيخ العلَّامة حمود بن عُقلاء الشُّعيبي رحمه الله:

سُئِلَ عن سيِّد قُطُب، فقال: (فإنَّ المفكِّرَ الأَديبَ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له أَعداءٌ كثيرونَ، يختلفونَ في كيفيَّةِ النّقدِ وأَهدافِه والغايات منه، ويتّفقون في مصالحَ مشتركةٍ، وقبلَ أَنْ أَكشفَ بطلانَ مثالبِ الجارحينَ والمطاعنِ الموجَّهةِ إلىٰ سيِّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُبيِّنُ أَوَّلًا لماذا يُستهدفُ سيِّد قُطُب خاصةً؟ ومَن المستفيدُ من إسقاطِهِ؟!

إنَّ سيِّدًا رحمه الله يُعَدُّ في عصره علمًا من أَعلامِ أَصحابِ منهج مقارعةِ

---

(١) نشرت في «سيد قُطُب صاحب الظلال» لتوفيق الواعي وإبراهيم منير ص ١١٤ ـ ١١٥، ط١ مكتبة المنار الإسلامية بالكويت. وفي موقع الشيخ الإلكتروني.

الظَّالمينَ والكفرِ بهم، ومن أَفذاذِ الدُّعاةِ إلىٰ تعبيدِ النَّاسِ لربِّهم، والدَّعوةِ إلىٰ توحيدِ التَّحاكمِ إلى الله، فلم يقضِّ إلَّا مضاجعَ أَعداءِ الله ورسولِهِ كجمال عبد الناصر وأَمثالِه! وما فرِحَ أَحدٌ بقتلِه كما فرِحَ أَولئك، ولقد ضاقَ أُولئك الأَذنابُ بهذا البطلِ ذرعًا، فلما ظنُّوا أَنَّهم قد قتلوهُ إذا بدمهِ يُحييْ منهجَه ويشعلُ كلماتِه حماسًا، فزاد قبولُه بين المسلمينَ وزادَ انتشارُ كتبِه؛ لأَنَّه دلَّلَ بصدقِه وإقدامِه علىٰ قوَّةِ منهجه، فسعَوا إلىٰ إعادةِ الطَّعنِ فيهِ رغبةً منهم بقتلِ منهجه ـ أَيضًا ـ وأَنَّىٰ لهم ذلك.

فاستهدافُ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ الله لم يكنِ استهدافًا مجرَّدًا لشخصِه، فهو ليسَ الوحيدَ من العلماءِ الَّذين وُجدتْ لهم عثراتٌ، فعندهُ أخطاءٌ لا ننكرُها، ولكنَّ الطَّعنَ فيه ليس لإسقاطِه هو بذاتِه ـ فقد قدِم إلىٰ ربِّه ونسأَلُ الله له الشَّهادة ـ ولكنَّ الَّذي لا زالَ يقلقُ أَعداءَه وأَتباعَهم هو منهجُه الَّذي يخشونَ أَنْ ينتشرَ بينَ أَبناءِ المسلمينَ... وسيِّد رَحِمَهُ الله لا ندَّعي له العصمةَ من الخطأ؛ بل نقولُ: إنَّ له أَخطاءً ليس هذا مجالُ تفصيلِها، ولكنَّها لا تخلُّ بأَصل دعوتِه ومنهجه، كما أَنَّ عند غيرِه من الأَخطاءِ الَّتي لم تقدحْ في منـزلتِهم، وعلىٰ سبيلِ المثال: ابن حجر والنووي وابن الجوزي وابن حزم، فهؤلاء لهم أَخطاءٌ؛ إلَّا أَنَّ أَخطاءَهم لم تجعلْ أَحدًا من أبناءِ الأُمَّة ولا أعلامِها يمتـنعُ من الاستفادةِ منهم أَو يهضمُهم حقَّهم وينكرُ فضلَهم، فهم أَئمَّةٌ إلَّا فيما أَخطؤوا فيه، وهذا الحالُ مع سيِّد رَحِمَهُ الله فأَخطاؤه لم تقدحْ في أَصلِ منهجه ودعوتِه لتوحيدِ الحاكميَّةِ وتعبيدِ النَّاس لربِّهم... فالقولُ الفصلُ في سيِّد رَحِمَهُ الله أَنَّ أَخطاءَه مغمورةٌ في جانبِ فضائلِه ودفاعِه عن «لا إله إلَّا الله»، لا سيَّما أَنَّه حقَّقَ أُصولَ المعتقدِ الصَّحيح رَحِمَهُ الله.



وختامًا: لا يسعني إلَّا أَنْ أَذكرَ أَنَّني أَحسِبُ سيِّدًا ـ والله حسيبُه ـ يشملُه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ» فنحسبُ أَنَّ سيِّدًا رَحِمَهُ اللَّهُ قد حقَّقَ ذلك الشَّرطَ حيث قالَ كلمةَ حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ فقتله...)[1].

٨ ـ فضيلةُ الشَّيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه آل الشيخ، مفتي السعوديَّة:

سُئِلَ عن سيِّد قُطُب وبعضِ أَقواله، فقال وفقه الله: (يا إخواني تفسيرُ سيِّد قُطُب «في ظلال القرآن» هو كتابٌ ليسَ تفسيرًا؛ لكنَّه قال: في ظلالِ القرآن، يعني كأَنَّه يقولُ للمسلمين: هذا القرآنُ نظامُ الأُمَّة تعيشُ في ظلاله، فاستقُوا من آدابِه، وانهلوا من معينه الصَّافي، وأَقبلوا بقلوبِكم على القرآنِ لتجدُوا فيه علاجَ مشاكلِكم وحلَّ قضاياكم وتفريجَ هومِكم إلىٰ آخره.

والكتابُ له أُسلوبٌ عالٍ في السِّياقِ، هذا الأُسلوبُ الَّذي كتبَ به السيِّدُ كتابَه قد يظنُّ بعضُ النَّاس باديَ ذي بدءٍ من بعضِ العباراتِ أَنَّ فيها شركًا أَو أَنَّ فيها قدحًا في الأَنبياء أَو أَنَّ وأَنَّ...! ولو أَعاد النَّظرَ في العبارةِ لوجدها أُسلوبًا أَدبيًّا راقيًا عاليًا، لكن لا يَفهمُ هذا الأُسلوبَ إلَّا مَن تمرَّسَ في قراءةِ كتابه، والكتابُ لا يخلو من ملاحظاتٍ كغيره ولا يخلو من أَخطاءٍ، لكن في الجملةِ: الكاتبُ كتبَه غيرةً وحميَّةً للإسلام، والرَّجلُ هو صاحبُ تربيةٍ وعلومٍ ثقافيَّةٍ عامَّةٍ... أَنا أَقولُ: طالبُ العلم إنْ قرأَ به يستفيدُ... والرَّجلُ له جهادٌ، تعلمونَ أَنه استشهدَ أَو قتلَ شهيدًا رَحِمَهُ اللَّهُ وله كتبٌ كان فيها أَخطاءٌ

---

(١) كتبه الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٤٢١هـ، ونشر على العديد من المواقع الإلكترونية ونقله الدكتور صلاح الصاوي في موقع فتاوى الصاوي:

http://fatawaalsawy.com

فتراجعَ عنها؛ لأَنَّ كتابةَ تفسيرِ القرآنِ ربَّما عدَّلت منهجَه السَّابق، والقرآنُ لاشكَّ أَنَّ مَن اعتنىٰ به وأَكثرَ من قراءتِه ينقلُه من حالٍ إلىٰ حال)[1].

٩ ـ فضيلةُ الشَّيخ العلاَّمة الفاضل بن عاشور[2] رحمه الله :

كتب مقالة في استشهاد سيِّد قُطُب بعنوان: « موت سيد قطب : أَفْرَحَنَا وأَحْزَنَنَا » قال فيها رحمه الله :

(لا شك أَنَّ تنفيذ الحُكم بالإعدام علىٰ سيِّد قُطُب يعتبره الموقنون بحقيقة جهاده الإسلامي تتويجًا لحياته المَاجدة؛ لأَنَّ الشَّهادة في سبيل الله هي أَقصىٰ ما يتطلَّع إليه أَصحاب النُّفوس الإسلامية المؤمنة المُطمئنة، ولذلك فإن موت سيِّد قُطُب أَفْرَحَنَا وَأَحْزَنَنَا: أَفْرَحَنَا بما رزقه الله من مقام الشَّهادة، ونرجو الله أن يَجْزِيه أَجر العاملين المُسْتَشْهِدين في سبيله. وَأَحْزَنَنَا للفراغ العظيم الذي يتركه في محيط الفكر الإسلامي أخونا المرحوم سيِّد قُطُب.. فقد كان رجلاً سَامِي القيمة مُتَعَدِّد نواحي العظمة، فهو زيادة علىٰ كونه مُجَاهِداً كاملاً في قضية الإسلام، كان إلىٰ جانب ذلك شَاعِرًا وكاتبًا

---

(١) من « برنامج نور على الدرب »، وسمعته بنفسي، وهو موجود بصفحة الشيخ الإلكترونية.

(٢) هو ابن المُفَسِّر صاحب «التحرير والتنوير» تُوفِّي قبل والده بثلاث سنوات (١٩٠٩م – ١٩٧٠م) وهو إمامٌ في اللُّغة وعلومها، وإمامٌ في علوم الشَّرع ومنها التفسير الذي كتب فيه (التفسير ورجاله) مفتي أَهل تونس في عَصْره، وعميد كلية الزيتونة للشريعة وأُصول الدِّين، وعضوية المَجْمع اللُّغوي بالقاهرة، وعضوية رابطة العالم الاسلامي بمكة، والعضوية في كثير من المُؤسَّسات الثقافية والاسلامية.

وهذه شهادته في أَخيه المُفَكِّر الأُستاذ سيِّد قُطُب رحمه الله ؛ رسالة لأُولئك الَّذين يُغْمطون سيِّدًا حقَّه في ادِّعاء أَنَّه لا معرفة له بعلوم الشَّرع ومنها التفسير، هذه شهادة رجل لم يكن من مدرسة سيِّد الفكرية، ولا يجامل أَحدًا، ولكن يعرف كيف يتأَول للنَّاس ليُحسن الظَّن فيهم، ويحمل كلامهم على خير المَحَامِل.. فرحمهم اللَّه جميعًا .



خياليًّا وقصصيًّا وناقدًا أَدبيًّا وحكيمًا إسلاميًّا وباحثًا في الثقافة والاجتماع ودَارسًا قرآنيًّا؛ فهذه هي النواحي السَّبْع الَّتي تتمثَّل فيها القيمة العظيمة من الناحية الفكريَّة زيادة على الناحية العلميَّة لفقيدنا سيِّد قُطُب...)[١].

وقال أَيضًا: (يعتبرُ سيِّد قُطُب بمنهجه الفلسفيِّ الموقف الحقيقيّ بين منهج التَّدين ومنهج حركة الفِكْر؛ لَأَنه يُقاوم العيوب الَّتي أَحْدَثَها النَّاس في كلٍّ من المَنْهجَين، فهو يُقَاوم الجُمُود في الدِّين، ويقاوم الاستهتار والوقاحة والشَّطَط في حرية الفكر، فينتهي بذلك إلىٰ أَنَّ غاية الفكر الحُرّ هي تأييد الدِّين وأَنَّ غاية الدِّين الحقِّ هي حماية الفِكْر الحُرّ)[٢].

١٠ ـ فضيلةُ الشَّيخُ العلَّامة الأَديب الفقيه علي الطنطاوي رحمه الله:

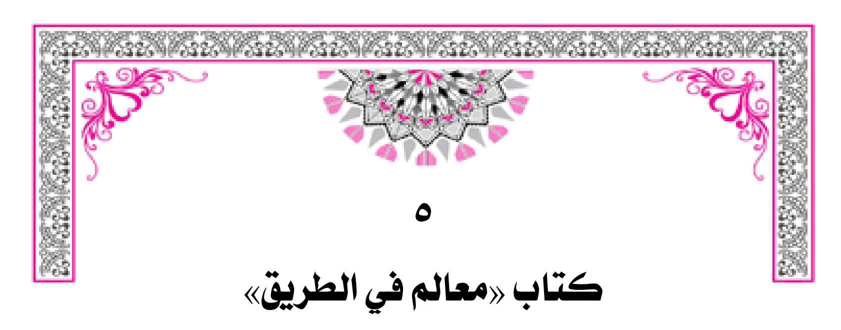
«إنِّي لم أَتَخَيَّل سيِّد قُطُب إلَّا مُقَارعًا مُحَاربًا، ولم أَعرفه إلَّا كاتبًا مُجادلًا مُناضلًا، يُهاجم مُهاجمًا ومُدافعًا ومُحَايدًا»[٣].

---

(١) «ومضات فكر»، ص ٤٤٧. ط. الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٢م.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٩.

(٣) مجلة «الرسالة»: العدد ٦٤٨ سنة ١٩٤٥م، ص ١٣١٣.



٥

كتاب «معالم في الطريق»

يُعَدُّ هذا الكتاب آخر ما صَدر لسيِّد قُطُب ﵀ قبل اعتقاله الأَخير عام ١٩٦٥م[١].

وفي هذا الكتابِ يرىٰ سيِّد قُطُب ﵀ أَنَّ قيادةَ الغربِ للعالمِ قد أَوشكت على الزَّوال؛ لأَنَّ حضارتَهم باتتْ لا تملكُ رصيدًا من القِيَم يسمحُ لهم بالقيادة! رغمَ قوَّتِهم الماديَّةِ والاقتصاديَّةِ والعسكريَّة؛ فلا بُدَّ من إيجادِ بديلٍ يملكُ القدرةَ.. وتنميةَ الحضارةِ الماديَّةِ.. الَّتي وصلَتْ إليها البشريَّةُ عن طريقِ العبقريَّةِ الأُوروبيَّةِ في الإبداعِ الماديِّ، ويزوِّدُ الإنسانيَّةَ بقيمٍ جديدةٍ.. ومنهجٍ أَصيلٍ؛ فالإسلامُ دينُ الحقِّ وحدَه الَّذي يملكُ تلكَ القيمَ وذلكَ المنهج.

ثمَّ عرضَ صفاتِ الجيلِ الَّذي يحملُ هذا المشروعَ، ويرفعُ رايةَ الإسلام المنشودِ عاليًا؛ مثلما حملَها الرَّعيلُ الأَوَّلُ.. فتحدَّثَ عن «الجيلِ القرآني الفريد».

ثمَّ عرضَ طبيعةَ المنهج القرآنيِّ في تربيةِ المجتمع الإسلاميِّ، وتكلَّمَ عن خصائصِهِ، وعن المجتمع النَّبويِّ؛ كيف كان مجتمعًا مبنيًّا علىٰ رابطةِ العقيدة، فيه رجالٌ من الفرسِ وعربٌ ورومٌ وعرقيَّاتٌ مختلفةٌ وحَّدتها

---

(١) انظر: مقدمة «مقومات التصور الإسلامي» لشقيقه محمد قُطُب، ص٥. ط الشروق.



العقيدةُ الإسلاميَّة، وذابت فيها كلُّ الفروقِ والاختلافات، وكان النَّاسُ فيها سواسيةً كأَسنانِ المشط.

لذلك وضعَ هـذا الكتابَ؛ ليُنيرَ معالمَ طريقِ القيادةِ والرِّيادةِ والسِّيادةِ لهذه الأُمَّة المرحومة؛ لأَنَّ البشريَّةَ تقفُ على الهاويةِ لفقدِها المرجعيَّةَ السليمةَ للمجتمع.

ولم يتحدَّثْ سيِّد قُطُب في كتابِه هذا كفيلسوف؛ بل استخدمَ أَدبيَّاتِ سلفِهِ الصَّالحِ من العلماءِ العاملينَ، ولكن بمفرداتِ عصرهِ ولغتهِ.. وقدَّمَ حلولًا لمشكلاتهم.

❀ «**معالم في الطريق**» **كتابُ عقيدةٍ، ومنهجٍ، وإرشادٍ، وبيانٍ لطريقِ السَّعادةِ في الدَّارين**.. بيَّن فيه حقيقةَ التَّوحيدِ الخالصِ لله تعالىٰ.. وكيفيةَ نشأَةِ المجتمع المسلم.. وأَساليبَ تربيتِه علىٰ وفقِ ما كان عليه مجتمعُ النَّبي ﷺ ومجتمعُ الصَّحابةِ الكرامِ من بعدِه رضي الله عنهم ومدىٰ علاقتِهِ بالمجتمعاتِ الأُخرىٰ.

ووضَّحَ فيه معالمَ طريقِ الدَّعوةِ إلى الله تعالىٰ، وما يحفُّه من مخاطرَ وتحدياتٍ ماديَّةٍ وفكريَّةٍ.. وبيَّنَ حقيقةَ الحركةِ الاجتماعيَّةِ بالدَّعوةِ، واستعرضَ عمليّةَ تنشئةِ الجيلِ القرآنيِّ.. ثمَّ ربطَ التَّصوُّرَ كلَّهُ بالمنهج القرآنيِّ، وطبيعتِه الملازمةِ لحياةِ المسلمِ وحركتِه في الوجود؛ فالإسلامُ نفسُهُ حقيقةٌ لا تنفصلُ عن منهج تطبيقها في الوجود.

ثمَّ أَفصحَ عن معنى الجهاد في سبيلِ الله، والتأْكيدِ علىٰ طبيعةِ المنهج القرآنيِّ في فصل «نقلة بعيدة»..

ثمَّ بيَّنَ معنىٰ استعلاءِ الإيمانِ الَّذي به يصبِرُ العبدَ علىٰ مشاقِّ هذا الطَّريقِ الوعِر.. الطَّريقِ الَّذي لم ينتهِ بمُلكٍ أَو سلطانٍ أَو تمكينٍ في الأَرض، ولكنَّه ينتهي في رحابِ الله، والشَّهادةِ في سبيل الله.

* **إنَّه حقًّا.. معالمٌ في الطَّريقِ إلى الله.. والعروج إليه سبحانه..**

هو الكتابُ الرائدُ له دورُه في مناهجِ الدَّعوةِ والتَّعليمِ بين النَّشءِ المسلم؛ يفقهُ من خلاله حقيقةَ دينهِ الحنيفِ.. ويعيَ الدَّورَ المرجوَّ منه.. تجاهَ نفسهِ ومجتمعهِ وأُمَّته.

وشتَّانَ بين هذه المعالمِ الرَّبانيَّةِ المنيرة لطريقِ سعادةِ الدَّارينِ، وبين نصوصِ وأَفكارِ عقولٍ قاصرةٍ.. تُبشِّر بفردوسٍ في الحياةِ الفانية!

* لقد كان كتابُ «**معالم في الطريق**» آخرَ ما أَبدعَه قلمُ سيِّد قُطُب رحمه الله وأَورثَه لأَبناءِ جيله، والأَجيالِ اللَّاحقةِ من بعده.. إذْ تركَ لهم خلاصةَ أَفكارٍ ثوريَّةٍ إسلاميَّة عايشَها.. وتجاربَ إيمانيَّة قاسيَة متنوِّعة.. ومحنة مريرة خاضها؛ حيثُ الظُّلم والغدرُ، والسِّجنُ والقهرُ والتَّعذيبُ والإيذاء.. وانتهىٰ كتاب: «**معالمُ في الطَّريق**» بإعدامِ الأَديبِ المحترفِ.. والمفكِّر العملاقِ.. وفريدِ عصره..

* فصارَ كتابُه هذا محطَّ أَنظارِ وعنايةِ أَبناءِ عصرِه.. بَيْدَ أَنَّ الآراءَ قد اختلفت حولَ أَفكارهِ وعباراتهِ وأَهدافِه؛ فمن معادٍ متحاملٍ عليه.. ومن متَّهِمٍ له بتكفيرِ المسلمين والدَّعوةِ إلىٰ اعتزالِ المجتمع.. ومن زاعمٍ أَنَّ سيِّد قُطُب يائسٌ محطَّمٌ.. ناقمٌ علىٰ مجتمعِه؛ فاعتبرَه خطرًا على الدَّعوةِ



معيقًا لمسيرتها.. إلىٰ طالبِ حقٍّ منصفٍ متبصِّرٍ واعٍ؛ رأىٰ فيه مَعينًا ينهلُ من فكرهِ الوقَّادِ.. ومنارةً تنيرُ له طريقَ دعوتِه إلىٰ دينِ ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ وقائدًا يُبيِّنُ له خطواتِ إصلاحِ مجتمعه.

* شهادات للكتاب:

* يقول الدكتور جعفر شيخ إدريس في وصف كتاب المعالم:

(الكتابُ الَّذي لا نعرفُ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة المعاصرة كتابًا كان أَكثر منه انتشارًا، ولا أَقوىٰ تأْثيرًا، ولا أَخطرَ نتائج، ولا أَشدَّ رعبًا لأَعداء الحركة الإسلاميَّة)[1].

* وقد مدح **شيخنا المُحدِّث محمد ناصر الدِّين الأَلباني** رحمه الله كتاب «**المَعَالِم**» في مقدمة كتابه: «مختصر العلوّ للعليِّ العظيم» للإمام الذَّهبي رحمه الله بعدما بيَّن فيها أَهمية الاهتمام بالدَّعوة لتصحيح عقائد النَّاس، وأَنَّ كثيرًا من الدُّعاة يغفلون عن ذلك..

ثمَّ ذكر انتباه سيِّد قُطُب لهذه النقطة، ونقل كلامًا له من الكتاب بصيغة التأْييد، ما يعادل ثلاث صفحات.

ومما قال رحمه الله: **(ولقد تنبه لهذا أَخيرًا بعض الدعاة الإسلامين؛ فهذا هو الأُستاذ الكبير سيِّد قُطُب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فإنَّه بعد أَن قرر تحت عنوان «جيل قرآني فريد» أَنَّ هذه الدعوة أَخرجت جيلًا مميزًا في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه، وأَنها لم تعد تخرج من ذلك الطِّراز**

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» (ص٢٣٥).

مرة أُخرىٰ، تساءل عن السبب، مع أَنَّ قرآن هذه الدعوة لا يزال وحديث الرسول وهديه العملي وسيرته الكريمة.. كلها بين أَيدينا كما كانت بين يدي ذلك الجيل الأَول.. ولم يغب إلَّا شخص رسول الله ﷺ؟...).

* نقد الكتاب:

كَثُرَت الانتقاداتُ المُوجَّهة للكتاب خاصَّة من العَلْمَانين الكارهين لما أنزل الله؛ مستغِلِّين مواقف الغُلاة الَّذين زعموا أَنَّ مرجعهم هذا الكتاب!

كما كان للكتاب نصيب من النَّقْد من بعض الكُتَّاب والمفكرين.. فبعضهم حمَّله أَكثر ممَّا يحتمل، وسبق أَن رددنا على الكثير من هذه الانتقادات[1].

وقد آثرنا أَن ننقل ـ للقارئ الكريم ـ عرضًا ونقدًا هادئًا مُنْصِفًا للكتاب، وهذا العرض والنقد كُتب بعد ظهور الكتاب مباشرة، والكاتب أَحَد رُفَقَاء سيِّد قطب رَحِمَهُ اللهُ وهو الأُستاذ محمد عبد الله السَّمان رَحِمَهُ اللهُ[2].

(١) انظر ما تقدم، ص ٣٨ ـ ٥٤. في بيان فئاتُ الَّذين واجهوا فكر سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ وبيان الانتقادات والاعتراضات الموجَّهة لفكره، والتوضيح لأَهمِّ مصطلحَينِ عند سيِّد قُطُب قد أُسِيء فهمُهما: (الجاهليَّة) و(الحاكميَّة).

(٢) أَحَدُ أشهر الكُتَّاب الإسلاميين، ولُدِ سنة (١٩١٧م) حَصَل على الليسانس في الُّلغة العربية، ثمَّ في سِنٍّ متأخرة حصل على الليسانس في القانون، ثمَّ دبلوم في الشريعة الإسلامية من جامعة عين شمس بالقاهرة، انضم إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين في (١٩٤٦م) وفي أوائل(١٩٤٨م) انتقل إلىٰ القاهرة، ورَافق حسن البنا رَحِمَهُ اللهُ وعَمِل في قسم نشر الدعوة بالمركز العام بالقاهرة، وكان علىٰ صلة خاصة بـ«عبد القادر عودة» و«سيِّد قُطُب» اعتقل أَيام «جمال عبد الناصر» وتقريبًا بعد كتابة هذا المَقَال ومقالات أُخرىٰ جريئة، فقضىٰ ستّ سنوات في المعتقل (١٩٦٥–١٩٧٠م) ولم يُفْرَج عنه إِلَّا بعد موت عبد الناصر. كَتَبَ الكثير من المؤلَّفات في مجال الفكر والدعوة، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة (٢٠٠٧ م).



قال رحمه الله تحت عنوان:

(نَقْدٌ وتَعْرِيفٌ: «مَعَالِم في الطَّرِيق» تأليف: سَيِّد قُطُب)[1]

إنَّ البشريَّةُ اليومَ تقفُ علىٰ حافَّةِ الهاويةِ.. لا بسببِ التَّهديدِ بالفناءِ المعلَّقِ علىٰ رأْسِها؛ ولكن بسببِ إفلاسِها في عالم «القِيم» .. وإزاء هذا يتحتَّم على الإِسلام أَن يؤدِّي دوره في قيادة البشريَّة؛ لأَنَّه وَحْده هو الَّذي يملك القِيَم والمَنهج الَّذي يضبط سُلوكها، ويُوجِّه غاياتها إلىٰ إنقاذ هذه البشريَّة .

وهذه هي الفكرة الأَساسيَّة الَّتي يقوم عليها كتاب الأُستاذ سيِّد قُطُب الجديد : «مَعَالِمِ في الطريق».

◉ أَمَّا هذه المَعَالِمِ فيجب أَنْ تُقَام من المَصْدَر الأَوَّل للعقيدة الإِسلاميَّة.. « القرآن» ومن توجيهاته الأَسِاسيَّة، ومن التَّصَوُّر الَّذي أَنْشِأَهُ في نُفوس الصَّفْوة المُختَارة.. «الصَّحابة» الَّتي صَنَع الله بها في الأَرض مَا شاء أَن يَصْنَع، والَّتي حوَّلت خط سِيْر التاريخ مرَّة إلىٰ حيث شاء الله أَن يَسير .

◉ **المؤلِّف** يعرض هذه المَعَالِمِ، فيُشير إلىٰ أنَّ هنالك ظاهرة تاريخيَّة، يجب أن نقف أَمامها طويلاً؛ لأَنَّها ذات أَثرٍ حَاسم في منهج الدعوة الإِسلامية واتِّـجَاهها.

أَمَّا هذه الظاهرة، فهي أَنَّ الدَّعوة قد أَخْرَجَتْ جيلاً مُمَيزًا في تاريخ الإِسلام كُلِّه، وفي تاريخ البشريَّة جَمِيعه.

---

(١) نُشر في « مجلة الرسالة» يناير سنة ١٩٦٥م . العدد رقم ١٠٩٨ .

ثم لم تَعُد تُخْرج هذا الطِّراز مرَّة أُخرىٰ، **ذلك** لأَنَّ النَّبْع الَّذي اسْتَقَىٰ منه ذلك الجيل هو نَبْع القرآن وَحْده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهَدْيه إِلَّا أَثَرًا من آثار ذلك النَّبْع.

۞ ثمَّ حَدَث **أَن اختلطت الينابيع، فَصُبَّت في النبَعْ الَّذي استقت منه الأَجيال التالية، فلسفة الإِغريق ومَنْطِقهم، وأَسَاطير الفُرْس وتَصَوُّراتهم، وإسرائيليَّات اليهود، ولاهُوت النَّصارىٰ، وغير ذلك من رَوَاسِب الحضارات والثَّقافات**، واخْتَلَطَ هذا كله بتفسير القرآن، وعلم الكلام، كما اختلط بالفقه والأُصُول مَعًا، وتَخرَّجَت علىٰ ذلك النَّبْع المَشُوب سَائر الأَجْيَال بعد ذلك الجيل.. فلم يتكرَّر ذلك الجيل أَبدًا.

۞ **ويشيرُ المؤلِّف إلىٰ عاملٍ أَسَاسِيٍّ آخر** غير اختلاف طبيعة النَّبْع، **ذلك هو اختلاف مَنْهَج التَّلَقِّي عمَّا كان عليه في ذلك الجيل الفريد.**

إِنَّهم في الجيل الأَوَّل، لم يكونوا يقرءون القرآن بقَصْد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التَّذَوق والمَتَاع، إنَّما كانوا يَتَلَقُّون القرآن ليَتَلَقُّوا أَمْر الله في خاصَّة شأنهم وشأْن الجماعة الَّتي يعيشون فيها، ليعملوا به فور سَماعِه.. فمنهج التَّلَقِّي للتنفيذ والعمل هو الَّذي صَنَع الجيل الأَوَّل، ومنهج التلقي للدِّراسة والمتاع هو الَّذي خرج الأَجيال الَّتي تليه.

۞ **كما يُشير المؤلِّف إلىٰ عامل ثالث**، هو أَنَّ الجيل الأَوَّل دخل في الإِسلام وقد خَلَع على عتبته كلَّ ماضيه في الجاهلية، وعاش في عزلة شعورية كاملة بين ماضيه في جاهليته وحاضره في إسلامه، أَما الأَجيال



الَّتي تليه فلم يقدر لها أَن تتخلَّص نهائيًّا من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والقيادة الجاهلية في خاصة نفوسهم .

◉ **وعندما تعرض المُؤَلِّف إلىٰ طبيعة المنهج القرآني**، أَشار إلىٰ أَنَّ القرآنَ ظلَّ طوال الفترة المكيَّة – ثلاثة عَشَر عامًا – يُعالج فحسب القضية الأُولىٰ، والقضية الكبرىٰ والقضية الأَساسيَّة في الدِّين الجديد، قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسيَّة: الأُلوهيَّة و العبوديَّة وما بينهما من علاقة، **وكان** القرآن ـ وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة ـ يخوض بها معركة ضخمة مع الجاهليَّة ورواسبها، فظهر بناء العقيدة، لا في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت، ولا في صورة جدل كلامي، ولكن في صورة تجمع عضوي حيوي، وتكوين تنظيمي مباشر للحياة، **كان** هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله، وكانت هذه هي القضية الكبرىٰ الَّتي يقوم عليها وجود الإنسان، وستظل هي القضية الكبرىٰ الَّتي يقوم عليها وجوده علىٰ توالي الأَزمان .

إنَّ طبيعة هذا الدِّين هي الَّتي قضت بهذا المنهج، فهو دين يقوم كله علىٰ قاعدة الأُلوهيَّة الواحدة.. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأَصل الكبير، وهذا جانب من سِرِّ هذا الدِّين وطبيعته، يُحدِّد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها، وشمولها واستغراقها لشعاب النفس كلها، ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضمانًا من ضمانات الاحتمال، والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء، والضارب من جذورها في الأَعماق .

وهناك جانبٌ آخر من طبيعة هذا الدِّين يتَجَلَّى في هذا المنهج القويم، فالإِسلام مَنْهَجٌ عمليٌّ حركيٌّ جاد، جاء ليَحْكُم الحياة في واقعها، ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأَمْرِه، يقره أَوْ يعدِّله أَوْ يغيّره من أَسَاسه، فهو ليس نظرية تتعامل مع الفُرُوض، ولكنه مَنْهَجٌ يتعامل مع الواقع، والَّذين يريدون من الإِسلام اليوم أَن يَصُوغ نظريات، وأَن يصوغ قوالب نظام، وأَن يصوغ تشريعات للحياة - بينما ليس على وجه الأَرضي مجتمع قد قرر فعلًا شريعة الله وَحْدَها - هؤلاء لا يدركون طبيعة هذا الدِّين، ولذلك يريدون منه أَنَّه يغيّر طبيعته ومنهجه وتاريخه، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته، ليُلَبِّي رغبات في نفوسهم إنَّما تنشئها الهزيمة الداخلية في أَرواحهم .

وعندما أَشَار المؤلِّف إلى أَنَّ «**لا اله إِلَّا الله**» منهج حياة، ذكر أن العبودية لله وَحْده هي شطر الركن الأَوَّل في العقيدة الإِسلامية المُتَمَثِّل في «**شهادة أن لا إله إِلَّا الله**» والتَّلَقِّي عن رسول الله في كيفية هذه العبوديَّة ـ هو شطرها الثاني المُتَمَثِّل في «**شهادة أَنَّ محمَّدًا رسول الله**» والقلب المؤمن المسلم هو الَّذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها؛ لأَنَّ كل ما بعدها من مُقَوِّمات الإيمان وأَركان الإِسلام إنَّما هو مُقتَضىٰ لهما، والمجتمع المسلم كذلك هو الَّذي تتمثل فيه تلك القاعده ومقتضياتها جميعًا، ومِنْ ثم تُصْبِح «**شهادة أَنَّ لا إله إِلَّا الله وأَنَّ محمَّدًا رسول الله**».. قاعدة لمنهج كامل تقوّم عليه حياة الأُمَّة المسلمة بحذافيرها.



وهذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفَصْل في قضايا أَسَاسيَّة بالغة الخطورة؛ لأَنَّها أَساسيَّة في حقيقة هذا الدِّين، يفيدنا في تحديد طبيعة المجتمع المُسْلم ومنهج نشأة المجتمع المُسْلم، ومنهج الإِسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية، ثمَّ منهج الإِسلام في مُواجهة واقع الحياة البشريَّة..

◉ **وأَخيرًا:** جعل المؤلِّف من قصة أَصحاب الأُخدود، الطريق الوحيد إلىٰ بعث إسلامي، والمنهج السليم لصياغة أُمَّة إسلاميَّة، فقد ارتفع الإيمان بقلوب أَصحاب الأُخدود علىٰ الفتنة، وانتصر في قلوبهم الإيمان على الحياة، فلم تُفْتَن عن دينها وهي تُحْرَق بالنَّار حتىٰ تموت؛ لأَنَّ قلوبها تحرَّرت من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حبُّ البقاء وهي تُعَاين المَوت بهذه الطريقة البَشِعة، وانطلقت من قُيود الأَرض وجوانبها جميعًا، و ارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

◉ **وبعد:** فمما لا ريب فيه أَن كتاب الأُستاذ سيِّد قُطُب وَثْبَةٌ جريئة في التفكير، تؤكد أَنَّهُ لا بُدَّ من بَعْثٍ إسلاميٍّ جديد، إذا أُرِيدَ إنقاذ البشريَّة من شقوة الجاهليَّة، ولا بُدَّ لهذا البَعْث من «**مَعَالِمٍ في الطَّرِيق**» تُلْقي أَضواء علىٰ دَوْرِه و مُهِمَّته وغَايته، و نُقَط البَدْء فيه، ولا بُدَّ لهذه المَعَالِم أَن تُقَام من المصدر الأَوَّل للعقيدة، وهو القرآن: من توجيهاته الأَساسيَّة، ومن التَّصَوُّر الَّتي أَنْشأه في نفوس الصَّفوة المُختارة الَّتي صَنَع الله بها في الأَرْض مُعجزة التاريخ .

◉ **إِلَّا أَنَّ في الكتاب وقَفَات يسيرة:**

۞ **فاعتبار المُؤَلِّف: أَنَّ القرآن المكيِّ خلال الثلاث عشرة سَنَة خدم قضية العقيدة وَحْدَهَا !** قولٌ فيه نَظَر!

فالمعروف أَنَّ الطابع الَّذي تفوَّق في هذه الفترة المكيَّة هو طابع العقيدة في العَرْض القرآني، وإلىٰ جانب التَّفوق في جانب العقيدة، اهتمَّ القرآن ـ أَيضاً ـ بالسُّلوك والأَخلاق وقصص السَّابقين لاقتباس العِظَة والعِبرة ما لا في مجال العقيدة وَحْدَها، بل في مجال السُّلوك أيضًا، فسورة يوسف مثلًا وهي مكيَّة - باستثناء أَربع آيات - لا تكاد تتعدَّي الآيات الَّتي تتَّصل بالعقيدة بِضْع آيات.

۞ **ولَسْنَا مع المؤلِّف: في أَنَّ الإِسلام يرفض آية حَضَارة إِلَّا إذا كان مَصْدَرها الإِسلام!**

لأَنَّ الحضارة في كلِّ زمان ومكان قيمة مشتركة بين النَّاس جميعًا، ومجهود بشري لا يختص بجِنس دون جنس، وحتىٰ في الصَّدر الأَوَّل للإِسلام، اقتبست بعض الأَنظمة الرومانية والفارسية في مجال السياسيَّة والحُكْم وغيرهما، و كل ما يفعله الإِسلام إزاء الحضارة ـ أَيَّة حضارة ـ أَنْ يوجّه سُلوكها وغاياتها.

۞ **والمؤلِّف** يُدْرك بالطبع أَنَّ الإِسلام قد مَرَّ بتجربة القيادة، وتسبَّب المجتمع المُسْلِم في فشلها أَكثر من مرَّة، فإذا أَرَادَهُ علىٰ أَن يدخل تجربة



جديدة، **فلا بُدَّ من تسليط الأَضواء أَوَّلًا علىٰ أَسباب الفَشَل، لتبدأ مَعَالِم الطريق**، وهذا ما لم يكن واضحًا مَلْمُوسًا في منهج الكتاب .

ومثل هذه الوَقَفَات اليَسِيرة لا يُنقص قَدْرِ الكتاب في مجال الفكر الحُرّ الجَريء، وفي مجال التفكير المَنْطِقى السَّليم..

⊙ ⊙ ⊙

❊ ومن هنا فقد أَوْلَيْنا هذا الكتابَ القيِّمَ «**مَعَالم في الطريق**» عنايتَنا وحَرصْنَا علىٰ نشرهِ بين أَبناءِ هذا الجيلِ المبارك؛ ليحملوا التربيةَ الإسلاميَّةَ العاليةَ الَّتي كان سيِّد قُطُب يَسْعىٰ لها..

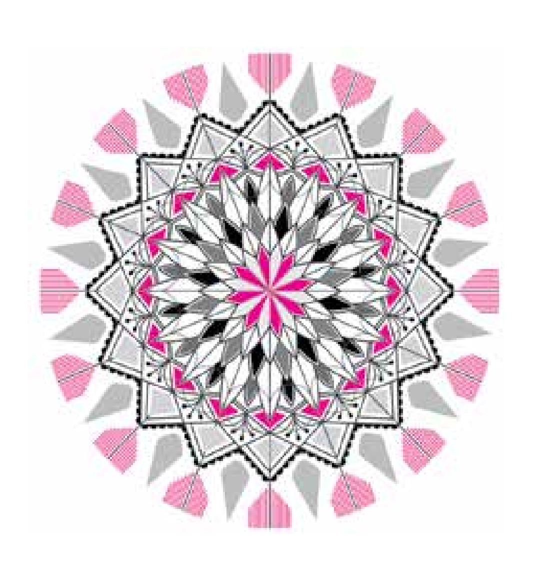
يقول رحمه الله: (**المسأَلةُ ليست هي النَّصر؛ إنَّما هي تربيةُ الجماعةِ المسلمة، الَّتي تُعَدُّ لتتسلَّمَ قيادةَ البشريَّةِ.. البشريَّةِ بكلِّ ضعفِها ونقصِها، وبكلِّ شهواتِها ونزواتِها، وبكلِّ جاهليَّتها وانحرافِها.. وقيادتُها قيادةً راشدةً تقتضي استعدادًا عاليًا من القادة**).





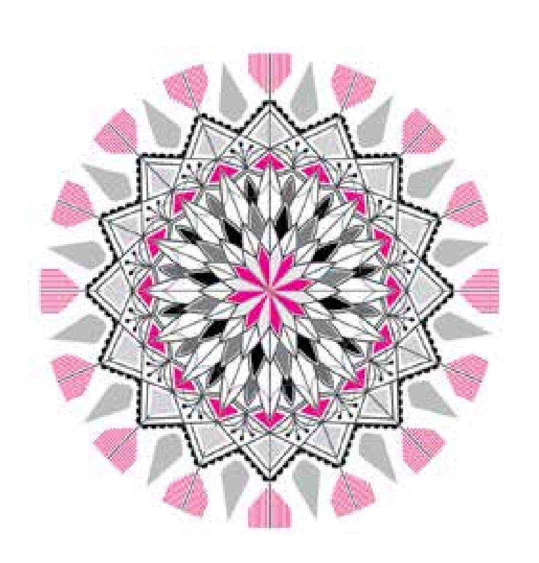

سَيِّد قُطب

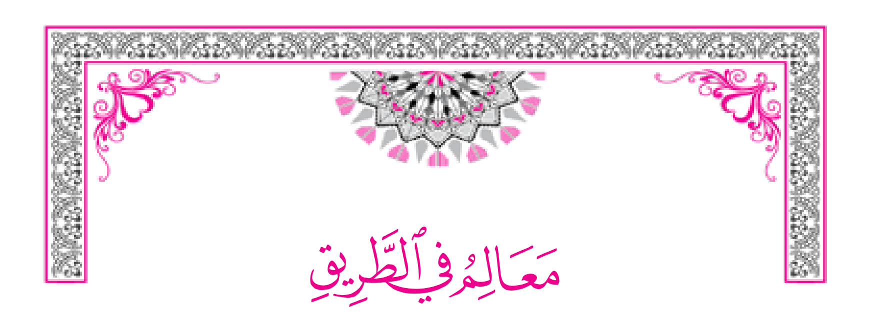
مَعَالِم فِي الطَّرِيق



ٱلْمُحْتَوَيَات

***





مَعَالِمُ فِي الطَّرِيقِ

تقفُ البشريَّةُ اليومَ علىٰ حافَّةِ الهاويةِ.. لا بسببِ التَّهديدِ بالفناءِ المعلَّقِ علىٰ رأْسِها.. فهذا عَرَضٌ للمرض، وليسَ هو المرضُ.. ولكن بسببِ إفلاسِها في عالم «**القِيم**» الَّتي يمكنُ أَن تنموَ الحياةُ الإنسانيَّةُ في ظِلالها نموًّا سليمًا، وتترقىٰ ترقِّيًا صحيحًا[1].

وهذا واضحٌ كلَّ الوضوح في العالمِ الغربيِّ الَّذي لم يعدْ لديه ما يعطيهِ للبشريَّة من «**القيم**» بل الَّذي لم يعدْ لديه ما يُقنعُ ضميرَهُ باستحقاقِهِ للوجود، بعدما انتهتِ «**الدِّيمقراطيَّةُ**» فيه إلىٰ ما يشبهُ الإفلاسَ، حيثُ بدأَت تستعيرُ ـ ببطءٍ ـ وتقتبسُ من أَنظمةِ المعسكر الشَّرقيِّ، وبخاصةٍ في الأَنظمة الاقتصاديَّة ! تحتَ اسم الاشتراكيَّة!

كذلك الحالُ في المعسكرِ الشَّرقيِّ نفسِه.. فالنَّظريَّاتُ الجماعيَّةُ وفي مقدِّمتها الماركسيَّةُ، الَّتي اجتذبتْ في أَوَّل عهدِها عددًا كبيرًا في

---

(١) يستعمل سيِّد قُطُب رحمه الله في كتابته النقطتين المتجاورتين(..) ويكثر استعمالها في النصوص الأَدبية والشعرية.. تظهر كعلامة فصل بين مقاطع الكلام في النصوص الَّتي تحاول محاكاة الحديث العفوي.. أَو الشفوي أَشبه بفاصل زمني.. أَو مكان محذوف لتدلا علىٰ أَنَّ في موضعهما كلامًا محذوفًا أَو مضمرًا، وقد تُستعمل النقطتان في نهاية فقرات لم تتم.. أَو مفتوحة على فقرات تالية.. وقد ينطبق هذا علىٰ بعض الجمل الطويلة.

الشَّرقِ ـ وفي الغربِ نفسِه ـ باعتبارِها مذهبًا يحملُ طابعَ العقيدة، قد تراجعتْ هي الأُخرىٰ تراجعًا واضحًا من ناحيةِ «**الفكرة**» حتَّىٰ لَتكادُ تنحصرُ الآنَ في «**الدَّولة**» وأَنظمتِها، الَّتي تَبْعُدُ بُعدًا كبيرًا عن أُصولِ المذهبِ.. وهي على العمومِ تناهضُ طبيعةَ الفطرةِ البشريَّةِ ومقتضياتِها، ولا تنمو إلَّا في بيئةٍ محطَّمةٍ! أَو بيئةٍ قد أَلِفَتِ النِّظامَ الدكتاتوريَّ فتراتٍ طويلةً! وحتَّىٰ في مثلِ هذهِ البيئاتِ قد بدأَ يظهرُ فشلُها الماديُّ الاقتصاديُّ ؛ وهو الجانبُ الَّذي تقومُ عليهِ وتتبجَّحُ بهِ ـ فروسيا ـ الَّتي تمثِّلُ قمَّةَ الأَنظمةِ الجماعيَّةِ تتناقصُ غلَّاتُها بعدَ أَنْ كانتْ فائضةً حتَّىٰ في عهودِ القياصرةِ، وتستوردُ القمحَ والموادَّ الغذائيَّةَ، وتبيعُ ما لديها من الذَّهب لتحصلَ على الطَّعام، بسببِ فشلِ المزارع الجماعيَّة، وفشلِ النِّظام الَّذي يُصَادمُ الفطرةَ البشريَّةَ[1].

ولا بُدَّ من قيادةٍ للبشريَّة جديدة!

إنَّ قيادةَ الرَّجلِ الغربيِّ للبشَّريَّةِ قد أَوشكتْ على الزَّوالِ.. لا لأَنَّ الحضارةَ الغربيَّة قد أَفلستْ ماديًّا، أَو ضَعُفَتْ من ناحية القوَّة

(١) رحم الله سيِّد قُطُب.. فبعد كتابة هذا الكلامِ السَّديد بربع قرن؛ انهارت الماركسيَّةُ في معاقلها بعد قرابة السَّبعين عامًا من قيام الحكم الشُّيوعيِّ.. وإن شاءَ الله دمارَ أَمريكا قاب قوسين أَو أَدنىٰ.. بحسب السُّنن الكونيَّة! فالشُّيوعية: مذهبٌ فكريٌّ يقوم على الإلحاد، وأَنَّ المادةَ هي أَساسُ كلِّ شيء، ويفسِّرُ التَّاريخ بصراع الطبقاتِ وبالعامل الاقتصادي.. وقد ظهرت في أَلمانيا علىٰ يدِ كارل ماركس وفريدريك انجلز، وتجسَّدت في الثورة البلشفيةِ الَّتي ظهرت في روسيا سنة (١٩١٧م) بتخطيطٍ من اليهود.. وتوسَّعت علىٰ حساب غيرِها بالحديد والنَّار، وقد تضرَّرَ المسلمونَ وغيرهم منها كثيرًا.. وهناك شعوبٌ مُحِيَت بسببها من التَّاريخ؛ والآن أَصبحت الشُّيوعيَّة في ذمةِ التَّاريخ، بعد أَن تخلَّىٰ عنها الاتحادُ السُّوفيتي.. الَّذي تفكَّكَ بدوره إلىٰ دولٍ مستقلة، تخلَّت كلُّها عن الماركسيَّةِ، واعتبرتها نظريةً غيرَ قابلةٍ للتَّطبيق!

الاقتصاديَّة والعسكريَّة.. ولكنْ لأَنَّ النِّظام الغربيَّ قد انتهىٰ دَورُه؛ لأَنَّه لم يعدْ يملكُ رصيدًا من «**القِيَم**» يسمحُ له بالقيادة.

لا بُدَّ منْ قيادةٍ تملكُ إبقاءَ وتنميةَ الحضارةِ الماديَّةِ الَّتي وصلتْ إليها البشريَّةُ، عن طريقِ العبقريَّةِ الأُوروبيَّةِ في الإبداعِ الماديِّ، وتزوِّدُ البشريَّةَ بقِيَمٍ جديدةٍ جِدَّةً كاملةً ـ بالقياس إلىٰ ما عرفتْهُ البشريَّةُ ـ وبمنهجٍ أَصيلٍ وإيجابيٍّ وواقعيٍّ في الوقتِ ذاتِه.

والإسلامُ ـ وحدَه ـ هو الَّذيْ يملكُ تلكَ القيمَ، وهذا المنهجَ.

لقد أدَّتِ النَّهْضةُ العلميَّةُ دورَها.. هذا هو الدَّورُ الَّذي بدأَتْ مطالعُه مع عصرِ النَّهضةِ في القرنِ السَّادسَ عشَرَ الميلاديِّ، ووصلتْ إلىٰ ذِروتِها خلالَ القرنين الثَّامنَ عشَرَ والتَّاسعَ عشَرَ.. ولم تعدْ تملكُ رصيدًا جديدًا.

كذلك أَدَّتِ «**الوطنيَّةُ**» و«**القوميَّةُ**» الَّتي بَرزَتْ في تلكَ الفترةِ، والتَّجمُّعاتُ الإقليميَّةُ عامَّةً دورَها خلال هذهِ القرونِ.. ولم تعدْ تملكُ هي الأُخرىٰ رصيدًا جديدًا.. ثمَّ فشلتِ الأَنظمةُ الفرديَّةُ والأَنظمةُ الجماعيَّةُ في نهاية المطافِ.

ولقد جاءَ دورُ «**الإسلام**» ودورُ «**الأُمَّة**» في أَشدِّ السَّاعاتِ حرجًا وحيرةً واضطرابًا.. جاءَ دورُ الإسلام الَّذي لا يتنكَّرُ للإبداعِ الماديِّ في الأَرض؛ لأَنَّه يعدُّه من وظيفة الإنسانِ الأُولىٰ منذُ أَنْ عَهِدَ اللهُ إليهِ بالخلافةِ في الأَرض، ويعتبرُهُ ـ تحتَ شروطٍ خاصةٍ ـ عبادةً لله، وتحقيقًا لغاية الوجودِ الإنسانيِّ.



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وجاءَ دورُ «**الأُمَّة المُسْلِمة**» لتحقُّقَ ما أَرادَهُ اللهُ بإخراجِها للنَّاسِ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

۞۞۞

هلِ الأُمَّةُ المسلمةُ موجودةٌ؟

ولكنَّ الإسلامَ لا يملكُ أَنْ يؤدِّيَ دورَه إلَّا أَنْ يتمثَّلَ في مجتمعٍ، أَيْ: أَنْ يتمثَّلَ في أُمَّةٍ.. فالبشريَّةُ لا تستمعُ ـ وبخاصةٍ في هذا الزَّمانِ ـ إلىٰ عقيدةٍ مجرَّدةٍ، لا ترىٰ مِصْداقَها الواقعيَّ في حياةٍ مشهودة..

و«وجودُ» الأُمَّة المسلمة يعتبرُ قدِ انقطعَ منذُ قرونٍ كثيرةٍ.. فالأُمَّةُ المسلمةُ ليستْ «أَرضًا» كانَ يعيشُ فيها الإسلامُ. وليست «قومًا» كانَ أَجدادُهمْ في عصرٍ من عصورِ التَّاريخِ يعيشونَ بالنِّظام الإسلاميِّ.. إنَّما «الأُمَّةُ المسلمةُ» جماعةٌ من البشر تنبثقُ حياتُهمْ، وتُصوُّراتهمْ، وأَوضاعُهمْ،

وأَنظمتُهمْ، وقِيمُهمْ، وموازينُهم كلُّها.. من المنهج الإسلاميِّ..(١)

وهذهِ الأُمَّةُ ـ بهذهِ المواصفاتِ! ـ قد انقطعَ وجودُها منذُ انقطاع الحُكْم بشريعة الله من فوقِ ظهر الأَرض جميعًا.

ولا بُدَّ منْ «إعادةِ وجودِ» هذهِ «الأُمَّة» لكيْ يؤدِّيَ الإسلامُ دورَه المرتقبَ في قيادة البشريَّةِ مرةً أُخرى.

لا بُدَّ منْ «بعثٍ» لتلكَ الأُمَّة الَّتي وَارَاها رُكَامُ الأَجيالِ، ورُكَامُ التَّصوُّراتِ، ورُكَامُ الأَوضاعِ، ورُكَامُ الأَنظمةِ، الَّتي لا صِلةَ لها بالإسلام، ولا بالمنهج الإسلاميِّ.. وإنْ كانتْ ما تزالُ تزعمُ أَنَّها قائمةٌ فيما يُسمَّىٰ **«العالمَ الإسلاميّ»!!**(٢)

وأَنا أَعرفُ أَنَّ المسافةَ بين محاولةِ «البَعْثِ» وبين تسلُّم «القيادةِ» مسافةٌ شاسعةٌ.. فقد غابتِ الأُمَّةُ المسلمةُ عن «الوجودِ» وعن «الشُّهودِ» دهرًا طويلًا.

---

(١) تنبيه: يقصد سيِّد قُطُب ؒ بانقطاعِ وجود الأُمَّة المسلمة؛ انقطاعُه كدولةٍ لها نظامها وأَحكامها الخاصَّة ورجالها الَّذين يحمونَ هذه الأَحكام، وليس كما ظن بعضُ الغُلاة.. انقطاعَ دينِ الإسلام في حياة المسلمين؛ فالمسلمون بمئات الملايينِ في أَنحاء المعمورة.. أَمَّا الأُمَّة المسلمةُ الربَّانيَّةُ الَّتي تتبنَّىٰ بناء المجتمع الإسلاميِّ الراشد.. وتحكمُ بشريعة الإسلام؛ فهي غيرُ موجودةٍ الآن.. وخصوصًا بعد انهيار رمز الخلافة.. الدولةِ العثمانية!

(٢) تنبيه: نفيُ سيِّد قُطُب ؒ هنا الصِّلة بالإسلام يعني به: عدمَ الحُكْم بما أَنزل الله تعالىٰ من قِبَلِ الأَنظمةِ القائمة في بلاد المسلمين.. ولا يعني حياةَ الأَفرادِ أَلبتَّة!



وقد تولَّتْ قيادةَ البشريَّة أَفكارٌ أُخرىٰ وأُممٌ أُخرىٰ، وتصوُّراتٌ أُخرىٰ، وأَوضاعٌ أُخرىٰ فترةً طويلةً. وقد أَبدعت العبقريَّةُ الأوروبيّة ـ في هذه الفترة ـ رصيدًا ضخمًا من «**العلمِ**» و«**الثَّقافةِ**» و«**الأَنظمةِ**» و«**الإنتاجِ الماديِّ**».. وهو رصيدٌ ضخمٌ تقفُ البشريَّةُ علىٰ قمَّتهِ، ولا تفرِّطُ فيه ولا فيمنْ يمثِّلُهُ بسهولةٍ! خاصَّةً أَنَّ ما يُسمَّىٰ «**العالمَ الإسلاميَّ**» يكادُ يكونُ عاطلًا من كلِّ هذه الزِّينة!

ولكنْ لا بُدَّ ـ مع هذهِ الاعتباراتِ كلِّها ـ من «**البعثِ الإسلاميِّ**» مهما تكنِ المسافةُ شاسعةً بين محاولةِ البعثِ وبينَ تسلُّمِ القيادةِ. فمحاولةُ البعثِ الإسلاميِّ هي الخطوةُ الأُولى الَّتي لا يمكنُ تَخَطِّيها!

۞۞۞

ما الَّذي يؤهِّلُنا لقيادةِ البشريَّةِ؟

ولكي نكونَ علىٰ بيِّنةٍ من الأَمرِ، ينبغي أَنْ ندركَ ـ علىٰ وجهِ التَّحديدِ ـ مؤهّلاتِ هذهِ الأُمَّة للقيادةِ البشريَّةِ، كيْ لا نخطئَ عناصرَها في محاولةِ البعثِ الأُولىٰ.

إنَّ هذهِ الأُمَّةَ لا تملكُ الآن ـ وليسَ مطلوبًا منها ـ أَنْ تقدِّمَ للبشريَّة تفوُّقًا خارقًا في الإبداع الماديِّ، يحنيْ لها الرِّقابَ، ويفرضُ

قيادتَها العالميَّةَ من هذه الزَّاوية.. فالعبقريَّةُ الأُوروبيَّةُ قد سبقتْهُ في هذا المضمار سبقًا واسعًا. وليسَ من المنتظرِ ـ خلالَ عدةِ قرونٍ على الأَقلِّ ـ التَّفوُّقُ الماديُّ عليها! فلا بُدَّ إذنْ من مؤهِّلٍ آخرَ! المؤهِّلُ الَّذي تفتقدُه هذه الحضارةُ!

إنَّ هذا لا يعنيْ أَنْ نهملَ الإبداعَ الماديَّ. فمن واجبِنا أَنْ نحاولَ فيه جهدَنا. ولكنْ لا بوصفِهِ «**المؤهِّل**» الَّذي نتقدَّمُ به لقيادةِ البشريَّةِ في المرحلةِ الرَّاهنةِ. إنَّما بوصفِه ضرورةً ذاتيَّةً لوجودِنا.

كذلك بوصفِهِ واجبًا يفرضُه علينا «**التصوُّرُ الإسلاميُّ**» الَّذي ينوطُ بالإنسانِ خلافةَ الأَرض، ويجعلُها ـ تحتَ شروطٍ خاصَّةٍ ـ عبادةً للهِ، وتحقيقًا لغاية الوجود الإنسانيِّ.

لا بُدَّ إذنْ من مؤهِّلٍ آخرَ لقيادةِ البشريَّةِ ـ غيرِ الإبداعِ الماديِّ ـ ولنْ يكونَ هذا المؤهِّلُ سوى «**العقيدة**» و«**المنهج**» الَّذي يسمحُ للبشريَّة أَنْ تحتفظَ بنتاجِ العبقريَّة الماديَّة، تحتَ إشرافِ تصوُّرٍ آخرَ يلبِّي حاجةَ الفطرةِ كما يلبِّيها الإبداعُ الماديُّ، وأَنْ تتمثَّلَ العقيدةُ والمنهجُ في تجمُّعٍ إنسانيٍّ، أَي: في مجتمع مسلم.

۞۞۞

ما واقعُ العالمِ اليومَ؟

إنَّ العالمَ يعيشُ اليومَ كلَّهُ في «**جاهليَّةٍ**»[١].. من ناحيةِ الأَصلِ الَّذيْ تنبثقُ منهُ مقوِّماتُ الحياةِ وأَنظمتُها. جاهليَّةٍ لا تخفِّفُ منها شيئًا هذه التَّيسيراتُ الماديَّةُ الهائلةُ، وهذا الإبداعُ الماديُّ الفائقُ!

هذه الجاهليَّةُ تقومُ علىٰ أَساس الاعتداءِ علىٰ سلطانِ الله في الأَرض، وعلىٰ أَخصِّ خصائصِ الأُلوهيَّة.. وهي الحاكميَّةُ.. إنَّها تُسندُ الحاكميَّةَ إلى البشرِ، فتجعلُ بعضَهم لبعضٍ أَربابًا، لا في الصُّورة البدائيَّة السَّاذجة الَّتي عرفتْها الجاهليَّةُ الأُولى، ولكنْ في صورة ادِّعاء حقِّ وضع

(١) تنبيه: أَطلقَ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ الله وصفًا.. جامعًا.. مانعًا.. حاسمًا في فصلِه بين المصطلحات الشَّرعيَّة المرعيَّة، وبين غيره من الأَفكار والنَّظرياتِ المنحرفة، أَو المناهجِ الباطلة، أَو القوانينِ المصادمةِ لحكم الله وشرعِه، والَّتي هي من عصارةُ عقلِ الإنسان وفكره.. ذلك المخلوقُ العاجز؛ فوصف ذلك كلَّه **بالجاهليَّة**.. هو مصطلح شرعي رصين، وقدَّم علاجًا لهذا الدَّاء العضال، وبيَّن معالم طريقِ سعادة الدَّارين لعباده.. بأَنَّه في تحكيم شرع الله تعالىٰ لتنظيم الحياة، وسمَّىٰ ذلك بمصطلحٍ شرعيٍّ هو **الحاكميَّة**.

فالجاهليَّة: مصطلحٌ إسلاميٌّ أَصيلٌ يختزلُ في دلالاتِهِ معاني البعد عن هدي الله تعالىٰ ونورِه المنير.. مع الحمقِ والجهالةِ وقِصَرِ نظرِ الإنسانِ المسكين.

وكذلك الحاكميَّة: مصطلحٌ قرآنيٌّ؛ يمثِّلُ الإيمانَ المطلقَ.. بأَنَّ الحكمَ والأَمرَ في عبوديةِ العباد لله تعالىٰ وحدَه لا شريك له؛ فمن الصَّعبِ جدًّا أَن يجدَ المسلمُ الحاذق مصطلحًا آخرَ يؤدي هذه الصِّفات والدلالات مُجتمِعةً في الحالة الإنسانيةِ الَّتي صاغتها ورسَّختها الحضارةُ الغربيةُ الكافرة، ولوَّثت بها ـ علىٰ قدرٍ متفاوتٍ ـ بقاعَ الأَرض كلَّها لأَكثرَ من قرنٍ.. والحاكميةُ بما أَنَّها لفظٌ قرآنيٌّ ربانيٌّ؛ تراها تجدُ طريقها مباشرةً إلىٰ قلب المسلم وعقلِه الَّذي لا يفهم طنطناتِ الفلاسفة، ويرفضها بفطرته السليمة.. والجاهليةُ مصطلحٌ قرآنيٌّ ربانيٌّ آخرُ؛ أَحياه سيِّد قُطُب ضمن مشروعِه الفكريِّ؛ ليُعَبِّر به عن حجم الانحرافِ الَّذي ينبغي على الأُمَّة مواجهَته.

التَّصوُّرات والقِيَم، والشَّرائع والقوانين، والأَنظمة والأَوضاع، بمعزلٍ عن منهج الله للحياة، وفيما لم يأْذنْ به الله.. فينشأَ عن هذا الاعتداءِ علىٰ سلطانِ الله اعتداءٌ علىٰ عباده.. وما مهانةُ «**الإنسان**» عامَّةً في الأَنظمةِ الجماعيَّةِ، وما ظلمُ «**الأَفراد**» والشُّعوب بسيطرةِ رأس المال والاستعمار في النُّظم «**الرأسماليَّة**» إلَّا أَثرًا من آثارِ الاعتداءِ علىٰ سلطانِ الله، وإنكارِ الكرامةِ الَّتي قرَّرها اللهُ للإنسان!

وفي هذا يتفرَّدُ المنهجُ الإسلاميُّ.. فالنَّاسُ في كلِّ نظامٍ غيرِ النِّظام الإسلاميِّ، يَعبدُ بعضُهم بعضًا ـ في صورةٍ من الصُّورِ ـ وفي المنهج الإسلاميِّ وحدَه يتحرَّرُ النَّاسُ جميعًا من عبادةِ بعضِهم لبعضٍ، بعبادةِ الله وحدَه، والتلقِّي من الله وحدَه، والخضوع لله وحدَه.

وهذا هو مفترقُ الطَّريقِ.. وهذا كذلكَ هو التَّصوُّرُ الجديدُ، الَّذي نملكُ إعطاءَه للبشريَّة ـ هو وسائرُ ما يترتَّبُ عليه من آثارٍ عميقةٍ في الحياة البشريَّة الواقعيَّة ـ وهذا هو الرَّصيدُ الَّذي لا تملكُه البشريَّةُ؛ لأَنَّه ليسَ من «**منتجات**» الحضارةِ الغربيَّةِ، وليس من منتجاتِ العبقريَّةِ الأوروبيَّة! شرقيَّةً كانتْ أَم غربيَّةً.

۞۞۞



معالمُ طريق طليعة البعثِ الإسلاميِّ:

إنَّنا ـ دونَ شكٍّ ـ نملكُ شيئًا جديدًا جدَّةً كاملةً. شيئًا لا تعرفُه البشريَّةُ. ولا تملكُ هي أَنْ «تنتجَهُ»!

ولكنَّ هذا الجديدَ لا بُدَّ أَن يتمثَّلَ ـ كما قلنا ـ في واقعٍ عمليٍّ. لا بُدَّ أَنْ تعيشَ بهِ أُمَّةٌ..وهذا يقتضي عمليَّة «بعثٍ» في الرُّقعةِ الإسلاميَّة، هذا البعثُ الَّذي يتبعُه ـ علىٰ مسافةٍ ما بعيدةٍ أَو قريبةٍ ـ تَسَلُّمُ قيادةِ البشريَّة.

فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟

إنَّه لا بُدَّ من طليعةٍ تعزمُ هذهِ العَزمةَ، وتمضي في الطَّريقِ، تمضي في خضَمِّ الجاهليَّة الضَّاربةِ الأَطنابِ في أَرجاءِ الأَرض جميعًا، تمضي وهي تزاولُ نوعًا من العُزلةِ من جانبٍ، ونوعًا منَ الاتِّصالِ من الجانب الآخرِ بالجاهليَّة المحيطةِ.. ولا بُدَّ لهذهِ الطَّليعةِ الَّتي تعزمُ هذه العزمةَ من «معالمَ في الطَّريقِ» معالمَ تعرفُ منها طبيعةَ دورِها، وحقيقةَ وظيفتِها، وصُلبَ غايتِها، ونقطةَ البَدْءِ في الرِّحلة الطَّويلة..كما تعرفُ منها طبيعةَ موقفِها من الجاهليَّة الضَّاربة الأَطناب في الأَرض جميعًا..

أَين تلتقي مع النَّاسِ، وأَين تفترقُ؟

ما خصائصُها هيَ، وما خصائصُ الجاهليَّة من حولِها؟

كيفَ تخاطبُ أَهلَ هذهِ الجاهليَّة بلغة الإسلام، وفيمَ تخاطبُها؟

ثمّ تعرفُ من أَينَ تتلقَّىٰ ـ في هذا كلِّه ـ وكيفَ تتلقَّىٰ؟

هذهِ المعالمُ لا بُدَّ أَنْ تقامَ من المصدرِ الأَوَّلِ لهذهِ العقيدة.. القرآنِ.. ومن توجيهاتِه الأَساسيَّةِ، ومن التَّصوُّرِ الَّذي أَنشأَهُ في نفوس الصَّفوة المختارة، الَّتي صنعَ اللهُ بها في الأَرض ما شاءَ أَنْ يصنعَ، والَّتيْ حوَّلتْ خطَّ سيرِ التَّاريخِ مرَّةً إلىٰ حيثُ شاءَ اللهُ أَنْ يسيرَ..

۞۞۞

لهذهِ الطَّليعةِ المَرجُوَّةِ المرتقبةِ كَتَبْتُ «**مَعَالم في الطَّريق**»:

منها: أَربعةُ فصولٍ مستخرجةٌ من كتاب «**في ظلالِ القرآن**» مع تعديلاتٍ، وإضافاتٍ مناسبةٍ لموضوع كتاب المعالم[1].

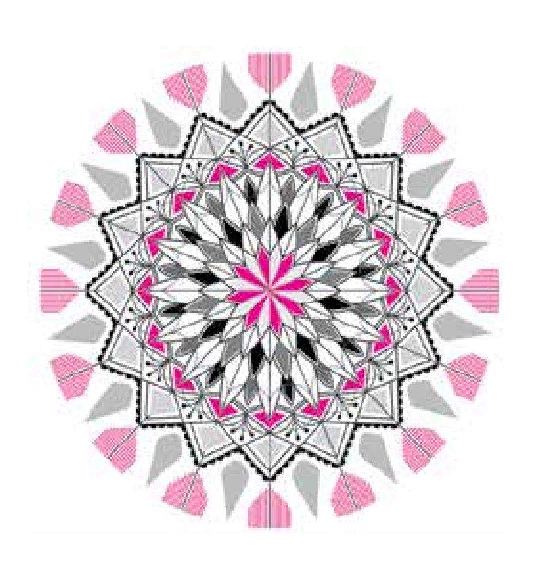
ومنها: ثمانيةُ فصولٍ ـ غيرُ هذهِ التَّقدمةِ ـ مكتوبةٌ في فتراتٍ، حسبما أَوحتْ به اللَّفتاتُ المتواليةُ إلى المنهج الرَّبّانيِّ، المُمَثَّلِ في القرآنِ الكريم.. وكلُّها يجمعُها ـ علىٰ تفرُّقِها ـ أَنَّها معالمُ في الطَّريقِ، كما هو الشأَنُ في معالمِ كلِّ طريقٍ!

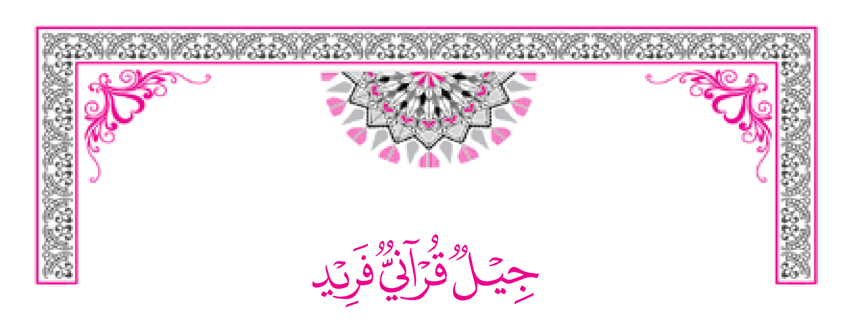
وهي في مجموعِها تمثِّلُ المجموعةَ الأُولىٰ من هذهِ «**المَعَالم**» والَّتي أَرجو أَنْ تتبعَها مجموعةٌ أُخرىٰ أَو مجموعاتٌ، كلَّما هداني اللهُ إلىٰ معالم هذا الطَّريق!

وباللهِ التَّوفيق.

---

(١) «طبيعةُ المنهج القرآنيِّ».. و«التَّصوُّرُ الإسلاميُّ والثَّقافة» و«الجهادُ في سبيلِ الله» و«نشأةُ المجتمع المسلمِ وخصائصُه». (المُؤَلِّف).





جِيلٌ قُرآنيٌّ فَرِيد

هنالكَ ظاهرةٌ تاريخيَّةٌ ينبغي أَنْ يقفَ أَمامَها أَصحابُ الدَّعوة الإسلاميَّة، في كلِّ أَرضٍ، وفي كلِّ زمانٍ، وأَنْ يقفُوا أَمامَها طويلًا، ذلك أَنَّها ذاتُ أَثرٍ حاسمٍ في منهج الدَّعوةِ واتِّجاهها.

لقد خرَّجتْ هذه الدَّعوةُ جيلًا من النَّاس ـ جيلَ الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم ـ جيلًا مميَّزًا في تاريخِ الإسلام كلِّهِ، وفي تاريخِ البشريَّةِ جميعِه، ثمَّ لم تَعُدْ تُخرِّجُ هذا الطِّرازَ مرَّةً أُخرىٰ..

نعم وُجدَ أَفرادٌ من ذلكَ الطِّرازِ علىٰ مدارِ التَّاريخِ. ولكنْ لم يحدثْ قطُّ أَنْ تجمَّعَ مثلُ ذلكَ العددِ الضَّخمِ، في مكانٍ واحدٍ، كما وقعَ في الفترةِ الأُولىٰ من حياة هذه الدَّعوةِ.

هذه ظاهرةٌ واضحةٌ واقعةٌ، ذاتُ مدلولٍ ينبغي الوقوفُ أَمامَه طويلًا، لعلَّنا نهتديْ إلىٰ سرِّه.

إنَّ قرآنَ هذه الدَّعوة بينَ أَيدينا، وحديثَ رسول الله ﷺ وهديَه العمليَّ، وسيرتَه الكريمةَ كلَّها بين أَيدينا كذلك، كما كانت بينَ أَيديْ ذلكَ الجيلِ الأَوَّلِ، الَّذيْ لم يتكرَّرْ في التَّاريخِ.. ولم يغبْ إلَّا شخصُ رسول الله ﷺ فهلْ هذا هو السِّرُّ؟



لو كانَ وجودُ شخصِ رسول الله ﷺ حتميًّا لقيامِ هذه الدَّعوةِ، وإيتائِها ثمراتِها، ما جعلَها اللهُ دعوةً للنَّاسِ كافَّةً، وما جعلَها آخرَ رسالةٍ، وما وكَّلَ إليها أَمرَ النَّاسِ في هذهِ الأَرض إلىٰ آخرِ الزَّمان..

ولكنَّ الله ـ سبحانه ـ تكفَّلَ بحفظِ الذِّكرِ، وعلِمَ أَنَّ هذهِ الدَّعوةَ يمكنُ أَنْ تقومَ بعدَ رسول الله ﷺ ويمكنُ أَنْ تؤتيَ ثمارَها. فاختارَه إلىٰ جوارِه بعد ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا من الرِّسالةِ، وأَبقىٰ هذا الدِّينَ من بعدِه إلىٰ آخرِ الزَّمانِ.. وإذنْ فإنَّ غيبةَ شخصِ رسول الله ﷺ لا تفسِّرُ تلكَ الظَّاهرةَ ولا تعلِّلُها.

۞ ۞ ۞

الصَّحابةُ والقرآن:

فلنبحثْ إذن وراءَ سببٍ آخرَ، لننظرْ في النَّبعِ الَّذي كانَ يستقي منهُ هذا الجيلُ الأَوَّلُ، فلعلَّ شيئًا قدْ تغيَّرَ فيه. ولننظرْ في المنهج الَّذي تخرَّجوا عليهِ، فلعلَّ شيئًا قد تغيَّرَ فيهِ كذلك.

كان النَّبعُ الأَوَّلُ الَّذي استقىٰ منهُ ذلكَ الجيلُ هو نبعُ القرآنِ. القرآنِ وحدَه. فما كان حديثُ رسول الله ﷺ وهَدْيُهُ إلَّا أَثرًا من آثارِ ذلكَ النَّبع.

فعندما سُئلتْ عائشةُ ﵂ عن خُلُقِ رسُولِ الله ﷺ قالت: «**كَانَ خُلقَهُ القُرْآنُ**»(١).

كانَ القرآنُ وحدَهُ إذن هو النَّبعَ الَّذي يستقونَ منه، ويتكيَّفونَ به، ويتخرَّجونَ عليه، ولم يكنْ ذلكَ كذلكَ لأنَّه لم يكنْ للبشريَّة يومَها حضارةٌ، ولا ثقافةٌ، ولا علمٌ، ولا مؤلَّفاتٌ، ولا دراساتٌ.. كلَّا! فقد كانتْ هناكَ حضارةُ الرُّومانِ وثقافتُها وكتبُها وقانونُها الَّذي ما تزالُ أوروبا تعيشُ عليهِ، أَو علىٰ امتدادِه.

وكانتْ هناكَ مخلَّفاتُ الحضارةِ الإغريقيَّةِ ومنطقُها وفلسفتُها وفنُّها، وهو ما يزالُ ينبوعَ التَّفكيرِ الغربيِّ حتَّى اليوم، وكانتْ هناكَ حضارةُ الفُرس وفنُّها وشِعرُها وأَساطيرُها وعقائدُها ونظمُ حكمِها كذلك. وحضاراتٌ أُخرىٰ قاصيةٌ ودانيةٌ: حضارةُ الهندِ، وحضارةُ الصِّين.. إلخ.

وكانتِ الحضارتانِ الرُّومانيَّةُ والفارسيَّةُ تَحفَّانِ بالجزيرةِ العربيَّةِ من شمالِها ومن جنوبِها، كما كانتْ اليهوديَّةُ والنصرانيَّةُ تعيشانِ في قلبِ الجزيرةِ.. فلم يكنْ إذنْ عنْ فقرٍ في الحضاراتِ العالميَّةِ والثَّقافات العالميَّة يقصرُ ذلكَ الجيلُ علىٰ كتابِ الله وحدَه..في فترةِ تَكَوُّنِه.. وإنَّما كان ذلكَ عن «**تصميم**» مرسوم، ونهجٍ مقصودٍ. يدلُّ علىٰ هذا القصدِ غضبُ رسول الله ﷺ وقدْ رأَىٰ في يدِ عمرَ بنِ

---

(١) رواه النَّسائي (المُؤَلِّف).

قلت: رواه مسلم (٧٤٦) في حديث طويل لعائشة ﵂ .

الخطَّابِ رضي الله عنه صحيفةً من التَّوراةِ. وقولُه: «**إنَّهُ واللهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بينَ أَظْهُرِكُم، مَا حَلَّ لهُ إلَّا أَنْ يتَّبِعَني**»(١).

وإذنْ فقدْ كانَ هناكَ قصدٌ من رسول الله ﷺ أَنْ يقصُرَ النَّبعَ الَّذي يستقيْ منهُ ذلكَ الجيل .. في فترةِ التَّكوُّنِ الأُولىٰ .. علىٰ كتاب الله وحدَه، لتخلصَ نفوسُهم له وحدَه، ويستقيمَ عودُهم علىٰ منهجه وحدَه. ومن ثَمَّ غَضِبَ أَنْ رأَىٰ عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه يستقيْ من نبعٍ آخرَ(٢).

كانَ رسولُ الله ﷺ يريدُ صُنْعَ جيلٍ خالصِ القلبِ، خالصِ العقلِ، خالصِ التَّصوُّرِ، خالصِ الشُّعورِ، خالصِ التَّكوينِ، منْ أَيِّ مؤثِّرٍ آخرَ غيرِ المنهج الإلهيِّ، الَّذي يتضمَّنُه القرآنُ الكريمُ.

ذلك الجيلُ استقىٰ إذنْ من ذلكَ النَّبعِ وحدَه. فكانَ لهُ في التَّاريخِ ذلك الشَّأْنُ الفريدُ..

ثمَّ ما الَّذي حدثَ، اختلطتِ الينابيعُ! صُبَّتْ في النَّبعِ الَّذي استقتْ منهُ الأَجيالُ التَّاليةُ فلسفةَ الإغريقِ ومنطقَهم، وأَساطيرُ الفُرسِ وتصوُّراتهم، وإسرائيليَّاتُ اليهودِ ولاهوتُ النَّصارىٰ، وغيرُ ذلك من

---

(١) رواه الحافظ أَبو يعلىٰ [ج٤/ ص١٠٢] عن حماد عن الشعبي عن جابر. (المُؤَلِّف).

قلت: ورواه الإمام أَحمد في «المسند» (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) **تنبيه**: لا يعني كلام سيِّد قُطُب رحمه الله أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستقي من نبع التَّوراة أَلبتَّة.. بل كان ذلك من باب الاطلاع علىٰ ما في التَّورة فقط؛ لأَنَّه كان يُجِيدُ قراءة اللُّغة العبريَّة..وكان كثير الجدال مع اليهود في المدينة.. ومع هذا كَرِهَ له النَّبي ﷺ ذلك!

رواسبِ الحضاراتِ والثَّقافاتِ. واختلطَ هذا كلُّه بتفسيرِ القرآنِ الكريم، وعلمِ الكلامِ، كما اختلط بالفقهِ والأُصول أَيضًا. وتخرَّجَ علىٰ ذلك النَّبعِ المَشُوب سائرُ الأَجيالِ بعد ذلكَ الجيلِ، فلم يتكرَّرْ ذلك الجيلُ أَبدًا.

وما منْ شكٍّ أَنَّ اختلاطَ النَّبعِ الأَوَّل كانَ عاملًا أَساسيًّا من عوامل ذلك الاختلاف البيِّن بين الأَجيال كلِّها وذلك الجيل المميَّزِ الفريدِ.

۞۞۞

منهج التَّلقي عند الجيل الفريد:

هناك عاملٌ أَساسيٌّ آخرُ غيرُ اختلافِ طبيعة النَّبع، ذلك هو اختلافُ منهج التَّلقِّيْ عمَّا كانَ عليهِ في ذلك الجيل الفريد..

إِنَّهم ـ في الجيلِ الأَوَّل ـ لم يكونُوا يقرؤونَ القرآنَ بقصدِ الثَّقافةِ والاطِّلاعِ، ولا بقصدِ التَّذوُّقِ والمتاع. لم يكنْ أَحدُهم يتلقَّى القرآنَ ليستكثرَ به من زادِ الثَّقافةِ لمجرَّدِ الثَّقافةِ، ولا ليضيفَ إلىٰ حصيلتِهِ من القضايا العلميَّةِ والفقهيَّةِ محصولًا يملأُ به جَعبتَهُ.

إنَّما كانَ يتلقَّى القرآنَ ليتلقىٰ أَمرَ الله في خاصَّةِ شأْنِه، وشأْن الجماعة الَّتي يعيشُ فيها، وشأْن الحياةِ الَّتي يحياها هو وجماعتُه، يتلقَّىٰ ذلكَ الأَمرَ ليعملَ بهِ فورَ سماعِه، كما يتلقَّى الجنديُّ في الميدانِ «الأَمرَ اليوميَّ» ليعملَ به فورَ تلقِّيه!



ومنْ ثَمَّ لم يكنْ أَحدُهم ليستكثرَ منهُ في الجلسةِ الواحدةِ؛ لأَنَّه كان يُحسُّ أَنَّه إنَّما يستكثرُ من واجباتٍ وتكاليفَ يجعلُها علىٰ عاتقِهِ، فكان يكتفي بعشْرِ آياتٍ حتَّىٰ يحفظَها ويعملَ بها، كما جاءَ في حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه[1].

هذا الشُّعورُ .. شعورُ التَّلقِّي للتنفيذِ .. كان يفتحُ لهم من القرآنِ آفاقًا من المتاعِ، وآفاقًا من المعرفةِ، لم تكن لِتُفْتَحَ عليهم لو أَنَّهم قصدُوا إليهِ بشعورِ البحثِ والدِّراسةِ والاطِّلاعِ، وكان يُيَسِّرُ لهم العملَ، ويخفِّفُ عنهم ثِقَلَ التَّكاليفِ، ويخْلِط القرآنَ بذواتِهم، ويحوِّلُه في نفوسِهم وفي حياتِهم إلىٰ منهجٍ واقعيٍّ، وإلىٰ ثقافةٍ متحرِّكةٍ لا تبقىٰ داخلَ الأَذهانِ، ولا في بطونِ الصَّحائف، إنَّما تتحوَّلُ آثارًا وأَحداثًا تحوِّلُ خطَّ سيرِ الحياة.

إنَّ هذا القرآنَ لا يمنحُ كنوزَهُ إلَّا لمنْ يُقْبِلُ عليهِ بهذهِ الرُّوحِ: روحِ المعرفةِ المُنْشِئَةِ للعملِ؛ إنَّهُ لم يَجِئْ ليكونَ كتابَ متاعٍ عقليٍّ، ولا كتابَ أَدبٍ وفنٍّ، ولا كتابَ قصَّةٍ وتاريخٍ ـ وإنْ كانَ هذا كلُّهُ من محتوياتِهِ ـ إنَّما جاءَ ليكونَ منهاجَ حياةٍ، منهاجًا إلهيًّا خالصًا. وكانَ اللهُ ـ سُبحانَه ـ يأْخذُهم بهذا المنهجِ مُفَرَّقًا، يتلوُ بعضُه بعضًا:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

لم ينزلْ هذا القرآنُ جملةً، إنَّما نزلَ وُفْقَ الحاجاتِ المتجدِّدةِ،

---

(١) ذكره ابنُ كثير في مقدِّمة «التفسير» (المؤلِّف).

قلت: أَخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨١) بإسنادٍ صحيح، عن ابن مسعود قال: «كان الرَّجُلُ مِنّا إذا تعلَّمَ عَشْرَ آياتٍ لم يُجاوِزْهنَّ حتى يَعرِفَ مَعانيَهُنَّ والعَمَلَ به».

ووفْقَ النُّموِّ المطَّرِدِ في الأَفكارِ والتَّصوُّراتِ، والنُّموِّ المُطَّرِدِ في المجتمع والحياةِ، ووُفْقَ المشكلاتِ العمليَّةِ الَّتي تواجهُها الجماعةُ المسلمةُ في حياتِها الواقعيَّة، وكانتِ الآيةُ أَو الآياتُ تنزلُ في الحالةِ الخاصَّةِ والحادثةِ المعيَّنةِ تُحدِّثُ النَّاسَ عمَّا في نفوسِهم، وتُصوِّرُ لهم ما همْ فيهِ من الأَمرِ، وترسمُ لهمْ منهجَ العملِ في الموقِفِ، وتصحِّحُ لهم أَخطاءَ الشُعورِ والسُّلوكِ، وتربطُهم في هذا كلِّه بالله ربِّهم، وتُعرِّفُهُ لهم بصفاتِه المؤثِّرة في الكونِ، فيحسُّونَ حينئذٍ أَنَّهمْ يعيشونَ مع الملأِ الأَعلىٰ، تحتَ عينِ الله، في رحابِ القدرة. ومن ثَمَّ يتكيَّفونَ في واقع حياتِهم، وفْقَ ذلكَ المنهج الإلهيِّ القويم.

منهج التَّلقِّيْ للتَّنفيذِ والعملِ هو الَّذي صنعَ الجيلَ الأَوَّلَ، ومنهجَ التَّلقِّي للدِّراسةِ والمتاعِ هو الَّذيْ خرَّجَ الأَجيالَ الَّتي تليهِ[1].

وما من شكٍّ أَنَّ هذا العاملَ الثاني كانَ عاملاً أَساسيًّا كذلكَ في اختلاف الأَجيال كلِّها عن ذلكَ الجيل المميَّز الفريدِ.

۞۞۞

العزلةُ الشُّعوريَّة عن المجتمع الجاهلي:

هناك عاملٌ ثالثٌ جديرٌ بالانتباهِ والتَّسجيل.

(١) هذه فكرةٌ مهمة! حَريٌّ بالدُّعاة والمُصْلحينَ أَن يتنبهوا لها.. ويولوها اهتمامَهم أَثناءَ تدريسهم للقرآن، وذلك بربطِه بالسِّيرةِ النبويَّة.. وبواقع الحياة التي نعيشها.



لقد كانَ الرَّجلُ حينَ يدخلُ في الإسلام يخلعُ علىٰ عتبتِه كلَّ ماضيهِ في الجاهليَّة، كانَ يشعرُ في اللَّحظة الَّتي يجيءُ فيها إلىٰ الإسلام أَنَّهُ يبدأُ عهدًا جديدًا، منفصلًا كلَّ الانفصالِ عن حياتِه الَّتي عاشَها في الجاهليَّة، وكان يقفُ من كلِّ ما عَهِدَهُ في جاهليَّته موقفَ المستريبِ الشَّاكِّ الحذر المتخوِّف، الَّذي يُحِسُّ أَنَّ كلَّ هذا رِجْسٌ لا يصلحُ للإسلام!

وبهذا الإحساس كان يتلقَّىٰ هَدْيَ الإسلام الجديد، فإذا غلبتْه نفسُه مرَّةً، وإذا اجتذبتْه عاداتهُ مرَّةَ، وإذا ضعفَ عن تكاليفِ الإسلام مرَّةً.. شعرَ في الحالِ بالإثم والخطيئة، وأَدركَ في قرارةِ نفسِهِ أَنَّهُ في حاجةٍ إلى التَّطهُّرِ مما وقعَ فيه، وعادَ يحاولُ من جديدٍ أَنْ يكونَ علىٰ وفْق الهَدْي القرآنيِّ.

كانت هناكَ عزلةٌ شعوريَّةٌ كاملةٌ بينَ ماضيْ المسلمِ في جاهليَّتِهِ وحاضِره في إسلامه، تنشأُ عنها عزلةٌ كاملةٌ في صِلاتِه بالمجتمع الجاهليِّ من حولِه وروابطِه الاجتماعيَّة؛ فهو قدِ انفصلَ نهائيًّا من بيئتِه الجاهليَّة واتَّصلَ نهائيًّا ببيئتِه الإسلاميَّة.

حتَّىٰ ولو كانَ يأْخذُ منْ بعضِ المشركينَ ويعطيْ في عالمِ التِّجارةِ والتَّعاملِ اليوميِّ؛ فالعزلةُ الشُّعوريَّةُ شيءٌ، والتَّعاملُ اليوميُّ شيءٌ آخرُ.

وكان هناكَ انخلاعٌ من البيئةِ الجاهليَّة، وعُرْفِها وتصوُّرِها وعاداتِها وروابِطها، ينشأُ عن الانخلاعِ من عقيدةِ الشِّركِ إلىٰ عقيدةِ التَّوحيدِ،

ومن تصوُّرِ الجاهليَّة إلىٰ تصوُّرِ الإسلام عن الحياةِ والوجودِ.

وينشأُ منَ الانضمامِ إلى التَّجمُّع الإسلاميِّ الجديدِ، بقيادتِه الجديدةِ، ومنحِ هذا المجتمع وهذه القيادةِ كلَّ ولائِه، وكلَّ طاعتِه، وكلَّ تبعيَّتِه.

وكان هذا مفرقُ الطَّريقِ، وكان بَدْءَ السَّيرِ في الطَّريقِ الجديدِ، السَّيرِ الطَّليقِ مع التخفُّفِ من كلِّ ضغطٍ للتَّقاليدِ الَّتي يتواضعُ عليها المجتمعُ الجاهليُّ، ومن كلِّ التَّصوُّراتِ والقِيَم السَّائدةِ فيه.

ولم يكنْ هناكَ إلَّا ما يلقاهُ المسلمُ من أَذىً وفتنةٍ، ولكنَّهُ هو في ذاتِ نفسِهِ قد عزمَ وانتهىٰ، ولم يعدْ لضغطِ التَّصوُّرِ الجاهليِّ، ولا لتقاليدِ المجتمع الجاهليِّ عليهِ من سبيل.

نحنُ اليومَ في جاهليَّةٍ كالجاهليَّة الَّتي عاصرَها الإسلامُ أَو أَظْلَم؛ كلُّ ما حولَنا جاهليَّةٌ.. تصوُّراتُ النَّاسِ وعقائدُهم، عاداتُهم وتقاليدُهم، مَواردُ ثقافتِهم، فُنُونُهم وآدابُهم، شرائعُهم وقوانينُهم.

حتَّىٰ إنَّ كثيرًا ممَّا نحسَبهُ ثقافةً إسلاميَّةً، ومراجعَ إسلاميَّةً، وفلسفةً إسلاميَّةً، وتفكيرًا إسلاميًّا.. هو كذلك من صنعِ هذه الجاهليَّة!![1]

لذلكَ لا تستقيمُ قيَمُ الإسلام في نفوسِنا، ولا يتَّضحُ تصوُّرُ الإسلام في عقولِنا، ولا ينشأُ فينا جيلٌ ضخمٌ من النَّاسِ من ذلك الطِّرازِ الَّذي أَنشأهُ الإسلامُ أَوَّلَ مرَّة.

(١) تنبيه: يقصد رحمه الله أَنَّ واقعنا اليومَ تنوَّعت فيه أَشكالُ صور الجاهليَّة ما بين اعتقاداتٍ ضالَّةٍ مخرجةٍ من الدِّين، ومفاهيمَ منحرفةٍ مُفسِّقةٍ، وسلوكياتٍ وعاداتٍ لا تَمُتُّ لديننا الحنيف بِصِلَة!



فلا بُدَّ إذنْ ـ في منهج الحركةِ الإسلاميَّة ـ أَنْ نتجرَّدَ في فترة الحضانة والتَّكوين، من كلِّ مؤثِّراتِ الجاهليَّة الَّتي نعيشُ فيها ونستمدُّ منها.

لا بُدَّ أَنْ نرجعَ ابتداءً إلى النَّبعِ الخالصِ الَّذي استمدَّ منهُ أَولئكَ الرِّجالُ، النَّبعِ المضمونِ أَنَّه لم يَخْتلطْ، ولم تَشُبْهُ شائبةٌ.

نرجعُ إليهِ نستمدُّ منه تصوُّرَنا لحقيقةِ الوجودِ كلِّه، ولحقيقةِ الوجودِ الإنسانيِّ، ولكافةِ الارتباطاتِ بين هذينِ الوجودينِ وبين الوجودِ الكاملِ الحقِّ، وجودِ الله سبحانه.. ومن ثَمَّ نستمدُّ تصوُّراتِنا للحياةِ، وقِيَمَنا وأَخلاقَنا، ومناهجَنا للحُكم، والسِّياسة، والاقتصاد، وكلِّ مقوِّماتِ الحياة.

ولا بُدَّ أَنْ نرجعَ إليهِ ـ حين نرجعُ ـ بشُّعورِ التَّلقِّيْ للتَّنفيذِ والعملِ، لا بشعورِ الدِّراسةِ والمتاع.

نرجعُ إليهِ لنعرفَ ماذا يطلبُ منَّا أَنْ نكونَ، لنكونَ.

وفي الطَّريقِ سنلتقيْ بالجَمالِ الفنيِّ في القرآنِ، وبالقَصصِ الرَّائعِ، وبمشاهدِ القيامةِ في القرآنِ.. وبالمنطقِ الوجدانيِّ في القرآنِ.. وبسائرِ ما يطلبُه أَصحابُ الدِّراسة والمتاعِ.

ولكنَّنا سنلتقيْ بهذا كلِّه دونَ أَنْ يكونَ هو هدفَنا الأَوَّل.

إنَّ هدفَنا الأَوَّلَ أَنْ نعرفَ: ماذا يريدُ منَّا القرآنُ أَنْ نعملَ؟ ما هو التَّصوُّرُ الكلِّيُّ الَّذيْ يريدُ منَّا أَنْ نتصوَّرَ؟ كيفَ يريدُ القرآنُ أَنْ يكونَ

شعورُنا باللهِ؟ كيف يريدُ أَنْ تكونَ أَخلاقُنا، وأَوضاعُنا، ونظامُنا الواقعيُّ في الحياة؟

الاستعلاءُ على المجتمع الجاهليّ:

ثـمَّ لا بُـدَّ لـنـا مـن التخلُّصِ من ضغطِ «**المجتمع الجاهليِّ**»(١) والتَّصوُّراتِ الجاهليَّة، والتَّقاليدِ الجاهليَّة، والقيادةِ الجاهليَّة.. في خاصَّةِ نفوسِنا.. ليستْ مَهمَّتُنا أَنْ نصْطلحَ مع واقعِ هذا المجتمع الجاهليِّ، ولا أَنْ ندينَ بالولاءِ له، فهو بهذهِ الصِّفةِ ـ صفةِ الجاهليَّة ـ غيرُ قابلٍ لأَنْ نصطلحَ معه.

إنَّ مَهمَّتَنا أَنْ نغيِّرَ من أَنفسِنا أَوَّلًا، لنغيِّرَ هذا المجتمعَ أَخيرًا.

إنَّ مَهمَّتَنا الأُولىٰ هي تغييرُ واقعِ هذا المجتمع، مهمَّتُنا هي تغييرُ هذا الواقعِ الجاهليِّ من أَساسه.

هذا الواقعُ الَّذي يصطدمُ اصطدامًا أَساسيًّا بالمنهج الإسلاميِّ، وبالتَّصوُّرِ الإسلاميِّ، والَّذي يحرمُنا بالقهرِ والضَّغطِ أَنْ نعيشَ كما يريدُ لنا المنهجُ الإلهيُّ أَنْ نعيشَ.

---

(١) تنبيه: مصطلح «**المجتمع الجاهلي**» في عبارات سيِّد قُطُب رحمه الله يعني أَنَّ المجتمعَ غير ملتزم بقيم ومفاهيم دين الإسلام في جميع مجالات الحياة.. وقد يكون ذلك المجتمع كافرًا كالمجتمعات الغربية، أَو يكون غير كافر لِبُعْدِه عن مفاهيم الدِّين بارتكابه المعاصي.. مثل مجتمعاتنا في العالم الإسلامي؛ فليس كل شخص يعيش في المجتمع الجاهلي يُعدُّ كافرًا.. وعليه فإنَّ وصفه المجتمعات بالجاهلية لا يعني أَنه حكمٌ علىٰ كلِّ أَفرادها بالكُفر كما يظن بعضهم!

إنَّ أُولىٰ الخطواتِ إلىٰ طريقِنا هي أَنْ نستعليَ علىٰ هذا المجتمع الجاهليِّ وقِيَمِه وتصوُّراتِه، وألَّا نعدِّلَ نحن في قيَمنا وتصوُّراتِنا قليلًا أو كثيرًا لنلتقيَ معهُ في منتصفِ الطَّريقِ.

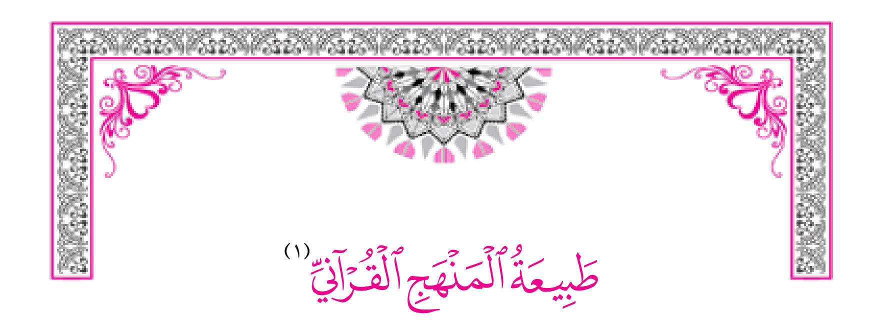
كلا! إنَّنا وإيَّاه علىٰ مفرقِ الطَّريقِ، وحين نسايِرُهُ خطوةً واحدةً فإنَّنا نفقدُ المنهجَ كلَّه ونفقدُ الطَّريقَ!

وسنلقىٰ في هذا عَنَتًا ومشقَّةً، وسَتُفرضُ علينا تضحياتٌ باهظةٌ، ولكنَّنا لسنا مخيَّرين إذا نحنُ شئنا أَنْ نسلُكَ طريقَ الجيلِ الأَوَّلِ الَّذيْ أَقرَّ اللهُ به منهجَه[١] الإلهيَّ، ونصرَه علىٰ منهج الجاهليَّة[٢].

وإنَّهُ لمنَ الخيرِ أَنْ ندركَ دائمًا طبيعةَ منهجنا، وطبيعةَ موقفِنا، وطبيعةَ الطَّريقِ الَّذي لا بُدَّ أَنْ نسلكَه للخروجِ من الجاهلِيِّة، كما خرجَ ذلكَ الجيلُ المميَّزُ الفريدُ..

(١) في الأصل المطبوع «منجه» خطأ!

(٢) هذا وصفٌ صادقٌ للموقفِ الرَّاسخِ الَّذيْ وَقَفَه سيِّد قُطُب رحمه الله في مواجهةِ جلاَّده.. وما أَشبه الليلةَ بالبارحة، وما أَشبه هذا الواقعَ المتعامي بتلك الجاهليَّةَ، وما أَشبه طواغيت اليوم بساداتِهم السَّابقين في مواجهة الحقِّ ومعاندته ومحاربةِ أَهله؛ فما كان لسيِّد رحمه الله إلَّا أَنْ يواجهَ هذا الواقعَ المريرَ المنحرفَ عن جادة الهدايةِ وفطرةِ ربِّ البريَّة، وأَن يقدِّمَ الثمنَ الباهظَ لقاء ثباتِه علىٰ مبدئه وعقيدتِه ومنهجه بمواجهته البطوليَّةِ لذلك الواقع، ممَّا جعله يتنبأُ بتلك المواجهةِ وذلك المصيرِ المحتوم؛ لأَنَّها سُنَّة الله تعالىٰ في أَنبيائه ـ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ ودعاته الصَّادقين.



طَبِيعَةُ ٱلْمَنْهَجِ ٱلْقُرْآنِيِّ[1]

ظلَّ القرآنُ المكِّيُّ ينزلُ علىٰ رسول الله ﷺ ثلاثةَ عشَرَ عامًا كاملةً، يحدِّثُهُ فيها عن قضيَّةٍ واحدةٍ.

قضيَّةٍ واحدةٍ لا تتغيَّرُ، ولكنَّ طريقةَ عرضِها لا تكادُ تتكرَّرُ، ذلكَ الأُسلوبُ القرآنيُّ يَدَعُها في كلِّ عَرضٍ جديدةً، حتَّىٰ لكأنَّما يطرقُها للمرَّةِ الأُولىٰ.

لقد كانَ يعالجُ القضيَّةَ الأُولىٰ، والقضيَّةَ الكبرىٰ، والقضيَّةَ الأَساسيَّةَ، في هذا الدِّين الجديدِ.. قضيَّةَ العقيدة.. ممثَّلةً في قاعدتِها الرئيسيَّةِ.. الأُلوهيَّةِ والعبوديَّةِ، وما بينَهما من علاقةٍ.

لقد كانَ يخاطبُ بهذه الحقيقةِ «**الإنسان**»، الإنسانَ بما أَنَّه إنسانٌ.. وفي هذا المجالِ يستوي الإنسانُ العربيُّ في ذلكَ الزَّمانِ، والإنسانُ العربيُّ في كلِّ زمانٍ، كما يستوي الإنسانُ العربيُّ وكلُّ إنسانٍ، في ذلك الزَّمانِ، وفي كلِّ زمانٍ!

---

(١) مُسْتَخرجٌ من كتاب: «في ظلال القرآن» من التَّعريف بسورة الأَنعام في الجزء السَّابع من الطبعة الثَّانية المنقَّحة مع إضافاتٍ قليلةٍ. (المُؤَلِّف).



إِنَّها قضيَّةُ «**الإنسان**» الَّتي لا تتغيَّرُ؛ لأَنَّها قضيَّةُ وجودِه في هذا الكونِ وقضيَّةُ مصيرِهِ.

قضيَّةُ علاقتِه بهذا الكونِ، وبهؤلاءِ الأَحياءِ..وقضيَّةُ علاقتِه بخالقِ هذا الكونِ، وخالقِ هذه الأَحياءِ، وهي قضيَّةٌ لا تتغيَّرُ؛ لأَنَّها قضيَّةُ الوجودِ والإنسانِ.

دورُ القرآنِ المكيِّ في بناءِ العقيدة:

لقد كانَ هذا القرآنُ المكيُّ يفسِّرُ للإنسانِ سرَّ وجودِه، ووجودِ هذا الكونِ من حولِهِ.. كانَ يقولُ لهُ: من هوَ؟ ومنْ أَينَ جاءَ؟ ولماذا جاءَ؟ وإلىٰ أَينَ يذهبُ في نهايةِ المطافِ؟ مَنْ ذا الَّذيْ جاءَ بهِ من العدمِ والمجهولِ؟ ومَن ذا الَّذيْ يذهبُ بهِ؟ وما مصيرُهُ هناكَ؟ وكان يقولُ لهُ: ما هذا الوجودُ الَّذيْ يُحِسُّهُ ويراهُ، والَّذيْ يحسُّ أَنَّ وراءَهُ غيبًا يَسْتشرِفُهُ ولا يراهُ؟ مَنْ أَنشأَ هذا الوجودَ المليءَ بالأَسرارِ؟ مَنْ ذا يُدَبِّرُهُ؟ ومَنْ ذا يُحَوِّرُهُ؟ ومَنْ ذا يُجَدِّدُ فيهِ، ويُغَيِّرُ على النَّحوِ الَّذيْ يراهُ؟ .. وكان يقولُ لهُ كذلكَ: كيفَ يتعاملُ معَ خالقِ هذا الكونِ، ومعَ الكونِ أَيضًا، كما يبيِّنُ لهُ: كيفَ يتعاملُ العبادُ معَ العبادِ؟

وكانتْ هذهِ هي القضيَّةَ الكبرى الَّتيْ يقومُ عليها وجودُ «**الإنسان**».

وستظلُّ هي القضيَّةَ الكبرى الَّتي يقومُ عليها وجودُه علىٰ توالي الأَزمانِ.

وهكذا انقضَتْ ثلاثةَ عشَرَ عامًا كاملةً في تقريرِ هذهِ القضيَّةِ الكبرىٰ، القضيَّةِ الَّتي ليسَ وراءَها شيءٌ في حياةِ الإنسانِ؛ إلَّا ما يقومُ عليها مِنَ المقتضياتِ والتَّفريعاتِ.

ولم يتجاوزِ القرآنُ المكيُّ هذهِ القضيَّةَ الأَساسيَّةَ إلىٰ شيءٍ مما يقومُ عليها من التَّفريعاتِ المتعلِّقةِ بنظامِ الحياةِ، إلَّا بعدَ أَنْ علمَ اللهُ أَنَّها قد استوفَتْ ما تستحقُّهُ من البيانِ، وأَنَّها استقرَّتْ استقرارًا مَكيْنًا ثابتًا في قلوبِ العُصبةِ المختارةِ من بني الإنسانِ، الَّتي قدَّرَ اللهُ أَنْ يقومَ هذا الدِّينُ عليها، وأَنْ تتولَّىٰ هي إنشاءَ النِّظام الواقعيِّ الَّذيْ يتمثَّلُ فيه هذا الدِّينُ.

۞۞۞

وأَصحابُ الدَّعوةِ إلىٰ دينِ الله، وإلىٰ إقامةِ النِّظام الَّذي يتمثَّلُ فيه هذا الدِّينُ في واقع الحياة، خلَيْقونَ أَنْ يقفُوا طويلًا أَمامَ هذهِ الظَّاهرةِ الكبيرةِ، ظاهرةِ تصدِّي القرآنِ المكيِّ خلالَ ثلاثةَ عشَرَ عامًا لتقريرِ هذهِ العقيدة، ثمَّ وقوفِهِ عندَها لا يتجاوزُها إلىٰ شيءٍ من تفصيلاتِ النِّظام الَّذيْ يقومُ عليها، والتَّشريعاتِ الَّتي تحكمُ المجتمعَ المسلمَ الَّذي يعتنقُها.

العقيدةُ أَوَّلًا:

لقد شاءتْ حكمةُ الله أَنْ تكونَ قضيَّةُ العقيدة هي القضيَّةَ الَّتيْ

تتصدَّىٰ لها الدَّعوةُ منذُ اليومِ الأَوَّلِ للرِّسالةِ، وأَنْ يبدأَ رسولُ الله ﷺ أُولىٰ خطواتِهِ في الدِّعوةِ بدعوةِ النَّاسِ أَنْ يشهدُوا: أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأَنْ يمضيَ في دعوتِهِ يُعرِّفُ النَّاسَ بربهم الحقِّ، ويُعبِّدَهم لهُ دونَ سواهُ.

ولم تكنْ هذهِ ـ في ظاهرِ الأَمرِ وفي نظرةِ العقلِ البشريِّ المحجوبِ ـ هي أَيسرَ السُّبلِ إلىٰ قلوبِ العربِ! فلقدْ كانُوا يعرفونَ من لغتِهم معنىٰ: «إلهٍ» ومعنىٰ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ».

كانُوا يعرفونَ أَنَّ الأُلوهيَّةَ تعني: الحاكميَّةَ العُليا.. وكانُوا يعرفونَ أَنَّ توحيدَ الأُلوهيَّةِ وإفرادَ الله ـ سُبحانَه ـ بها، معناهُ: نزعُ السُّلطانِ الَّذيْ يزاولُهُ الكُهَّان، ومشيخةُ القبائلِ، والأُمراءُ، والحكَّامُ، وردُّهُ كلُّه إلى الله.. السُّلطانُ على الضَّمائرِ، والسُّلطانُ على الشَّعائرِ، والسُّلطانُ علىٰ واقعيَّاتِ الحياةِ، والسُّلطانُ في المالِ، والسُّلطانُ في القضاءِ، والسُّلطانُ في الأَرواحِ والأَبدانِ..

كانوا يعلمونَ أَنَّ «لا إله إلَّا الله» ثورةٌ علىٰ السُّلطانِ الأَرضيِّ الَّذي يغتصبُ أُولىٰ خصائصِ الأُلوهيَّةِ، وثورةٌ على الأَوضاعِ الَّتيْ تقومُ علىٰ قاعدةٍ من هذا الاغتصابِ، وخروجٌ على السُّلطاتِ الَّتيْ تحكمُ بشريعةٍ من عندِها لم يأْذنْ بها اللهُ..

ولم يكنْ يغيبُ عنِ العربِ ـ وهم يعرفونَ لغتَهم جيِّدًا ويعرفونَ المدلولَ الحقيقيَّ لدعوةِ «لا إلهَ إلَّا اللهُ» ـ ماذا تعنيْ هذهِ الدَّعوةُ بالنِّسبةِ

لأَوضاعِهِم ورياساتِهِم وسلطانِهِم، ومِنْ ثَمَّ استقبلوا هذهِ الدَّعوةَ ـ أَو هذهِ الثَّورةَ ـ ذلك الاستقبالَ العنيفَ، وحاربُوها هذهِ الحربَ الَّتيْ يعرفُها الخاصُّ والعامُّ. فَلِمَ كانت هذهِ نقطةَ البدءِ في هذهِ الدَّعوةِ؟ ولِمَ اقتضتْ حكمةُ الله أَنْ تبدأَ بكلِّ هذا العناءِ؟

۞۞۞

حالُ المجتمع الجاهليِّ الأَوَّلِ:

لقد بُعثَ رسولُ الله ﷺ بهذا الدِّين، وأَخصبُ بلادِ العربِ وأَغناها ليستْ في يدِ العربِ، إنَّما هي في أَيديْ غيرِهم من الأَجناسِ!

بلادُ الشَّامِ كلُّها في الشَّمالِ خاضعةٌ للرُّومِ، يحكمُها أُمراءُ عربٌ من قِبَلِ الرُّومِ، وبلادُ اليمنِ كلُّها في الجنوبِ خاضعةٌ للفرسِ، يحكمُها أُمراءُ عربٌ من قِبَلِ الفُرسِ، وليستْ في أَيدي العربِ إلَّا الحجازُ وتِهامةُ ونجدٌ، وما إليها من الصَّحارى القاحلةِ الَّتي تتناثرُ فيها الواحاتُ الخصبةُ هنا وهناك.

وربَّما قيلَ: إنَّهُ كانَ في استطاعةِ محمَّدٍ ﷺ وهو الصَّادقُ الأَمينُ الَّذي حَكَّمهُ أَشرافُ قريشٍ قَبلُ في وضعِ الحجرِ الأَسودِ، وارتضَوا حُكمَهُ، منذُ خمسةَ عشَرَ عامًا قبلَ الرِّسالةِ، والَّذي هو في الذؤابةِ من بنيْ هاشمٍ أَعلىٰ قريشٍ نسبًا .. إنَّه كان في استطاعتِه أَنْ يثيرَها قوميَّةً عربيَّةً تستهدفُ تجميعَ قبائلِ العربِ، الَّتيْ أَكلتْها



الثَّاراتُ ومزَّقتْها النِّزاعاتُ، وتوجيهَها وِجهةً قوميَّةً لاستخلاصِ أَرضِها المغتصبةِ من الإمبراطوريَّات المستعمِرةِ؛ الرُّومانِ في الشِّمالِ، والفُرسِ في الجنوبِ، وإعلاءِ رايةِ العربيَّةِ والعُروبةِ، وإنشاءِ وحدةٍ قوميَّةٍ في كلِّ أَرجاءِ الجزيرةِ.

وربَّما قيلَ: إنَّهُ لو دعا رسولُ الله ﷺ هذهِ الدَّعوةَ لاستجابتْ له العربُ قاطبةً، بدلًا مِنْ أَنْ يعانيَ ثلاثةَ عشَرَ عامًا في اتجاهٍ معارضٍ لأَهواءِ أَصحابِ السُّلطانِ في الجزيرة.

وربَّما قيلَ: إنَّ محمَّدًا ﷺ كانَ خليقًا ـ بعدَ أَنْ يستجيبَ لهُ العربُ هذهِ الاستجابةَ، وبعدَ أَنْ يولُّوهُ فيهمُ القيادةَ والسِّيادةَ، وبعدَ استجماعِ السُّلطانِ في يديهِ، والمجدِ فوقَ مَفْرِقَيْهِ ـ أَنْ يستخدمَ هذا كلَّهُ في إقرارِ عقيدةِ التَّوحيدِ الَّتي بُعِثَ بها، في تعبيدِ النَّاسِ لسُّلطانِ ربِّهم بعدَ أَنْ عبَّدهمْ لسُّلطانِهِ البشريِّ!

ولكنَّ اللهَ ـ سبحانَه ـ وهو العليمُ الحكيمُ، لم يوجِّهْ رسولَهُ ﷺ هذا التَّوجيهَ! إنَّما وجَّههُ إلىٰ أَنْ يصدعَ بـ «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» وأَنْ يحتملَ هو والقِلَّةُ الَّتيْ تستجيبُ له كلَّ هذا العَنَاءِ!

لماذا؟ إنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ لا يريدُ أَنْ يُعنِّتَ رسولَه والمؤمنينَ معَهَ، إنَّما هو ـ سبحانه ـ يعلمُ أَنَّ هذا ليسَ هو الطَّريقَ، ليسَ الطَّريقُ أَنْ تُخلِّصَ الأَرضَ من يدِ طاغوتٍ رومانيٍّ، أَو طاغوتٍ فارسيٍّ، إلىٰ يدِ طاغوتٍ عربيٍّ.

فالطَّاغوتُ كلُّهُ طاغوتٌ! إنَّ الأَرضَ لله، ويجبُ أَنْ تخلُصَ لله.. ولا تخلصُ لله إلَّا أَنْ ترتفعَ عليها رايةُ: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ».

وليسَ الطَّريقُ أَنْ يتحرَّرَ النَّاسُ في هذهِ الأَرض منْ طاغوتٍ رومانيٍّ، أَو فارسيٍّ، إلىٰ طاغوتٍ عربيٍّ. فالطَّاغوتُ كلُّه طاغوتٌ!

إنَّ النَّاسَ عبيدٌ لله وحدَه، ولا يكونونَ عبيدًا لله وحدَهُ إلَّا أَنْ ترتفعَ رايةُ: «لا إلَهَ إلَّا اللهُ».

«لا إلَهَ إلَّا اللهُ» كما يدركُها العربيُّ العارفُ بمدلولاتِ لغته: لا حاكميَّةَ إلَّا لله، ولا شريعةَ إلَّا مِنَ الله، ولا سلطانَ لأَحدٍ علىٰ أَحدٍ؛ لأَنَّ السُّلطانَ كلَّهُ لله، ولأَنَّ «الجنسيَّةَ» الَّتي يريدُها الإسلامُ للنَّاسِ هيَ جنسيَّةُ العقيدة، الَّتي يتساوىٰ فيها العربيُّ والرُّومانيُّ والفارسيُّ، وسائرُ الأَجناسِ والأَلوانِ تحتَ رايةِ الله.

وهذا هو الطريق.

۞۞۞

دعوةٌ ربَّانيَّةٌ وليست حركةَ إصلاحٍ:

وبُعثَ رسولُ الله ﷺ بهذا الدِّين، والمجتمعُ العربيُّ كأَسوأِ ما يكونُ المجتمعُ توزيعًا للثروةِ والعدالةِ. قِلَّةٌ قليلةٌ تملكُ المالَ والتِّجارةَ، وتتعاملُ بالرِّبا فتتضاعفُ تجارتُها ومالُها، وكثرةٌ كثيرةٌ لا

تملكُ إلَّا الشَّظفَ والجوعَ، والَّذينَ يملكونَ الثَّروةَ يملكونَ معها الشَّرفَ والمكانةَ، وجماهيرُ كثيرةٌ ضائعةٌ من المالِ والمجدِ جميعًا!

وربَّما قيلَ: إنَّه كانَ في استطاعةِ محمَّدٍ ﷺ أَنْ يرفعَها رايةً اجتماعيَّةً، وأَنْ يثيرَها حربًا علىٰ طبقةِ الأَشرافِ، وأَنْ يُطلقَها دعوةً تستهدفُ تعديلَ الأَوضاعِ، وردَّ أَموالِ الأَغنياءِ على الفقراءِ.

وربَّما قيل: إنَّهُ لو دعا يومَها رسولُ الله ﷺ هذهِ الدَّعوةَ، لانقسمَ المجتمعُ العربيُّ صَفَّينِ: الكثرةُ الغالبةُ مع الدَّعوةِ الجديدةِ في وجهِ طغيانِ المالِ والشَّرفِ والجاهِ، والقلَّةُ القليلةُ معَ هذهِ الموروثاتِ، بدلًا منْ أَنْ يقفَ المجتمعُ كلُّه صفًّا في وجهِ «**لا إلهَ إلَّا اللهُ**» الَّتيْ لم يرتفعْ إلىٰ أُفُقِها في ذلكَ الحينِ إلَّا الأَفذاذُ منَ النَّاس!

وربَّما قيلَ: إنَّ محمَّدًا ﷺ كانَ خليقًا بعدَ أَنْ تستجيبَ لهُ الكثرةُ، وتولِّيهِ قِيَادَها، فيغلبَ بها القلَّةَ ويسلسَ لهُ مقادُها، أَنْ يستخدمَ مكانَه يومئذٍ وسلطانَهُ في إقرارِ عقيدةِ التَّوحيدِ الَّتْي بعثَهُ بها ربُّهُ، وفي تعبيدِ النَّاسِ لسُّلطانِ ربِّهم بعدَ أَنْ عبَّدَهُم لسُّلطانِه البشَريِّ.

ولكنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ وهو العليمُ الحكيمُ، لم يوجِّههُ هذا التَّوجيهَ!

لقد كانَ اللهُ ـ سبحانه ـ يعلمُ أَنَّ هذا ليسَ هوَ الطَّريقَ.. كانَ يعلمُ أَنَّ العدالةَ الاجتماعيَّةَ لا بُدَّ أَنْ تنبثقَ في المجتمع من تصوُّرٍ اعتقاديٍّ شاملٍ، يَرُدُّ الأَمرَ كلَّه لله، ويَقبلُ عنْ رضىً وعنْ طواعِيَةٍ

ما يقضيْ بهِ اللهُ مـن عـدالةِ التَّوزيعِ، ومنْ تكافلِ الجميعِ، ويستقرُّ معه في قلبِ الآخذِ والمأْخوذِ منهُ سواءً أنَّهُ ينفِّذُ نظامًا شرَعَهُ اللهُ، ويرجو على الطَّاعةِ فيه الخيرَ والحسنىٰ في الدُّنيا والآخرةِ سواءً. فلا تمتلئُ قلوبٌ بالطَّمعِ، ولا تمتلئُ قلوبٌ بالحقدِ، ولا تسيرُ الأمورُ كلُّها بالسَّيفِ والعصا، وبالتَّخويفِ والإرهابِ، ولا تفسدُ القلوبُ كلُّها وتختنقُ الأَرواحُ، كما يقعُ في الأَوضاعِ الَّتيْ تقومُ علىٰ غيرِ «لا إلهَ إلَّا اللهُ».

۞۞۞

المستوى الأَخلاقيُ في الجزيرةِ العربيَّةِ قبل بعثة النبي ﷺ:

وبُعثَ رسولُ الله ﷺ والمستوى الأَخلاقيُّ في الجزيرةِ العربيَّةِ في الدَّرْكِ الأَسفلِ في جوانبَ منهُ شتَّىٰ، إلىٰ جانبِ ما كانَ في المجتمع من فضائلِ الخامةِ البدويَّةِ.

كانَ التَّظالمُ فاشيًا في المجتمع.. تعبِّرُ عنهُ حكمةُ الشَّاعرِ **زهيرِ بنِ أَبي سُلمىٰ**:

ومَنْ لم يَذُدْ عنْ حوضهِ بسلاحِهِ ... يُهدَّمْ، ومَنْ لا يَظلمِ النَّاسَ يُظلَمِ

ويُعَبِّرُ عنِ القولِ المتعارَفِ في الجاهليَّة: (انصرْ أَخاكَ ظالمًا، أَو مظلومًا)[1].

---

(١) وقد أَقرَّ الإسلام هذا القَوْل ولكن مع العَدْل والتَّقْويم.. وشتَّان بين نهج الإسلام ونهج الجاهلية، وجاء ذلك في حديث أَنس رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**انْصُرْ أَخاكَ ظالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» **قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ**: «**تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ**» رواه البخاري(٢٤٤٤).

وكانتِ الخمرُ والميسرُ مـن تقاليدِ المجتمع الفاشيةِ، ومن مفاخرهِ كذلكَ، يعبِّرُ عن هذهِ الخَصلةِ الشِّعرُ الجاهليُّ بجملتهِ، كالَّذيْ يقولُه **طَرَفَةُ بنُ العبدِ:**

فلولا ثلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشةِ الفتىٰ ... وجَدِّكِ لمْ أَحفلْ متىٰ قامَ عُوَّدِيْ
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ ... كُميتٍ متىٰ ما تُعْلَ بالماءِ تُزبِدِ
وما زالَ تَشرْابي الخمورَ ولذَّتيْ ... وبذليْ وإنفاقيْ طريفيْ وتالِدِي
إلىٰ أَنْ تَحامَتْني العشيرةُ كلُّها ... وأُفردتُ إفرادَ البَعـيرِ المعبَّدِ

۞ ۞ ۞

صور الدَّعارة في المجتمع الجاهلي القديم:

وكانتِ الدَّعارةُ ـ في صورٍ شتَّىٰ ـ من معالمِ هذا المجتمع ـ شأْنُهُ شأْنُ كلِّ مجتمعٍ جاهليٍّ قديمٍ أَو حديثٍ ـ كالَّذي روتْهُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا:

(إنَّ النِّكاحَ في الجاهليَّة كانَ علىٰ أَربعةِ أَنحاءَ:

فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاسِ اليومَ.. يخطبُ الرَّجلُ إلى الرَّجلِ وليَّتهُ أَو ابنتَه، فيُصدِقُها ثمَّ ينكحُها..

والنِّكاحُ الآخرُ: كانَ الرَّجلُ يقولُ لامرأَتِهِ ـ إذا طهرتْ من طَمْثِها ـ: أَرسليْ إلىٰ فلانٍ فاستبضعيْ منه، ويعتزلُها زوجُها ولا يمسُّها أَبدًا حتَّىٰ يتبيَّنَ حَمْلُها من ذلك الرَّجلِ الَّذي تَستبضعُ منهُ، فإذا تبيَّنَ حملُها أَصابَها زوجُها إذا أَحبَّ، وإنَّما يفعلُ ذلك رغبةً في نجابةِ الولدِ! فكان هذا النكاحُ نكاحَ الاستبضاعِ..

ونكاحُ آخرُ: يجتمعُ الرَّهطُ ما دونَ العشَرَةِ؛ فيدخلونَ على المرأَةِ، كلُّهمْ يصيبُها، فإذا حملتْ ووضعتْ، ومرَّ عليها ليالٍ بعدَ أَنْ تضعَ حملَها، أَرسلتْ إليهمْ فلم يستطعْ رجلٌ منهمْ أَنْ يمتنعَ، حتَّىٰ يجتمعوا عندَها، تقولُ لهم: قد عرفتمُ الَّذي كان من أَمرِكم، وقد ولدتُ فهوَ ابنُكَ يا فلان! تُسَمِّيْ مَن أَحبَّتْ باسمهِ فيُلْحقُ بهِ ولدُها، ولا يستطيعُ أَنْ يمتنعَ به الرَّجلُ..

والنِّكاحُ الرَّابعُ: يجتمعُ النَّاسُ الكثيرُ فيدخلونَ على المرأَةِ لا تمتنعُ ممَّنْ جاءَها.. وهنَّ البغايا.. كنَّ ينصبْنَ علىٰ أَبوابهنَّ راياتٍ تكونُ عَلَمًا، فمنْ أَرادهنَّ دخلَ عليهنَّ، فإذا حملتْ إحداهنَّ ووضعتْ حملَها، جُمِعوا لها ودَعوا لهمُ القافةَ[1]، ثمَّ أَلحقُوا ولدَها بالَّذي يرونَ، فالْتاطَهُ، ودُعِي ابنَه لا يمتنعُ عن ذلكَ)[2].

وربَّما قيلَ: إنَّهُ كانَ في استطاعةِ محمَّدٍ ﷺ أَنْ يعلنَها دعوةً إصلاحيَّةً، تتناولُ تقويمَ الأَخلاقِ، وتطهيرَ المجتمع، وتزكيةَ النُّفوسِ.

وربَّما قيلَ: إنَّه ﷺ كانَ واجدًا وقتَها ـ كما يجدُ كلُّ مصلح أَخلاقيٍّ في أَيةِ بيئةٍ ـ نفوسًا طيِّبةً يؤذِيها هذا الدَّنسُ، وتأْخذُها الأَريحيَّةُ والنَّخوةُ لتلبيةِ دعوةِ الإصلاحِ والتَّطَهُّر.

وربَّما قالَ قائلٌ: إنَّه لو صنعَ رسولُ الله ﷺ ذلك لاستجابتْ لهُ ـ في أَوَّلِ الأَمرِ ـ جمهرةٌ صالحةٌ، تتطهَّرُ أَخلاقُها، وتزكو أَرواحُها، فتصبحُ

---

(١) «القافَة»: جمع قائِف: وهو مَن يُحسنُ معرفةَ الأَثرِ وتتبُّعَه، ويعرفُ نسبَ الإنسانِ بفراستِهِ ونظرِه إلى الأَعضاء.

(٢) رواه البخاري في «كتاب النكاح» [رقم ٤٨٣٤ من حديث عائشة رضي الله عنها] (المُؤَلِّف).



أَقربَ إلىٰ قَبولِ العقيدة وحملِها، بدلًا منْ أَنْ تثيرَ دعوةُ «**لا إله إلَّا الله**» المعارضةَ القويَّةَ منذُ أَوَّلِ الطَّرِيقِ.

۞۞۞

العقيدةُ طريقُ إصلاحِ الفردِ والمجتمع:

ولكنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ كانَ يعلمُ أَنْ ليسَ هذا هوَ الطَّريقُ! كانَ يعلمُ أَنَّ الأَخلاقَ لا تقومُ إلَّا علىٰ أَساسٍ من عقيدةٍ، تضعُ الموازينَ، وتقرِّرُ القِيمَ، كما تقرِّرُ السُّلطةَ الَّتي تستندُ إليها هذهِ الموازينُ والقيمُ، والجزاءَ الَّذي تملكُهُ هذه السُّلطةُ، وتُوقِعُهُ على المُلتزِمينَ والمخالفينَ.

وأَنَّه قبلَ تقريرِ هذهِ العقيدة، وتحديدِ هذه السُّلطةِ تظلُّ القيمُ كلُّها متأَرجحةً، وتظلُّ الأَخلاقُ الَّتي تقومُ عليها متأَرجحةً كذلك، بلا ضابطٍ، وبلا سلطانٍ، وبلا جزاءٍ!

فلمَّا تقرَّرتِ العقيدةُ[1] ـ بعدَ الجهدِ الشَّاقِّ ـ وتقرَّرتِ السُّلطةُ

(١) بناءُ العقيدة الصَّحيحةِ هو اللَّبنةُ الأُولىٰ في بناءِ المجتمع المسلمِ.. والخطوةُ الأُولىٰ في طريقِ الدَّعوةِ؛ فلا يمكنُ تخطِّيها لغيرِها.. وسيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ داعيَّةٌ ومربٍّ من الطِّراز الأَوَّل، وأُصولُ الدَّعوةِ إلى الله عندَه.. تَبْدَأُ كما بدأَتْ في دارِ الأَرقمِ المكيِّ.. بتبليغِ العقيدة وتأْسيسِها في المجتمع.. والتربيةُ تبدأُ من العقيدة.. كما أَنَّ الدَّعوة تبدأُ من تقريرِ العقيدة، وعليها يُبنىٰ هذا وذاك.. وليس الحكمُ على النَّاسِ بالكفرِ والإيمان؛ بل العقيدةُ نقطةُ بدايةِ الدَّعوةِ والتَّربيةِ، وأَساسُها الرَّاسخُ.. الذي يُبنىٰ عليه البناءُ الإسلاميُّ الشَّخصيُّ للفردِ في التَّربيةِ، وللدَّولةِ والأُمَّة في شكلِ مؤسَّساتِها ونظامِها، ومنهج حياتِها الَّذي تتبنَّاه.. فعندما تتقرَّرُ العقيدةُ كأَساسٍ متينٍ، ومفهومٍ واضحٍ، وتأْخذُ حقَّها في البيانِ والتَّربيةِ.. لا يرفضُ النَّاسُ أَمرًا دونَ أَمرٍ، ولا يجادلونَ في حكمٍ دونَ حكمٍ، ولا يتأَبَّى الفردُ عنِ الامتثالِ، ولا تجادلُ فئاتٌ في حكمٍ شرعيٍّ، وترفضُ قبولَه.. فليتنبهِ الدُّعاةُ لذلك!

الَّتي ترتكنُ إليها هذهِ العقيدةُ.. لمَّا عرفَ النَّاسُ ربَّهمْ وعبدُوه وحدَه..لمَّا تحرَّرَ النَّاسُ من سلطانِ العبيدِ ومن سلطانِ الشَّهواتِ سواءً.. **لمَّا تقرَّرتْ في القلوبِ «لا إله إلَّا الله».. صنعَ اللهُ بها وبأَهلِها كلَّ شيءٍ مما يقترحُه المقترحونَ.. تطهَّرتِ الأَرضُ من «الرُّومانِ والفُرسِ».. لا ليتقرَّرَ فيها سلطانُ «العربِ». ولكنْ ليتقرَّرَ فيها سلطانُ «الله».. لقد تطهَّرتْ من سلطانِ «الطَّاغوتِ» كلِّه**.. رومانيًّا، وفارسيًّا، وَعربيًّا، على السَّواء.

وتطهَّرَ المجتمعُ من الظُّلمِ الاجتماعيِّ بجملتِه، وقامَ «**النِّظام الإسلاميُّ**» يعدلُ بعدلِ الله، ويَزِنُ بميزانِ الله، ويرفعُ رايةَ العدالةِ الاجتماعيَّةِ باسم الله وحدَه، ويسمِّيها رايةَ «**الإسلام**» لا يقرنُ إليها اسمًا آخرَ، ويكتبُ عليها: «**لا إله إلَّا الله**»!

وتطهَّرتِ النُّفوسُ والأَخلاقُ، وزَكَتِ القُلوبُ والأَرواحُ، دونَ أَنْ يحتاجَ الأَمرُ حتَّىٰ للحدودِ والتعازيرِ الَّتي شرعَها اللهُ ـ إلَّا في النُّدرةِ النَّادرةِ ـ لأَنَّ الرَّقابةَ قامت هناكَ في الضَّمائرِ، ولأَنَّ الطَّمعَ في رضى الله وثوابِه، والحياةَ والخوفَ من غضبِهِ وعقابِه، قد قاما مقامَ الرَّقابةِ ومكانَ العقوباتِ.

وارتفعتِ البشريةُ في نظامِها، وفي أَخلاقِها، وفي حياتِها كلِّها، إلى القمَّةِ السَّامقةِ الَّتي لم ترتفعْ إليها من قبلُ قطُّ، والَّتي لم ترتفعْ إليها من بعدُ إلَّا في ظلِّ الإسلام.



إقامةُ الدِّين تكونُ في القلوبِ والعقولِ أَوَّلًا وأثر ذلك:

ولقد تمَّ هذا كلُّه؛ لأَنَّ الَّذينَ أَقاموا هذا الدِّينَ في صورةِ دولةٍ ونظامٍ وشرائعَ وأَحكامٍ، كانوا قد أَقاموا هذا الدِّينَ من قبلُ في ضمائرِهم وفي حياتِهم، في صورةِ عقيدةٍ وخُلقٍ وعبادةٍ وسلوكٍ.

وكانوا قد وعِدُوا علىٰ إقامة هذا الدِّين وعدًا واحدًا، لا يدخلُ فيه الغلبُ والسُّلطانُ..ولا حتَّىٰ لهذا الدِّين علىٰ أَيديهم.. وعدًا واحدًا لا يتعلَّقُ بشيءٍ في هذه الدُّنيا.. وعدًا واحدًا هو الجنَّةُ.

هذا كلُّ ما وعِـدُوه على الجهاد المُضني، والابتلاءِ الشَّاقِّ، والمضيِّ في الدَّعوةِ، ومواجهةِ الجاهليَّة بالأَمرِ الَّذي يكرهُه أَصحابُ السُّلطانِ في كلِّ زمانٍ، وفي كلِّ مكانٍ، وهو: «**لا إله إلَّا الله**».

فلمَّا أَنِ ابتلاهمُ اللهُ فصبروا، ولمَّا أَنْ فرغتْ نفوسُهم من حظِّ نفوسِهم، ولمَّا أَنْ علمَ اللهُ منهم أَنَّهم لا ينتظرونَ جزاءً في هذهِ الأَرض ـ كائنًا ما كانَ هذا الجزاءُ، ولو كانَ هو انتصارَ هذه الدَّعوة علىٰ أَيديهم، وقيامَ هذا الدِّين في الأَرض بجهدِهم ـ ولمَّا لم يعدْ في نفوسِهم اعتزازٌ بجَدٍّ ولا قومٍ، ولا اعتزازٌ بوطنٍ ولا أَرضٍ، ولا اعتزازٌ بعشيرةٍ ولا بيتٍ.. **لمَّا أَنْ علمَ اللهُ منهم ذلكَ كلَّه، علمَ أَنَّهمْ قد أَصبحُوا ـ إذن ـ أُمناءَ علىٰ هذهِ الأَمانةِ الكُبرىٰ.. أُمناءَ على العقيدة،** الَّتي يتفرَّدُ فيها اللهُ ـ سبحانه ـ بالحاكميَّةِ في القلوبِ والضَّمائرِ، وفي السُّلوكِ والشَّعائرِ، وفي الأَرواحِ والأَموالِ، وفي الأَوضاعِ

والأَحوالِ.. وأُمناءَ على السُّلطانِ الَّذي يوضعُ في أَيديهم ليقومُوا به علىٰ شريعةِ الله يُنْفِذونَها، وعلىٰ عدلِ الله يقيمونَه، دونَ أَن يكونَ لهم من ذلكَ السُّلطانِ شيءٌ لأَنفسِهم، ولا لعشيرتهم، ولا لقومِهم ولا لجنسِهم. إنَّما يكونُ السُّلطانُ الَّذي في أَيدِيهم لله، ولدينِه وشريعتِه، لأَنَّهم يعلمونَ أَنَّهُ منَ الله، هو الَّذيْ آتاهم إيَّاه.

ولم يكنْ شيءٌ من هذَا المنهج المباركِ ليتحقَّقَ علىٰ هذا المستوى الرَّفيعِ، إلَّا أَنْ تبدأَ الدَّعوةُ ذلك البدءَ. وإلَّا أَنْ ترفعَ الدَّعوةُ هذه الرَّايةَ وحدَها.. رايةَ لا إلهَ إلَّا الله.. ولا ترفعَ معها سواها. وإلَّا أَنْ تسلكَ الدَّعوةُ هذا الطَّريقَ الوعرَ الشَّاق في ظاهرِه، المباركَ الميسَّرَ في حقيقتِهِ.

وما كان هذا المنهجُ المباركُ ليخلصَ لله، لو أَنَّ الدَّعوةَ بدأَتْ خطواتِها الأُولىٰ دعوةً قوميَّةً، أَو دعوةً اجتماعيَّةً، أَو دعوةً أَخلاقيَّةً، أَو رفعتْ أَيَّ شعارٍ جانبَ شعارِها الواحدِ: «**لا إله إلَّا الله**».

۞۞۞

كيف تعالجُ العقيدةُ أمراضَ المجتمع؟

ذلك شأْنُ القرآنِ المكيِّ كلِّه في تقريرِ: «**لا إله إلَّا اللهُ**» في القلوبِ والعقولِ، واختيارِ هذا الطَّريقِ ـ علىٰ مشقَّتِه في الظَّاهرِ ـ وعدمِ اختيارِ السُّبلِ الجانبيَّةِ الأُخرىٰ، والإصرارِ علىٰ هذا الطَّريق.

فأَمَّا شأْنُ هذا القرآنِ في تناولِ قضيَّةِ الاعتقادِ وحدَها، دونَ



التَّطرُّقِ إلىٰ تفصيلاتِ النِّظام الَّذي يقومُ عليها، والشَّرائعِ الَّتي تنظِّمُ المعاملاتِ فيها، فذلكَ كذلكَ ممَّا ينبغيْ أَنْ يقفَ أَمامَه أَصحابُ الدَّعوةِ لهذا الدِّين وقفةً واعيةً.

إنَّ طبيعةَ هذا الدِّين هي الَّتي قضتْ بهذا.. فهو دينٌ يقومُ كلُّه علىٰ قاعدةِ الأُلوهيَّةِ الواحدةِ.. كلُّ تنظيماتِه، وكلُّ تشريعاتِه تنبثقُ من هذا الأَصلِ الكبيرِ.. وكما أَنَّ الشَّجرةَ الضَّخمةَ الباسقةَ، الوارفةَ المديدةَ الظِّلالِ، المتشابكةَ الأَغصانِ، الضَّاربة في الهواءِ.. لا بُدَّ لها أَنْ تضربَ بجذورِها في التُّربةِ علىٰ أَعماقٍ بعيدةٍ، وفي مساحاتٍ واسعةٍ، تناسبُ ضخامتَها وامتدادَها في الهواءِ.. فكذلكَ هذا الدِّينُ.. إنَّ نظامَه يتناولُ الحياةَ كلَّها، ويتولَّىٰ شؤونَ البشريَّةِ كبيرَها وصغيرَها، وينظِّمُ حياةَ الإنسانِ ـ لا في الحياةِ الدُّنيا وحدَها؛ ولكنْ كذلكَ في الدَّارِ الآخرةِ، ولا في عالمِ الشَّهادةِ وحدَه؛ ولكنْ كذلكَ في عالمِ الغيبِ المكنونِ عنها، ولا في المعاملاتِ الماديَّةِ الظَّاهرةِ وحدَها؛ ولكن كذلكَ في أَعماقِ الضَّميرِ ودنيا السَّرائرِ والنَّوايا ـ فهو مؤسَّسةٌ ضخمةٌ هائلةٌ شاسعةٌ متراميةٌ، ولا بُدَّ له إذنْ من جذورٍ وأَعماقٍ بهذه السَّعةِ والضَّخامةِ والعمقِ والانتشارِ أَيضًا..

هذا جانبٌ من سرِّ هذا الدِّينِ وطبيعتِه، يحدِّدُ منهجَه في بناءِ نفسِه وفي امتدادِه، ويجعلُ بناءَ العقيدة وتمكينَها، وشمولَ هذه العقيدة واستغراقَها لشعابِ النَّفسِ كلِّها.. ضرورةً من ضروريَّاتِ النَّشأَةِ الصَّحيحةِ، وضمانًا من ضماناتِ الاحتمالِ، والتَّناسق بينَ الظَّاهرِ من الشَّجرةِ في الهواءِ

والضَّاربِ من جذورِها في الأَعماقِ.

ومتىٰ استقرَّتْ عقيدةُ: «**لا إله إلَّا الله**» في أَعماقِها الغائرةِ البعيدةِ، استقرَّ معها في نفسِ الوقتِ النِّظامُ الَّذي تتمثَّلُ فيه «**لا إله إلَّا الله**»، وتَعَيَّنَ أَنَّه النِّظام الوحيدُ الَّذي ترتضيهِ النُّفوسُ الَّتي استقرَّتْ فيها العقيدةُ، واستسلمتْ هذه النُّفوسُ ابتداءً لهذا النِّظام، حتَّىٰ قبلَ أَنْ تُعرضَ عليها تفصيلاتُه، وقبلَ أَنْ تعرضَ عليها تشريعاتُه.

فالاستسلامُ ابتداءً هو مقتضى الإيمانِ.. وبمثلِ هذا الاستسلامِ تلقَّتِ النُّفوسُ ـ فيما بعد ـ تنظيماتِ الإسلام وتشريعاتِه بالرضىٰ والقبولِ، لا تعترضُ علىٰ شيءٍ منه فورَ صدورِه إليها، ولا تتلكَّأُ في تنفيذِه بمجرَّدِ تلقِّيها لهُ.. وهكذا أُبطلتِ الخمرُ، وأُبطلَ الرِّبا، وأُبطلَ الميسِرُ، وأُبطلتِ العاداتُ الجاهليَّةُ كلُّها.. أُبطلتْ بآياتٍ من القرآنِ، أَو كلماتٍ من الرَّسُولِ ﷺ، بينما الحكوماتُ الأَرضيَّةُ تجهدُ في شيءٍ من هذا كلِّه بقوانينها وتشريعاتِها، ونُظُمِها وأَوضاعِها، وجُندِها وسلطاتِها، ودعايتِها وإعلامِها، فلا تبلغُ إلَّا أَن تضْبطَ الظَّاهرَ من المخالفات، بينما المجتمعُ يعجُّ بالمنْهيَّاتِ والمنكراتِ[1]!

۞۞۞

(١) يراجعُ كيفَ حرَّمَ اللهُ الخمرَ في الجزءِ الخامسِ من الطبعةِ المنقَّحةِ من كتاب «في ظلالِ القرآن» ص٧٥ ـ ٨٥. وكيف عجزتْ أَميركا عن ذلك، في كتاب «ماذا خسرَ العالمُ بانحطاطِ المسلمين؟» للسيد أَبي الحسن الندوي، منقولًا عن كتاب «تنقيحات» للسيد أَبي الأَعلى المودودي. (**المُؤَلِّف**).



منهجٌ حركيٌ واقعي:

وجانبٌ آخرُ من طبيعةِ هذا الدِّين يتجلَّىٰ في هذا المنهج القويمِ. إنَّ هذا الدِّينَ منهجٌ عمليٌّ حركيٌّ جادٌّ.. جاءَ ليحكمَ الحياةَ في واقعِها، ويواجهَ هذا الواقعَ ليقضيَ فيهِ بأَمرِه يُقِرُّه، أَو يُعدِّلُه، أَو يغيِّرُه من أَساسه..ومن ثَمَّ فهو لا يشرِّعُ إلَّا لحالاتٍ واقعةٍ فعلًا، في مجتمعٍ يعترفُ ابتداءً بحاكميَّةِ الله وحدَه..

إنَّهُ ليسَ «نظرية» تتعاملُ مع «الفروضِ»! .. إنهُ «منهج» يتعاملُ مع «الواقع»! .. فلا بُدَّ أَوَّلًا أَنْ يقومَ المجتمعُ المسلمُ الَّذي يقرُّ عقيدةَ: أَنَّ لا إلهَ إلَّا الله، وأَنْ الحاكميَّةَ ليست إلَّا لله، ويرفضُ أَنْ يقرَّ بالحاكميَّةِ لأَحدٍ من دونِ الله ويرفضُ شرعيَّةَ أَيِّ وَضعٍ لا يقومُ علىٰ هذهِ القاعدة..

۞۞۞

التَّشريعُ بعدَ إنشاءِ الجيلِ المسلم:

وحين يقومُ هذا المجتمعُ فعلًا، تكونُ له حياةٌ واقعيَّةٌ تحتاجُ إلىٰ تنظيمٍ وإلىٰ تشريعٍ.. وعندئذٍ فقط يبدأُ هذا الدِّينُ في تقريرِ النُّظمِ وفي سنِّ الشَّرائعِ، لقومٍ مستسلمينَ أَصلًا للنُّظمِ والشَّرائعِ، رافضينَ أَصلًا لغيرِها من النُّظمِ والشَّرائعِ..

ولا بُدَّ أَنْ يكونَ للمؤمنينَ بهذهِ العقيدة من سلطانٍ علىٰ أَنفسِهم

وعلىٰ مجتمعِهم ما يكفلُ تنفيذَ النِّظام والشَّرائعِ في هذا المجتمع حتَّىٰ يكونَ للنِّظامِ هيبتُهُ، ويكونَ للشَّريعةِ جدِّيتُها.. فوقَ ما يكونُ لحياةِ هذا المجتمع من واقعيَّةٍ تقتضي الأَنظمةَ والشَّرائعَ من فورِها..

والمسلمونَ في مكَّةَ لم يكنْ لهمْ سلطانٌ علىٰ أَنفسِهم، ولا علىٰ مجتمعِهم، وما كانتْ لهم حياةٌ واقعيَّةٌ مستقلَّةٌ هم الَّذينَ ينظِّمونَها بشريعةِ الله.. ومن ثَمَّ لم يُنزِّلِ اللهُ لهم في هذهِ الفترةِ تنظيماتٍ وشرائعَ، وإنَّما نزَّلَ لهم عقيدةً، وخُلقًا منبثقًا من هذهِ العقيدة بعد استقرارِها في الأَعماقِ البعيدةِ.. فلما أَنْ صارتْ لهم دولةٌ في المدينةِ ذاتُ سلطانٍ، تنزَّلتْ عليهمُ الشَّرائعُ، وتقرَّرَ لهم النِّظام الَّذي يواجهُ حاجاتِ المجتمع المسلمِ الواقعيَّة، والَّذي تكفُلُ له الدَّولةُ بسلطاتِها الجدِّيَّةُ والنَّفاذَ.

ولم يشأِ اللهُ أَنْ ينزِّلَ عليهم النِّظام والشَّرائعَ في مكَّةَ، ليختزنوها جاهزةً حتَّىٰ تطبَّقَ بمجرَّدِ قيامِ الدَّولةِ في المدينةِ! إنَّ هذهِ ليستْ طبيعةَ هذا الدِّين! .. إنَّهُ أَشدُّ واقعيَّةً من هذا وأَكثرُ جدِّيَّة! ..

إنَّه لا يفترضُ المشكلاتِ ليفترضَ لها حلولًا.. إنَّما يواجهُ الواقعَ حينَ يكونُ واقعَ مجتمعٍ مسلمٍ مستسلمٍ لشريعةِ الله رافضٍ لشريعةٍ سواهُ بحجمِهِ وشكلِهِ وملابساتِه وظروفِه، ليشرِّعَ له وفقَ حجمِه وشكلِهِ وملابساتِهِ وظروفِه.

والَّذينَ يريدونَ من الإسلام اليومَ أَنْ يصوغَ نظريَّاتٍ، وأَنْ يصوغَ



قوالبَ نظامٍ، وأَنْ يصوغَ تشريعاتٍ للحياةِ.. بينما ليسَ علىٰ وجهِ الأَرض مجتمعٌ قد قرَّرَ فعلًا تحكيمَ شريعةِ الله وحدَها، ورَفْضَ كلِّ شريعةٍ سواها، مع تملُّكِه للسُّلطةِ الَّتي تفرضُ هذا وتنفِّذُه.. الَّذينَ يريدونَ من الإسلام هذا، لا يدركونَ طبيعةَ هذا الدِّين، ولا كيفَ يعملُ في الحياةِ.. كما يريدُ له الله..

إنَّهم يريدونَ منهُ أَنْ يغيِّرَ طبيعتَهُ ومنهجَهُ وتاريخَهُ، ليشابهَ نظرياتٍ بشريَّةً، ومناهجَ بشريَّةً، ويحاولونَ أَنْ يستعجلوهُ عن طريقهِ وخطواتِهِ ليلبِّيَ رغباتٍ وقتيَّةً في نفوسِهم، رغباتٍ إنَّما تُنشئُها الهزيمةُ الدَّاخليَّة في أَرواحِهم تجاهَ أَنظمةٍ بشريَّةٍ صغيرةٍ.. يريدونَ منه أَنْ يصوغَ نفسَهُ في قالبِ نظريَّاتٍ وفروضٍ، تواجهُ مستقبلًا غيرَ موجودٍ..

واللهُ يريدُ لهذا الدِّين أَنْ يكونَ كما أَرادَه.. عقيدةً تملأُ القلبَ، وتفرضُ سلطانَها على الضَّمير، عقيدةً مقتضاها أَلَّا يخضعَ النَّاسُ إلَّا لله، وأَلَّا يتلقَّوا الشَّرائعَ إلَّا منهُ دونَ سواهُ.. وبعد أَنْ يوجَدَ النَّاسُ الَّذينَ هذهِ عقيدتهُم، ويصبحَ لهمُ السُّلطانُ الفعليُّ في مجتمعِهم، تبدأُ التَّشريعاتُ لمواجهةِ حاجاتِهم الواقعيَّة، وتنظيمِ حياتِهم الواقعيَّة كذلك.

هذا ما يريدُه اللهُ لهذا الدِّين.. ولن يكونَ إلَّا ما يريدُه الله، مهما كانت رغباتُ النَّاس!

۞۞۞

فهمُ الواقعِ من مسؤوليَّةِ الدُّعاة:

كذلكَ ينبغيْ أَنْ يكونَ مفهومًا لأَصحابِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة؛ أَنَّهم حينَ يدعونَ النَّاسَ لإعادةِ إنشاءِ هذا الدِّين، يجبُ أَنْ يدعوهم أَوَّلًا إلىٰ اعتناقِ العقيدة[١] ـ حتَّىٰ لو كانوا يدعونَ أَنفسَهم مسلمينَ، وتشهدُ لهم شهاداتُ الميلادِ بأَنَّهم مسلمونَ! ـ يجب أَنْ يعلِّموهم أَنَّ الإسلامَ: هو «**أَوَّلًا**» إقرارُ عقيدةِ «**لا إلهَ إلَّا الله**» ـ بمدلولِها الحقيقيِّ ـ وهو ردُّ الحاكميَّةِ لله في أَمرِهم كلِّهِ، وطردُ المعتدينَ علىٰ سلطانِ الله بادِّعاءِ هذا الحقِّ لأَنفسِهم، إقرارُها في ضمائرِهم وشعائرِهم، وإقرارُها في أَوضاعِهم وواقعِهم..

ولتكنْ هذهِ القضيَّةُ هي أَساسَ دعوةِ النَّاسِ إلى الإسلام، كانت هي أَساسَ دعوتِهم إلى الإسلام أَوَّل مرَّةٍ.. هذه الدَّعوةُ الَّتي تكفَّلَ بها القرآنُ المكيُّ طوالَ ثلاثةَ عشرَ عامًا كاملةً.. فإذا دخلَ في هذا الدِّين ـ بمفهومِه هذا الأَصيلِ ـ عُصبةٌ من النَّاسِ.. فهذهِ العُصبةُ هي الَّتي يطلقُ عليها اسمُ «**المجتمع المسلم**».. المجتمع الَّذي يصلُحُ لمزاولةِ النِّظام الإسلاميِّ في حياتِه الاجتماعيَّةِ، لأَنَّهُ قرَّرَ بينَهُ وبينَ نفسِهِ أَنْ تقومَ حياتُه كلُّها علىٰ هذا الأَساس، وأَلا يحكِّم في حياتِه كلِّها إلَّا الله.

---

(١) **تنبيه**: لا يُفهمُ من هذا الكلامِ أَنَّ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ يكفِّرُ هؤلاء المسلمينَ، وإنَّما هو توضيحٌ لمراحلِ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ: العقيدةُ أَوَّلًا.. ثمَّ تطبيقُ أَوامرِ الشَّريعةِ؛ كما كان في العهدِ المكيِّ ثمَّ المدنيِّ، يعني: آمنَّا وصدَّقنا أَوَّلًا.. ثمَّ سَمِعنا وأَطعنا.

وحينَ يقومُ هذا المجتمعُ بالفعلِ يبدأُ عرضُ أُسسِ النِّظام الإسلاميِّ عليه، كما يأْخذُ هذا المجتمعُ نفسَه في سَنِّ التَّشريعاتِ الَّتي تقتضيها حياتُه الواقعيَّةُ، في إطار الأُسسِ العامَّة للنِّظامِ الإسلاميِّ.. فهذا هو التَّرتيبُ الصَّحيحُ لخطواتِ المنهج الإسلاميِّ الواقعيِّ العمليِّ الجادِّ.

۞۞۞

العجلةُ آفةُ الدُّعاة:

ولقد يُخيَّلُ لبعضِ المخلصينَ المتعجِّلينَ، ممَّن لا يتدبَّرونَ طبيعةَ هذا الدِّين، وطبيعةَ منهجه الرَّبَّانيِّ القويمِ، المؤسَّسِ على حكمةِ العليمِ الحكيمِ، وعلمِه بطبائعِ البشرِ وحاجاتِ الحياةِ.. نقولُ: لقدْ يُخيَّلُ لبعضِ هؤلاءِ أَنَّ عرْضَ أُسسِ النِّظام الإسلاميِّ - بلِ التَّشريعاتِ الإسلاميَّة كذلك - على النَّاسِ، ممَّا ييسِّرُ لهم طريقَ الدَّعوةِ، ويحبِّبُ النَّاسَ في هذا الدِّين!

وهذا وَهْمٌ تُنشئُه العَجَلةُ! وَهْمٌ كالَّذي كان يمكنُ أَنْ يقترحَه المقترحونَ: أَنْ تقومَ دعوةُ رسول الله ﷺ في أَوَّلها تحتَ رايةٍ قوميَّةٍ، أَو رايةٍ اجتماعيَّةٍ، أَو رايةٍ أَخلاقيَّةٍ، تيسيرًا للطَّريق!

إنَّ القلوبَ يجبُ أَن تُخْلِصَ أَوَّلًا لله، وتعلنَ عبوديَّتها له وحدَه، بقَبولِ شرعِهِ وحدَه، ورفضِ كلِّ شرعٍ آخرَ غيرِه.. من ناحيةِ المبدأِ.. قبلَ أَنْ تُخاطبَ بأَيِّ تفصيلٍ عن ذلكَ الشَّرعِ يُرغِّبها فيه!

إنَّ الرغبةَ يجبُ أَنْ تنبثقَ من إخلاصِ العبوديَّةِ لله، والتَّحرُّرِ من سلطانِ سواه، لا من أَنَّ النِّظام المعروضَ عليها في.. ذَاتِه.. خيرٌ مما لديها من الأَنظمةِ في كذا وكذا علىٰ وجهِ التَّفصيلِ.

إنَّ نظامَ الله خيرٌ في ذاتِه؛ لأَنَّه منْ شرعِ الله.. ولنْ يكونَ شرعُ العبيدِ يومًا كشرعِ الله.. ولكنَّ هذه ليست قاعدةَ الدَّعوة! إنَّ قاعدةَ الدَّعوةِ أَنَّ قَبولَ شرعِ الله وحدَه أَيًّا كان، ورفضَ كلِّ شرعٍ غيرِه أَيًّا كان، هو ذاتُه الإسلامُ، وليسَ للإسلام مدلولٌ سواهُ، فمَن رغبِ في الإسلام ابتداءً فقد فصَلَ في القضيَّةِ، ولم يعدْ بحاجةٍ إلىٰ ترغيبِه بجمالِ النِّظام وأَفضليَّتِه.. فهذه إحدىٰ بديهيَّاتِ الإيمان.

۞۞۞

الأُسلوبُ القرآنيُّ في عرضِ العقيدة:

وبعدُ، فلا بُدَّ أَنْ نقولَ: كيفَ عالجَ القرآنُ المكيُّ قضيَّةَ العقيدة في خلال الثلاثةَ عشرَ عامًا.. إنَّه لم يعرضْها في صورةٍ «**نظريَّة**» ولا في صورةِ «**لاهوتٍ**» ولم يعرضْها في صورةِ جدلٍ كلاميٍّ كالَّذي زاولَه ما يسمَّىٰ: «**علمَ التَّوحيدِ**»!

كلَّا! لقد كانَ القرآنُ الكريمُ يخاطبُ فطرةَ «**الإنسان**» بما في وجودِه هو، وبما في الوجودِ حولَه من دلائلَ وإيحاءاتٍ.. كان يستنقذُ فطرتَه من الرُّكامِ، ويُخلِّص أَجهزةَ الاستقبالِ الفطريَّةَ ممَّا



رانَ عليها وعَطَّلَ وظائفَها، ويفتحُ منافذَ الفطرةِ، لتتلقَّى الموحياتِ المؤثِّرةَ وتستجيبَ لها.

هذا بصفةٍ عامَّةٍ.. وبصفةٍ خاصَّةٍ كان القرآنُ يخوضُ بهذه العقيدة معركةً حيَّةً واقعيَّةً.. كان يخوضُ بها معركةً مع الرُّكامِ المُعَطِّلِ للفطرةِ في نفوسٍ آدميَّةٍ حاضرةٍ واقعةٍ.. ومن ثَمَّ لم يكنْ شكلُ «**النَّظريَّة**» هو الشَّكلَ الَّذي يناسبُ هذا الواقعَ الخاصَّ؛ إنَّما هو شكلُ المواجهةِ الحيَّةِ للعقابيلِ والسُّدودِ والحواجزِ، والمعوِّقاتِ النَّفسيَّةِ والواقعيَّة في النُّفوسِ الحاضرةِ الحيَّةِ.. ولم يكنِ الجدلُ الذِّهنيُّ ـ القائمُ على المنطقِ الشَّكليِّ ـ الَّذي سارَ عليه في العصورِ المتأَخِّرةِ علمُ التَّوحيدِ، هو الشَّكلَ المناسبَ كذلك.

فلقد كانَ القرآنُ يواجهُ «**واقعًا**» بشريًّا كاملًا بكلِّ ملابساتِه الحيَّةِ، ويخاطبُ الكينونةَ البشريَّةَ بجملتِها في خضمِّ هذا الواقعِ.. وكذلك لم يكنِ «**اللَّاهوتُ**» هو الشَّكلَ المناسبَ.

فإنَّ العقيدةَ الإسلاميَّةَ، ولو أَنَّها عقيدةٌ؛ إلَّا أَنَّها تمثِّلُ منهجَ حياةٍ واقعيَّةٍ للتَّطبيقِ العمليِّ، ولا تقْبعُ في الزَّاويةِ الضَّيِّقةِ الَّتي تقبعُ فيها الأَبحاثُ اللاهوتيَّةُ النَّظريَّةُ!

كانَ القرآنُ، وهو يَبني العقيدةَ في ضمائرِ الجماعةِ المسلمة، يخوضُ بهذِهِ الجماعةِ المسلمة معركةً ضخمةً مع الجاهليَّة من

حولِها، كما يخوضُ بها معركةً ضخمةً مع رواسبِ الجاهليَّة في ضميرِها هي وأَخلاقِها وواقِعها.. ومن هذه الملابساتِ ظهرَ بناءُ العقيدة، لا في صورةٍ «نظريَّةٍ» ولا في صورةِ «لاهوتٍ» ولا في صورةِ «جدلٍ كلاميٍّ».. ولكنْ في صورةِ تجمُّعٍ عضويّ حيويٍّ، وتكوينٍ تنظيميٍّ مباشرٍ للحياةِ، مُمَثَّلٍ في الجماعةِ المسلمة ذاتِها، وكان نموُّ الجماعةِ المسلمة في تصوُّرِها الاعتقاديِّ، وفي سلوكِها الواقعيِّ وفقَ هذا التَّصوُّرِ، وفي دُرْبَتِها علىٰ مواجهةِ الجاهليَّة كمنظَّمةٍ محاربةٍ لها.. كان هذا النُّموُّ ذاتُه ممثِّلًا تمامًا لنُموِّ البناء العقيديِّ، وترجمةً حيَّةً له.. وهذا هو منهجُ الإسلام الَّذي يمثِّلُ طبيعتَه كذلك.

ضرورةُ فهمِ الدُّعاةِ للعهدِ المكيّ:

وإنَّه لمنَ الضَّروريِّ لأَصحابِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة أَنْ يدركُوا طبيعةَ هذا الدِّين، ومنهجَهُ في الحركةِ علىٰ هذا النَّحوِ الَّذي بَيَّنَّاهُ، ذلك ليعلموا أَنَّ مرحلةَ بناءِ العقيدة الَّتي طالتْ في العهدِ المكيِّ علىٰ هذا النَّحوِ، لم تكنْ منعزلةً عن مرحلةِ التَّكوينِ العمليِّ للحركةِ الإسلاميَّة، والبناءِ الواقعيِّ للجماعةِ المسلمة، لم تكنْ مرحلةَ تلقِّي «النَّظريَّة» ودراستِها! ولكنَّها كانتْ مرحلةَ البناءِ القاعديِّ للعقيدةِ، وللجماعةِ، وللحركةِ، وللوجودِ الفعليِّ معًا.. وهكذا ينبغيْ أَنْ تكونَ كلَّما أُريدَ إعادةُ هذا البناءِ مرَّةً أُخرىٰ.



هكذا ينبغي أَنْ تطولَ مرحلةُ بناءِ العقيدة، وأَنْ تتمَّ خطواتُ البناءِ علىٰ مهلٍ، وفي عمقٍ وتثبُّتٍ.. ثُمَّ هكذا ينبغي أَلَّا تكونَ مرحلةَ دراسةٍ نظريَّةٍ للعقيدةِ، ولكنْ مرحلةَ ترجمةٍ لهذهِ العقيدة ـ أَوَّلًا بأَوَّلٍ ـ في صورةٍ حيَّةٍ، متمثِّلةٍ في ضمائرَ متكيِّفةٍ بهذهِ العقيدة، ومتمثِّلةٍ في بناءٍ جماعيٍّ وتجمُّعٍ حركيٍّ، يُعبِّرُ نموُّهُ من داخلِهِ ومن خارجِهِ عن نموِّ العقيدة ذاتِها، ومتمثِّلةً في حركةٍ واقعيَّةٍ تواجهُ الجاهليَّةَ، وتخوضُ معها المعركةَ في الضَّميرِ وفي الواقعِ كذلك، لتتمثَّلَ العقيدةَ حيَّةً، وتنموَ نموًّا حيًّا في خضمِّ المعركةِ.

العقيدةُ ليست نظريَّةً ذهنيَّة:

وخطأٌ أَيُّ خطأٍ ـ بالقياسِ إلى الإسلام ـ أَنْ تتبلورَ العقيدةُ في صورةِ «**نظريَّة**» مجرَّدةٍ للدِّراسةِ الذهنيَّةِ.. المعرفيَّةِ الثقافيَّةِ.. بل خطرٌ أَيُّ خطرٍ كذلك.

إنَّ القرآنَ لم يقضِ ثلاثةَ عشرَ عامًا كاملةً في بناءِ العقيدة بسببِ أَنَّهُ كانَ يتنزَّلُ للمرَّةِ الأُولىٰ.. كلَّا! فلو أَرادَ اللهُ لأَنزلَ هذا القرآنَ جملةً واحدةً، ثُمَّ تركَ أَصحابَه يدرسونَهُ ثلاثةَ عشرَ عامًا، أَو أَكثرَ أَو أَقلَّ، حتَّىٰ يستوعبوا «**النَّظريَّةَ الإسلاميَّةَ**».

ولكنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ كان يريدُ أَمرًا آخرَ، كانَ يريدُ منهجًا معيَّنًا متفرِّدًا، كانُ يريدُ بناءَ جماعةٍ، وبناءَ حركةٍ، وبناءَ عقيدةٍ في وقتٍ واحدٍ..

كانَ يريدُ أَنْ يبنيَ الجماعةَ والحركةَ بالعقيدة، وأَنْ يبنيَ العقيدةَ بالجماعةِ والحركةِ..كانَ يريدُ أَنْ تكونَ العقيدةُ هي واقعَ الجماعةِ الحركيَّ الفعليَّ، وأَنْ يكونَ واقعُ الجماعةِ الحركيُّ الفعليُّ هو الصُّورةَ المجسَّمةَ للعقيدةِ.. وكانَ اللهُ ـ سُبْحانَهُ ـ يعلمُ أَنَّ بناءَ النُّفوسِ والجماعاتِ لا يتمُّ بينَ يومٍ وليلةٍ، فلم يكنْ هنالكَ بدٌّ أَنْ يستغرقَ بناءُ العقيدة المدى الَّذي يستغرقُه بناءُ النُّفوسِ والجماعةِ.. حتَّىٰ إذا نضجَ التَّكوينُ العقيديُّ، كانتِ الجماعةُ هي المظهرَ الواقعيَّ لهذا النُّضوجِ.

۞۞۞

العقيدةُ منهجٌ واقعيٌّ:

هذه هي طبيعةُ هذا الدِّين ـ كما تُستَخلَصُ من منهج القرآنِ المكيِّ ـ ولا بُدَّ أَن نعرفَ طبيعتَهُ هذه، وأَلَّا نحاولَ تغييرَها تلبيةً لرغباتِ معجَّلةٍ مهزومةٍ أَمامَ أَشكالِ النَّظريَّاتِ البشريَّةِ! فهو بهذه الطَّبيعةِ صَنَعَ الأُمَّةَ المسلمةَ أَوَّلَ مرَّةٍ، وبها يصنعُ الأُمَّةَ المسلمةَ في كلِّ مرَّةٍ يرادُ فيها أَنْ يعادَ إخراجُ الأُمَّة المسلمة للوجودِ كما أَخرجَها اللهُ أَوَّلَ مرَّةٍ.

يجبُ أَنْ ندركَ خطأَ المحاولةِ وخطرَها معًا، في تحويلِ العقيدة الإسلاميَّة الحيَّةِ الَّتي تحبُّ أَنْ تتمثَّلَ في واقعٍ نَامٍ حيٍّ

متحرِّكٍ، وفي تجمُّعٍ عضويٍّ حركيٍّ.. تحويلِها عن طبيعتِها هذه إلىٰ «**نظريَّة**» للدِّراسةِ والمعرفةِ الثَّقافيَّةِ، لمجرَّدِ أَنَّنا نريدُ أَنْ نواجهَ النَّظريّاتِ البشريَّةَ الهزيلةَ بـ «**نظريَّةٍ إسلاميَّة**».

إنَّ العقيدةَ الإسلاميَّةَ تحبُّ أَنْ تتمثَّلَ في نفوسٍ حيَّةٍ، وفي تنظيمٍ واقعيٍّ، وفي تجمُّعٍ عضويٍّ، وفي حركةٍ تتفاعلُ مع الجاهليَّة مِنْ حولِها، كما تتفاعلُ مع الجاهليَّة الراسبةِ في نفوسِ أَصحابِها ـ بوصفِهم كانوا من أَهلِ الجاهليَّة قبلَ أَنْ تدخلَ العقيدةُ إلىٰ نفوسِهم، وتنتزعَها من الوسطِ الجاهليِّ ـ وهي في صورتِها هذه تشغلُ من القلوبِ والعقولِ ـ ومن الحياةِ أَيضًا ـ مساحةً أَضخمَ وأَوسعَ وأَشملَ ممَّا تشغلُه «**النَّظريَّةُ**» وتشملُ ـ فيما تشملُ ـ مساحةَ النَّظريَّة ومادَّتها، ولكنَّها لا تقتصرُ عليها.

إنَّ التَّصوُّرَ الإسلاميَّ للأُلوهيَّة، وللوجودِ الكونيِّ، وللحياةِ، وللإنسانِ.. تصوُّرٌ شاملٌ كاملٌ، ولكنَّه كذلك تصوُّرٌ واقعيٌّ إيجابيٌّ، وهو يكرهُ ـ بطبيعتِه ـ أَنْ يتمثَّلَ في مجرَّدِ تصوُّرٍ ذهنيٍّ معرفيٍّ؛ لأَنَّ هذا يخالفُ طبيعتَهُ وغايتَهُ، ويجبُ أَنْ يتمثَّلَ في أَناسِيَّ، وفي تنظيمٍ حيٍّ، وفي حركةٍ واقعيَّةٍ..

وطريقتُه في التَّكوينِ أَنْ ينموَ من خلال الأَناسيِّ والتَّنظيمِ الحيِّ والحركةِ الواقعيَّة؛ حتَّىٰ يكتملَ نظريًّا في نفسِ الوقتِ الَّذي يكتملُ فيه واقعيًّا، ولا ينفصلَ في صورةِ «**النَّظريَّة**» بل يظلُّ ممثَّلًا في صورةِ

«الواقعِ» الحركيِّ.. وكلُّ نموٍّ نظريٍّ يسبقُ النُّموَّ الحركيَّ الواقعيَّ، ولا يتمثَّلُ من خلاله، هو خطأٌ وخطرٌ كذلك، بالقياسِ إلىٰ طبيعةِ هذا الدِّين وغايتِهِ، وطريقةِ تركيبه الذاتيِّ.

واللهُ ـ سبحانه ـ يقولُ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فالفَرقُ مقصودٌ، والمُكْثُ مقصودٌ كذلك، ليتمَّ البناءُ التَّكوينيُّ، المؤلَّفُ من عقيدةٍ في صورةٍ **«منظَّمةٍ حيَّة»** لا في صورةٍ **«نظريَّة»**!

يجبُ أَنْ يعرفَ أَصحابُ هذا الدِّين جيِّدًا أَنَّه ـ كما أَنَّه في ذاتِه دينٌ ربانيٌّ ـ فإنَّ منهجَهُ في العملِ منهجٌ ربانيٌّ كذلك، متوافٍ مع طبيعتِهِ، وأَنَّهُ لا يمكنُ فصلُ حقيقةِ هذا الدِّين عن منهجه في العمل.

ويجبُ أَنْ يعرفوا كذلك أَنَّ هذا الدِّينَ ـ كما أَنَّه جاءَ ليغيِّرَ التَّصوُّرَ الاعتقاديَّ، ومن ثَمَّ يغيِّرُ الواقعَ الحيويَّ ـ فكذلك هو قد جاءَ ليغيِّرَ المنهجَ الَّذي يُبنىٰ به التَّصوُّرُ الاعتقاديُّ، ويغيَّرُ به الواقعُ الحيويُّ..

جاء ليبنيَ عقيدةً وهو يبنيْ أُمَّةً.. ثُمَّ لينشئَ منهجَ تفكيرٍ خاصًا به، بنفسِ الدَّرجةِ الَّتي ينشئُ بها تصوُّرًا اعتقاديًّا وواقعًا حيويًّا، ولا انفصالَ بينَ منهج تفكيرِه الخاصِّ، وتصوُّرِه الاعتقاديِّ الخاصِّ، وبنائِه الحيويِّ الخاصِّ.. فكلُّها حزمةٌ واحدةٌ..

فإذا نحنُ عرفنا منهجَه في العملِ على النَّحوِ الَّذيْ بيَّنَّاهُ، فلنعرفْ



أَنَّ هذا المنهجَ أصيلٌ، وليس منهجَ مرحلةٍ ولا بيئةٍ ولا ظروفٍ خاصَّةٍ بنشأةِ الجماعةِ المسلمة الأُولىٰ، إنَّما هو المنهجُ الَّذي لا يقومُ بناءُ هذا الدِّين ـ في أَيِّ وقتٍ ـ إلَّا بهِ.

إنَّه لم تكنْ وظيفةُ الإسلام أَن يغيِّرَ عقيدةَ النَّاسِ وواقعَهم فحسْب، ولكنْ كانت وظيفتُه كذلك أَنْ يغيِّرَ منهجَ تفكيرِهم، وتناولِهم للتَّصوُّرِ وللواقعِ، ذلكَ أَنَّه منهجٌ ربانيٌّ مخالفٌ في طبيعتِه كلِّها لمناهجِ البشرِ القاصرةِ الهزيلة.

ونحنُ لا نملكُ أَنْ نصلَ إلى التَّصوُّرِ الرَّبَّانيِّ وإلى الحياةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ إلَّا عنْ طريقِ منهج تفكيرٍ ربانيّ كذلكٍ، المنهج الَّذي أَرادَ اللهُ أَنْ يقيمَ منهجَ تفكيرِ النَّاسِ علىٰ أَساسِهِ، ليصحَّ تصوُّرُهم الاعتقاديُّ وتكوينُهم الحيويُّ.

۞۞۞

الإسلامُ ليسَ مفهومًا نظريًا:

نحن، حينَ نريدُ من الإسلام أَنْ يجعلَ من نفسِه «نظريَّة» للدِّراسةِ، نخرجُ به عنْ طبيعةِ منهج التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ، وعن طبيعةِ منهج التَّفكيرِ الربانيِّ كذلك، ونُخضعُ الإسلامَ لمناهجِ التَّفكيرِ البشريَّة!

كأَنَّما المنهجُ الرَّبَّانيُّ أَدنىٰ من المناهجِ البشريَّةِ! وكأَنَّما نريدُ لنرتقيَ بمنهج الله في التَّصوُّرِ والحركةِ ليوازيَ مناهجَ العبيدِ!

والأَمرُ من هذه النَّاحيةِ يكونُ خطيرًا، والهزيمةُ تكونُ قاتلةً.

إنَّ وظيفةَ المنهج الرَّبَّانيِّ أَنْ يعطيَنا ـ نحنُ أَصحابَ الدَّعوةِ الإسلاميَّة ـ منهجًا خاصًّا للتَّفكيرِ، نبرأُ به من رواسبِ مناهجِ التَّفكيرِ الجاهليَّة السَّائدةِ في الأَرض، والَّتيْ تضغطُ علىٰ عقولِنا، وتترسَّبُ في ثقافتِنا.. فإذا نحنُ أَردنا أَنْ نتناولَ هذا الدِّينَ بمنهج تفكيرٍ غريبٍ عن طبيعتِه، من مناهجِ التَّفكيرِ الجاهليَّة الغالبةِ، كنَّا قد أَبطلْنا وظيفتَه الَّتي جاء ليؤدِّيَها للبشريَّة، وحرَمْنا أَنفسَنا فرصةَ الخلاصِ من ضغطِ المنهج الجاهليِّ السَّائد في عصرِنا، وفرصةَ الخلاصِ من رواسبِه في عقولِنا وتكوينِنا.

والأَمرُ من هذه النَّاحيةِ يكونُ خطيرًا كذلك، والخسارةُ تكونُ قاتلةً.

إنَّ منهجَ التَّفكيرِ والحركةِ في بناءِ الإسلام، لا يقلُّ قيمةً ولا ضرورةً عن منهج التَّصوُّرِ الاعتقاديِّ والنِّظام الحيويِّ، ولا ينفصلُ عنهُ كذلك، ومهما يخطرُ لنا أَنْ نقدِّمَ هذا التَّصوُّرَ وهذا النِّظام في صورةٍ تعبيريَّةٍ، فيجبُ أَلَّا يغيبَ عن بالِنا أَنَّ هذا لا يُنشئُ «**الإسلام**» في الأَرض في صورةِ حركةٍ واقعيَّةٍ؛ بل يجبُ أَلَّا يغيبَ عن بالِنا أَنَّه لن يفيدَ من تقديمنا الإسلامَ في هذه الصُّورةِ؛ إلَّا المشتغلونَ فعلًا بحركةٍ إسلاميَّةٍ واقعيَّةٍ، وأَنَّ قُصارىٰ ما يفيدُه هؤلاءِ أَنفسُهم من تقديم الإسلام لهم في هذه الصُّورةِ، هو أَنْ يتفاعلوا معَها بالقدْرِ الَّذي وصلوا هم إليهِ فعلًا في أَثناءِ الحركة.



ومرَّةً أُخرىٰ أُكرِّرُ؛ أَنَّ التَّصوُّرَ الاعتقاديَّ يجبُ أَنْ يتمثَّلَ من فورِه في تجمُّعٍ حركيٍّ، وأَنْ يكونَ التَّجمُّعُ الحركيُّ في الوقتِ ذاتِه تمثيلًا صحيحًا، وترجمةً حقيقيَّةً للتَّصوُّرِ الاعتقاديِّ.

ومرَّةً أُخرىٰ أُكرِّرُ كذلك؛ أَنَّ هذا هو المنهجُ الطبيعيُّ للإسلام الرَّبَّانيِّ، وأَنَّهُ منهجٌ أَعلىٰ وأَقومُ، وأَشدُّ فاعليَّةً، وأَكثرُ انطباقًا على الفطرةِ البشريَّةِ من منهج صياغةِ النَّظريَّاتِ كاملةً مستقلَّةً، وتقديمها في الصُّورةِ الذِّهنيَّةِ الباردةِ للنَّاس، قبلَ أَنْ يكونَ هؤلاء النَّاسُ مشتغلينَ فعلًا بحركةٍ واقعيَّةٍ، وقبلَ أَنْ يكونوا هم أَنفسُهم ترجمةً حيَّةً، تنمو خطوةً خطوةً لتمثيلِ ذلك المفهومِ النَّظريِّ.

۞۞۞

من أشكالِ ضغوطِ الجاهليَّة:

وإذا صحَّ هذا في أَصلِ النَّظريَّة؛ فهو أَصحُّ بطبيعةِ الحالِ فيما يختصُّ بتقديم أُسسِ النِّظامِ الَّذي يتمثَّلُ فيه التَّصوُّرُ الإسلاميُّ، أَو تقديم التَّشريعاتِ المفصَّلةِ لهذا النِّظام.

إنَّ الجاهليَّةَ الَّتي حولَنا ـ كما أَنَّها تضغطُ علىٰ أَعصابِ بعضِ المخلِصينَ من أَصحابِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة، فتجعلهم يتعجَّلونَ خطواتِ المنهج الإسلاميِّ ـ هي كذلك تتعمَّدُ أَحيانًا أَنْ تُحرجَهم، فتسألَهم: أَينَ تفصيلاتُ نظامِكم الَّذي تدْعونَ إليه؟ وماذا أَعددْتم

لتنفيذِه من بحوثٍ ودراساتٍ، ومن فقهٍ مقنَّنٍ على الأُصولِ الحديثةِ؟! كأَنَّ الَّذي ينقصُ النَّاسَ في هذا الزَّمانِ لإقامةِ شريعةِ الإسلام في الأَرض، هو مجرَّدُ الأَحكامِ الفقهيَّةِ والبحوثِ الفقهيَّةِ الإسلاميَّة.

وكأَنَّما همْ مستسلمونَ لحاكميَّةِ الله راضونَ بأَنْ تحكمَهم شريعتُه، ولكنَّهمْ فقط لا يجدونَ من «**المجتهدين**» فقهًا مقنَّنًا بالطَّريقةِ الحديثةِ!.. وهي سخريةٌ هازلةٌ يجبُ أَنْ يرتفعَ عليها كلُّ ذيْ قلبٍ يُحسُّ لهذا الدِّين بحرمةٍ!

إنَّ الجاهليَّةَ لا تريدُ بهذا الإحراجِ إلَّا أَنْ تجدَ لنفسِها تَعِلَّةً في نبذِ شريعةِ الله، واستبقاءِ عبوديَّةِ البشرِ للبشرِ.. وإلَّا أَنْ تصرفَ العصبةَ المسلمةَ عن منهجها الرَّبَّانيِّ، فتجعلَها تتجاوزُ مرحلةَ بناءِ العقيدة في صورةٍ حركيَّةٍ، وأَن تُحوِّلَ منهجَ أَصحابِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة عن طبيعتهِ الَّتي تتبلورُ فيها النَّظريَّةُ من خلال الحركةِ، وتتحدَّدُ ملامحُ النِّظامِ من خلال الممارسةِ، وتُسنَّ فيها التَّشريعاتُ في مواجهةِ الحياةِ الإسلاميَّة الواقعيَّة بمشكلاتها الحقيقيَّة.

ومن واجبِ أَصحابِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة أَلَّا يستجيبوا للمناورةِ! من واجبِهم أَنْ يرفضوا إملاءَ منهجٍ غريبٍ علىٰ حركتِهم وعلىٰ دينِهم! من واجبِهم أَلَّا يستخفَّهمُ الَّذينَ لا يوقنونَ.

ومن واجبِهم أَنْ يكشفوا مناورةَ الإحراجِ، وأَنْ يستعلُوا عليها،



وأَنْ يرفضُوا السُّخريةَ الهازلةَ في ما يسمَّىٰ: «تطويرَ الفقهِ الإسلاميِّ» في مجتمعٍ لا يعلنُ خضوعَه لشريعةِ الله ورفضَه لكلِّ شريعةٍ سواها.

من واجبِهم أَنْ يرفضُوا هذه التَّلهيَةَ عن العملِ الجادِّ.. التَّلهيةَ باستنباتِ البذورِ في الهواءِ.. وأَنْ يرفضوا هذه الخدعةَ الخبيثةَ[1]!

---

(١) **تنبيه**: اتَّهموا سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ بهذا الكلام أَنَّه يهاجمُ الفقهَ الإسلامي، أَو يدعو إلى إلغائه، أَو ينكرُ الدراساتِ الفقهية..! وفي حقيقة الأَمر أَنَّ كلامه هذا دعوةٌ إلىٰ ترتيب الأُولويات لإيجاد المجتمع الإسلاميِّ.. ثمَّ يكونُ التنظيرُ والتشريعُ بعد ذلك؛ فمَن يقرأْ تفسيره «في ظلال القرآن» وبعضَ كُتبه.. مثل: «**الإسلام ومشكلات الحضارة**» و«**خصائص التَّصوُّر الإسلامي**»؛ يجد أَنَّ هذه تهمةٌ باطلة.. مخالفةٌ لواقع الأَمر.. لا أَساس لها أَلبتَّة!

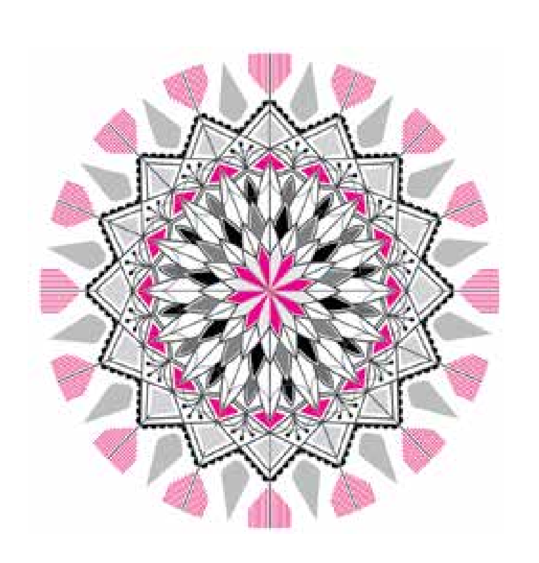
فلم تكن قضيتُه أَصلًا في كتاباته هي الفقهَ الإسلامي بمعنى التمذهب والفتوىٰ، وإنَّما كان هدفُه هو العودة أَوَّلًا إلى الشَّرع الحكيم الَّذي يُؤخذ منه الفقه! وكان يعتبرُ الفقهَ الإسلامي ثمرةً طبيعية لحياة المجتمع الإسلامي في ظل هذا الدِّين، ويعتبره استجابةً طبيعية للمشكلات الواقعية للمجتمع، ومَن يقرأْ كُتبه يجد أَنَّ له تحقيقاتٍ واجتهاداتٍ فقهية يُظهر فيها احترامًا كبيرًا لفقهاء المسلمين، ويستشيرُ المعاصرين منهم، وينقل عنهم فيما يعترضه من آيات أَو أَحكام.. وكان يدعو إلىٰ تجديدِ الفقه الإسلاميِّ، ويعيب عليه جمودَه في مرحلة معينة، ويُفرِّقُ بين الشَّرع والفقه.. ولكنه يرىٰ أَنَّ جهودَ العلماء يجب أَن تنصبَّ لإيجاد المجتمع الإسلامي أَوَّلًا.. ثمَّ يُجتهد لهذه المجتمع ولمشاكلها.. وهذا رأْيُ أَكثر علماء المعاصرين.

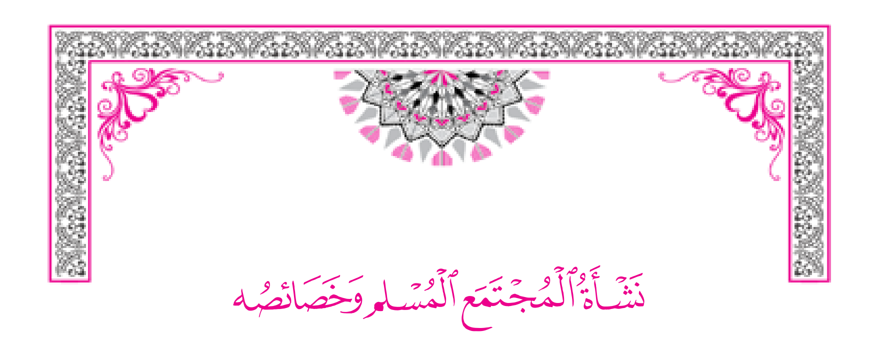
ثم إن سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللهُ أخذ عهدًا علىٰ نفسه حينما شرع في كتابةِ تفسيره أَن يبتعدَ عن الموضوعات اللُّغوية والنَّحوية، والقضايا الجدليَّة والكلاميَّة، والمسائلِ الفقهيَّة وما شابهها من المسائل..وذكر أَنَّ الإسرافَ في ذلك يحجبُ القرآنَ العظيم عن روحه.. ويسترُ جمالَ النَّص القرآني الأَخَّاذ، قال رَحِمَهُ اللهُ: (**كلُّ ما حاولته أَلا أُغرقَ نفسي في بحوث لغويةٍ أَو كلامية، أَو فقهية تحجبُ القرآن عن روحي، وتحجبُ روحي عن القرآن، وما استطردتُ إلى غير ما يوحيه النَّصُّ القرآنيُّ ذاتُه من خاطرةٍ روحية أَو اجتماعيةٍ أَو إنسانية، وما أَحفلَ القرآنَ بهذه الإيحاءات**). مقدمة « في ظلال القرآن » الطبعة الأولىٰ.

ومِن وَاجبِهم أَنْ يتحرَّكوا وفقَ منهج هذا الدِّين في الحركةِ، فهذا من أَسرارِ قوَّتِه، وهذا هو مصدرُ قوَّتِهم كذلك.

إنَّ «**المنهج**» في الإسلام يُساوي «**الحقيقة**»، ولا انفصامَ بينَهما، وكلُّ منهجٍ غريبٍ لا يمكنُ أَنْ يحقِّقَ الإسلامَ في النِّهايةِ، والمناهجُ الغريبةُ يمكنُ أَنْ تحقِّقَ أَنظمتَها البشريَّةَ، ولكنَّها لا يمكنُ أَنْ تحقِّقَ منهجنَا؛ فالتزامُ المنهج ضروريٌّ كالتزامِ العقيدة، وكالتزامِ النِّظامِ في كلِّ حركةٍ إسلاميَّة..

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩].





نَشأةُ المُجتمعِ المُسلمِ وخَصائصُه

إنَّ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ ـ علىٰ يدِ محمَّدٍ رسول الله ﷺ ـ إنَّما تمثِّلُ الحلقةَ الأخيرةَ من سلسلةِ الدَّعوةِ الطَّويلةِ إلى الإسلام، بقيادةِ موكبِ الرُّسُلِ الكرام.. وهذهِ الدَّعوةُ علىٰ مدارِ التَّاريخِ البشَريِّ كانتْ تستهدفُ أمرًا واحدًا: هو تعريفُ النَّاسِ بإلههم الواحدِ وربِّهم الحقِّ، وتعبيدِهم لربِّهم وحدَه، ونبذِ ربوبيَّةِ الخلقِ.. ولم يكنِ النَّاسُ ـ فيما عدا أفرادًا معدودةً في فتراتٍ قصيرةٍ ـ ينكرونَ مبدأَ الأُلوهيَّةِ، ويجحدونَ وجودَ الله ألبتَّةَ، إنَّما هم كانُوا يخطئونَ معرفةَ حقيقةِ ربِّهم الحقِّ، أو يشركونَ مع الله آلهةً أُخرىٰ: إمَّا في صورةِ الاعتقادِ والعبادةِ، وإمَّا في صورةِ الحاكميَّةِ والاتِّباعِ، وكلاهما شركٌ كالآخرِ يَخرجُ به النَّاسُ من دينِ الله، الَّذي كانوا يعرفونَه علىٰ يدِ كلِّ رسولٍ، ثمَّ ينكرونَه إذا طالَ عليهمُ الأَمدُ، ويرتدُّونَ إلى الجاهليَّة الَّتي أخرجَهم منها، ويعودونَ إلى الشِّركِ بالله مرَّةً أُخرىٰ، إمَّا في الاعتقادِ والعبادةِ، وإمَّا في الاتِّباعِ والحاكميَّةِ، وإمَّا فيهما جميعًا..



هذه طبيعةُ الدَّعوةِ إلى الله علىٰ مدارِ التَّاريخِ البشريِّ. إنَّها تستهدفُ «الإسلامَ».. إسلامَ العبادِ لربِّ العبادِ، وإخراجَهم من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَه، بإخراجهم من سُلطانِ العبادِ في حاكميَّتهم وشرائعِهم وقيَمِهم وتقاليدِهم، إلىٰ سُلطانِ الله وحاكميَّتِه وشريعتِه وحدَه في كلِّ شأنٍ من شُؤونِ الحياة.

وفي هذا جاءَ الإسلام علىٰ يدِ محمَّدٍ ﷺ كما جاءَ علىٰ أَيدي الرُّسلِ الكرامِ قبلَه.. جاءَ ليَردَّ النَّاس إلىٰ حاكميَّةِ الله كشأْنِ الكونِ كلِّه الَّذي يحتوي النَّاسَ؛ فيجبُ أَنْ تكونَ السُّلطةُ الَّتي تنظِّمُ حياتَهم هي السُّلطةُ الَّتي تنظِّمُ وجودَه، فلا يشذُّوا هم بمنهجٍ وسُلطانٍ وتدبيرٍ غيرِ المنهجِ والسُّلطانِ والتَّدبيرِ الَّذي يُصرِّف الكونَ كلَّه؛ بل الَّذي يُصرِّفُ وجودَهم هم أَنفسَهم في غيرِ الجانب الإراديِّ من حياتِهم؛ فالنَّاسُ محكومونَ بقوانينَ فطريَّةٍ من صنعِ الله في نشأَتِهم ونموِّهم، وصحَّتِهم ومرضِهم، وحياتِهم وموتِهم، كما هم محكومونَ بهذه القوانينِ في اجتماعِهم وعواقبِ ما يَحُلُّ بهم نتيجةً لحركتِهم الاختياريَّةِ ذاتِها، وهم لا يملكونَ تغييرَ سنَّةِ الله في القوانينِ الكونيَّةِ، الَّتي تحكمُ هذا الكونَ وتُصرِّفُه.

ومن ثَمّ ينبغي أَنْ يثوبُوا إلى الإسلام في الجانب الإراديِّ من حياتِهم، فيجعلوا شريعةَ الله هي الحاكمةَ في كلِّ شأْنٍ من شؤونِ هذهِ الحياةِ، تنسيقًا بين الجانب الإراديِّ في حياتِهم والجانب الفطريِّ،

وتنسيقًا بين وجودِهم كلِّه بشطرَيْه هذينِ وبينَ الوجودِ الكونيِّ[(١)].

۞۞۞

الجاهليَّةُ كتجمُّعٍ حركيٍّ:

ولكنَّ الجاهليَّةَ الَّتي تقومُ علىٰ حاكميَّةِ البشرِ للبشرِ، والشُّذوذِ بهذا عن الوجودِ الكونيِّ، والتَّصادمِ بين منهج الجانب الإراديِّ في حياةِ الإنسانِ والجانب الفطريِّ.. هذهِ الجاهليَّةُ الَّتيْ واجهَها كلُّ رسولٍ بالدَّعوةِ إلى الإسلام لله وحدَه، والَّتي واجهَها رسولُ الله ﷺ بدعوتِه.. هذه الجاهليَّةُ لم تكنْ ممثَّلةً في «**نظريَّة**» مجرَّدةٍ؛ بل ربَّما أَحيانًا لم تكنْ لها «**نظريَّة**» على الإطلاقِ! إنَّما كانتْ متمثِّلةً دائمًا في تجمُّعٍ حركيٍّ، متمثِّلةً في مجتمعٍ، خاضعٍ لقيادةِ هذا المجتمعِ، وخاضعٍ لتصوُّراتِه وقيَمِه ومفاهيمِه ومشاعرِه وتقاليدِه وعاداتِه.

وهو مجتمعٌ عضويٌّ بين أَفرادِه ذلك التَّفاعلُ والتَّكاملُ والتَّناسقُ والولاءُ والتَّعاونُ العضويُّ، الَّذي يجعلُ هذا المجتمعَ يتحرَّكُ ـ بإرادةٍ واعيةٍ أَو غيرِ واعيةٍ ـ للمحافظةِ علىٰ وجودِه، والدِّفاعِ عن كيانِه، والقضاءِ علىٰ عناصرِ الخطرِ الَّتي تهدِّدُ ذلكَ الوجودَ وهذا الكيانَ في أَيَّةِ صورةٍ من صورِ التَّهديدِ.

ومن أَجلِ أَنَّ الجاهليَّةَ لا تتمثَّلُ في «**نظريَّة**» مجرَّدة، ولكن تتمثَّلُ

---

(١) يراجعُ بتوسُّعٍ في هذه النُّقطةِ كتابُ: «مبادئِ الإسلام» للسَّيد أَبي الأَعلى المودوديِّ أَميرِ الجماعةِ الإسلاميَّة في باكستان. (المُؤَلِّف).



في تجمُّعٍ حركيّ علىٰ هذا النَّحوِ؛ فإنَّ محاولةَ إلغاءِ هذهِ الجاهليَّة، وردِّ النَّاسِ إلى الله مرَّةٍ أُخرىٰ، لا يجوزُ ـ ولا يجدي شيئًا ـ أَنْ تتمثَّلَ في «نظريَّة» مجرَّدة؛ فإنَّها حينئذٍ لا تكونُ مكافئةً للجاهليَّةِ القائمةِ فعلًا، والمتمثِّلةِ في تجمُّعٍ حركيٍّ عضويٍّ، فضلًا علىٰ أَنْ تكونَ متفوِّقةً عليها، كما هو المطلوبُ في حالةِ محاولةِ إلغاءِ وجودٍ قائمٍ بالفعل، لإقامةِ وجودٍ آخرَ يخالفُهُ مخالفةً أَساسيَّةً في طبيعتِهِ وفي منهجِهِ وفي كليَّاتِه وجزئيَّاتِهِ؛ بل لا بُدَّ لهذهِ المحاولةِ الجديدةِ أَنْ تتمثَّلَ في تجمُّعٍ عضويٍّ حركيٍّ أَقوىٰ في قواعدِهِ النَّظريَّة والتنظيميَّةِ، وفي روابطِهِ وعلاقاتِهِ ووشائجِهِ من ذلك المجتمع الجاهليِّ القائم فعلًا.

القاعدةُ النَّظريَّةُ للعقيدةِ الإسلاميَّة:

والقاعدةُ النَّظريَّةُ الَّتي يقومُ عليها الإسلامُ ـ علىٰ مدارِ التَّاريخِ البشريِّ ـ هي قاعدةُ: «شهادةِ أَلَّا إلهَ إلَّا الله» أَي: إفرادُ الله ـ سبحانه ـ بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، والقِوامةِ والسُّلطانِ والحاكميَّةِ.. إفرادُه بها اعتقادًا في الضَّميرِ، وعبادةً في الشَّعائرِ، وشريعةً في واقع الحياة، فشهادةُ أَن لا إلهَ إلَّا الله، لا توجدُ فعلًا، ولا تعتبرُ موجودةً شرعًا؛ إلَّا في هذهِ الصُّورةِ المتكاملةِ، الَّتي تعطيها وجودًا جدِّيًّا حقيقيًّا يقومُ عليهِ اعتبارُ قائلِها مسلمًا، أَو غيرَ مسلمٍ.

ومعنىٰ تقريرِ هذه القاعدةِ من الناحية النَّظريَّة.. أَنْ تعودَ حياةُ البشرِ بجملتِها إلى الله، لا يقضونَ هم في أَيِّ شأْنٍ من شؤونها، ولا

في أَيِ جانبٍ من جوانبِها، من عندِ أَنفسِهم؛ بل لا بُدَّ لهمْ أَنْ يرجعُوا إلىٰ حكمِ الله فيها ليتَّبعوهُ.. وحكمُ الله هذا يجبُ أَنْ يعرفوهُ من مصدرٍ واحدٍ يبلِّغُهم إيَّاه، وهو رسولُ الله، وهذا يتمثَّلُ في شطرِ الشَّهادةِ الثَّاني من ركنِ الإسلام الأَوَّلِ: «**شهادةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله**».

هذهِ هي القاعدةُ النَّظريَّةُ.. الَّتي يتمثَّلُ فيها الإسلامُ ويقومُ عليها.. وهي تُنشئُ منهجًا كاملًا للحياةِ حين تُطَبَّقُ في شؤونِ الحياةِ كلِّها، يواجهُ به المسلمُ كلَّ فرعٍ من فروعِ الحياةِ الفرديَّةِ والجماعيَّةِ في داخلِ دارِ الإسلام وخارجِها، في علاقاتِهِ بالمجتمع المسلمِ، وفي علاقاتِ المجتمع المسلمِ بالمجتمعاتِ الأُخرىٰ[(١)].

كيفَ يقوِّي المسلمونَ المجتمعَ الجاهليَّ؟

ولكنَّ الإسلامَ ـ كما قلنا ـ لم يكنْ يملكُ أَنْ يتمثَّلَ في «**نظريَّةٍ** مجرَّدةٍ، يعتنقُها من يعتنقُها اعتقادًا ويزاولُها عبادةً، ثمَّ يبقىٰ معتنقُوها علىٰ هذا النَّحْوِ أَفرادًا ضمنَ الكيانِ العضويِّ للتجمُّعِ الحركيِّ الجاهليِّ القائم فعلًا؛ فإنَّ وجودَهم علىٰ هذا النَّحوِ ـ مهما كثُر عددُهم ـ لا يمكنُ أَنْ يؤدِّيَ إلىٰ «**وجودٍ فعليٍّ**» للإسلام؛ لأَنَّ الأَفرادَ «**المسلمينَ نظريًّا**» الدَّاخلينَ في التَّركيبِ العضويِّ للمجتمعِ الجاهليِّ، سيظلُّونَ مضطرِّينَ حتمًا للاستجابةِ لمطالبِ هذا المجتمع العضويِّ.. سيتحرَّكونَ ـ طوعًا أَو كرهًا، بوعيٍ أَو بغيرِ وعيٍ ـ لقضاءِ الحاجاتِ

---

(١) راجع فصل: «لا إله إلاَّ الله منهجُ حياة» **(المؤلِّف)**.



الأَساسيَّةِ لحياةِ هذا المجتمع الضَّروريَّةِ لوجودِه، وسيدافعونَ عن كيانِه، وسيدفعونَ العواملَ الَّتي تهدِّدُ وجودَه وكيانَه؛ لأَنَّ الكائنَ العضويَّ يقومُ بهذه الوظائفِ بكلِّ أَعضائِه سواءٌ أَرادوا أَم لم يريدوا..

أَي: إنَّ الأَفرادَ «المسلمينَ نظريًّا» سيظلُّونَ يقومونَ «فعلًا» بتقويةِ المجتمع الجاهليِّ الَّذي يعملونَ «نظريًّا» لإزالتِه، وسيظلُّونَ خلايا حيَّةً في كيانِه تُمدُّهُ بعناصرِ البقاءِ والامتدادِ! وسيعطونَه كفاياتِهم وخبراتِهم ونشاطَهم ليحيا بها ويقوىٰ، وذلك بدلًا من أَن تكونَ حركتُهم في اتِّجاهِ تقويضِ هذا المجتمع الجاهليِّ لإقامةِ المجتمع الإسلاميِّ[1].

ضرورةُ إنشاءِ تجمُّعٍ إسلاميٍّ حركيٍّ:

ومن ثَمَّ لم يكنْ بُدٌّ[2] **أَنْ تتمثَّلَ القاعدةُ النَّظريَّةُ للإسلام (أَي: العقيدةُ) في تجمُّعٍ عضويٍّ حركيٍّ منذُ اللَّحظةِ الأُولىٰ..** لم يكن بُدٌّ أَنْ ينشأَ تجمُّعٌ عضويٌّ حركيٌّ آخرُ غيرُ التَّجمُّعِ الجاهليِّ، منفصلٌ ومستقلٌّ عن التَّجمُّعِ العضويِّ الحركيِّ الجاهليِّ الَّذي يستهدفُ الإسلامُ إلغاءَه، وأَنْ يكونَ محورُ التَّجمُّعِ الجديدِ هو القيادةَ الجديدةَ المُتَمثِّلَةَ في رسول الله ﷺ ومن بعدِه في كلِّ قيادةٍ إسلاميَّةٍ

---

(١) تنبيه: عبارة «**المسلمون نظريًا**»: يعني بهم سيِّد قُطُب رحمه الله الذي وُلدوا كمسلمين ، ولا يهتمون لأمر الإسلام .. وهو يفرق بينهم، وبين المسلم الَّذي يحملُ همَّ الإسلام، ويعمل في مجال الدَّعوة.

(٢) «**بُدّ**» : اسم، وجمع: أَبَدٌّ، وأَبْدادٌ ، و بِدَدَة.. من كلِّ بُدٍّ: في كلِّ حالٍ. أَي: لا محالة، لا مناص، ولا محيد.

تستهدفُ ردَّ النَّاسِ إلىٰ أُلوهيَّةِ الله وحدَه وربوبيَّتِه وقوامتِه وحاكميَّتِهِ وسُلطانِهِ وشريعتِهِ ـ وأَنْ يخلعَ كلُّ مَن يشهدُ أَلَّا إله إلَّا الله وأَنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ولاءَه من التَّجمُّعِ الحركيِّ الجاهليِّ ـ أَي: التَّجمُّعِ الَّذي جاءَ منه ـ ومن قيادةِ ذلك التَّجمُّعِ ـ في أَيَّة صورةٍ كانتْ، سواءٌ كانت في صورةِ قيادةٍ دينيَّةٍ من الكهنةِ والسَّدنةِ والسَّحرةِ والعرَّافينَ ومَن إليهم، أَو في صورةِ قيادةٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ ـ كالَّتي كانت لقريشٍ ـ وأَنْ يحصرَ ولاءَهُ في التَّجمُّعِ العضويِّ الحركيِّ الإسلاميِّ الجديدِ، وفي قيادتِهِ المسلمة.

ولم يكنْ بُدٌّ أَنْ يتحقَّقَ هذا منذُ اللَّحظةِ الأُولىٰ لدُّخولِ المسلمِ في الإسلام، ولنطقِه بشهادةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رسولُ الله؛ لأَنَّ وجودَ المجتمع المسلمِ لا يتحقَّقُ إلَّا بهذا، لا يتحقَّقُ بمجرَّدِ قيامِ القاعدةِ النَّظريَّة في قلوبِ أَفرادٍ مهما تبلغْ كثرتُهم، لا يتمثَّلونَ في تجمُّعٍ عضويٍّ متناسقٍ متعاونٍ، له وجودٌ ذاتيٌّ مستقلٌّ، يعملُ أَعضاؤه عملًا عضويًّا ـ كأَعضاءِ الكائنِ الحيِّ ـ علىٰ تأْصيلِ وجودِهِ وتعميقِهِ وتوسيعِه، وفي الدِّفاعِ عن كيانِه ضدَّ العواملِ الَّتي تهاجمُ وجودَه وكيانَه، ويعملونَ هذا تحتَ قيادةٍ مستقلَّةٍ عن قيادةِ المجتمع الجاهليِّ، تنظِّمُ حركتَهم وتُنسِّقُها، وتوجِّهُهم لتأْصيلِ وتعميقِ وتوسيعِ وجودِهم الإسلاميِّ، ولمكافحةِ ومقاومةِ وإزالةِ الوجودِ الآخرِ الجاهليِّ[1].

---

(١) يُشير سيِّد قُطُب رَحِمَهُ الله هنا إلىٰ أَهميةِ وجود العملِ الجماعيِّ، وضرورته لتوحيد الجهودِ ضدَّ المعسكرِ المعادي.



وهكذا وُجِد الإسلام.. هكذا وجدَ متمثِّلًا في قاعدةٍ نظريَّةٍ مجملةٍ ـ ولكنَّها شاملةٌ ـ يقومُ عليها في نفسِ اللَّحظةِ تجمُّعٌ عضويٌّ حركيٌّ، مستقلٌّ منفصلٌ عن المجتمع الجاهليِّ ومواجهٌ لهذا المجتمع.. ولم يوجدْ قطُّ في صورةٍ «**نظريَّة**» مجرَّدةٍ عن هذا الوجودِ الفعليِّ.. وهكذا يمكنُ أَنْ يوجدَ الإسلامُ مرَّةً أُخرىٰ، ولا سبيلَ لإعادةِ إنشائِه في المجتمع الجاهليِّ في أَيِّ زمانٍ، وفي أَيِّ مكانٍ بغيرِ الفقهِ الضَّروريِّ لطبيعةِ نشأَتِه العضويَّةِ الحركيَّةِ.

❊ ❊ ❊

انفتاحُ المجتمع المسلمِ:

وبعدُ: فإنَّ الإسلامَ ـ وهو يبني الأُمَّةَ المسلمةَ علىٰ هذهِ القاعدةِ وفق هذا المنهج، ويقيمُ وجودَها علىٰ أَساس التَّجمُّعِ العضويّ الحركيِّ، ويجعلُ آصرةَ هذا التَّجمُّعِ هي العقيدةُ ـ إنَّما كانَ يستهدفُ إبرازَ «**إنسانيَّةِ الإنسان**» وتقويتَها وتمكينَها، وإعلاءَها علىٰ جميعِ الجوانبِ الأُخرىٰ في الكائنِ الإنسانيِّ، وكان يمضي في هذا علىٰ منهجِهِ المطَّردِ في كلِّ قواعدِه وتعليماتِه وشرائعِه وأَحكامِه..

إنَّ الكائنَ الإنسانيَّ يشتركُ مع الكائناتِ الحيوانيَّةِ ـ بل الكائناتِ الماديَّةِ ـ في صفاتٍ توهمُ أَصحابَ «**الجهالةِ العلميَّة**» مرَّةً بأَنَّهُ حيوانٌ كسائرِ الحيوانِ، ومرَّةً بأَنَّهُ مادةٌ كسائرِ الموادِّ! ولكنَّ الإنسانَ مع اشتراكِه في هذه «**الصِّفات**» مع الحيوانِ ومع المادَّةِ له «**خصائصُ**» تميِّزُهُ وتفْرِدُه، وتجعلُ منه كائنًا فريدًا، كما اضطرَّ أَصحابُ «**الجهالةِ**

العلميَّة» أَخيرًا أَنْ يعترفوا، والحقائقُ الواقعيَّةُ تلوي أَعناقَهم ليًّا، فيضطرُّونَ لهذا الاعترافِ في غيرِ إخلاصٍ ولا صراحةٍ(١).

ولقد كانَ من النتائجِ الواقعيَّة الباهرةِ للمنهج الإسلاميِّ في هذهِ القضيَّةِ، ولإقامةِ التَّجمُّعِ الإسلاميِّ علىٰ آصرةِ العقيدة وحدَها، دون أَواصرِ الجنسِ والأَرض واللَّونِ واللُّغةِ، والمصالحِ الأَرضيَّةِ القريبةِ الحدودِ الإقليميَّةِ السَّخيفةِ! ولإبرازِ **«خصائصِ الإنسان»** في هذا التَّجمُّعِ وتنميتِها وإعلائِها، دونَ الصِّفاتِ المشتركةِ بينه وبينَ الحيوانِ.

كانَ من النتائجِ الواقعيَّة الباهرةِ لهذا المنهج أَنْ أَصبحَ المجتمعُ المسلمُ مجتمعًا مفتوحًا لجميعِ الأَجناسِ والأَقوامِ والأَلوانِ واللُّغاتِ، بلا عائقٍ من هذه العوائقِ الحيوانيَّةِ السَّخيفةِ! وأَنْ صُبَّت في بوتقةِ المجتمع الإسلاميِّ خصائصُ الأَجناسِ البشريَّةِ وكفاياتُها، وانصهرتْ في هذه البوتقةِ وتمازجتْ، وأَنشأَتْ مركَّبًا عضويّاً فائقًا في فترة تعدُّ نسبيًّا قصيرةً، وصنعتْ هذه الكتلةُ العجيبةُ المتجانسةُ المتناسقةُ حضارةً رائعةً ضخمةً، تحوي خلاصةَ الطَّاقةِ البشريَّةِ في زمانِها مجتمعةً، علىٰ بعدِ المسافاتِ وبُطءِ طُرقِ الاتِّصالِ في ذلكَ الزَّمان.

تناسقُ المجتمع المسلم:

لقد اجتمعَ في المجتمع الإسلاميِّ المتفوِّقِ: العربيُّ والفارسيُّ والشَّاميُّ والمصريُّ والمغربيُّ والتُّركيُّ والصِّينيُّ والهنديُّ والرُّومانيُّ

---

(١) في مقدِّمةِ هؤلاءِ جوليان هاكسلي من أَصحابِ «الدارونية الحديثة» **(المؤلِّف)**.



والإغريقيُّ والإندونيسيُّ والإفريقيُّ... إلىٰ آخرِ الأَقوامِ والأَجناسِ. وتجمَّعتْ خصائصُهم كلُّها لتعملَ متمازجةً متعاونةً متناسقةً في بناءِ المجتمع الإسلاميِّ والحضارةِ الإسلاميَّة، ولم تكنْ هذه الحضارةُ الضَّخمةُ يومًا ما «عربيَّة» إنَّما كانتْ دائمًا «إسلاميَّة» ، ولم تكنْ يومًا «قوميَّة» إنَّما كانت دائمًا «عقيديَّة».

ولقد اجتمعوا كلُّهم علىٰ قدمِ المساواةِ وبآصرةِ الحبِّ، وبشُعورِ التَّطلُّعِ إلىٰ وجهةٍ واحدةٍ؛ فبذلوا جميعُهم أَقصىٰ كفاياتِهم، وأَبرزوا أَعمقَ خصائصِ أَجناسِهم، وصبُّوا خلاصةَ تجاربهم الشَّخصيَّةِ والقوميَّةِ والتَّاريخيَّةِ في بناء هذا المجتمع الواحدِ، الَّذي ينتسبونَ إليه جميعًا علىٰ قدمِ المسَاواةِ، وتجمعُ فيه بينَهم آصرةٌ تتعلَّقُ بربِّهم الواحدِ، وتبرزُ فيها إنسانيَّتُهم وحدَها بلا عائقٍ، وهذا ما لم يجتمعْ قطُّ لأَيِّ تجمُّعٍ آخرَ علىٰ مدارِ التَّاريخ!..

۞۞۞

من أمراضِ المجتمع الجاهليِّ:

لقد كان أَشهرُ تجمُّعٍ بشَريٍّ في التَّاريخِ القديمِ هو تجمُّعُ الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ مثلًا؛ فقد جمعتْ بالفعلِ أَجناسًا متعدِّدةً، ولغاتٍ متعدِّدةً، وأَلوانًا متعدِّدةً، وأَمزجةً متعدِّدةً؛ ولكنَّ هذا كلَّه لم يقمْ علىٰ «آصرةٍ إنسانيَّة» ولم يتمثَّلْ في قيمةٍ عُليا كالعقيدة، لقد كان هناكَ تجمُّعٌ طبقيٌّ علىٰ أَساس طبقةِ الأَشرافِ وطبقةِ العبيدِ في الإمبراطوريَّةِ كلِّها من ناحيةٍ، وتجمُّعٌ عنصريٌّ علىٰ أَساس سيادةِ

الجنسِ الرُّومانيِّ ـ بصفةٍ عامَّةٍ ـ وعبوديةِ سائرِ الأَجناسِ الأُخرىٰ. ومن ثَمَّ لم يرتفعْ قطُّ إلىٰ أَفقِ التَّجمُّعِ الإسلاميِّ، ولم يؤتِ الثِّمارَ الَّتي آتاها التَّجمُّعُ الإسلاميُّ.

كذلك قامتْ في التَّاريخِ الحديثِ تجمُّعاتٌ أُخرىٰ.. تجمُّعُ الإمبراطوريَّةِ البريطانيَّةِ مثلاً.. ولكنَّه كانَ كالتَّجمُّعِ الرُّومانيِّ الَّذي هو وريثُه! تجمُّعًا قوميًّا استغلاليًّا، يقوم علىٰ أساسِ سيادةِ القوميَّةِ الإنجليزيَّةِ، واستغلالِ المستعمراتِ الَّتي تَضُمُّها الإمبراطوريَّةُ.. ومثلُه الإمبراطوريَّات الأَوروبيَّةُ كلُّها: الإمبراطوريَّةُ الإسبانيَّةُ، والبرتغاليَّةُ، في وقتٍ ما، والإمبراطوريَّةُ الفرنسيَّة.. كلُّها في ذلكَ المستوى الهابطِ البشعِ المقيتِ! وأَرادتِ الشُّيوعيَّةُ أَنْ تقيمَ تجمُّعًا من نوعٍ آخرَ، يتخطَّىٰ حواجزَ الجنسِ والقومِ والأَرض واللُّغةِ واللَّونِ، ولكنَّها لم تقمْهُ علىٰ قاعدةٍ «**إنسانيَّة**» عامَّة، إنَّما أَقامتْه على القاعدةِ «**الطَّبقيَّة**».

فكانَ هذا التَّجمُّعُ هو الوجهَ الآخرَ للتجمُّعِ الرُّومانيِّ القديمِ، هذا تجمُّعٌ علىٰ قاعدةِ طبقةِ «**الأَشرافِ**» وذلك تجمُّعٌ علىٰ قاعدةِ طبقةِ **الصَّعاليكِ** ـ (**البروليتريا**) ـ والعاطفةُ الَّتي تسودُهُ هي عاطفةُ الحقدِ الأَسودِ علىٰ سائرِ الطَّبقاتِ الأُخرىٰ! وما كانَ لمثلِ هذا التَّجمُّعِ الصَّغيرِ البغيضِ أَنْ يثمرَ إلَّا أَسوأَ ما في الكائنِ الإنسانيِّ.. فهو ابتداءً قائمٌ علىٰ أَساس إبرازِ الصِّفاتِ الحيوانيَّةِ وحدَها، وتنميتِها وتمكينِها



باعتبارِ أَنَّ «**المطالبَ الأَساسيَّةَ**» للإنسانِ هي: «**الطَّعامُ والمسكنُ والجنسُ**» ـ وهي مطالبُ الحيوانِ الأَوَّليَّةُ ـ باعتبارِ أَنَّ تاريخَ الإنسانِ هو تاريخُ البحثِ عن الطَّعام!!

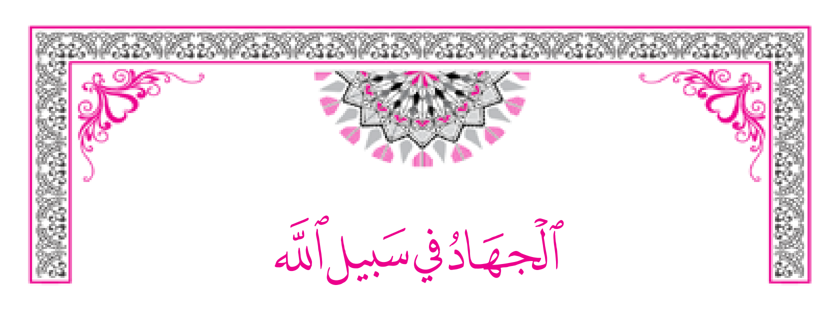
لقد تفرَّدَ الإسلامُ بمنهجِهِ الرَّبَّانيِّ في إبرازِ أَخصِّ خصائصِ الإنسانِ وتنميتِها وإعلائِها في بناءِ المجتمع الإنسانيِّ، وما يزالُ متفرِّدًا.. والَّذينَ يعدلونَ عنه إلىٰ أَيِّ منهجٍ آخرَ، يقومُ علىٰ أَيِّ قاعدةٍ أُخرىٰ من القومِ أَو الجنسِ أَو الأَرض أَو الطَّبقةِ... إلىٰ آخرِ هذا النَّتِنِ السَّخيفِ؛ هم أَعداءُ الإنسانِ حقًّا! هم الَّذينَ لا يريدونَ لهذا الإنسانِ أَنْ يتفرَّدَ في هذا الكونِ بخصائصِه العليا كما فطرَهُ الله، ولا يريدونَ لمجتمعِه أَنْ ينتفعَ بأَقصىٰ كفاياتِ أَجناسِه وخصائصِها وتجارِبِها في امتزاجٍ وتناسقٍ..

وهمُ الَّذينَ يقولُ اللهُ ـ سبحانه ـ في أَمثالِهم:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۞ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

وصدقَ اللهُ العظيم..





ٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

لخَّصَ الإمامُ ابنُ القيِّم سياقَ الجهاد في الإسلام في «زاد المعاد» في الفصلِ الَّذي عقدَه باسم: «**فصلٌ في ترتيبِ هديهِ مع الكفَّارِ والمنافقينَ، من حينِ بُعِثَ إلىٰ حينِ لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ**»(١):

(أَوَّلُ ما أَوحىٰ إليه ربُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يقْرَأَ باسم ربِّهِ الَّذيْ خلَقَ، وذلكَ أَوَّلَ نُبُوَّتِهِ، فأَمرَهُ أَنْ يقرَأَ في نفسِه، ولم يأْمُرْهُ إذْ ذاكَ بتَبْليغٍ، ثُمَّ أَنْزَلَ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ـ ٢]. فنبَّأَهُ بقوله ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأَرسلَهُ بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

ثُمَّ أَمرَهُ أَن يُنذِرَ عشيرَتَهُ الأَقربينَ، ثُمَّ أَنْذَرَ قومَهُ، ثُمَّ أَنذرَ مَن حولهُم من العربِ، ثُمَّ أَنذرَ العربَ قاطبةً، ثُمَّ أَنذرَ العالمينَ، فأَقامَ بضعَ عشْرَةَ سَنَةً بعدَ نُبُوَّتِهِ يُنذِرُ بالدَّعوةِ بغيرِ قتالٍ ولا جزيةٍ، ويُؤمَرُ بالكفِّ والصَّبرِ والصَّفحِ.

ثُمَّ أُذنَ لهُ في الهجرَةِ، وأُذنَ له في القتال، ثُمَّ أَمرَهُ أَن يُقاتلَ مَن قاتلهُ، ويكُفَّ عمَّنِ اعتزَلهُ ولم يُقاتلهُ، ثُمَّ أَمرهُ بقتالِ المشركينَ حتَّىٰ يكونَ الدِّينُ كلُّه لله..

---

(١) هناكَ فروقٌ قليلة، ونقصٌ في بعض الفقراتِ في ما نُقل هنا وبين مطبوعة «زاد المعاد» لابن القيم، فقمنا بنقل النَّصِّ من الطبعة المحققة لدار عالم الفوائد، وما بين المعقوفتين زيادة منها.



ثمَّ كانَ الكفَّارُ معه بعد الأَمرِ بالجهاد ثلاثةَ أَقسامٍ: أَهلَ صُلحٍ وهُدنةٍ، وأَهلَ حربٍ، وأَهلَ ذمَّة.. فأُمرَ بأَنْ يُتِمَّ لأَهلِ العهدِ والصُّلحِ عهدَهُم، وأَن يوفِّيَ لهم به ما استقامُوا على العهدِ؛ فإن خافَ منهم خيانةً نبذَ إليهمْ عهدهُم، ولم يقاتلهُم حتَّىٰ يُعلمهُم بنقضِ العهدِ، وأُمرَ أَن يقاتلَ مَن نقضَ عهدَهُ..

ولمَّا نزلتْ سورةُ «بَراءَة» نزلتْ ببيانِ حُكم هذه الأَقسامِ كلِّها: فأَمر أَن يُقاتلَ عدوَّه من أَهلِ الكتابِ حتَّىٰ يُعطوا الجزيَةَ، أَو يدخُلُوا في الإسلام، وأَمرَه فيها بجهادِ الكفَّارِ والمنافقينَ، والغلظَةِ عليهم؛ فجاهَدَ الكفَّارَ بالسَّيفِ والسِّنان، والمنافقينَ بالحُجَّةِ واللِّسانِ.

وأَمرَهُ فيها بالبراءَةِ من عُهودِ الكفَّارِ، ونبذِ عُهودهمْ إليهم.. وجعلَ أَهلَ العهدِ في ذلك ثلاثةَ أَقسامٍ:

ـ قسمًا أَمرَهُ بقتالهم، وهمُ الَّذينَ نقضُوا عهدَهُ، ولم يستقيموا له، فحاربَهُم وظهرَ عليهم.

ـ وقسمًا لهم عهدٌ مؤقَّتٌ لم ينْقُضوه ولم يظاهرُوا عليه، فأَمرَهُ أَن يُتمَّ لهم عهدَهُم إلىٰ مُدَّتِهم.

ـ وقسمًا لم يكنْ لهم عهدٌ ولم يحاربُوه، أَو كان لهم عهدٌ مطلقٌ، فأَمرَ أَن يُؤَجِّلَهُم أَربعةَ أَشهُرٍ، فإذا انسلختْ قاتلهُم.. [وهي الأَشهُرُ الأَربعةُ المذكورةُ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]. وهي

الحُرُمُ المذكورةُ في قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥].

فالحُرُمُ هاهُنا: هي أَشهُرُ التَّسييرِ، أَوَّلُها يومُ الأَذانِ، وهو اليومُ العاشرُ من ذي الحِجَّةِ، وهو يومُ الحَجِّ الأَكبرِ الَّذي وقعَ فيه التَّأْذينُ بذلك، وآخرُها العاشرُ من ربيعٍ الآخرِ.

وليستْ هي الأَربعَةَ المذكورَةَ في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦].

فإنَّ تلكَ واحدٌ فَرْدٌ، وثلاثةٌ سَرْدٌ: رجبٌ، وذو القعدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرَّمُ. ولم يُسَيِّرِ المُشركينَ في هذه الأَربعةِ، فإنَّ هذا لا يُمكنُ؛ لأَنَّها غيرُ متواليةٍ، وهو إنَّما أَجَّلَهُم أَربعةَ أَشهُرٍ، ثُمَّ أَمرَهُ بعد انسلاخِها أَنْ يقاتلَهُم] فقتلَ النَّاقضَ لعهدِهِ، وأَجَّلَ مَن لا عهدَ له، أَو له عهدٌ مطلقٌ أَربعة أَشهُرٍ، وأَمرَهُ أَن يُتِمَّ للمُوفي بعهدِه عهدَهُ إلىٰ مُدَّته؛ فأَسلمَ هؤلاءِ كلُّهم، ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مُدَّتهم، وضربَ علىٰ أَهل الذِّمَّةِ الجزيةَ.

فاستقرَّ أَمرُ الكفَّارِ معه بعد نزولِ «براءة» علىٰ ثلاثةِ أَقسامٍ: مُحاربينَ له، وأَهلِ عهدٍ، وأَهلِ ذمَّةٍ.. ثُمَّ آلت حالُ أَهلِ العهدِ والصُّلحِ إلى الإسلام؛ فصاروا معه قسمينِ: محاربينَ، وأَهلَ ذمَّةٍ، والمحاربونَ له خائفونَ منه؛ فصارَ أَهلُ الأَرض معه ثلاثةَ أَقسامٍ: مسلمٌ مؤمنٌ به،



ومسالمٌ له آمنٌ، وخائفٌ محاربٌ..

وأَمَّا سيرتُهُ في المنافقينَ؛ فإنَّهُ أُمرَ أَنْ يقبلَ منهم علانيتَهُم، ويَكِلَ سرائرهُم إلى الله، وأَن يجاهدَهُم بالعلمِ والحُجَّةِ، وأَمرَهُ أَن يُعرضَ عنهم، ويُغلظَ عليهم، وأَن يبلُغَ بالقول البليغِ إلىٰ نُفوسهم، ونهاهُ أَن يُصلِّيَ عليهم، وأَن يقومَ علىٰ قُبورهم، وأُخبرَ أَنَّهُ إن استغفَرَ لهم فلنْ يغفرَ اللهُ لهم.. فهذه سيرتُهُ في أَعدائِهِ من الكفَّارِ والمنافقينَ»[١].

* **ومن هذا التَّلخيصِ الجيِّدِ لمراحلِ الجهاد في الإسلام، تتجلَّىٰ سماتٌ أَصيلةٌ وعميقةٌ في المنهج الحركيِّ لهذا الدِّين، جديرةٌ بالوقوفِ أَمامَها طويلًا، ولكنَّنا لا نملكُ هنا؛ إلَّا أَنْ نشيرَ إليها إشاراتٍ مُجملَةً:**

سِمَات مراحلِ الجهاد في الإسلام:

السِّمةُ الأُولىٰ: هي الواقعيَّةُ الجدِّيَّةُ في منهج هذا الدِّين.. فهو حركةٌ تواجهُ واقعًا بشريًّا.. وتواجههُ بوسائلَ مكافئةٍ لوجودِه الواقعيِّ..

إنَّها تواجهُ جاهليَّةً اعتقاديَّةً تصوريَّةً، تقومُ عليها أَنظمةٌ واقعيَّةٌ عمليَّةٌ، تسنُدُها سُلطاتٌ ذاتُ قوَّةٍ ماديَّةٍ.. ومن ثَمَّ تواجهُ الحركةُ الإسلاميَّةُ هذا الواقعَ كلَّه بما يكافئُه.. تواجهُه بالدَّعوةِ والبيانِ لتصحيحِ المعتقداتِ والتَّصوُّراتِ، وتواجهُه بالقوَّةِ والجهاد لإزالةِ الأَنظمةِ والسُّلطاتِ القائمةِ عليها، تلك الَّتي تَحُولُ بين جمهرةِ النَّاسِ

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» ج٣، ص١٨٤.

وبينَ التَّصحيحِ بالبيانِ للمعتقداتِ والتَّصوُّراتِ، وتُخضِعُهم بالقهرِ والتَّضليلِ وتُعبِّدُهم لغيرِ ربِّهم الجليلِ.. إنَّها حركةٌ لا تكتفيْ بالبيانِ في وجه السُّلطانِ الماديِّ، كما أنَّها لا تستخدمُ القهرَ الماديَّ لضمائرِ الأَفرادِ.. وهذه كتلك سواءٌ في منهج هذا الدِّينِ، وهو يتحرَّكُ لإخراجِ النَّاس من عبوديَّةِ العبادِ إلى العبوديَّةِ لله وحدَه كما سيجيء.

والسِّمةُ الثَّانيةُ في منهج هذا الدِّين: هي الواقعيَّةُ الحركيَّةُ.. فهو حركةٌ ذاتُ مراحلَ، كلُّ مرحلةٍ لها وسائلُ مكافئةٌ لمقتضياتِها، وحاجاتِها الواقعيَّة، وكلُّ مرحلةٍ تسلِّم إلى المرحلةِ الَّتي تليها..

فهو لا يقابلُ الواقعَ بنظريَّاتٍ مجرَّدةٍ، كما أنَّه لا يقابلُ مراحلَ هذا الواقعِ بوسائلَ متجمِّدةٍ.. والَّذينَ يسوقونَ النُّصوصَ القرآنيَّةَ للاستشهادِ بها علىٰ منهج هذا الدِّين في الجهاد، ولا يُراعونَ هذه السِّمةَ فيه، ولا يدركونَ طبيعةَ المراحلِ الَّتي مرَّ بها هذا المنهجُ، وعلاقةَ النُّصوصِ المختلفةِ بكلِّ مرحلةٍ منها.. الَّذين يصنعونَ هذا يخلطونَ خلطًا شديدًا، ويَلْبِسونَ منهجَ هذا الدِّينَ لَبسًا مضلِّلًا، ويُحمِّلونَ النُّصوصَ ما لا تحتملُه من المبادئِ والقواعدِ النِّهائيَّة.

ذلك أنَّهم يعتبرونَ كلَّ نصٍّ منها كما لو كانَ نصًّا نهائيًا، يمثِّلُ القواعدَ النِّهائيَّةَ في هذا الدِّين، ويقولونَ ـ وهم مهزومونَ روحيًّا وعقليًّا تحتَ ضغطِ الواقعِ اليائسِ لذراري المسلمينَ، الَّذين لم يبقَ لهم من الإسلام إلَّا العنوانُ ـ: إنَّ الإسلامَ لا يجاهدُ إلَّا للدِّفاعِ!



ويحسبونَ أَنَّهم يُسْدونَ إلىٰ هذا الدِّين جميلًا بتخلِّيهِ عن منهجه، وهو إزالةُ الطَّواغيتِ كلِّها من الأَرض جميعًا، وتعبيدُ النَّاسِ لله وحدَه، وإخراجُهم من العبوديَّةِ للعبادِ إلى العبوديَّةِ لربِّ العبادِ! لا بقهرهمْ على اعتناقِ عقيدتِه، ولكنْ بالتخليةِ بينَهم وبيَن هذه العقيدة.. بعد تحطيمِ الأَنظمةِ السياسيَّةِ الحاكمةِ، أَو قهرِها حتَّىٰ تدفعَ الجزيةَ، وتعلنَ استسلامَها والتَّخليةَ بين جماهيرِها وهذهِ العقيدة، تعتنقُها أَو لا تعتنقُها بكاملِ حريَّتِها.

والسِّمةُ الثَّالثةُ: هي أَنَّ هذهِ الحركةَ الدَّائبةَ، والوسائلَ المتجدِّدةَ، لا تُخرجُ هذا الدِّينَ عنْ قواعدِه المحدَّدةِ، ولا عن أَهدافِه المرسومةِ.

فهو ـ منذُ اليومِ الأَوَّلِ ـ سواءٌ وهو يخاطبُ العشيرةَ الأَقربينَ، أَو يخاطبُ قريشًا، أَو يخاطبُ العربَ أَجمعين، أَو يخاطبُ العالمينَ، إنَّما يخاطبُهم بقاعدةٍ واحدةٍ، ويطلبُ منهم الانتهاءَ إلىٰ هدفٍ واحدٍ هو إخلاصُ العبوديَّةِ لله، والخروجُ من العبوديَّةِ للعبادِ، لا مساومةَ في هذهِ القاعدةِ ولا لينَ.. ثمَّ يمضي إلىٰ تحقيقِ هذا الهدفِ الواحدِ في خطةٍ مرسومةٍ، ذاتِ مراحلَ محدَّدةٍ، لكلِّ مرحلةٍ وسائلُها المتجدِّدةُ، علىٰ نحوِ ما أَسلفنا في الفقرةِ السَّابقة.

والسِّمةُ الرَّابعةُ: هي ذلك الضَّبطُ التَّشريعيُّ للعلاقاتِ بين المجتمع المسلمِ وسائرِ المجتمعاتِ الأُخرىٰ ـ على النَّحوِ الملحوظِ في ذلكِ التَّلخيصِ الجيِّدِ الَّذي نقلناه عن «زادِ المعاد» ـ وقيامُ ذلك الضَّبطِ

علىٰ أَساس أَنَّ الإسلامَ لله هو الأَصلُ العالميُّ الَّذي على البشريَّةِ كلِّها أَنْ تفيءَ إليه، أَو أَنْ تُسالمَه بجملتِها فلا تقفُ لدعوتِه بأَيِّ حائلٍ من نظامٍ سياسيٍّ، أَو قوَّةٍ ماديَّةٍ، وأَنْ تخلِّيَ بينَه وبينَ كلِّ فردٍ، يختارُه أَو لا يختارُه بمطلقِ إرادتِه، ولكنْ لا يقاومُه ولا يحاربُه! فإنْ فعلَ ذلك أَحدٌ كان على الإسلام أَنْ يقاتلَه حتَّىٰ يقتلَه، أَو حتَّىٰ يعلنَ استسلامَه!

۞۞۞

مفهومُ الجهاد وأهدافُه:

والمهزومونَ روحيًّا وعقليًّا ممَّن يكتبونَ عن **«الجهاد في الإسلام»** ليدفعوا عن الإسلام هذا **«الاتِّهامَ»** يخلِطونَ بين منهج هذا الدِّين في النَّصِّ على استنكارِ الإكراهِ على العقيدة، وبينَ منهجه في تحطيمِ القوى السياسيَّةِ الماديَّةِ الَّتي تَحولُ بين النَّاسِ وبينَه، والَّتي تُعبِّدُ النَّاسَ للنَّاسِ، وتمنعُهم من العبوديَّةِ لله.. وهما أَمرانِ لا علاقةَ بينهما، ولا مجالَ للالتباسِ فيهما..

ومن أَجلِ هذا التَّخليطِ، وقبلَ ذلك من أَجلِ تلكَ الهزيمةِ! يحاولونَ أَنْ يحصرُوا الجهادَ في الإسلام، فيما يُسمُّونَه اليومَ: **«الحربَ الدَّفاعيَّة»**..

والجهادُ في الإسلام أَمرٌ آخرُ لا علاقةَ له بحروبِ النَّاسِ اليومَ، ولا بواعثِها، ولا تكييفِها كذلك.. إنَّ بواعثَ الجهاد في الإسلام ينبغي



تلمُّسُها في طبيعةِ «الإسلام» ذاتِه، ودورِه في هذه الأَرض، وأَهدافِه العُليا الَّتي قرَّرها اللهُ، وذكرَ اللهُ أَنَّه أَرسَلَ من أَجلها هذا الرَّسُولَ بهذه الرِّسالةِ، وجعلَه خاتمَ النَّبيِّينَ، وجعلها خاتمة الرِّسالات.

إنَّ هذا الدِّينَ إعلانٌ عامٌّ لتحريرِ «الإنسان» في «الأَرض» من العبوديَّةِ للعبادِ، و ـ من العبوديَّةِ لهواهُ ـ أَيضًا ـ وهي من العبوديَّةِ للعبادِ ـ **وذلك بإعلانِ أُلوهيَّةِ الله وحدَه** ـ سبحانه ـ **وربوبيَّتِهِ للعالمين.. !**

إنَّ إعلانَ ربوبيَّةِ الله وحدَه للعالمينَ معناها: الثورةُ الشَّاملةُ علىٰ حاكميَّةِ البشرِ في كلِّ صورِها وأَشكالِها وأَنظمتِها وأَوضاعِها، والتَّمرُّدُ الكاملُ علىٰ كلِّ وضعٍ في أَرجاءِ الأَرض الحكمُ فيه للبشرِ بصورةٍ من الصُّورِ.. أَو بتعبيرٍ آخرَ مرادفٍ: الأُلوهيَّةُ فيه للبشرِ في صورةٍ من الصُّورِ.. ذلك أَنَّ الحكمَ الَّذي مَردُّ الأَمرِ فيه إلى البشرِ، ومصدرُ السُّلطاتِ فيه هم البشرُ، هو تأْليهٌ للبشرِ، بجعلِ بعضِهم لبعضٍ أَربابًا من دونِ الله.

إنَّ هذا الإعلانَ معناهُ انتزاعُ سُلطانِ الله المغتصَبِ وردُّه إلى الله، وطردُ المغتصِبينَ له؛ الَّذينَ يحكمونَ النَّاسَ بشرائعَ من عندِ أَنفسهمَ، فيقومونَ منهم مقامَ الأربابِ ويقومُ النَّاسُ منهم مكانَ العبيد..

إنَّ معناهُ تحطيمُ مملكةِ البشر؛ لإقامةِ مملكةِ الله في الأَرض، أَو بالتعبيرِ القرآنيِّ الكريم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومملكةُ الله في الأَرض لا تقومُ بأَنْ يتولى الحاكميَّةَ في الأَرض رجالٌ بأَعيانِهم ـ هم رجالُ دينٍ ـ كما كانَ الأَمرُ في سُلطانِ الكنيسةِ، ولا رجالٌ ينطقونَ باسم الآلهةِ، كما كان الحالُ فيما يُعرفُ باسم «الثيوقراطية»، أَو الحكمِ الإلهيِّ المقدَّسِ!!، ـ ولكنَّها تقومُ بأَنْ تكونَ شريعةُ الله هي الحاكمةُ، وأَنْ يكونَ مردُّ الأَمرِ إلى الله، وفقَ ما قرَّرهُ من شريعةٍ مبيَّنة.

وقيامُ مملكةِ الله في الأَرض، وإزالـةُ مملكةِ البشرِ، وانتزاعُ السُّلطانِ من أَيديْ مغتصبيهِ من العبادِ ورَدُّه إلى الله وحدَه.. وسيادةُ الشَّريعةِ الإلهيَّةِ وحدَها، وإلغاءُ القوانينِ البشريَّةِ.. كلُّ أُولئكَ لا يتمُّ بمجرَّدِ التبليغِ والبيانِ؛ لأَنَّ المتسلِّطينَ علىٰ رقابِ العبادِ، والمغتصبينَ لسُلطانِ الله في الأَرض، لا يُسلِّمونَ في سُلطانِهم بمجرَّدِ التَّبليغِ والبيانِ، وإلَّا فما كانَ أَيسرَ عملِ الرُّسلِ في إقرارِ دينِ الله في الأَرض! وهذا عكسُ ما عرفَه تاريخُ الرُّسُلِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ وتاريخُ هذا الدِّين علىٰ ممرِّ الأَجيالِ!



مفهومُ الجهاد الحركيِّ:

إنَّ هذا الإعلانَ العامَّ لتحريرِ «الإنسان» في «الأَرض» من كلِّ سلطانٍ غيرِ سلطانِ الله، بإعلانِ أُلوهيَّةِ الله وحدَه وربوبيَّتِه للعالمينَ، لم يكنْ إعلانًا نظريًّا فلسفيًّا سلبيًّا.. إنَّما كان إعلانًا حركيًّا واقعيًّا إيجابيًّا.. إعلانًا يرادُ له التَّحقيقُ العمليُّ في صورةِ نظامٍ يحكمُ البشرَ بشريعةِ الله، ويخرجُهم بالفعل من العبوديَّةِ للعبادِ إلى العبوديَّةِ لله وحدَه بلا شريكٍ.. ومن ثَمَّ لم يكن بُدٌّ من أَنْ يتَّخذَ شكلَ «الحركة» إلىٰ جانبِ شكلِ «البيانِ» ذلك ليواجهَ «الواقع» البشريَّ بكلِّ جوانبِه بوسائلَ مكافئةٍ لكلِّ جوانبِه.

والواقعُ الإنسانيُّ، أَمسِ واليومَ وغدًا، يواجهُ هذا الدِّينَ ـ بوصفِه إعلانًا عامًّا لتحريرِ «الإنسانِ» في «الأَرض» من كلِّ سلطانٍ غيرِ سلطانِ الله ـ بعقباتٍ اعتقاديَّةٍ تصوريَّةٍ، وعقباتٍ ماديَّةٍ واقعيَّةٍ.. وعقباتٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وعنصريَّةٍ وطبقيَّةٍ، إلىٰ جانبِ عقباتِ العقائدِ المنحرفةِ والتَّصوُّراتِ الباطلةِ، وتختلطُ هذه بتلك، وتتفاعلُ معها بصورةٍ معقَّدةٍ شديدةِ التَّعقيدِ.

وإذا كان «البيانُ» يواجهُ العقائدَ والتَّصوُّراتِ.. فإنَّ «الحركة» تواجهُ العقباتِ الماديَّةَ الأُخرىٰ ـ وفي مقدِّمتها السُّلطانُ السياسيُّ القائمُ على العواملِ الاعتقاديَّةِ، والتَّصوُّريَّةِ، والعنصريَّةِ، والطَّبقيَّة، والاجتماعيَّةِ، والاقتصاديَّةِ المعقَّدةِ المتشابكةِ ـ وهما معًا ـ البيانُ

والحركةُ ـ يواجهانِ «الواقعَ البشريَّ» بجملتِه؛ بوسائلَ مكافئةٍ لكلِّ مكوِّناتِه.. وهما معًا لا بُدَّ منهما لانطلاقِ حركةِ التَّحريرِ للإنسانِ في الأَرض.. «الإنسان» كلِّه.. في الأَرض كلِّها، وهذه نقطةٌ هامَّةٌ لا بُدَّ من تقريرِها مرَّةً أُخرىٰ!

معنى العبوديَّةِ:

إنَّ هذا الدِّينَ ليسَ إعلانًا لتحريرِ الإنسانِ العربيِّ! وليسَ رسالةً خاصَّةً بالعربِ!.. إنَّ موضوعَه هو «الإنسانُ».. نوعُ «الإنسانِ».. ومجالَه هو الأَرضُ.. كلُّ «الأَرض». إنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ ليس ربًّا للعربِ وحدَهم، ولا حتَّىٰ لمن يعتنقونَ العقيدةَ الإسلاميَّةَ وحدَهم.. إنَّ اللهَ هو «ربُّ العالمين»..

وهذا الدِّينُ يريدُ أَنْ يردَّ «العالمين» إلىٰ ربِّهم، وأَنْ ينتزعَهم من العبوديَّةِ لغيرِه، والعبوديَّةُ الكُبرىٰ ـ في نظرِ الإسلام ـ هي خضوعُ البشرِ لأَحكامٍ يشرِّعُها لهم ناسٌ من البشرِ.. وهذه هي «العبادة» الَّتي يقرِّرُ أَنَّها لا تكونُ إلَّا لله، وأَنْ من يتوجَّهُ بها لغيرِ الله يخرجُ من دينِ الله، مهما ادَّعىٰ أَنَّه في هذا الدِّين.

ولقد نصَّ رسولُ الله ﷺ علىٰ أَنَّ «الاتِّباع» في الشَّريعةِ والحكمِ هو «العبادةُ» الَّتي صارَ بها اليهودُ والنَّصارىٰ «مشركين» مخالفينَ لما أُمروا به من «عبادةِ» الله وحدَه.



أَخرجَ الترمذيُّ، ـ بإسناده ـ عن عديٍّ بن حاتمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أَنَّه لمَّا بلغتْهُ دعوةُ رسُولِ الله ﷺ فرَّ إلى الشَّامِ، وكان قد تَنصَّرَ في الجاهليَّة، فأُسِرَتْ أُختُه وجماعةٌ من قومِه، ثُمَّ مَنَّ رسُولُ الله ﷺ علىٰ أُختِهِ فأَعطاها، فرجعت إلىٰ أَخيها فَرَغَّبتْه في الإسلام، وفي القدُومِ علىٰ رسُولِ الله ﷺ فتحدَّثَ النَّاسُ بقدُومه؛ فدخل علىٰ رسُولِ الله ﷺ وفي عنقِه ـ أَي: عدي ـ صليبٌ من فضَّةٍ، وهو ـ أَي: (النَّبيُّ ﷺ) ـ يقرأُ هذهِ الآيـــةَ..﴿ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]. قال: فقلت: إنَّهمْ لم يعبدُوهم! فقال: «**بَلَىٰ! إِنَّهُم حَرَّمُوا عَلَيهمُ الحَلالَ، وأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرامَ؛ فاتَّبعُوهُمْ، فذلكَ عِبادَتُهم إيَّاهُم**»[1].

وتفسيرُ رسول الله ﷺ لقولِ الله سبحانه؛ نصٌّ قاطعٌ علىٰ أَنَّ الاتِّباعَ في الشَّريعةِ والحُكم هو العبادةُ الَّتي تُخرِجُ من الدِّين، وأَنَّها هي اتِّخاذُ بعضِ النَّاسِ أَربابًا لبعضٍ.. الأَمرُ الَّذي جاءَ هذا الدِّينُ ليلغيَه، ويعلنَ تحريرَ «**الإنسانِ**» في «**الأَرض**» من العبوديَّةِ لغيرِ الله.

الإسلامُ يحاربُ الاستبدادَ:

ومن ثَمَّ لم يكنْ بُدٌّ للإسلام أَنْ ينطلقَ في «**الأَرض**» لإزالةِ «**الواقع**» المخالفِ لذلك الإعلانِ العامِّ.. بالبيانِ وبالحركةِ مجتمعَينِ.. وأَنْ يوجِّهَ الضَّرباتِ للقوى السِّياسيَّةِ الَّتي تُعبِّدُ النَّاسَ لغيرِ الله ـ أَي:

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: (هذا حديثٌ غريب). وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٢٩٣).

تحكُمُهم بغيرِ شريعةِ الله وسُلطانِه ـ والَّتي تَحولُ بينَهم وبينَ الاستماعِ إلى «**البيان**»، واعتناقِ «**العقيدة**» بحُريَّةٍ لا يتعرَّضُ لها السُّلطانُ، ثمَّ لكي يقيمَ نظامًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا يسمحُ لحركةِ التَّحرُّرِ بالانطلاقِ الفعليِّ ـ بعد إزالةِ القوَّةِ المسيطرةِ ـ سواءٌ كانت سياسيَّةً بحتةً، أَو متلبِّسةً بالعنصريَّةِ، أَم الطَّبقيَّةِ داخلَ العنصرِ الواحد!

إنَّه لم يكنْ من قصدِ الإسلام قطُّ أَنْ يُكرهَ النَّاسَ على اعتناقِ عقيدتِه.. ولكنَّ الإسلامَ ليسَ مجرَّدَ «**عقيدة**» إنَّ الإسلامَ كما قلنا: إعلانٌ عامٌّ لتحريرِ الإنسانِ من العبوديَّةِ للعبادِ، فهو يهدفُ ابتداءً إلىٰ إزالةِ الأَنظمةِ والحكوماتِ الَّتي تقومُ علىٰ أَساس حاكميَّةِ البشرِ للبشرِ، وعبوديَّةِ الإنسانِ للإنسانِ.. ثمَّ يطلقُ الأَفرادَ بعد ذلك أَحرارًا ـ بالفعلِ ـ في اختيارِ العقيدة الَّتي يريدونَها بمحضِ اختيارِهم ـ بعد رفعِ الضَّغطِ السِّياسيِّ عنهم، وبعد البيانِ المنيرِ لأَرواحِهم وعقولِهم ـ ولكنَّ هذه التَّجربةَ ليس معناها أَنْ يجعلوا إلهَهَم هواهم، أَو أَنْ يختاروا بأَنفسِهم أَنْ يكونوا عبيدًا للعبادِ! وأَن يتَّخذوا بعضَهم بعضًا أَربابًا من دونِ الله!..

إنَّ النِّظامَ الَّذي يحكمُ البشرَ في الأَرض يجبُ أَنْ تكونَ قاعدتُه العبوديَّةَ لله وحدَه، وذلك بتلقِّي الشَّرائعِ منه وحدَه، ثمَّ ليعتنقْ كلُّ فردٍ ـ في ظلِّ هذا النِّظامِ العامِّ ـ ما يعتنقُه من عقيدةٍ! وبهذا يكونُ «**الدِّينُ**» كلُّه لله؛ أَي: تكونُ الدَّينونةُ والخضوعُ والاتِّباعُ والعبوديَّةُ كلُّها لله..



إنَّ مدلولَ «الدِّينِ» أَشملُ من مدلولِ «العقيدة». إنَّ الدِّينَ: هو المنهجُ والنِّظامُ الَّذي يحكمُ الحياةَ، وهو في الإسلام يعتمدُ على العقيدة.. ولكنَّه في عمومِه أَشملُ من العقيدة.. وفي الإسلام يمكنُ أَنْ تخضعَ جماعاتٌ متنوِّعةٌ لمنهجه العامِّ الَّذي يقومُ علىٰ أَساس العبوديَّة لله وحدَه، ولو لم يعتنقْ بعضُ هذه الجماعاتِ عقيدةَ الإسلام.

والَّذي يدركُ طبيعةَ هذا الدِّين ـ على النَّحوِ المتقدِّمِ ـ يدركُ معها حتميَّةَ الانطلاقِ الحركيِّ للإسلام في صورةِ الجهاد بالسَّيفِ ـ إلىٰ جانبِ الجهاد بالبيانِ ـ ويدركُ أَنَّ ذلك لم يكنْ حركةً دفاعيَّةً ـ بالمعنى الضيِّقِ الَّذي يُفهمُ اليومَ من اصطلاحِ «الحربِ الدَّفاعيَّة» كما يريدُ المنهزمونَ أَمامَ ضغطِ الواقعِ الحاضرِ، وأَمامَ هجومِ المستشرقينَ الماكرِ، أَن يصوِّروا حركةَ الجهاد في الإسلام ـ إنَّما كان حركةَ اندفاعٍ وانطلاقٍ لتحريرِ «الإنسانِ» في «الأَرض» بوسائلَ مكافئةٍ لكلِّ جوانبِ الواقعِ البشريِّ، وفي مراحلَ محدَّدةٍ لكلِّ مرحلةٍ منها وسائلُها المتجدِّدة.

الجهاد لتحرير الإنسان:

وإذا لم يكن بُدٌّ أَن نسمِّيَ حركةَ الإسلام الجهاديَّةَ حركةً دفاعيَّةً، فلا بُدَّ أَنْ نغيِّرَ مفهومَ كلمةِ «دفاع» ونعتبرَه «دفاعًا عن الإنسان» ذاتِه، ضدَّ جميعِ العواملِ الَّتي تقيِّدُ حريَّتَه وتَعوقُ تحرُّرَه.. هذه العواملُ الَّتي تتمثَّلُ في المعتقداتِ والتَّصوُّراتِ، كما تتمثَّلُ في الأَنظمةِ السِّياسيَّةِ القائمةِ على الحواجزِ الاقتصاديَّةِ والطَّبقيَّةِ والعنصريَّةِ، الَّتي كانت سائدةً في الأَرض

كلِّها يومَ جاءَ الإسلامُ، والَّتي ما تزالُ أَشكالٌ منها سائدةً في الجاهليَّة الحاضرةِ في هذا الزَّمان!

وبهذا التَّوسُّعِ في مفهومِ كلمةِ «**الدِّفاع**» نستطيعُ أَن نواجهَ حقيقةَ بواعثِ الانطلاقِ الإسلاميِّ في «**الأَرض**» بالجهاد، ونواجهَ طبيعةَ الإسلام ذاتَها، وهي أَنَّه إعلانٌ عامٌّ لتحريرِ الإنسانِ من العبوديَّةِ للعبادِ، وتقريرِ أُلوهيَّةِ الله وحدَه وربوبيَّتِه للعالمينَ، وتحطيمِ مملكةِ الهوى البشريِّ في الأَرض، وإقامةِ مملكةِ الشَّريعةِ الإلهيَّةِ في عالمِ الإنسان..

أَمَّا محاولةُ إيجادِ مبرِّراتٍ دفاعيَّةٍ للجهادِ الإسلاميِّ بالمعنى الضَّيِّقِ للمفهومِ العصريِّ للحربِ الدِّفاعيَّةِ، ومحاولةِ البحثِ عن أَسانيدَ لإثباتِ أَنَّ وقائعَ الجهاد الإسلاميِّ كانت لمجرَّدِ صدِّ العدوانِ من القوى المجاورةِ على «**الوطنِ الإسلاميِّ**» ـ وهو في عُرفِ بعضِهم جزيرةُ العربِ ـ فهي محاولةٌ تَنمُّ عن قلَّةِ إدراكٍ لطبيعةِ هذا الدِّين، ولطبيعةِ الدَّورِ الَّذي جاءَ ليقومَ به في الأَرض، كما أَنَّها تَشي بالهزيمةِ أَمامَ ضغطِ الواقعِ الحاضرِ، وأَمامَ الهجوم الاستشراقيِّ الماكرِ على الجهاد الإسلاميِّ!

تُرىٰ لو كانَ أَبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ رضي الله عنهم قد أَمَّنوا عدوانَ الرُّومِ والفُرسِ على الجزيرة، أَكانوا يقعدونَ إذن عن دفعِ المدِّ الإسلاميِّ إلىٰ أَطرافِ الأَرض؟ وكيف كانوا يدفعونَ هذا المدَّ، وأَمامَ الدَّعوةِ تلك العقباتُ الماديَّةُ من أَنظمةِ الدَّولةِ السِّياسيَّة، وأَنظمةِ المجتمع



العنصريَّةِ والطَّبقيَّةِ، والاقتصاديَّةِ الناشئةِ من الاعتباراتِ العنصريَّةِ والطَّبقيَّةِ، والَّتي تحميها القوةُ المادِّيَّةُ للدَّولةِ كذلك؟!

إنَّها سذاجةٌ أَن يتصوَّرَ الإنسانُ دعوةً تعلنُ تحريرَ «**الإنسان**».. نوعِ «**الإنسان**» في «**الأَرض**».. كلِّ الأَرض .. ثمَّ تقفُ أَمامَ هذه العقباتِ تجاهدُها باللِّسان والبيانِ!.. إنَّها تجاهدُ باللِّسانِ والبيانِ حينما يُخلَّى بينها وبينَ الأَفرادِ، تخاطبُهم بحريَّةٍ، وهم مطلَقُو السَّراحِ من جميعِ تلكَ المؤثِّراتِ.. فهنا: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

أَمَّا حينَ توجدُ تلكَ العقباتُ والمؤثِّراتُ المادِّيَّةُ؛ فلا بُدَّ من إزالتِها بالقوَّةِ، للتمكُّنِ من مخاطبةِ قلبِ الإنسانِ وعقلِه، وهو طليقٌ من هذهِ الأَغلال!

إنَّ الجهادَ ضرورةٌ للدَّعوةِ، إذا كانتْ أَهدافُها هي إعلانُ تحريرِ الإنسانِ إعلانًا جادًّا يواجهُ الواقعَ الفعليَّ بوسائلَ مكافئةٍ له في كلِّ جوانبِه، ولا يكتفي بالبيانِ الفلسفيِّ النَّظريِّ! سواءٌ كان الوطنُ الإسلاميُّ ـ وبالتَّعبيرِ الإسلاميِّ الصَّحيحِ: دارُ الإسلام ـ آمنًا أَم مهدَّدًا من جيرانِه.

فالإسلامُ حين يسعىٰ إلى السِّلْمِ، لا يقصدُ تلك السِّلمَ الرخيصةَ، وهي مجرَّدُ أَنْ يؤمِّنَ الرُّقعةَ الخاصَّةَ الَّتي يعتنقُ أَهلُها العقيدةَ الإسلاميَّةَ، إنَّما هو يريدُ السِّلمَ الَّتي يكونُ فيها الدِّينُ كلُّه لله؛ أَي: تكونُ عبوديَّةُ النَّاسِ كلِّهم فيها لله، والَّتي لا يتَّخذُ فيها النَّاسُ

بعضَهم بعضًا أَربابًا من دونِ الله، والعِبْرةُ بنهايةِ المراحلِ الَّتي وصلتْ إليها الحركةُ الجهاديَّةُ في اَلإسلام ـ بأَمرٍ من الله ـ لا بأَوائلِ أَيَّام الدَّعوةِ ولا بأَواسِطِها.

ولقد انتهتْ هذه المراحلُ، كما يقول الإمامُ ابنُ القيِّم: (فاستقرَّ أَمرُ الكفَّارِ معه ـ بعدَ نزولِ براءة ـ علىٰ ثلاثة أَقسامٍ: محاربينَ له، وأَهلِ عهدٍ، وأَهلِ ذمَّةٍ، ثم آلتْ حالُ أَهلِ العهدِ والصُّلحِ إلى الإسلام.. فصاروا قسمينِ: محارِبين وأَهلَ ذمَّةٍ. والمحاربونَ له خائفونَ منه.. فصارَ أَهلُ الأَرض معَه ثلاثةَ أَقسامٍ: مسلمٍ مؤمنٍ به، ومُسالمٍ له آمنٍ «وهم أَهلُ الذِّمَّةِ كما يُفهمُ من الجملةِ السَّابقةِ» وخائفٍ محاربٍ)..

مراحلُ الجهاد:

وهذه هي المواقفُ المنطقيَّةُ مع طبيعةِ هذا الدِّين وأَهدافِه، لا كما يفهمُ المهزومونَ أَمامَ الواقعِ الحاضرِ، وأَمامَ هجومِ المستشرقينَ الماكر!

ولقد كَفَّ اللهُ المسلمينَ عن القتالِ في مكَّةَ، وفي أَوَّلِ العهدِ بالهجرةِ إلى المدينةِ، وقيلَ للمسلمين: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]..

ثمَّ أَذِنَ لهم فيه فقيل لهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ



يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

ثمَّ فرَضَ عليهم القتالَ بعد ذلك لمن قاتلَهم دون مَنْ لم يقاتلْهم، فقيلَ لهم: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثمَّ فرَضَ عليهم قتالَ المشركينَ كافَّةً، فقيل لهم: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وقيل لهم: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فكان القتالُ ـ كما يقولُ الإمامُ ابن القيم ـ (مُحَرَّمًا، ثمَّ مأْذونًا به، ثمَّ مأْمورًا به لمن بدأَهم بالقتالِ، ثمَّ مأْمورًا به لجميعِ المشركين)..

إنَّ جِدِّيَّة النُّصوصِ القرآنيَّةِ الواردةِ في الجهاد، وجِدِّيَّةَ الأَحاديثِ النَّبويَّة الَّتي تحضُّ عليه، وجِدِّيَّةَ الوقائعِ الجهاديَّةِ في صدرِ الإسلام، وعلىٰ مدىً طويلٍ من تاريخِهِ، إنَّ هذه الجدِّيةَ الواضحةَ تمنعُ أَنْ يجولَ في النَّفسِ ذلك التَّفسيرُ الَّذي يحاولُه المهزومونَ أَمامَ ضغطِ الواقعِ الحاضرِ، وأَمامَ الهجوم الاستشراقيِّ الماكرِ على الجهاد الإسلاميِّ!

ومَنْ ذا الَّذي يسمعُ قولَ الله ـ سبحانه ـ في هذا الشَّأْنِ، وقولَ

رسوله ﷺ ويتابعُ وقائعَ الجهاد الإسلاميِّ، ثمَّ يظنُّهُ شأْنًا عارضًا مقيَّدًا بملابساتٍ تذهبُ وتجيءُ، ويقفُ عند حدودِ الدِّفاعِ لتأْمينِ الحدود؟!

لقد بيَّن اللهُ للمؤمنينَ في أَوَّلِ ما نزلِ من الآياتِ الَّتي أَذِن لهم فيها بالقتالِ، أَنَّ الشَّأْنَ الدَّائمَ الأَصيلَ في طبيعةِ هذه الحياةِ الدُّنيا، أَن يُدفعَ النَّاسُ بعضُهم ببعضٍ، لدفع الفسادِ عن الأَرض: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُـلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَـدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَـيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَـرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

وإذن فهو الشَّأْنُ الدَّائمُ لا الحالةُ العارضةُ، الشَّأْنُ الدَّائمُ أَنْ لا يتعايشَ الحقُّ والباطلُ في هذه الأَرض، وأَنَّه متَّىٰ قامَ الإسلامُ بإعلانِه العامِّ لإقامةِ ربوبيَّةِ الله للعالمين، وتحريرِ الإنسانِ من العبوديَّةِ للعبادِ، رماه المغتصبونَ لسُلطانِ الله في الأَرض ولم يُسالموه قطُّ، وانطلقَ هو كذلكَ يدمِّرُ عليهم ليُخرجَ النَّاسَ من سلطانهم ويدفعَ عن «الإنسان» في الأَرض» ذلك السُّلطانَ الغاصبَ.. حالٌ دائمةٌ لا يقفُ معها الانطلاقُ الجهاديُّ التَّحريريُّ حتَّىٰ يكونَ الدِّينُ كلُّه لله.

مرحلةُ الكفِّ عن الجهاد:

إنَّ الكفَّ عن القتالِ في مكَّةَ لم يكن إلَّا مجرَّدَ مرحلةٍ في خطَّةٍ طويلةٍ، كذلك كان الأَمرُ أَوَّلَ العهدِ بالهجرةِ، والَّذي بعثَ



الجماعةَ المسلمةَ في المدينة.. بعد الفترةِ الأُولىٰ للانطلاقِ لم يكنْ مجرَّدَ تأْمينِ المدينةِ، هذا هدفٌ أَوَّليٌّ لا بُدَّ منه، ولكنَّه ليس الهدفَ الأَخيرَ، إنَّه هدفٌ يضمنُ وسيلةَ الانطلاقِ، ويؤمِّنُ قاعدةَ الانطلاق.. الانطلاقِ لتحريرِ «الإنسانِ» ولإزالةِ العقباتِ الَّتي تمنعُ «الإنسانَ» ذاتَه من الانطلاق!

وكفُّ أَيدي المسلمينَ في مكَّةَ عن الجهاد بالسَّيفِ مفهومٌ؛ لأَنَّه كانَ مكفولًا للدَّعوةِ في مكَّةَ حريَّةُ البلاغ.. كان صاحبُها ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ يملكُ بحمايةِ سيوفِ بني هاشمٍ، أَنْ يصدعَ بالدَّعوةِ، ويخاطبَ بها الآذانَ والعقولَ والقلوبَ، ويواجهَ بها الأَفرادَ.. لم تكن هناك سلطةٌ سياسيَّةٌ منظَّمةٌ تمنعُه من إبلاغِ الدَّعوةِ، أَو تمنعُ الأَفرادَ من سماعِه! فلا ضرورةَ ـ في هذهِ المرحلةِ ـ لاستخدامِ القوَّةِ، وذلكَ يعودُ إلىٰ أَسبابٍ أُخرىٰ لعلها كانت قائمةً في هذهِ المرحلةِ، وقد لخَّصتُها «في ظلالِ القرآن» عند تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

ولا بأْسَ في إثباتِ بعضِ التَّلخيصِ هنا:

أسبابُ عدمِ مشروعيَّةِ الجهاد في المرحلةِ المكيَّةِ:

* **(ربَّما كانَ ذلكَ لأَنَّ الفترةَ المَكيَّةَ كانتْ فترةَ تربيةٍ وإعدادٍ، في بيئةٍ معيَّنةٍ، لقومٍ معيَّنينَ، وسطَ ظروفٍ معيَّنةٍ، ومن أَهدافِ التَّربيَّةِ والإعدادِ**

في مثل هذهِ البيئةِ بالذَّاتِ، تربيَةُ نفسِ الفردِ العربيِّ على الصبرِ علىٰ ما لا يَصبرُ عليه عادةً، من الضَّيم علىٰ شخصِه، أَو علىٰ مَن يلوذونَ به، ليَخلصَ من شخصِه، ويتجرَّدَ من ذاتِه، ولا تعودَ ذاتُه ولا من يلوذونَ به محورَ الحياةِ في نظرِه، ودافعَ الحركةِ في حياتِه، وتربيتُه كذلك علىٰ ضبطِ أَعصابِه؛ فلا يندفعُ لأَوَّلِ مؤثِّر ـ كما هي طبيعتُه ـ ولا يَهتاجُ لأَوَّلِ مُهيِّجٍ، فيتمُّ الاعتدالُ في طبيعتِه وحركتِه، وتربيتُه علىٰ أَنْ يتبعَ مجتمعًا منظَّمًا له قيادةٌ يرجعُ إليها في كلِّ أَمرٍ من أُمورِ حياتِه، ولا يتصرَّفُ إلَّا وفقَ ما تأْمرُه به ـ مهما يكنْ مخالفًا لمأْلوفِه وعادتِه ـ وقد كانَ هذا هو حجرَ الأَساس في إعدادِ شخصيَّةِ العربيِّ، لإنشاءِ «**المجتمع المسلم**» الخاضعِ لقيادةٍ موجَّهةٍ، المترقِّي المتحضِّر، غيرِ الهَمَجيِّ أَو القَبليِّ!).

* (**وربَّما كانَ ذلك أَيضًا؛ لأَنَّ الدَّعوةَ السِّلميَّةَ كانتْ أَشدَّ أَثرًا وأَنفذَ، في مثلِ بيئةِ قريشٍ، ذاتِ العُنْجُهيَّةِ والشَّرفِ، والَّتي قدْ يدفعُها القتالُ معها** ـ في مثل هذهِ المرحلة ـ إلىٰ زيادةِ العنادِ، وإلىٰ نشأَةِ ثاراتٍ دمويَّةٍ جديدةٍ كثاراتِ العربِ المعروفةِ، الَّتي أَثارتْ حروبَ داحسٍ والغبراءِ، وحربَ البَسوسِ، أَعوامًا طويلةً، تفانتْ فيها قبائلُ برمَّتِها، وتكونُ هذه الثَّاراتُ الجديدةُ مرتبطةً في أَذهانِهم وذكرياتِهم بالإسلام؛ فلا تهدأُ بعد ذلكَ أَبدًا، ويتحوَّلُ الإسلامُ من دعوةٍ ودينٍ إلىٰ ثاراتٍ وذُحُولٍ[1] تُنسىٰ معها وجهتُه الأَساسيَّةُ، وهو في مبدئِه، فلا تُذكَرُ أَبدًا!).

---

(١) «**الذَّحْلُ**»: الحقدُ والعداوَةُ. يقالُ: طلبَ بذَحلِهِ. أَيْ بثأْرِه، والجمع ذُحُولٌ.



* (**وربَّما كانَ ذلك أَيضًا اجتنابًا لإنشاءِ معركةٍ ومقْتلةٍ في داخلِ كلِّ بيتٍ، فلم تكنْ هناكَ سلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ، هي الَّتي تعذِّبُ المؤمنينَ وتفتنُهم**، إنَّما كانَ ذلك موكولًا إلىٰ أَولياءِ كلِّ فردٍ يعذِّبونَهُ ويفتنونهُ «**ويؤدِّبونَهُ**»! ومعنى الإذنِ بالقتالِ ـ في مثلِ هذهِ البيئةِ ـ أَنْ تقعَ معركةٌ ومقْتَلةٌ في كلِّ بيتٍ.. ثمَّ يُقالُ: هذا هوَ الإسلامُ! ولقدْ قيلتْ حتَّىٰ والإسلامُ يأْمرُ بالكفِّ عن القتالِ! فقد كانتْ دعايةُ قريشٍ في الموسمِ، في أَواسطِ العربِ القادمينَ للحجِّ والتَّجارةِ: إنَّ محمَّدًا يُفرِّقُ بينَ الوالدِ وولدِه، فوقَ تفريقِه لقومِه وعشيرتِه! فكيفَ لو كانَ كذلكَ يأْمرُ الولدَ بقتلِ الوالدِ، والمولىٰ بقتلِ الوليِّ.. في كلِّ بيتٍ، وفي كلِّ محَلَّة؟).

* (**وربَّما كانَ ذلكَ ـ أَيضًا ـ لما يعلمُه اللهُ من أَنَّ كثيرينَ من المعاندينَ الَّذينَ يَفْتِنونَ أَوائلَ المسلمينَ عن دينِهم، ويعذِّبونَهم، هم بأَنفسُهم سيكونونَ جندِ الإسلام المخلِصِ؛ بل من قادتِه.. أَلم يكنْ عمرُ بنُ الخطَّابِ من بينِ هؤلاء؟!**.

* (**وربَّما كان ذلكَ أَيضًا؛ لأَنَّ النَّخوةَ العربيَّةَ، في بيئةٍ قبليَّةٍ، من عاداتِها أَنْ تثورَ للمظلومِ الَّذي يحتملُ الأَذىٰ، ولا يتراجعُ! وبخاصَّةٍ إذا كانَ واقعًا علىٰ كرامِ النَّاسِ فيهم**.. وقد وقعتْ ظواهرُ كثيرةٌ تُثبتُ صحَّةَ هذه النَّظرةِ ـ في هذهِ البيئةِ ـ فابنُ الدَّغِنَّة لم يرضَ أَنْ يتركَ أَبا بكرٍ ـ وهو رجلٌ كريمٌ ـ يهاجرُ ويخرجُ من مكَّةَ، ورأَىٰ في ذلك عارًا على العربِ! وعَرَضَ عليه جِوارَه وحمايتَه..

وآخرُ هذه الظَّواهرِ نقضُ صحيفةِ الحصارِ لبني هاشمٍ في شِعْبِ أَبي طالبٍ، بعد ما طالَ عليهم الجوعُ واشتدَّتِ المحنةُ.. بينما في بيئةٍ أُخرىٰ من بيئاتِ «الحضارة» القديمةِ الَّتي مَرَدتْ على الذُّلِّ، قد يكونُ السُّكوتُ على الأذىٰ مدعاةً للهُزءِ والسُّخريةِ والاحتقارِ من البيئةِ، وتعظيمِ المؤذي الظَّالمِ المعتدي!).

* **(وربَّما كان ذلك ـ أَيضًا ـ لقلَّةِ عددِ المسلمينَ حينذاك، وانحصارِهم في مكَّةَ، حيث لم تبلغِ الدَّعوةُ إلىٰ بقيَّةِ الجزيرةِ، أَو بلغت أَخبارُها متناثرةً؛ حيث كانتِ القبائلُ تقفُ على الحيادِ من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريشٍ وبعضِ أَبنائِها، حتَّىٰ ترىٰ ماذا يكونُ مصيرُ الموقفِ**، ففي مثلِ هذه الحالةِ قد تنتهي المعركةُ المحدودةُ إلىٰ قتلِ المجموعةِ المسلمة القليلةِ ـ حتَّىٰ ولو قَتلوا أَضعافَ من سيُقتلُ منهم ـ ويبقى الشِّركُ، وتنمحي الجماعةُ المسلمةُ، ولم يقمْ في الأَرض للإسلام نظامٌ، ولا وُجدَ له كيانٌ واقعيٌّ، وهو دينٌ جاءَ ليكونَ منهاجَ حياةٍ، وليكونَ نظامًا واقعيًّا عمليًّا للحياة... إلخ).

الجهادُ بعدَ الهجرةِ:

فأَمَّا في المدينةِ ـ في أَوَّلِ العهدِ بالهجرةِ ـ فقد كانتِ المعاهدةُ الَّتي عقدَها رسولُ الله ﷺ مع اليهودِ من أَهلِها، ومن بقيَ على الشِّركِ من العربِ فيها وفيمَا حولها، ملابسةً تقتضيها طبيعةُ المرحلةِ كذلك..

أَوَّلًا: لأَنَّ هناكَ مجالًا للتبليغِ والبيانِ، لا تقفُ له سلطةٌ سياسيَّةٌ تمنعُه وتحولُ بين النَّاسِ وبينَه، فقد اعترفَ الجميعُ بالدَّولةِ المسلمة



الجديدةِ، وبقيادةِ رسول الله ﷺ في تصريفِ شؤونِها السِّياسيَّةِ؛ فنصَّتِ المعاهدةُ علىٰ أَلَّا يعقدَ أَحدٌ منهم صلحًا ولا يثيرَ حربًا، ولا يُنشئَ علاقةً خارجيَّةً؛ إلَّا بإذنِ رسول الله ﷺ وكان واضحًا أَنَّ السُّلطةَ الحقيقيَّةَ في المدينةِ في يدِ القيادةِ المسلمة، فالمجالُ أَمامَ الدَّعوةِ مفتوحٌ، والتَّخليةُ بينَ النَّاسِ وحريَّةِ الاعتقادِ قائمةٌ.

ثانيًا: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يريدُ التَّفرُّغَ في هذه المرحلةِ لقريشٍ، الَّتي تقومُ معارضتُها لهذا الدِّين حجَر عثْرةٍ في وجهِ القبائلِ الأُخرى، الواقعةِ في حالةِ انتظارٍ لما ينتهيْ إليه الأَمرُ بينَ قريشٍ وبعضِ بنيها! لذلك بادرَ رسولُ الله ﷺ بإرسالِ «**السَّرايا**» ، وكان أَوَّلَ لواءٍ عقدهُ لحمزةَ ابنِ عبدِ المطَّلبِ في شهرِ رمضانَ علىٰ رأْسِ سبعةِ أَشهرٍ منَ الهجرة.

ثمَّ توالتْ هذه السَّرايا، علىٰ رأْسِ تسعةِ أَشهرٍ، ثمَّ علىٰ رأْسِ ثلاثةَ عشَرَ شهرًا، ثمَّ علىٰ رأْسِ ستَّةَ عشَرَ شهرًا، ثمَّ كانتْ سريَّةُ عبد الله بن جحش في رجب علىٰ رأْسِ سبعة عشر شهرًا..

وهي أَوَّلُ غَزاةٍ وقعَ فيها قتلٌ وقتالٌ، وكان ذلك في الشَّهرِ الحرامِ، والَّتي نزلتْ فيها آياتُ البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]..

ثمَّ كانت غزوةُ بدرٍ الكبرىٰ في رمضانَ من هذِه السَّنةِ، وهي الَّتي نزلتْ فيها سورةُ الأَنفال.

ورؤيةُ الموقفِ من خلالَ ملابساتِ الواقعِ، لا تَدَعُ مجالًا للقولِ بأَنَّ «**الدِّفاع**» بمفهومِهِ الضَّيِّقِ كان هو قاعدةَ الحركةِ الإسلاميَّة، كما يقولُ المهزومونَ أَمامَ الواقع الحاضر، وأَمامَ الهجوم الاستشراقيِّ الماكرِ!.

إنَّ الَّذينَ يلجؤونَ إلىٰ تلمُّسِ أَسبابٍ دفاعيَّةٍ بحتةٍ لحركةِ المدِّ الإسلاميِّ، إنَّما يؤخذونَ بحركةِ الهجوم الاستشراقيَّةِ، في وقتٍ لم يعدْ للمسلمينَ شوكةٌ؛ بل لم يعدْ للمسلمينَ إسلامٌ!.. ـ إلَّا مَن عصمَ الله، ممَّن يُصرِّون علىٰ تحقيقِ إعلانِ الإسلام العامِّ بتحريرِ «**الإنسان**» في «**الأَرض**» من كلِّ سُلطانٍ إلَّا من سُلطانِ الله، ليكونَ الدِّينُ كلُّه لله ـ فيبحثونَ عن مبرِّراتٍ أَدبيَّةٍ للجهادِ في الإسلام!

مبرِّراتُ القتالِ في القرآنِ:

والمدُّ الإسلاميُّ ليس في حاجةٍ إلىٰ مبرِّراتٍ أَدبيَّةٍ له أَكثرَ من المبرِّراتِ الَّتي حملَتْها النُّصوصُ القرآنيَّةُ:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ



نَصِيرًا * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٦].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ * وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٨ ـ ٤٠].

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ * وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩ ـ ٣٢].

إنَّها مبرِّراتُ تقريرِ أُلوهيَّةِ الله في الأَرض، وتحقيقِ منهجه في حياةِ النَّاسِ، ومطاردةِ الشَّياطينِ ومناهجِ الشَّياطينِ، وتحطيمِ سُلطان البشرِ الَّذي يتعبَّدُ النَّاسَ، والنَّاسُ عبيدٌ لله وحدَه، لا يجوزُ أَنْ يحكمَهم أَحدٌ من عبادِه بسلطانٍ من عندِ نفسِه، وبشَريعةٍ من هواهُ ورأْيِه! وهذا

يكفي.. مع تقريرِ مبدأ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.. أَي: لا إكراهَ على اعتناقِ العقيدة، بعد الخروجِ من سُلطانِ العبيدِ، والإقرارِ بمبدأِ أَنَّ السُّلطانَ كلَّهُ لله، أَو أَنَّ الدِّين كلَّه لله، بهذا الاعتبار.

موقفُ رِبْعيٍّ بنِ عامرٍ العظيمُ:

إنَّها مبرِّراتُ التَّحريرِ العامِّ للإنسانِ في الأَرض، بإخراجِ النَّاسِ من العبوديَّةِ للعبادِ إلى العبوديَّةِ لله وحدَه بلا شريكٍ.. وهذه وحدَها تكفي.. لقد كانت هذه المبرِّراتُ ماثلةً في نفوسِ الغُزاةِ منَ المسلمينَ، فلم يَسأَلْ أَحدٌ منهم عمَّا أَخرجَه للجهادِ، فيقول: خرجنا نُدافعُ عن وطنِنا المهدَّدِ! أَو خرجنا نصدُّ عدوانَ الفرسِ أَو الرُّومِ علينا نحنُ المسلمينَ! أَو خرجنا نوسِّعُ رقعتَنا، ونستكثرُ من الغنيمةِ!

لقد كانوا يقولونَ، كما قال رِبْعيٌّ بنُ عامرٍ، وحذيفةُ بن مِحْصَنٍ والمغيرةُ بن شُعبةَ جميعًا لرستمَ قائدِ جيشِ الفُرسِ في القادسيَّةِ، وهو يسأَلهم واحدًا بعدَ واحدٍ في ثلاثةِ أَيَّامٍ متواليَةٍ، قبلَ المعركةِ: ما الَّذي جاءَ بكم؟ فيكونُ الجوابُ: (**اللهُ ابتعثَنا لنخرجَ من شاءَ من عبادَةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَه، ومن ضِيْقِ الدُّنيا إلىٰ سَعَتِها، ومن جَوْرِ الأَديانِ إلىٰ عدلِ الإسلام.. فأَرسلَ رسولَهُ بدينِهِ إلىٰ خلقِهِ، فمَن قَبِله منَّا قبلْنا منهُ ورجعْنا عنهُ، وتركناهُ وأَرضَهُ، ومن أَبىٰ قاتلناهُ حتَّىٰ نفضيَ إلى الجنَّةِ أَو الظَّفرِ**)[1].

(١) «البداية والنهاية» :ج٩، ص٦٢٢ . طبعة دار هجر ، بتحقيق التركي .



إنَّ هناك مبررًا ذاتيًّا في طبيعة هذا الدِّين ذاته، وفي إعلانِهِ العام، وفي منهجِهِ الواقعيِّ لمقابلةِ الواقعِ البشَريِّ بوسائلَ مُكافِئةٍ لكلِّ جوانبِهِ، في مراحلَ محدَّدةٍ، بوسائل متجدِّدة.. وهذا المبرِّر الذَّاتيُّ قائمٌ ابتداءً ـ ولو لم يوجد خطرُ الاعتداءِ على الأَرض الإسلاميَّة وعلى المسلمين فيها ـ إنَّه مبرِّرٌ في طبيعةِ المنهج وواقعيتهِ وطبيعةِ المُعوِّقاتِ الفعليَّةِ في المجتمعاتِ البشريَّة.. لا من مجرَّدِ مُلابساتٍ دفاعيَّةٍ محدودةٍ ومؤقَّتةٍ!

وإنَّه ليكفي أَنْ يخرجَ المُسْلمُ مجاهدًا بنفسه وماله..**في «سبيل الله»**.. في سبيلِ هذه القِيَم الَّتي لا ينالُه هو مِن ورائها مغنم ذاتي..ولا يخرجه لها مغنم ذاتي..

إنَّ المسلمَ قبلَ أَنْ ينطلقَ للجهادِ في المعركةِ يكونُ قد خاضَ معركةَ الجهاد الأَكبرِ في نفسِه، مع الشَّيطانِ.. مع هواهُ وشهواتِه.. مع مطامعِهِ ورغباتِهِ.. مع مصالحِهِ ومصالحِ عشيرتِهِ وقومِهِ.. مع كلِّ شارةٍ غيرِ شارةِ الإسلام.. ومع كلِّ دافعٍ إلَّا العبوديَّةَ لله، وتحقيقَ سُلطانِه في الأَرض، وطردَ سُلطانِ الطَّواغيتِ المغتصِبينَ لسَلطانِ الله..

مبرِّراتٌ غيرُ إسلاميَّةٍ للجهادِ:

والَّذينَ يبحثونَ عن مبرِّراتٍ للجهادِ الإسلاميِّ في حمايةِ **«الوطنِ الإسلاميِّ»** يغضُّونَ من شأْنِ **«المنهج»** ويعتبرونَهُ أَقلَّ من **«المَوْطِنِ»**.. وهذه ليست نظرةَ الإسلام إلىٰ هذهِ الاعتباراتِ، إنَّها

نظرةٌ مستحدثةٌ غريبةٌ على الحِسِّ الإسلاميِّ؛ فالعقيدةُ والمنهجُ الَّذي تتمثَّلُ فيه، والمجتمعُ الَّذي يسودُ فيه هذا المنهجُ، هي الاعتباراتُ الوحيدةُ في الحسِّ الإسلاميِّ، أَمَّا الأَرضُ ـ بذاتها ـ فلا اعتبارَ لها ولا وزنَ! وكلُّ قيمةٍ للأَرض في التَّصوُّرِ الإسلاميِّ؛ إنَّما هي مستمدَّةٌ من سيادةِ منهج الله وسُلطانِه فيها، وبهذا تكونُ محضِنَ العقيدة، وحقلَ المنهج، و**دارَ «الإسلام»**، ونقطةَ الانطلاقِ لتحريرِ **«الإنسان»**.

وحقيقةً إنَّ حمايةَ **«دارِ الإسلام»** حمايةٌ للعقيدةِ والمنهج والمجتمع الَّذي يسودُ فيه المنهجُ، ولكنَّها ليستِ الهدفَ النِّهائيَّ، وليستْ حمايتُها هي الغايَةَ الأَخيرةَ لحركةِ الجهاد الإسلاميِّ، إنَّما حمايتُها هي الوسيلةُ لقيامِ مملكةِ الله فيها، ثمَّ لاتِّخاذِها قاعدةَ انطلاقٍ إلى الأَرض كلِّها وإلى النَّوعِ الإنسانيِّ بجملتِهِ، فالنَّوعُ الإنسانيُّ؛ هو موضوعُ هذا الدِّين، والأَرضُ هي مجالُه الكبيرُ!

وكما أَسلفْنا فإنَّ الانطلاقَ بالمذهبِ الإلهيِّ تقومُ في وجههِ عقباتٌ ماديَّةٌ من سُلطةِ الدَّولةِ، ونظامِ المجتمع، وأَوضاعِ البيئةِ.. وهذهِ كلُّها هيَ الَّتي ينطلقُ الإسلامُ ليُحطِّمَها بالقوَّةِ، كي يخلوَ له وجهُ الأَفرادِ من النَّاسِ، يخاطبُ ضمائرَهم وأَفكارَهم، بعد أَنْ يحرِّرَها من الأَغلالِ الماديَّةِ، ويتركَ لها بعدَ ذلك حرِّيَّةَ الاختيار.

يجبُ أَلا تخدعَنا أَو تُفزِعَنا حملاتُ المستشرقينَ علىٰ مبدأِ **«الجهاد»**، وأَلَّا يثقُلَ علىٰ عاتقِنا ضغطُ الواقعِ وثقلُه في ميزانِ القوى



العالميَّةِ، فنروحَ نبحثُ للجهادِ الإسلاميِّ عن مبرِّراتٍ أَدبيَّةٍ خارجةٍ عن طبيعةِ هذا الدِّين، في ملابساتٍ دفاعيَّةٍ وقتيَّةٍ، كان الجهادُ سينطلقُ في طريقِهِ سواءٌ وجِدَتْ أَمْ لمْ توجد!

ويجبُ ونحنُ نستعرضُ الواقعَ التَّاريخيَّ، أَلَّا نغفلَ عن الاعتباراتِ الذاتيَّةِ في طبيعةِ هذا الدِّين، وإعلانِه العامِّ ومنهجِهِ الواقعيِّ، وأَلَّا نخلطَ بينها وبينَ المقتضياتِ الدفاعيَّةِ الوقتيَّةِ.

المعركةُ المفروضةُ على المجتمع المسلمِ:

حقًّا إنَّه لم يكنْ بُدٌّ لهذا الدِّين أَنْ يدافعَ المهاجمينَ له؛ لأَنَّ مجرَّدَ وجودِه في صورةِ إعلانٍ عامٍّ لربوبيَّةِ الله للعالمين، وتحريرِ الإنسانِ من العبوديَّةِ لغيرِ الله، وتَمَثُّلِ هذا الوجودِ في تجمُّعٍ تنظيميٍّ حركيٍّ تحتَ قيادةٍ جديدةٍ غيرِ قياداتِ الجاهليَّة، وميلادِ مجتمعٍ مستقلٍّ متميِّزٍ لا يعترفُ لأَحدٍ من البشرِ بالحاكميَّةِ؛ لأَنَّ الحاكميَّةَ فيهِ لله وحدَه..

إنَّ مجرَّدَ وجودِ هذا الدِّين في هذهِ الصُّورةِ، لا بُدَّ أَنْ يدفعَ المجتمعاتِ الجاهليَّةَ مِنْ حولِه ـ القائمة علىٰ قاعدةِ العبوديَّةِ للعبادِ ـ أَنْ تحاولَ سحقَهُ، دفاعًا عن وجودِها ذاتِه، ولا بُدَّ أَنْ يتحرَّكَ المجتمعُ الجديدُ للدِّفاعِ عن نفسِه..

هذه ملابسةٌ لا بُدَّ منها، تولدُ مع ميلادِ الإسلام ذاتِه، وهذه معركةٌ

مفروضةٌ على الإسلام فرضًا، ولا خيارَ لهُ في خوضِها، وهذا صراعٌ طبيعيٌّ بينَ وجودَينِ لا يمكنُ التَّعايشُ بينهما طويلًا..

هذا كلُّهُ حقٌّ.. ووفقَ هذه النَّظرةِ يكونُ لا بُدَّ للإسلام أَن يدافعَ عن وجودِه، ولا بُدَّ أَنْ يخوضَ معركةً دفاعيَّةً مفروضةً عليه فرضًا..

إنقاذُ الإنسانِ من العبوديَّةِ لغيرِ اللّهِ:

ولكنْ هناكَ حقيقةٌ أُخرىٰ أَشدُّ أَصالةً من هذهِ الحقيقةِ.. إنَّ من طبيعةِ الوجودِ الإسلاميِّ ذاتِه أَنْ يتحرَّكَ إلى الأَمامِ ابتداءً؛ لإنقاذِ «الإنسان» في «الأَرض» من العبوديَّةِ لغيرِ الله، ولا يمكنُ أَنْ يقفَ عندَ حدودٍ جغرافيَّةٍ، ولا أَنْ ينزويَ داخلَ حدودٍ عنَصريَّةٍ، تاركًا «الإنسان».. نوعَ الإنسانِ.. في «الأَرض».. كلِّ الأَرض.. للشَّرِّ والفسادِ والعبوديَّةِ لغيرِ الله.

إنَّ المعسكراتِ المعاديةَ للإسلام قد يجيءُ عليها زمانٌ تُؤْثِرُ فيه أَلَّا تهاجمَ الإسلامَ، إذا تركَها الإسلامُ تزاولُ عبوديَّةَ البشرِ للبشرِ داخلَ حدودِها الإقليميَّةِ، ورضيَ أَن يَدَعَها وشأْنَها، ولم يمدَّ إليها دعوتَه وإعلانَه التَّحريريَّ العامَّ! ولكنَّ الإسلامَ لا يهادنُها؛ إلَّا أَنْ تعلنَ استسلامَها لسُلطانِه في صورةِ أَداءِ الجزيةِ، ضمانًا لفتحِ أَبوابِها لدعوتِه بلا عوائقَ ماديَّةٍ من السُّلطاتِ القائمةِ فيها.

هذه طبيعةُ هذا الدِّين، وهذه وظيفتُه، بحكمِ أَنَّه إعلانٌ عامٌّ لربوبيَّةِ الله

للعالمين، وتحريرِ الإنسانِ من كلِّ عبوديَّةٍ لغيرِ الله في النَّاسِ أَجمعين!

وفرقٌ بينَ تصوُّرِ الإسلام علىٰ هذه الطَّبيعةِ، وتصوُّرِهِ قابعًا داخلَ حدودٍ إقليميَّةٍ أَو عنصريَّةٍ لا يحرِّكهُ إلَّا خوفُ الاعتداءِ! إنَّه في هذه الصُّورةِ الأَخيرةِ يفقدُ مبرِّراتِه الذاتيَّةَ في الانطلاقِ!

إنَّ مبرِّراتِ الانطلاقِ الإسلاميِّ تبرزُ بوضوحٍ وعُمقٍ، عند تَذَكُّرِ أَنَّ هذا الدِّينَ هو منهجُ الله للحياةِ البشريَّةِ، وليسَ منهجَ إنسانٍ، ولا مذهبَ شيعةٍ من النَّاسِ، ولا نظامَ جنسٍ من الأَجناسِ!.. ونحن لا نبحثُ عن مبرِّراتٍ خارجيَّةٍ؛ إلَّا حينَ تَفْتُرُ في حِسِّنا هذه الحقيقةُ الهائلةُ.. حين ننسىٰ أَنَّ القضيَّةَ هي قضيَّةُ أُلوهيَّةِ الله، وعبوديَّةِ العباد.

إنَّه لا يمكنُ أَنْ يستحضرَ إنسانٌ ما هذه الحقيقةَ الهائلةَ، ثمَّ يبحثُ عن مبرِّرٍ آخرَ للجهادِ الإسلاميِّ!

والمسافةُ قد لا تبدو كبيرةً عند مفرقِ الطَّريقِ، بين تصوُّرِ أَنَّ الإسلامَ كان مضطرًّا لخوضِ معركةٍ لا اختيارَ له فيها، وبحكمِ وجودِه الذَّاتِّي ووجودِ المجتمعاتِ الجاهليَّة الأُخرى الَّتي لا بُدَّ أَنْ تهاجِمَهُ، وتصوُّرِ أَنَّه هو بذاتِه لا بُدَّ أَنْ يتحرَّكَ ابتداءً، فيدخلَ في هذهِ المعركة.

المسافةُ عن مفرقِ الطَّريقِ قد لا تبدو كبيرةً، فهو في كلتا الحالتينِ سيدخلُ المعركةَ حتمًا، ولكنَّها في نهايةِ الطَّريقِ تبدو هائلةً شاسعةً، تُغيِّرُ المشاعرَ، والمفهوماتِ الإسلاميَّةَ تغييرًا كبيرًا.. خطيرًا.

إزالةُ العوائقِ:

إنَّ هناكَ مسافةً هائلةً بين اعتبارِ الإسلام منهجًا إلهيًّا، جاء ليقرِّرَ أُلوهيَّةَ الله في الأَرض، وعبوديَّةَ البشرِ جميعًا لإلهٍ واحدٍ، ويصبَّ هذا التَّقريرَ في قالبٍ واقعيٍّ، هو المجتمعُ الإنسانيُّ الَّذي يتحرَّرُ فيه النَّاسُ من العبوديَّة للعبادِ، بالعبوديَّة لربِّ العبادِ؛ فلا تحكمهم إلَّا شريعةُ الله، الَّتي يتمثَّلُ فيها سُلطانُ الله، أَو بتعبيرٍ آخرَ تتمثَّلُ فيها أُلوهيَّتُه.. فمن حقِّه إذنْ أَن يُزيلَ العقباتِ كلِّها من طريقِه، ليخاطبَ وجدانَ الأَفرادِ وعقولَهم دونَ حواجزٍ، ولا موانعَ مصطنعةٍ من نظامِ الدَّولةِ السِّياسيِّ، أَو أَوضاعِ النَّاسِ الاجتماعيَّةِ.. إنَّ هناكَ مسافةً هائلةً بين اعتبارِ الإسلام علىٰ هذا النَّحوِ، واعتبارِه نظامًا محليًّا في وطنٍ بعينِه؛ فمن حقِّه فقط أَنْ يدفعَ الهجومَ عليه في داخلِ حدودِه الإقليميَّة!

هذا تصوُّرٌ.. وذاكَ تصوُّرٌ.. ولو أَنَّ الإسلامَ في كلتا الحالتينِ سيجاهدُ، ولكنَّ التَّصوُّرَ الكلِّيَّ لبواعثِ هذا الجهاد وأَهدافِه ونتائِجه، يختلفُ اختلافًا بعيدًا، يدخلُ في صميمِ الاعتقادِ كما يدخلُ في صميمِ الخطَّةِ والاتِّجاه.

إنَّ من حقِّ الإسلام أَنْ يتحرَّكَ ابتداءً.. فالإسلامُ ليسَ نِحْلَةَ قومٍ، ولا نظامَ وطنٍ، ولكنَّهُ منهجُ إلهٍ، ونظامُ عالَمٍ.. ومن حقِّه أَنْ يتحرَّكَ ليحطِّمَ الحواجزَ من الأَنظمةِ والأَوضاعِ الَّتي تغلُّ من حرِّيَّةِ «**الإنسان**» في الاختيارِ، وحسبُه أَنَّه لا يهاجمُ الأَفراد ليُكرهَهم على اعتناقِ

عقيدتِه، إنَّما يهاجمُ الأَنظمةَ والأَوضاعَ ليحرِّرَ الأَفرادَ من التأْثيراتِ الفاسدةِ، المفسدةِ للفطرةِ، المقيِّدةِ لحرِّيَّةِ الاختيار.

من حقِّ الإسلام أَنْ يُخرجَ «**النَّاسَ**» من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَه؛ ليحقِّقَ إعلانَه العامَّ بربوبيَّةِ الله للعالمينَ، وتحريرَ النَّاسِ أجمعين.. وعبادةُ الله وحدَه لا تتحقَّقُ ـ في التَّصوُّرِ الإسلاميِّ وفي الواقعِ العمليِّ ـ إلَّا في ظلِّ النِّظامِ الإسلاميِّ؛ فهو وحدَه النِّظامُ الَّذي يشرِّعُ اللهُ فيهِ للعبادِ كلِّهم، حاكِمِهم ومحكومِهم، أَسودِهم وأَبيضِهم، قاصيهِم ودانيهِم، فقيرِهم وغنيِّهم، تشريعًا واحدًا يخضعُ له الجميعُ على السَّواءِ.. أَمَّا في سائرِ الأَنظمةِ، فيعبدُ النَّاسُ العبادَ؛ لأَنَّهم يتلقَّونَ التَّشريعَ لحياتَهم من العبادِ، وهو من خصائصِ الأُلوهيَّةِ، فأَيُّما بشرٍ ادَّعىٰ لنفسِه سُلطانَ التَّشريعِ للنَّاسِ من عندِ نفسِه؛ فقد ادَّعى الأُلوهيَّة اختصاصًا وعملًا، سواءٌ ادَّعاها قولًا أَم لم يعلنْ هذا الادِّعاء. وأَيُّما بشرٍ آخرَ اعترفَ لذلك البشرِ بذلك الحقِّ، فقد اعترفَ له بحقِّ الأُلوهيَّةِ، سواءٌ سمَّاها باسمها أَم لم يُسَمِّها!

والإسلامُ ليسَ مجرَّدَ عقيدةٍ، حتَّىٰ يَقنعَ بإبلاغِ عقيدتِه للنَّاسِ بوسيلةِ البيانِ.. إنَّما هو منهجٌ يتمثَّلُ في تجمُّعٍ تنظيميٍّ حركيٍّ يزحفُ لتحريرِ كلِّ النَّاسِ، والتَّجمُّعاتُ الأُخرىٰ لا تمكِّنُهُ من تنظيمِ حياةِ رعاياها وفقَ منهجه هو، ومن ثَمَّ يتحتَّمُ على الإسلام أَن يزيلَ هذه الأَنظمةَ بوصفِها معوِّقاتٍ للتَّحريرِ العامِّ، وهذا ـ كما قلنا من قبلُ ـ معنىٰ أَن يكونَ الدِّينُ

كلُّهُ لله؛ فلا تكونَ هناك دينونةٌ ولا طاعةٌ لعبدٍ من العبادِ لذاتِه، كما هو الشَّأْنُ في سائرِ الأَنظمةِ الَّتي تقومُ علىٰ عبوديَّةِ العبادِ للعباد!

الجهادُ ليسَ للإكراهِ على الدِّين:

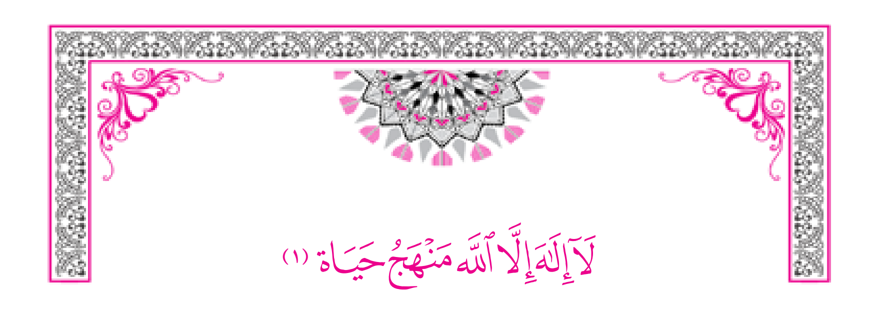
إنَّ الباحثينَ الإسلاميِّينَ المعاصرينَ المهزومينَ تحتَ ضغطِ الواقعِ الحاضرِ، وتحتَ ضغطِ الهجوم الاستشراقيِّ الماكرِ، يتحرَّجونَ من تقريرِ تلكَ الحقيقةِ؛ لأَنَّ المستشرقينَ صوَّروا الإسلامَ حركةَ قهرٍ بالسَّيفِ للإكراهِ على العقيدة، والمستشرقونَ الخبثاءُ يعرفونَ جيِّدًا أَنَّ هذه ليستْ هي الحقيقةَ، لكنَّهم يشوِّهونَ بواعثَ الجهاد الإسلاميِّ بهذه الطَّريقةِ.. ومن ثَمَّ يقومُ المنافحونَ ـ المهزومونَ ـ عن سمعةِ الإسلام بنفيِ هذا الاتِّهامِ، فيلجؤونَ إلىٰ تلمُّسِ المبرِّراتِ الدِّفاعيَّةِ! ويغفلونَ عن طبيعةِ الإسلام ووظيفتِه، وحقِّه في «**تحريرِ الإنسان**» ابتداءً.

وقد غَشَّىٰ علىٰ أَفكارِ الباحثِينَ العصريِّينَ ـ المهزومينَ ـ ذلك التَّصوُّرُ الغربيُّ لطبيعةِ «الدِّين».. وأَنَّه مجرَّدُ «عقيدة» في الضَّميرِ، لا شأْنَ لها بالأَنظمةِ الواقعيَّة للحياةِ، ومن ثَمَّ يكونُ الجهادُ للدِّينِ، جهادًا لفرضِ العقيدة على الضَّمير!

لكنَّ الأَمرَ ليسَ كذلك في الإسلام؛ فالإسلامُ منهجُ الله للحياةِ البشريَّةِ، وهو منهجٌ يقومُ علىٰ إفرادِ الله وحدَه بالأُلوهيَّةِ ـ متمثِّلةً في الحاكميَّةِ ـ وينظِّمُ الحياةَ الواقعيَّةَ بكلِّ تفصيلاتِها اليوميَّةِ! فالجهادُ له

جهادٌ لتقريرِ المنهج وإقامةِ النِّظامِ، أَمَّا العقيدةُ فأَمرٌ موكولٌ إلىٰ حرِّيَّةِ الاقتناعِ في ظلِّ النِّظامِ العامِّ.. بعد رفعِ جميعِ المؤثِّراتِ.. ومن ثمَّ يختلفُ الأَمرُ من أَساسه، وتصبحُ له صورةٌ جديدةٌ كاملةٌ.

وحيثما وجِدَ التَّجمُّعُ الإسلاميُّ، الَّذي يتمثَّلُ فيه المنهجُ الإلهيُّ، فإنَّ اللهَ يمنحُه حقَّ الحركةِ والانطلاقِ لتسلُّم السُّلطانِ وتقريرِ النِّظامِ، مع تركِ مسأَلةِ العقيدة الوجدانيَّةِ لحرِّيَّةِ الوجدانِ، فإذا كفَّ اللهُ أَيدي الجماعةِ المسلمة فترةً عن الجهاد؛ فهذه مسأَلةُ خِطَّةٍ لا مسأَلةُ مبدأٍ، مسأَلةُ مقتضياتِ الحركةِ لا مسأَلةُ عقيدةٍ، وعلىٰ هذا الأَساس الواضحِ يمكنُ أَنْ نفهمَ النُّصوصَ القرآنيَّةَ المتعدِّدةَ، في المراحلِ التَّاريخيَّةِ المتجدِّدةِ، ولا نخلطَ بين دلالتِها المرحليَّةِ، والدَّلالةِ العامَّةِ لخطِّ الحركةِ الإسلاميَّة الثَّابتِ الطَّويلِ.



لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ مَنۡهَجُ حَيَاة (١)

العبوديَّةُ لله وحدَهُ هي شطرُ الرُّكنِ الأوَّلِ في العقيدة الإسلاميَّة، المتمثِّلُ في شهادةِ: أَن لَا إِلهَ إِلَّا الله، والتَّلقِّي عن رسُولِ الله ﷺ - في كيفيَّةِ هذه العبوديَّةِ - هو شطرُها الثَّاني، المتمثِّلُ في شهادةِ أَنَّ محمَّدًا رَسُولُ الله. والقلبُ المؤمنُ المسلمُ هو الَّذي تتمثَّلُ فيه هذهِ القاعدةُ بشطرَيها؛ لأَنَّ كلَّ ما بعدَها من مقوِّماتِ الإيمانِ، وأَركانِ الإسلام، إنَّما هو مقتضىً لها.

فالإيمانُ بملائكةِ الله، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرِه وشرِّه، وكذلك الصَّلَاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحجُّ، ثمَّ الحدودُ والتَّعازيرُ، والحِلُّ والحُرمةُ، والمعاملاتُ والتَّشريعاتُ، والتَّوجيهاتُ الإسلاميَّةُ.. إنَّما تقومُ كلُّها علىٰ قاعدةِ العبوديَّةِ لله وحدَهُ، كما أَنَّ المرجعَ فيها كلِّها هو ما بلَّغهُ لنا رسولُ الله ﷺ عن ربِّه.

والمجتمعُ المسلمُ هو الَّذي تتمثَّلُ فيه تلكَ القاعدةُ ومقتضياتُها جميعًا؛ لأَنَّه بغير تَمثُّلِ تلكَ القاعدة ومقتضياتِها فيه لا يكونُ مسلمًا.

---

(١) قال شيخنا العلاَّمة المُحَدِّث ناصر الدِّين الألباني رحمه الله عن هذا الفصل: (هناك فصلٌ قيِّم جدًّا في كتاب «معالم في الطريق» أَظنُّ عنوانه: «لا إله إلَّا الله منهج حياة» وأَنا أَعتقد أَنَّ العنوان هذا كثيرٌ من إخواننا السَّلفيين ما تبنَّوا معناه...). انظر ما تقدم، ص ٦٣ من هذا الكتاب.



مكانةُ الشَّهادتَين:

ومن ثمَّ تصبحُ شهادةُ أَن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله؛ قاعدةً لمنهجٍ كاملٍ تقومُ عليه حياةُ الأُمَّة المسلمة بحذافيرِها، فلا تقومُ هذه الحياةُ قَبل أَن تقومَ هذه القاعدةُ، كما أَنَّها لا تكونُ حياة إسلاميَّةً إذا قامتْ علىٰ غيرِ هذهِ القاعدةِ، أَو قامت علىٰ قاعدةٍ أُخرىٰ معها، أَو عدَّةِ قواعدَ أَجنبيَّةٍ عنها:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

۞۞۞

* هذا التَّقريرُ الموجزُ المطلقُ الحاسمُ يفيدُنا في تحديدِ كلمةِ الفصلِ في قضايا أَساسيَّةٍ في حقيقةِ هذا الدِّين، وفي حركتِه الواقعيَّة كذلك:

إنَّه يُفيدُنا أَوَّلًا: في تحديدِ «**طبيعةِ المجتمع المسلم**».

ويفيدُنا ثانيًا: في تحديدِ «**منهج المجتمع المسلم**».

ويفيدُنا ثالثًا: في تحديدِ «**منهج الإسلام في مواجهةِ المجتمعاتِ الجاهليَّة**».

ويفيدُنا رابعًا: في تحديدِ «**منهج الإسلام في مواجهةِ واقع الحياة البشريَّة**».

وهي قضايا أَساسيَّةٌ بالغةُ الخطورةِ في منهج الحركةِ الإسلاميَّة قديمًا وحديثًا.

۞ ۞ ۞

العبوديَّةُ لله أساسُ المجتمع المسلمِ:

إنَّ السِّمةَ الأُولى المميِّزةَ لطبيعةِ «**المجتمع المسلم**» هي أَنَّ هذا المجتمعَ يقومُ علىٰ قاعدةِ العبوديَّةِ لله وحدَهُ في أَمرِه كلِّه.. هذه العبوديَّةُ الَّتي تمثِّلُها وتُكيِّفُها شهادةُ أَن لا إله إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

وتتمثَّلُ هذه العبوديَّةُ في التَّصوُّرِ الاعتقاديِّ، كما تتمثَّلُ في الشَّعائرِ التَّعبُّديَّة، كما تتمثَّلُ في الشَّرائعِ القانونيَّةِ سواءً.

فليس عبدًا لله من لا يعتقدُ بوحدانيَّةِ الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۞ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥١ ـ ٥٢].

وليس عبدًا لله وحدَهُ مَن يتقدَّمُ بالشَّعائرِ التَّعبُّديَّةِ لأَحدٍ غيرِ الله ـ معَه أَو من دونِه ـ : ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

ليس عبدًا لله وحدَهُ مَن يتلقَّى الشَّرائعَ القانونيَّةَ من أَحدٍ سوى الله، عن الطَّريقِ الَّذي بلَّغنا اللهُ به، وهو الرَّسولُ ﷺ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ



شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

هذا هو المجتمعُ المسلمُ، المجتمعُ الَّذي تتمثَّلُ فيه العبوديَّةُ لله وحدَهُ في معتقداتِ أَفرادِه وتصوُّراتِهم، كما تتمثَّلُ في شعائرِهم وعباداتِهم، كما تتمثَّلُ في نظامِهم الجماعيِّ وتشريعاتِهم.. وأَيُّما جانبٍ من هذه الجوانبِ تَخَلَّفَ عن الوجودِ؛ فقد تخلَّفَ الإسلامُ نفسُه عن الوجودِ، لِتَخلُّفِ ركنِه الأَوَّلِ، وهو شهادةُ أَن لَا إلهَ إِلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

ولقد قلنا: إنَّ العبوديَّةَ لله تتمثَّلُ في «التَّصوُّرِ الاعتقاديِّ».. فيحسنُ أَن نقولَ ما هو التَّصوُّرُ الاعتقاديُّ الإسلاميُّ.. إنَّه التَّصوُّر الَّذي ينشأَ في الإدراك البشريِّ، من تلقِّيهِ لحقائقِ العقيدة من مصدرِها الرَّبَّانيِّ، والَّذي يتكيَّفُ به الإنسانُ في إدراكِه لحقيقةِ ربِّه، ولحقيقةِ الكونِ الَّذي يعيشُ فيه ـ غيبِه وشُهودِه ـ ولحقيقةِ الحياةِ الَّتي ينتسبُ إليها ـ غيبِها وشهودِها ـ ولحقيقةِ نفسِه.. أَي: لحقيقةِ الإنسانِ ذاتِه.. ثمَّ يُكَيِّفُ علىٰ أَساسه تعاملَه مع هذهِ الحقائقِ جميعًا؛ تعاملَه مع ربِّه تعاملًا تتمثَّلُ فيه عبوديَّتُه لله وحدَهُ، وتعاملَه مع الكونِ ونواميسِه ومع الأَحياءِ وعوالِمها، ومع أَفرادِ النَّوعِ البشريِّ وتشكيلاتِه، تعاملًا يستمدُّ أُصولَه من دينِ الله ـ كما بلَّغها رسولُ الله ﷺ ـ تحقيقًا لعبوديَّتِه لله وحدَهُ في هذا التَّعاملِ.. وهو بهذه الصُّورةِ يشملُ نشاطَ الحياةِ كلَّه.

۞۞۞

كيف ينشأُ المجتمعُ المسلمُ؟

فإذا تقرَّرَ أَنَّ هذا هو «المجتمعُ المسلمُ» فكيفَ ينشأُ هذا المجتمعُ؟ ما منهجُ هذه النَّشأة؟

إنَّ هذا المجتمعَ لا يقومُ حتَّىٰ تنشأَ جماعةٌ من النَّاسِ تقرِّرُ أَنَّ عبوديَّتَها الكاملةَ لله وحدَهُ، وأَنَّها لا تَدِينُ بالعبوديَّةِ لغيرِ الله.. لا تَدينُ بالعبوديَّةِ لغيرِ الله في الاعتقادِ والتَّصوُّرِ، ولا تَدينُ بالعبوديَّةِ لغيرِ الله في العباداتِ والشَّعائر.. ولا تَدينُ بالعبوديَّةِ لغيرِ الله في النِّظامِ والشَّرائعِ.. ثمَّ تأْخذُ بالفعلِ في تنظيمِ حياتِها كلِّها علىٰ أَساس هذه العبوديَّةِ الخالصةِ.. تنقِّي ضمائرَها من الاعتقادِ في أُلوهيَّةِ أَحدٍ غيرِ الله ـ معه أَو دونه ـ وتنقِّي شعائرَها من التَّلقِّي عن أَحدٍ غيرِ الله؛ معه أَو مِن دونِه.

عندئذٍ ـ وعندئذٍ فقط ـ تكونُ هذه الجماعةُ مسلمةً، ويكونُ هذا المجتمعُ الَّذي أَقامتْه مسلمًا كذلك.. فأَمَّا قبْلَ أَنْ يقرِّرَ ناسٌ من النَّاسِ إخلاصَ عبوديَّتِهم لله ـ على النَّحوِ الَّذي تقدَّم ـ فإنَّهم لا يكونونَ مسلمينَ.. وأَمَّا قبلَ أَن ينظِّموا حياتَهم علىٰ هذا الأَساس فلا يكونُ مجتمعُهم مسلمًا.. ذلك أَنَّ القاعدةَ الأُولى الَّتي يقومُ عليها الإسلامُ، والَّتي يقومُ عليها المجتمعُ المسلمُ ـ هي شهادةُ أَن لَا إلهَ إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله ـ لم تقمْ بشطرَيها..[١]

---

(١) **تنبيه:** هنا يصفُ سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قواعدَ وشروطَ نشأَةِ المجتمع المسلمِ.. كما نشأَ في غربته الأُولىٰ، ولا يُصْرَفُ كلامه هذا إلىٰ تكفيرِ المجتمعات! والفرقُ واضحٌ في الأُصول بين بيانِ حكمِ أَصلِ الشَّيءِ، وبين إنزالِه للواقعِ أَو للمعيَّن!



وإذن فإنَّه قبلَ التَّفكيرِ في إقامةِ نظامٍ اجتماعيٍّ إسلاميٍّ، وإقامةِ مجتمعٍ مسلمٍ علىٰ أَساس هذا النِّظامِ.. ينبغي أَنْ يتَّجهَ الاهتمامُ أَوَّلًا إلىٰ تخليصِ ضمائرِ الأَفرادِ من العبوديَّةِ لغيرِ الله ـ في أَيِّ صورةٍ من صورِها الَّتي أَسلفنا ـ وأَنْ يجتمعَ الأَفرادُ الَّذين تخلَّصت ضمائرُهم من العبوديَّةِ لغيرِ الله في جماعةٍ مسلمة..

وهذه الجماعةُ الَّتي خلصتْ ضمائرُ أَفرادِها من العبوديَّة لغيرِ الله.. اعتقادًا وعبادةً وشريعةً؛ هي الَّتي ينشأُ منها المجتمعُ المسلمُ، وينضمُّ إليها من يريدُ أَنْ يعيشَ في هذا المجتمع بعقيدتِه وعبادتِه وشريعتِه، الَّتي تتمثَّلُ فيها العبوديَّةُ لله وحدَهُ.. أَو بتعبيرٍ آخرَ تتمثَّلُ فيها شهادةُ أَن لَا إلهَ إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله.

وهكذا كانتْ نشأةُ الجماعةِ المسلمة الأُولى، الَّتي أَقامتِ المجتمعَ المسلمَ الأَوَّلَ.. وهكذا تكونُ نشأةُ كلِّ جماعةٍ مسلمةٍ، وهكذا يقومُ كلُّ مجتمعٍ مسلم.

إنَّ المجتمعَ المسلمَ إنَّما ينشأُ من انتقالِ أَفرادٍ ومجموعاتٍ من النَّاسِ من العبوديَّةِ لغيرِ الله ـ معه أَو من دونه ـ إلى العبوديَّةِ لله وحدَهُ بلا شريكٍ، ثمَّ من تقريرِ هذه المجموعاتِ أَنْ تقيمَ نظامَ حياتِها علىٰ أَساس هذهِ العبوديَّةِ.. وعندئذٍ يتمُّ ميلادٌ جديدٌ لمجتمعٍ جديدٍ، مشتقٍّ من المجتمع الجاهليِّ القديمِ، ومواجهٍ له بعقيدةٍ جديدةٍ، ونظامٍ للحياةِ جديدٍ، يقومُ علىٰ أَساس هذهِ العقيدة، وتتمثَّلُ فيه قاعدةُ الإسلام الأُولىٰ بشطرَيْه.. شهادةِ أَن لَا إلهَ إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُول الله..

وقد ينضمُّ المجتمعُ الجاهليُّ القديمُ بكاملِه إلى المجتمع الإسلاميِّ الجديدِ وقد لا ينضمُّ، كما أَنَّه قد يُهادنُ المجتمعَ الإسلاميَّ أَو يحاربُه.. وإن كانتِ السُّنَّة قد جرتْ بأَنْ يشنَّ المجتمعُ الجاهليُّ حربًا لا هوادةَ فيها، سواءٌ علىٰ طلائعِ هذا المجتمع في مرحلةِ نشوئِه ـ وهو أَفرادٌ أَو مجموعاتٌ ـ أَو علىٰ هذا المجتمع نفسِه بعد قيامِه فعلًا، وهو ما حدثَ في تاريخِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة منذُ نوحٍ عليه السلام إلىٰ محمَّدٍ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ بغيرِ استثناء.

وطبيعيٌّ أَنَّ المجتمعَ المسلمَ الجديدَ لا ينشأُ، ولا يتقرَّرُ وجودُه؛ إلَّا إذا بلغَ درجةً من القوَّةِ يواجهُ بها ضغطَ المجتمع الجاهليِّ القديمِ، قوَّةِ الاعتقادِ والتَّصوُّرِ، وقوَّةِ الخُلُقِ والبناءِ النَّفسيِّ، وقوَّةِ التنظيمِ والبناءِ الجماعيِّ، وسائرِ أَنواعِ القوَّةِ الَّتي يواجهُ بها ضغطَ المجتمع الجاهليِّ ويتغلَّبُ عليهِ، أَو على الأَقلِّ يصمدُ له!

۞۞۞

المجتمعُ الجاهليُّ، ومنهجُ الإسلام في مواجهته:

ولكنْ ما هو «المجتمعُ الجاهليُّ»؟ وما هو منهجُ الإسلام في مواجهتِه؟

إنَّ المجتمعَ الجاهليَّ: هو كلُّ مجتمع غيرِ المجتمع المسلمِ! وإذا أَردنا التَّحديدَ الموضوعيَّ قلنا: إنَّه هو كلُّ مجتمعٍ لا يُخْلِصُ عبوديَّتَهُ لله وحدَهُ، متمثِّلةً هذه العبوديَّةُ في التَّصوُّرِ الاعتقاديِّ، وفي الشَّعائرِ التعبُّديَّةِ، وفي الشَّرائعِ القانونيَّةِ.

وبهذا التَّعريفِ الموضوعيِّ تَدْخُلُ في إطارِ «**المجتمع الجاهليِّ**» **جميعُ المجتمعاتِ القائمةِ اليومَ في الأَرض فعلًا!**

* **تدخلُ فيه المجتمعاتُ الشُّيوعيَّةُ**. أَوَّلًا: بإلحادِها في اللهِ ـ سبحانه ـ وبإنكارِ وجودِه أَصلًا ورَجعِ الفاعليَّةِ في هذا الوجودِ إلى «**المادَّةِ**، أَو «**الطَّبيعةِ**»، ورجعِ الفاعليَّةِ في حياةِ الإنسانِ وتاريخِهِ إلى «**الاقتصادِ**»، أَو «**أَدواتِ الإنتاجِ**»..

وثانيًا: بإقامةِ نظامِ العبوديَّةِ فيه للحزبِ ـ علىٰ فرضِ أَنَّ القيادةَ الجماعيَّةَ في هذا النِّظامِ حقيقةٌ واقعةٌ ـ لا لله سبحانه! ثمَّ ما يترتَّبُ علىٰ ذلكَ التَّصوُّرِ، وهذا النِّظامِ من إهدارٍ لخصائصِ «**الإنسان**» وذلك باعتبارِ أَنَّ «**المطالبَ الأَساسيَّة**» له هي فقط مطالبُ الحيوانِ، وهي: الطَّعامُ والشَّرابُ والملبسُ والمسكنُ والجنسُ، وحرمانُه من حاجاتِ روحهِ «**الإنسانيِّ**» المتميِّزِ عن الحيوانِ، وفي أَوَّلِها: العقيدةُ في اللهِ، وحرِّيَّةُ اختيارِها، وحرِّيَّةُ التَّعبيرِ عنها، وكذلكَ حرِّيَّةُ التَّعبيرِ عنِ «**فرديَّتهِ**» وهي من أَخصِّ خصائصِ «**إنسانيَّتِه**» ، هذه الفرديَّةُ الَّتي تتجلَّىٰ في الملكيَّةِ الفرديَّةِ، وفي اختيارِ نوعِ العملِ والتَّخصُّصِ، وفي التَّعبيرِ الفنِّيِّ عن «**الذَّاتِ**» إلىٰ آخرِ ما يميِّزُ «**الإنسان**» عن «**الحيوانِ**» أَو عن «**الآلةِ**» إذْ إنَّ التَّصوُّرَ الشُّيوعيَّ والنِّظامَ الشُّيوعيَّ سواء، كثيرًا ما يهبطُ بالإنسانِ من مرتبةِ الحيوانِ إلىٰ مرتبةِ الآلة!

* **وتدخلُ فيه المجتمعاتُ الوثنيَّةُ** ـ وهي ما تزالُ قائمةً في الهندِ واليابانِ والفلبِّينِ وإفْريقيَّةَ ـ تدخلُ فيه ـ أَوَّلًا: بتصوُّرِها الاعتقاديِّ القائم

علىٰ تأْليهِ غيرِ الله ـ معه أَو مِن دونِه ـ وتدخلُ فيه ثانيًا: بتقديم الشَّعائرِ التَّعبُّديَّة لشتَّى الآلهةِ والمعبوداتِ الَّتي تَعتقِدُ بأُلوهيَّتِها.. كذلك تدخلُ فيه بإقامةِ أَنظمةٍ وشرائعَ، المرجعُ فيها لغيرِ الله وشريعتِه، سواءٌ استُمدَّتْ هذه الأَنظمةُ والشَّرائعُ من المعابدِ والكهنةِ والسَّدَنةِ والسَّحرةِ والشُّيوخِ، أَو استمدَّتْها من هيئاتٍ مدنيَّةٍ «**علمانيَّة**» تملكُ سلطةَ التَّشريعِ دونَ الرُّجوعِ إلىٰ شريعةِ الله.. أَي: أَنَّ لها الحاكميَّةَ العليا باسم «**الشَّعبِ**» أَو باسم «**الحزبِ**» أَو باسم كائنٍ مَن كانَ.. ذلك أَنَّ الحاكميَّة العُليا لا تكونُ إلَّا لله ـ سبحانَه ـ ولا تُزاولُ إلَّا بالطَّريقةِ الَّتي بلَّغها عنهُ رُسُلُه.

* **وتدخلُ فيه المجتمعاتُ اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ** في أَرجاءِ الأَرض جميعًا.. تدخلُ فيه هذه المجتمعاتُ أَوَّلًا: بتصوُّرها الاعتقاديِّ المحرَّفِ، الَّذي لا يُفردُ اللهَ ـ سبحانه ـ بالأُلوهيَّةِ؛ بل يجعلُ له شركاءَ في صورةٍ من صورِ الشِّرك، سواءٌ بالبنوَّةِ أَو بالتَّثليثِ، أَم بتصوُّرِ الله ـ سبحانه ـ علىٰ غيرِ حقيقتِه، وتصوُّرِ علاقةِ خلقِه به علىٰ غيرِ حقيقتِها:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].



﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وتدخلُ فيه كذلك بشعائِرِها التَّعبُّديَّةِ ومراسِمِها وطقوسِها، المنبثقةِ من التَّصوُّراتِ الاعتقاديَّةِ المنحرفةِ الضَّالَّةِ.. ثمَّ تدخلُ فيه بأَنظمتِها وشرائعِها، وهي كلُّها لا تقومُ على العبوديَّةِ لله وحدَهُ، بالإقرارِ له وحدَهُ بحقِّ الحاكميَّةِ، واستمدادِ السُّلطانِ من شرعِه؛ بل تقيمُ هيئاتٍ من البشرِ، لها حقُّ الحاكميَّةِ العُليا الَّتي لا تكونُ إلَّا لله ـ سبحانه ـ وقديمًا وصمَهم اللهُ بالشِّرك؛ لأَنَّهم جعلوا هذا الحقَّ للأَحبارِ والرُّهبان، يشرِّعونَ لهم من عند أَنفسِهم؛ فيقبلونَ منهم ما يشرِّعونَه:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وهم لم يكونوا يعتقدونَ في أُلوهيَّةِ الأَحبارِ والرُّهبانِ، ولم يكونوا يتقدَّمونَ لهم بالشَّعائرِ التَّعبُّديَّةِ، إنَّما كانوا فقط يعترفونَ لهم بحقِّ الحاكميَّةِ، فيَقبلونَ منهم ما يشرِّعونَه لهم، بما لم يأْذنْ بهِ اللهُ، فأَولىٰ أَن يُوصَموا اليومَ بالشِّركِ والكُفرِ، وقد جعلوا ذلك لناسٍ منهم ليسُوا أَحبارًا ولا رهبانًا.. وكلُّهم سواءٌ.

وأَخيرًا يدخلُ في إطارِ المجتمع الجاهليِّ تلك المجتمعاتُ الَّتي تزعمُ لنفسِها أَنَّها «مسلمة»!

وهذه المجتمعاتُ لا تدخلُ في هذا الإطارِ؛ لأَنَّها تعتقدُ بأُلوهيَّةِ أَحدٍ غيرِ الله، ولا لأَنَّها تقدِّمُ الشَّعائرَ التَّعبُّديَّةَ لغيرِ الله أَيضًا، ولكنَّها تدخلُ في هذا الإطارِ؛ لأَنَّها لا تدينُ بالعبوديَّةِ لله وحدَهُ في نظامِ حياتِها؛ فهي ـ وإنْ لم تعتقدْ بأُلوهيَّةِ أَحدٍ إلَّا الله ـ تعطي أَخصَّ خصائصِ الأُلوهيَّةِ لغيرِ الله، فتدينُ بحاكميَّةِ غيرِ الله، فتتلقَّىٰ من هذه الحاكميَّةِ نظامَها، وشرائعَها وقِيَمَها، وموازينَها، وعاداتِها وتقاليدَها.. وكلَّ مقوِّماتِ حياتِها تقريبًا(١)!

واللهُ ـ سبحانه ـ يقولُ عن الحاكمينَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ويقولُ عن المحكومينَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾... إلىٰ قوله... ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٥].

---

(١) تنبيه: وصفُ سيِّد قُطُب رحمه الله لهذه المجتمعاتِ كلامُ داعيةٍ يوضحُ حالَ أُمته.. وليس كلامَ قاضٍ يصدرُ أَحكامًا شرعيَّةً؛ فهو يصفُ وصفًا دقيقًا هذه المجتمعاتِ بأَنَّ جاهليَّتها جاهليةُ معصيةٍ بانتشارِ الذُّنوب، والجهلِ بحقيقةِ الأُلوهيَّةِ، والجهلِ بما يحبُّه اللهُ.. من إخلاصِ العبوديةِ له وحده لا شريك له.. ولا يقصدُ بها إطلاقَ الكفرِ أَلبتَّة؛ لأَنَّ تحتَ حكمِ الجاهليةِ يقع أَصنافٌ شتَّىٰ من النَّاسِ الَّذين يسودُهم ويحكمُهم وينظمُ حياتهم نظامٌ غيرُ إسلاميٍّ، والحكمُ هنا في بعض سماتِ الجاهليَّة وأَعمالِها، وهذه الأَعمالُ مهما كثرت لا تُخْرِجُ عن الملة؛ لأَنَّ المعصيةَ لا تُخرجُ العبدَ من الإيمان مهما كبرت؛ طالما أَنه لا يعتقدُ استحلالَها.



كما أَنَّه ـ سبحانه ـ قد وصفَ اليهودَ والنَّصارىٰ من قبلُ بالشِّركِ والكُفرِ والحِيْدةِ عن عبادةِ الله وحدَهُ، واتِّخاذِ الأَحبارِ والرُّهبانِ أَربابًا من دونِه، لمجرَّدَ أَنْ جعلوا للأَحبارِ والرُّهبانِ ما يجعلُه الَّذينَ يقولونَ عن أَنفسِهم: إنَّهم «مسلمون» لنَاسٍ منهم! واعتبرَ اللهُ ـ سبحانه ـ ذلك من اليهودِ والنَّصارىٰ شِركًا كاتِّخاذِهم عيسى ابنَ مريمَ ربًّا يؤلِّهونَه ويعبدونَه سواء؛ فهذه كتلك خروجٌ من العبوديَّةِ لله وحدَهُ، فهي خروجٌ من دينِ الله، ومن شهادةِ أَنْ لَا إلهَ إِلَّا الله.

وهذه المجتمعاتُ بعضُها يعلنُ صراحةً «عَلْمانيَّتَه» وعدَمَ علاقتِهِ بالدِّين أَصلًا، وبعضُها يعلنُ أَنَّه «يحترمُ الدِّين» ولكنَّه يُخرجُ الدِّينَ من نظامِه الاجتماعيِّ أَصلًا، ويقول: إنَّه يُنْكر «الغيبيَّة» ويقيمُ نظامَه على «العِلميَّة» باعتبارِ أَنَّ العِلميَّةَ تناقضُ الغيبيَّةَ! وهو زعمٌ جاهلٌ لا يقولُ به إلَّا الجهَّالُ[1]، وبعضُها يجعلُ الحاكميَّةَ الفعليَّةَ لغيرِ الله، ويشرِّعُ ما يشاءُ، ثمَّ يقولُ عمَّا يشرِّعُه من عندِ نفسه: هذه شريعةُ الله!.. وكلُّها سواءٌ في أَنَّها لا تقومُ على العبوديَّةِ لله وحدَهُ..

وإذا تعيَّنَ هذا؛ فإنَّ موقفَ الإسلام من هذه المجتمعاتِ الجاهليَّة كلِّها يتحدَّدُ في عبارةٍ واحدةٍ: إنَّه يرفضُ الاعترافَ بإسلاميَّةِ هذه المجتمعاتِ كلِّها، وشرعيَّتِها في اعتبارِه.

إنَّ الإسلامَ لا ينظرُ إلى العنواناتِ واللَّافتاتِ والشَّاراتِ الَّتي

(١) يُراجع ما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ في الجزء السابع من الظلال. (المؤلِّف).

تحملُها هذه المجتمعاتُ على اختلافِها، إنَّها كلَّها تلتقي في حقيقةٍ واحدةٍ وهي أَنَّ الحياةَ فيها لا تقومُ على العبوديَّةِ الكاملةِ لله وحدَهُ، وهي من ثَمَّ تلتقيْ ـ مع سائرِ المجتمعاتِ الأُخرىٰ ـ في صفةٍ واحدةٍ، صفةِ «**الجاهليَّة**».

۞۞۞

طبيعةُ المجتمع المسلمِ:

وهذا يقودُنا إلى القضيَّةِ الأَخيرةِ، وهي منهجُ الإسلام في مواجهةِ الواقعِ البشريِّ كلِّهِ.. اليومَ وغدًا وإلىٰ آخرِ الزَّمانِ.. وهنا ينفعُنا ما قرَّرناه في الفقرةِ الأُولىٰ عن «**طبيعةِ المجتمع المسلم**» وقيامِه على العبوديَّةِ لله وحدَهُ في أَمرهِ كلِّه.

إنَّ تحديدَ هذهِ الطَّبيعةِ يجيبُ إجابةً حاسمةً عن هذا السُّؤالِ:

ما الأَصلُ الَّذي ترجعُ إليه الحياةُ البشريَّةُ وتقومُ عليه؟ أَهو دينُ الله ومنهجُه للحياةِ؟ أَم هو الواقعُ البشريُّ أَيًّا كان؟

إنَّ الإسلامَ يجيبُ علىٰ هذا السُّؤالِ إجابةً حاسمةً لا يتلعثمُ فيها ولا يتردَّدُ لحظةً.. **إنَّ الأَصلَ الَّذي يجبُ أَن ترجعَ إليه الحياةُ البشريَّةُ بجملتِها هو دينُ الله، ومنهجُه للحياة**.. إنَّ شهادةَ أَن لَا إلهَ إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله، الَّتي هي ركنُ الإسلام الأَوَّل، لا تقومُ ولا تُؤَدَّىٰ إلَّا أَنْ يكونَ هذا هو الأَصلَ.. وأَنَّ العبوديَّةَ لله وحدَهُ مع التلقِّي في كيفيَّةِ



هذه العبوديَّةِ عن رسول الله ﷺ لا تتحقَّقُ إلَّا أَنْ يُعترَفَ بهذا الأَصلِ، ثمَّ يُتَّبعَ اتِّباعًا كاملًا بلا تلعثمٍ ولا تردُّدٍ:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ثمَّ إنَّ الإسلامَ يسأَلُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾.

ويجيبُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والَّذي يعلمُ ـ والَّذي يخلقُ ويرزقُ كذلك ـ هو الَّذي يحكُمُ.. ودينُه الَّذي هو منهجُه للحياةِ، هو الأَصلُ الَّذي ترجعُ إليه الحياةُ.. أَمَّا واقعُ البشَرِ ونظريَّاتُهم ومذاهبُهم فهي تَفسدُ وتنحرفُ، وتقومُ علىٰ علم البشر الَّذينَ لا يعلمونَ، والَّذين لم يُؤتَوا من العلمِ إلَّا قليلًا!

أصولُ التَّشريعِ الإسلاميِّ:

ودينُ الله ليسَ غامضًا، ومنهجُه للحياةِ ليسَ مائعًا.. فهو محدَّدٌ بشطرِ الشَّهادةِ الثَّاني: محمَّدٌ رسُولُ الله، فهو محصورٌ فيما بلَّغهُ رسولُ الله ﷺ من النُّصوصِ في الأُصولِ.. فإنْ كان هناكَ نصٌّ فالنَّصُّ هو الحكمُ، ولا اجتهادَ مع النَّصِّ، وإنْ لم يكنْ هناكَ نصٌّ فهنا يجيءُ دورُ الاجتهاد ـ وفقَ أُصولِه المقرَّرةِ في منهج الله ذاتِه، لا وفقَ الأَهواءِ والرَّغباتِ ـ : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]..

والأُصولُ المقرَّرَةُ للاجتهادِ والاستنباطِ مقرَّرَةٌ ومعروفةٌ، وليستْ غامضةً ولا مائعةً.. فليس لأَحدٍ أَنْ يقولَ لشرعٍ يشرِّعُه: هذا شرعُ الله؛ إِلَّا أَن تكونَ الحاكميَّةُ لله مُعْلنةً، وأَن يكونَ مصدرُ السُّلطاتِ هو اللهُ ـ سبحانه ـ لا «الشَّعبُ» ولا «الحزبُ» ولا أَيٌّ من البشرِ، وأَن يَرْجِعَ إِلىٰ كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله لمعرفةِ ما يريدُه اللهُ، ولا يكونُ هذا لكلِّ من يريدُ أَنْ يدَّعيَ سُلطانًا باسم الله؛ كذلك الَّذي عرفتْه أَوربا ذاتَ يومٍ باسم «الثيوقراطية» أَو «الحكمِ المقدس» فليس شيءٌ من هذا في الإِسلام، وما يملكُ أَحدٌ أَن ينطقَ باسم الله إِلَّا رسولُه ﷺ وإِنَّما هناك نصوصٌ معيَّنةٌ، هي الَّتي تحدِّدُ ما شرعَ الله..

معنى «الدِّينُ للواقع»:

إِنَّ كلمةَ «الدِّين للواقع» يُساءُ فهمُها، ويساءُ استخدامُها كذلك. نعم إِنَّ هذا الدِّينَ للواقعِ. ولكن أَيُّ واقعٍ!

إِنَّهُ الواقعُ الَّذي ينشئه هذا الدِّينُ نفسُه، وفق منهجه، منطبقًا على الفطرةِ البشريَّةِ في سوائها، ومُحقِّقًا للحاجاتِ الإِنسانيَّةِ الحقيقيَّةِ في شمولِها.

هذه الحاجاتُ الَّتي يقرِّرُها الَّذي خَلَقَ، والَّذي يعلمُ مَن خَلقَ:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والدِّينُ لا يواجهُ الواقعَ ليقرَّه ويبحثَ له عن سندٍ منهُ، وعن حكمٍ شرعيٍّ يعلِّقُه عليه كاللَّافتةِ المستعارةِ! إِنَّما يواجهُ الواقعَ ليَزِنَهُ بميزانِه، فيُقرَّ منه ما يقرُّ، ويلغيَ منه ما يلغيْ، وينشئَ واقعًا غيرَه إِن كان لا

يرتضِيه، وواقعُه الَّذي ينشئُه هو الواقعُ، وهذا هو المعنيُّ بأَنَّ الإسلامَ: **دينٌ للواقعِ**، أَو ما يجبُ أَن تعنيَه في مفهومِها الصَّحيحِ!

ولعلَّه يثارُ هنا سؤَالٌ:

أَليست مصلحةُ البشرِ هي الَّتي يجبُ أَنْ تصوغَ واقعَهم؟!

ومرة أُخرىٰ نرجعُ إلى السُّؤَالِ الَّذي يطرحُه الإسلامُ، ويجيبُ عليه:

ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟

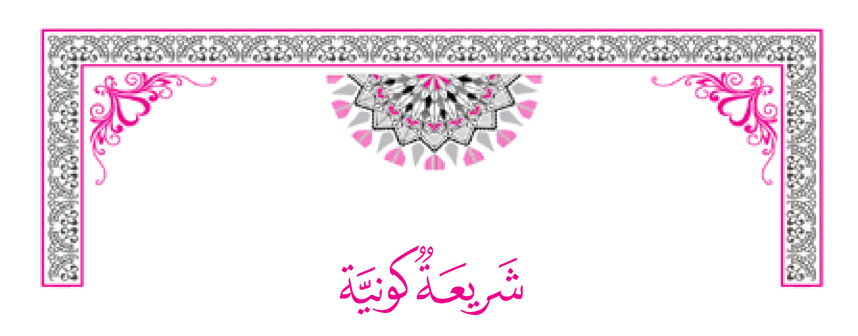
ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾!

إنَّ مصلحةَ البشرِ متضمَّنةٌ في شرعِ الله، كما أَنزلَهُ الله، وكما بلَّغه عنه رسولُ الله.. فإذا بدا للبشرِ ذاتَ يومٍ أَنَّ مصلحتَهم في مخالفةِ ما شرعَ الله لهم.

فهم.. أَوَّلًا: «**واهمون**» فيما بدا لهم.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٣ ـ ٢٥].

وهم.. ثانيًا: «**كافرون**» .. فما يدَّعي أَحدٌ أَنَّ المصلحةَ فيما يراه هو مخالفًا لما شرعَ الله، ثمَّ يبقىٰ لحظةً واحدةً علىٰ هذا الدِّين، ومن أَهلِ هذا الدِّين!



شَرِيعَةٌ كَونيَّة

إنَّ الإسلامَ حينَ يقيمُ بناءَه الاعتقاديَّ في الضَّميرِ والواقعِ علىٰ أَساس العبوديَّةِ الكاملةِ لله وحدَهُ، ويجعلُ هذه العبوديَّةَ متمثِّلةً في الاعتقادِ والعبادةِ والشَّريعةِ على السَّواءِ، باعتبارِ أَنَّ هذه العبوديَّةَ الكاملةَ لله وحدَهُ ـ في صورتِها هذه ـ هي المدلولُ العمليُّ لشهادةِ أَن لَا إلهَ إلَّا الله.. وأَنَّ التَّلقِّيَ في كيفيَّةِ هذه العبوديَّةِ عن رسول الله ﷺ وحدَهُ، هو المدلولُ العمليُّ كذلك لشهادةِ أَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله.

إنَّ الإسلامَ حين يُقيمُ بناءَه كلَّه علىٰ هذا الأَساس، بحيثُ تمثِّلُ شهادةُ أَن لا إله إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُول الله منهجَ الحياةِ في الإسلام، وتُصوِّرُ ملامحَ هذا المنهج، وتُقرِّرُ خصائصَه..

إنَّ الإسلامَ حين يُقيمُ بناءَهُ علىٰ هذا النَّحوِ الفريدِ، الَّذي يفرِّقُه عن جميعِ الأَنظمةِ الأُخرى الَّتي عرفتها البشريَّة.. إنَّما يرجعُ إلىٰ أَصلٍ أَشملَ في تقريرِه عن الوجودِ كلِّه، لا عن الوجودِ الإنسانيِّ وحدَهُ، وإلىٰ منهجٍ للوجودِ كلِّه، لا منهجٍ للحياةِ الإنسانيَّةِ وحدَهُا.

إنَّهَ التَّصوُّرُ الإسلاميُّ يقومُ علىٰ أَساس أَنَّ هذا الوجودَ كلَّه من خلقِ الله، اتَّجهتْ إرادةُ الله إلى كونِه فكان، وأَودعَه اللهُ ـ سبحانه ـ



قوانينَه الَّتي يتحرَّكُ بها، والَّتي تتناسقُ بها حركةُ أَجزائِه فيما بينَها، كما تتناسقُ بها حركتُه الكلِّيَّةُ سواء:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النمل: ٤٠].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

إنَّ وراءَ هذا الوجودِ الكونيِّ مشيئةً تُدبِّره، وقدَرًا يُحرِّكه، وناموسًا ينسِّقُه؛ هذا النَّاموسُ ينسِّقُ بين مفرداتِ هذا الوجودِ كلِّها، وينظِّمُ حركاتِها جميعًا، فلا تصطدمُ ولا تختلُّ ولا تتعارضُ، ولا تتوقَّفُ عن الحركةِ المنتظمةِ المستمرَّةِ ـ إلىٰ ما شاءَ الله ـ كما أَنَّ هذا الوجودَ خاضعٌ مستسلمٌ للمشيئةِ الَّتي تدبِّره، والقدَرِ الَّذي يُحرِّكُه، والنَّاموسِ الَّذي ينسِّقُه، بحيث لا يخطرُ له في لحظةٍ واحدةٍ أَنْ يتمرَّدَ على المشيئةِ، أَو أَن يتنكَّر للقدَر، أَو أَنْ يخالفَ النَّاموسَ، وهو لهذا كلِّه صالحٌ لا يدركُه العطَبُ والفسادُ إلَّا أَنْ يشاءَ الله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

۞۞۞

الإنسانُ محكومٌ بنواميسِ هذا الكونِ:

والإنسانُ من هذا الوجودِ الكونيِّ، والقوانينُ الَّتي تحكمُ فطرتَه ليست بمعزلٍ عن ذلك النَّاموسِ الَّذي يحكمُ الوجودَ كلَّه.. لقد خلقَه اللهُ

ـ كما خلقَ هذا الوجودَ ـ وهو في تكوينِه الماديِّ من طينِ هذه الأَرض، وما وهبَه اللهُ من خصائصَ زائدةٍ علىٰ مادَّةِ الطِّينِ جعلتْ منهُ إنسانًا، إنَّما رزقَه الله إيَّاه مقدَّرًا تقديرًا، وهو خاضعٌ من ناحيةِ كيانِه الجسميِّ للنَّاموسِ الطَّبيعيِّ الَّذي سنَّه اللهُ له ـ رضيَ أَم أَبىٰ ـ يُعطىٰ وجودَه وخلقَه ابتداءً بمشيئةِ الله لا بمشيئتِه هو، ولا بمشيئة أَبيهِ وأُمِّه ـ فهما يلتقيانِ ولكنَّهما لا يملكانِ أَنْ يعطيا الجنينَ وجودَه ـ وهو يُولَدُ وفقَ النَّاموسِ الَّذي وضعَه اللهُ لمدَّة الحملِ وظروفِ الولادة.

وهو يتنفَّسُ هذا الهواءَ الَّذي أَوجدَهُ اللهُ بمقاديرِه هذه، ويتنفَّسُه بالقدْرِ وبالكيفيَّة الَّتي أَرادها الله له.

وهو يحسُّ ويتأَلَّمُ، ويجوعُ ويعطشُ، يأْكُلُ ويشربُ، ويمثِّلُ الطَّعامَ والشَّرابَ.. وبالجملةِ يعيشُ.. وفق ناموسِ الله، عن غير إرادةٍ منه ولا اختيارٍ، شأْنُه في هذا شأْنُ هذا الوجودِ الكونيِّ، وكلِّ ما فيه، وكلِّ مَنْ فيه، في الخضوعِ المطلقِ لمشيئةِ الله وقدَرِه وناموسِه.

واللهُ الَّذي خلقَ هذا الوجودَ الكونيَّ وخلقَ الإنسانَ، والَّذي أَخضعَ الإنسانَ لنواميسِه الَّتي أَخضعَ لها الوجودَ الكونيَّ، هو ـ سبحانه ـ الَّذي سنَّ للإنسانِ «**شريعة**» لتنظيمِ حياتِه الإراديَّةِ، تنظيمًا متناسقًا مع حياتِه الطَّبيعيَّة؛ فالشَّريعةُ ـ علىٰ هذا الأَساس ـ إنْ هيَ إلَّا قطَّاعٌ من النَّاموسِ الإلهيِّ العامِّ الَّذي يحكمُ فطرةَ الإنسانِ، وفطرةَ الوجودِ العامِّ، وينسِّقُها كلَّها جملةً واحدةً.



وما من كلمةٍ من كلماتِ اللهِ، ولا أَمرٍ ولا نهيٍ، ولا وعْدٍ ولا وعيدٍ، ولا تشريعٍ ولا توجيهٍ.. إلَّا هي شطرٌ من النَّاموسِ العامِّ، وصادقةٌ في ذاتِها صدقَ القوانينِ الَّتي نسمِّيها: القوانينَ الطَّبيعيَّةَ ـ أَي: القوانينَ الإلهيَّةَ الكونيَّةَ ـ الَّتي نراها تتحقَّقُ في كلِّ لحظةٍ، بحكمِ ما في طبيعتِها من حقٍّ أَزليٍّ أَودعَه الله فيها، وهي تتحقَّقُ بقدَرِ الله.

معنى شريعةٌ كونيَّة:

و«الشَّريعةُ» الَّتي سنَّها الله لتنظيمِ حياةِ البشرِ هي ـ من ثَمَّ ـ شريعةٌ كونيَّةٌ؛ بمعنىٰ أَنَّها متَّصلةٌ بناموسِ الكونِ العامِّ، ومتناسقةٌ معَه.. ومن ثَمَّ فإنَّ الالتزامَ بها ناشئٌ من ضرورةِ تحقيقِ التَّناسقِ بين الحياةِ والإنسانِ وحركةِ الكونِ الَّذي يعيشُ فيه.. بل من ضرورةِ تحقيقِ التَّناسقِ بين القوانينِ الَّتي تحكمُ فِطرةَ البشرِ المضمرةَ، والقوانينِ الَّتي تحكمُ حياتَهم الظَّاهرةَ، وضرورةِ الالتئامِ بينَ الشَّخصيَّةِ المُضمَرةِ، والشَّخصيَّةِ الظَّاهرةِ للإنسان..

ولما كانَ البشرُ لا يملكونَ أَنْ يدركُوا جميعَ السُّننِ الكونيَّةِ، ولا أَنْ يحيطُوا بأَطرافِ النَّاموسِ العامِّ، ولا حتَّىٰ بهذا الَّذي يحكمُ فطرتَهم ذاتَها ويُخضعُهم له ـ رضُوا أَم أَبَوا ـ فإنَّهم ـ من ثَمَّ ـ لا يملكونَ أَنْ يشرِّعوا لحياةِ البشرِ نظامًا يتحقَّقُ به التَّناسقُ المطلقُ بين حياةِ النَّاسِ وحركةِ الكونِ، ولا حتَّى التَّناسقُ بين فطرتِهم المضمرةِ وحياتِهم الظَّاهرةِ؛ إنَّما يملكُ هذا خالقُ الكونِ وخالقُ البشرِ، ومدبِّرُ أَمرِه

وأَمرِهم، وفقَ النَّاموسِ الواحدِ الَّذي اختارَه وارتضاهُ.

التَّناسقُ بينَ الشَّريعةِ والكونِ:

وكذلكَ يصبحُ العملُ بشريعةِ الله واجبًا لتحقيقِ ذلك التَّناسقِ.. وذلك فوقَ وجوبِه لتحقُّقِ الإسلام اعتقادًا.

فلا وجود للإسلام في حياة فرد، أَو حياة جماعة؛ إلَّا بإخلاص العبوديَّة لله وحدَهُ، وبالتلقي في كيفيَّة هذه العبوديَّة عن رسُول الله ﷺ وحدَهُ، تحقيقًا لمدلول ركن الإسلام الأَوَّل: شهادةِ أَنَّ لا إله إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُول الله.

وفي تحقيقِ التَّناسقِ المطلقِ بين حياةِ البشرِ وناموسِ الكونِ كلُّ الخيرِ للبشرِ، كما أَنَّ فيه الصَّيانةَ للحياةِ من الفسَادِ.. إنَّهم ـ في هذه الحالةِ وحدَها ـ يعيشونَ في سلامٍ من أَنفسِهم.. فأَمَّا السَّلامُ مع الكونِ فينشأُ من تطابقِ حركتِهم مع حركةِ الكونِ، وتطابقِ اتِّجاهِهم مع اتِّجاهِه.. وأَمَّا السَّلامُ مع أَنفسِهم فينشأُ من توافقِ حركتِهم مع دوافعِ فطرتِهم الصَّحيحةِ، فلا تقومُ المعركةُ بينَ المرءِ وفطرتِه؛ لأَنَّ شريعةَ الله تنسِّقُ بينَ الحركةِ الظَّاهرةِ والفطرةِ المضمرةِ في يسرٍ وهدوءٍ.. وينشأُ عن هذا التَّنسيقِ تنسيقٌ آخرُ في ارتباطِ النَّاسِ، ونشاطِهم العامِّ؛ لأَنَّهم جميعًا يسلُكونَ حينئذٍ وفقَ منهجٍ موحَّدٍ، هو طرفٌ من النَّاموسِ الكونيِّ العامِّ.

كذلك يتحقَّقُ الخيرُ للبشريَّة عن طريقِ اهتدائِها وتعرُّفِها



في يسرٍ إلىٰ أَسرارِ هذا الكونِ، والطَّاقاتِ المكنونةِ فيه، والكنوزِ المذخورةِ في أَطوائِه، واستخدامِ هذا كلِّهِ وفقَ شريعةِ اللهِ، لتحقيقِ الخيرِ البشريِّ العامِّ، بلا تعارضٍ ولا اصطدامٍ.. ومقابلُ شريعةِ الله هو أَهواءُ البشرِ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

النَّظرةُ الإسلاميَّةُ للحقِّ الدِّينيِّ والكونيِّ:

ومن ثَمَّ توحِّدُ النَّظرةُ الإسلاميَّةُ بين الحقِّ الَّذي يقومُ عليه هذا الدِّينُ، والحقِّ الَّذي تقومُ عليه السَّمٰواتُ والأَرضُ، ويصلحُ عليه أَمرُ الدُّنيا والآخرةِ، يحاسبُ اللهُ به ويجازيْ من يَتعدَّوْنَهُ.. فهو حقٌّ واحدٌ لا يتعدَّدُ، وهو النَّاموسُ الكونيُّ العامُّ الَّذي أَرادَه اللهُ لهذا الوجودِ في جميعِ الأَحوالِ، والَّذي يخضعُ له، ويؤخَذُ به كلُّ ما في الوجودِ من عوالمَ وأَشياءَ وأَحياءٍ.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ * وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ *

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأَنبياء: ١٠ ـ ٢٠].

الكافرُ في صدامٍ مع فطرتِه ومع الكونِ:

وفطرةُ الإنسانِ تدركُ هذا الحقَّ في أَعماقِها؛ فطبيعةُ تكوينِه وطبيعةُ هذا الكونِ كلِّه من حولِه توحيْ إلىٰ فطرتِه بأَنَّ هذا الوجودَ قائمٌ على الحقِّ، وأَنَّ الحقَّ أَصيلٌ فيه، وأَنَّه ثابتٌ على النَّاموسِ، لا يضطربُ، ولا تتفرَّقُ به السُّبلُ، ولا تختلفُ دورتُه، ولا يصطدمُ بعضُه ببعضٍ، ولا يسيرُ وفقَ المصادفةِ العابرةِ والفَلْتةِ الشَّاردةِ، ولا وفقَ الهوى المتقلِّبِ والرَّغبةِ الجامحةِ! إنَّما يمضي في نظامِه الدَّقيقِ المحكمِ المقدَّرِ تقديرًا..

ومن ثَمَّ يقعُ الشِّقاقُ ـ أَوَّلَ ما يقعُ ـ بينَ الإنسانِ وفطرتِه عندما يَحيدُ عن الحقِّ الكامنِ في أَعماقِها تحتَ تأْثيرِ هواهُ، وذلك عندما يتَّخذُ شريعةً لحياتِه مستمدَّةً من هذا الهوىٰ لا من شريعةِ الله، وعندما لا يستسلمُ لله استسلامَ هذا الوجودِ الكونيِّ الخاضعِ لمولاه!

ومثلُ هذا الشِّقاقِ يقعُ بين الأَفرادِ والجماعاتِ والأُممِ والأَجيالِ، كما يقعُ بين البشَرِ والكونِ من حولِهم؛ فتنقلبُ قواهُ وذخائرُه وسائلَ تدميرٍ وأَسبابَ شقاءٍ، بدلًا من أَن تكونَ وسائلَ عِمرانٍ، وأَسبابَ سعادةٍ لبني الإنسانِ.

وإذن فإنَّ الهدفَ الظَّاهرَ من قيامِ شريعةِ الله في الأَرض ليس



مجرَّدَ العملِ للآخرة.. فالدُّنيا والآخرةُ معًا مرحلتانِ متكاملتانِ، وشريعةُ الله هي الَّتي تنسِّقُ بين المرحلتينِ في حياةِ هذا الإنسانِ، تنسِّقُ الحياةَ كلَّها مع النَّاموسِ الإلهيِّ العامِّ.

والتَّناسقُ مع النَّاموسِ لا يؤجِّلُ سعادةَ النَّاسِ إلى الآخرةِ؛ بل يجعلُها واقعةً ومتحقِّقَةً في المرحلةِ الأُولىٰ كذلك، ثمَّ تتمُّ تمامَها وتبلغُ كمالَها في الدَّارِ الآخرة.

۞۞۞

هذا هو أَساسُ التَّصوُّرِ الإسلاميِّ للوجودِ كلِّه، وللوجودِ الإنسانيِّ في ظلِّ ذلكَ الوجودِ العامِّ، وهو تصوُّرٌ يختلفُ في طبيعتِه اختلافًا جوهريًّا عن كلِّ تصوُّرٍ آخرَ عرفتْه البشريَّةُ، ومن ثَمَّ تقومُ عليه التزاماتٌ لا تقومُ علىٰ أَيِّ تصوُّرٍ آخرَ في جميعِ الأَنظمةِ والنَّظريَّات..

التَّناسقُ بين الإنسانِ والشَّريعةِ والكونِ:

إنَّ الالتزامَ بشريعةِ الله ـ في هذا التَّصوُّرِ ـ هو مقتضى الارتباطِ التَّامِّ بينَ حياةِ البشرِ وحياةِ الكونِ، وبين النَّاموسِ الَّذي يحكمُ فطرةَ البشَرِ ويحكمُ هذا الكونَ، ثمَّ ضرورةُ المطابقةِ بين هذا النَّاموسِ العامِّ، والشَّريعةِ الَّتي تنظِّمُ حياةَ بني الإنسانِ، وتتحقَّقُ بالتزامِها عبوديَّةُ البشرِ لله وحدَهُ، كما أَنَّ عبوديَّةَ هذا الكونِ لله وحدَهُ لا يدَّعيها لنفسِه إنسانٌ.

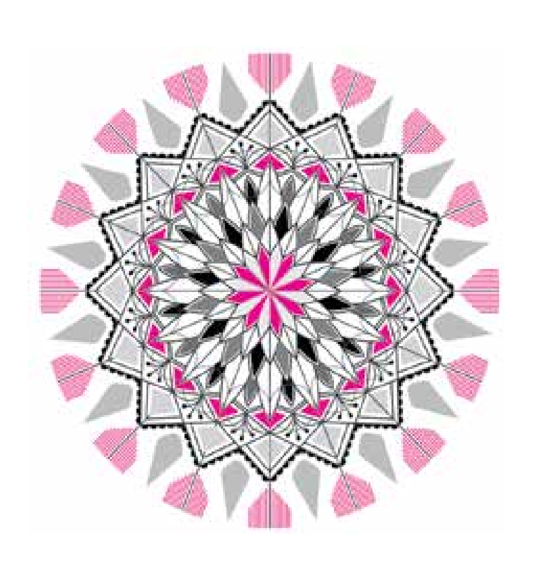
وإلىٰ ضرورةِ هذا التَّطابقِ والتَّناسقِ يشيرُ الحوارُ الَّذي جرىٰ بين إبراهيمَ ﵇ ـ أَبي هذه الأُمَّة المسلمة ـ وبين «**نُمْرود**» المتجبِّرِ

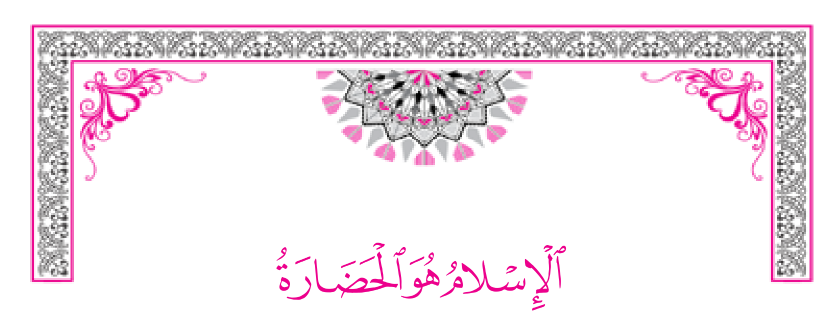
المدَّعي بحقِّ السُّلطانِ على العبادِ في الأَرض، والَّذي لم يستطعْ ـ مع ذلك ـ أَنَّ يدَّعيَ بحقِّ السُّلطانِ على الأَفلاكِ والأَجرامِ في الكونِ، وبُهتَ أَمامَ إبراهيمَ عليه السلام وهو يقولُ له: إنَّ الَّذي يملكُ السُّلطانَ في الكونِ هو وحدَهُ الَّذي ينبغيْ أَن يكونَ له السُّلطانُ في حياةِ البشرِ، ولم يَحِر جوابًا علىٰ هذا البرهانِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وصدقَ اللهُ العظيم:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].





ٱلۡإِسۡلَامُ هُوَ ٱلۡحَضَارَةُ

الإسلامُ لا يعرفُ إلَّا نوعينِ اثنينِ من المجتمعاتِ: مجتمع إسلاميٍّ، ومجتمع جاهليٍّ..

«المجتمعُ الإسلاميُّ»: هو المجتمعُ الَّذي يُطبَّقُ فيه الإسلامُ عقيدةً وعبادةً، وشريعةً ونظامًا، وخلقًا وسلوكًا..

و«المجتمعُ الجاهليُّ»: هو المجتمعُ الَّذي لا يُطبَّقُ فيه الإسلامُ، ولا تحكمُه عقيدتُه وتصوُّراتُهُ، وقِيمُهُ وموازينُهُ، ونظامُهُ وشرائعُهُ، وخُلُقُهُ وسُلوكُهُ..

ليسَ المجتمعُ الإسلاميُّ هو الَّذي يضمُّ ناسًا ممَّن يُسمُّونَ أَنَّفسَهم «مسلمين» بينما شريعةُ الإسلام ليست هي قانونَ هذا المجتمع، وإنْ صلَّىٰ وصامَ وحجَّ البيتَ الحرامَ! وليسَ المجتمعُ الإسلاميُّ هو الَّذي يبتدعُ لنفسِه إسلامًا من عندِ نفسِه؛ غيرَ ما قرَّرهُ اللهُ ـ سبحانه ـ وفصَّلهُ رسولُه ﷺ ويسمِّيه مثلًا: «الإسلامَ المتطوِّرَ»!

صورُ المجتمع الجاهليِّ:

و«المجتمعُ الجاهليُّ» قد يتمثَّلُ في صورٍ شتَّىٰ ـ كلُّها جاهليَّةٌ ـ :

قد يتمثَّلُ في صورةِ مجتمعٍ ينكرُ وجودَ الله تعالىٰ، ويفسِّرُ التَّاريخَ



تفسيرًا ماديًّا جَدليًّا، ويطبِّقُ ما يسمِّيهِ «**الاشتراكيَّة العلميَّة**» نظامًا.

وقد يتمثَّلُ في مجتمعٍ لا ينكرُ وجودَ الله تعالىٰ، ولكنْ يجعلُ له ملكوتَ السَّمٰواتِ، ويعزلُه عن ملكوتِ الأَرض؛ فلا يطبِّقُ شريعتَهُ في نظامِ الحياةِ، ولا يحكِّمُ قيَمَهُ الَّتي جعلها هو قيمًا ثابتةً في حياةِ البشَّرِ، ويبيحُ للنَّاسِ أَنْ يعبدُوا اللهَ في البِيَعِ والكنائسِ والمساجدِ، ولكنَّهُ يُحرِّمُ عليهم أَن يُطالبُوا بتحكيمِ شريعةِ الله في حياتِهم، وهو بذلك ينكرُ، أَو يعطِّلُ أُلوهيَّةَ الله في الأَرض، الَّتي ينصُّ عليها قولهُ تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ومن ثَمَّ لا يكونُ هذا المجتمعُ في دينِ الله الَّذي يحدِّدُه قولُه:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وبذلك يكونُ مجتمعًا جاهليًّا، ولو أَقرَّ بوجودِ الله ـ سبحانَه ـ ولو تركَ النَّاسَ يقدِّمونَ الشَّعائرَ للهِ، في البِيَعِ والكنائسِ والمساجدِ.

الإسلامُ هو الحضارةُ:

«**المجتمعُ الإسلاميُّ**» ـ بصفتِه تلكَ ـ هو وحدَهُ «**المجتمعُ المتحضِّرُ**» والمجتمعاتُ الجاهليَّةُ ـ بكلِّ صورِها المتعدِّدةِ ـ مجتمعاتٌ متخلِّفةٌ! ولا بُدَّ من إيضاحٍ لهذهِ الحقيقةِ الكبيرة.

لقد كنتُ قد أَعلنتُ مرَّةً عن كتابٍ لي تحتَ الطَّبعِ بعنوان: «**نحوَ مجتمعٍ إسلاميٍّ متحضِّر**».. ثمَّ عدتُ في الإعلانِ التَّالي عنه فحذفتُ

كلمةَ: «متحضِّرٍ» مكتفيًا بأَنْ يكونَ عنوانُ البحثِ ـ كما هو موضوعُه ـ «نحو مجتمعٍ إسلاميٍّ»(١)..

ولفتَ هذا التَّعديلُ نظرَ كاتبٍ جزائريٍّ (يكتبُه بالفرنسيَّةِ) ففسَّره علىٰ أَنَّهُ ناشئٌ من «عمليَّةِ دفاعٍ نفسيَّةٍ داخليَّةٍ عن الإسلام» وأَسِفَ لأَنَّ هذه العمليَّةَ ـ غيرَ الواعيةِ ـ تحرمُني مواجهةَ «المشكلةِ» علىٰ حقيقتِها!(٢)

أَنا أَعذرُ هذا الكاتبَ.. لقد كنتُ مثلَه من قبلُ.. كنتُ أُفكِّرُ على

---

(١) سيِّد قُطُب رحمه الله من أَبرزِ مفكِّري القرنِ العشرين؛ الَّذين كتبوا عن حضارةِ الإنسان، والتَّعبيرِ عن عزَّته.. وكرامتِه.. وحريَّته.. واستعلاءِ إيمانه.. ومقالته (العبيد) في كتابه «دراسات إسلاميَّة» من أَروعِ ما كُتِبَ في فضحِ السُّلوكِ البشريِّ المنحرفِ عن فطرته.. ومعاني الحرِّيَّةِ الحقيقيَّة. وقد عرَّفَ الحضارةَ الإنسانيَّةَ؛ بأَنَّها هي دينُ الإسلام الحقُّ.. فالمسلمُ بالضَّرورةِ متحضِّرٌ؛ فلا تحضُّرَ له من خارجِ دينه القويم، وعندما تكونُ الحاكميَّةُ العُليا والمطلقةُ في المجتمع لله تعالىٰ وحدَه.. بتطبيقِ شرعِه وتنفيذِ أَمره؛ تكونُ هذه هي الصُّورةُ الحقيقيَّةُ الوحيدةُ الَّتي يتحرَّرُ فيها البشرُ تحريرًا كاملًا وحقيقيًّا من العبوديَّةِ للبشر ولغيره.. وتكونُ هذه هي الحضارةُ الأَصليَّةُ؛ لأَنَّ حضارةَ الإنسانِ تقتضي قاعدةً أَساسيَّةً من التَّحرُّرِ الحقيقيِّ الكاملِ للإنسان، ومن الكرامةِ المطلقةِ لكلِّ فردٍ من المجتمع، ولا حرِّيَّةَ ولا كرامةَ للإنسان ممثَّلًا في كلِّ فردٍ من أَفرادِه في مجتمع بعضُه يكونُ أَربابًا يُشَرِّعونَ، وبعضُه عبيدٌ يطيعونَ.. الإسلامُ الَّذي يأْتي للعراةِ في أَفريقيا؛ فيسترُ عوراتِهم، ويعرِّفُهم معنى العورةِ ووجوبِ سترِها، ويعلِّمُهم النَّظافَةَ والتَّطهُّرَ للصَّلاة، وحرمةَ الأَعراضِ والدِّماءِ، وحقوقَ الغيرِ، والحياةَ الاجتماعيَّةَ، والانتصارَ للحقِّ، واحترامَ القيادةِ المسلمة مع احترامِ الحياة وترقيتِها، فها هي الحضارةُ والتَّحضُّرُ يرفعُهم إليهما الإسلامُ؛ فما الحضارةُ غيرَ ذلك؟ فمع أَيِّ مستوىً مادِّيٍّ كان فيه الإنسانُ يستطيعُ أَن يكونَ في قمَّةِ التَّحضُّرِ بهذا الدِّين، ولهذا فالإسلامُ هو الحضارةُ. فالحضارةُ الَّتي يحتاجُها الرَّجلُ الغربيُّ عندما يأْتيهِ الإسلامُ فيربطُه بالله تعالىٰ، ويؤلِّهُ ربَّ العالمين.. لا المادَّةَ، ولا الآلَةَ، ولا اللَّذَّةَ، ولا المنفعةَ الخاصَّةَ الطَّاغيةَ، ويلغي الإباحيةَ المقيتةَ، والظُّلمَ المريرَ، واستعبادَ الشُّعوبِ؛ فالإسلامُ هو الحضارةُ.

(٢) وهو المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن بني رحمه الله.

النَّحوِ الَّذي يفكِّرُ هو عليهِ الآن.. عندما فكَّرتُ في الكتابةِ عن هذا الموضوعِ لأوَّلِ مرَّةٍ! وكانت المشكلةُ عندي ـ كما هي عندَه اليوم ـ هي مشكلةُ: «تعريفِ الحضارة»!

لم أَكن قد تخلَّصتُ بعدُ من ضغطِ الرَّواسبِ الثَّقافيَّةِ في تكويني العقليِّ والنَّفسيِّ، وهي رواسبُ آتيةٌ من مصادرَ أَجنبيَّةٍ.. غريبةٍ علىٰ حسِّي الإسلاميِّ.. وعلى الرَّغمِ من اتِّجاهي الإسلاميِّ الواضحِ في ذلكَ الحينِ؛ إلَّا أَنَّ هذه الرَّواسبَ كانت تُغَبِّشُ تصوُّري وتطْمِسُه! كان تصوُّرُ «الحضَّارة» ـ كما هو الفكرُ الأَوربيُّ ـ يُخايلُ لي، ويُغبِّشُ تصوُّري، ويحرمُني الرُّؤيةَ الواضحةَ الأَصيلةَ.

ثمَّ انجلتِ الصُّورةُ.. **«المجتمعُ المسلم»** هو **«المجتمعُ المتحضِّرُ»**[1].

فكلمةُ **«المتحضِّرِ»** إذن لَغْوٌ، لا يُضيفُ شيئًا جديدًا.. على العكسِ تنقلُ هذه الكلمةُ إلىٰ حسِّ القارئِ تلك الظِّلالَ الأَجنبيَّةَ الغربيَّةَ الَّتي كانت تُغَبِّشُ تصوُّري، وتحرمُني الرُّؤيةَ الواضحةَ الأَصيلةَ!

الاختلافُ إذن هو علىٰ **«تعريفِ الحضَّارة»**..

ولا بُدَّ من إيضاحٍ إذن لهذهِ الحقيقةِ!

۞ ۞ ۞

(١) الاعتراف بالخطأ.. فضيلة وشجاعة.. عزيزة نادرة.. وهو من صفة العلماء الصَّادقين: فسيِّد قُطُب رحمه الله كان من صفاته النبيلة؛ النَّقد الذَّاتي الدَّائم، ونقد كلّ ما يراه مخالفًا للحقِّ والحقيقة والصَّواب.. فكان يتراجع عن تصوراته ومبادئه وأَفكاره في أَيِّ وقتٍ كان.. وبدون أَيِّ تردُّدٍ أَو عُقدةٍ؛ إذا تبيَّنَ له أَنَّها باطلة، أَو خاطئة! فنجد أَنَّ سيِّد قُطُب بهذا السبب.. قد مرَّ بمراحلة عديدة في حياته الأَدبية والدعوية.. وفي كلِّ مرحلة كانت نحو الأَحسن والأَفضل!

الحاكميَّةُ لله هي الحضارةُ:

حيـن تكـونُ الحاكميَّـةُ العُليـا فـي مجتمـعٍ لله وحـدَهُ ـ متمثِّلـةً فـي سـيادةِ الشَّـريعةِ الإلهيَّـةِ ـ تكـونُ هذه هـي الصُّـورةَ الوحيـدةَ الَّتي يتحـرَّرُ فيها البشَـرُ تحرُّرًا كامـلًا وحقيقيًّا من العبوديَّةِ للبشـرِ.. وتكونُ هـذه هـي «الحضـارةَ الإنسـانيَّةَ» لأَنَّ حضَّارةَ الإنسـانِ تقتضـي قاعدةً أَساسـيَّةً مـن التَّحرُّرِ الحقيقيِّ الكاملِ للإنسـانِ، ومـن الكرامةِ المطلقةِ لـكلِّ فردٍ فـي المجتمع.. **ولا حرِّيَّـةَ ـ في الحقيقةِ ـ ولا كرامةَ للإنسـانِ مُمَثَّـلًا فـي كلِّ فـردٍ مـن أَفـرادِه ـ في مجتمـعٍ بعضُـه أَربابٌ يشـرِّعونَ، وبعضُـه عبيـدٌ يُطيعونَ!**

ولا بُدَّ أَنْ نبادرَ فنبيِّنَ أَنَّ التَّشريعَ لا ينحصرُ فقط في الأَحكامِ القانونيَّةِ ـ كما هو المفهومُ الضَّيِّقُ في الأَذهانِ اليومَ لكلمةِ الشَّريعةِ ـ فالتَّصوُّراتُ والمناهجُ، والقِيَمُ والموازينُ، والعاداتُ والتَّقاليدُ.. كلُّها تشريعٌ يخضعُ الأَفرادُ لضغطِه.

وحين يصنعُ النَّاسُ ـ بعضُهم لبعضٍ ـ هذه الضُّغوطَ، ويخضعُ لها البعضُ الآخرُ منهم في مجتمعٍ، لا يكونُ هذا المجتمعُ متحرِّرًا، إنَّما هو مجتمعٌ بعضُه أَربابٌ، وبعضُه عبيدٌ ـ كما أَسلفنا ـ وهو ـ من ثَمَّ ـ مجتمعٌ متخلِّفٌ.. أَو بالمصطلح الإسلاميِّ؛ «**مجتمعٌ جاهليٌّ**» !

والمجتمعُ الإسلاميُّ: هو وحدَهُ المجتمعُ الَّذي يهيمنُ عليه إلهٌ واحدٌ، ويخرجُ فيه النَّاسُ من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَهُ، وبذلك



يتحرَّرونَ التَّحررَ الحقيقيَّ الكاملَ، الَّذي ترتكزُ إليه حضارةُ الإنسانِ، وتتمثَّلُ فيه كرامتُه كما قدَّرها اللهُ له، وهو يعلنُ خلافتَه في الأَرض عنه، ويعلنُ كذلك تكريمَه في الملأ الأَعلىٰ..

۞۞۞

العقيدةُ رابطةُ المجتمع المسلمِ:

وحين تكونُ آصرةُ التَّجمُّعِ الأَساسيَّةُ في مجتمعٍ هي العقيدةَ والتَّصوُّرَ والفكرةَ ومنهجَ الحياةِ، ويكونُ هذا كلُّه صادرًا من إلهٍ واحدٍ، تتمثَّلُ السِّيادةُ العُليا للبشرِ، وليس صادرًا من أَربابٍ أَرضيَّةٍ تتمثَّلُ فيها عبوديَّةُ البشرِ للبشرِ.. يكونُ ذلك التَّجمُّعُ ممثِّلًا لأَعلىٰ ما في **الإنسان**» من خصائصَ.. خصائص الرُّوح والفكر..

فأَمَّا حين تكونُ آصرةُ التَّجمُّعِ في مجتمعٍ هي الجنسَ واللَّونَ والقومَ والأَرضَ.. وما إلىٰ ذلك من الرَّوابطِ؛ فظاهرٌ أَنَّ الجنسَ واللَّونَ والقومَ والأَرضَ لا تمثِّلُ الخصائصَ العُليا للإنسانِ.. فالإنسانُ يبقىٰ إنسانًا بعد الجنسِ واللَّونِ والقومِ والأَرض، ولكنَّه لا يبقىٰ إنسانًا بعد الرُّوح والفكر!

ثمَّ هو يملكُ ـ بمحضِ إرادتِه الحرَّةِ ـ أَن يغيِّرَ عقيدتَه وتصوُّرَه وفِكرَه ومنهجَ حياتِه، ولكنَّه لا يملكُ أَنْ يغيِّرَ لونَه ولا جنسَه، كما أَنَّه لا يملكُ أَنْ يحدِّدَ مولدَه في قومٍ، ولا في أَرضٍ..

فالمجتمعُ الَّذي يتجمَّعُ فيه النَّاسُ علىٰ أَمرٍ يتعلَّقُ بإرادتهم

الحرَّةِ واختيارِهم الذَّاتيِّ هو المجتمعُ المتحضِّرُ.. أَمَّا المجتمعُ الَّذي يتجمَّعُ فيه النَّاسُ علىٰ أَمرٍ خارجٍ عن إرادتِهم الإنسانيَّةِ، فهو المجتمعُ المتخلِّفُ.. أَو بالمصطلح الإسلاميِّ.. هو «المجتمعُ الجاهليُّ» !

والمجتمعُ الإسلاميُّ وحدَهُ: هو المجتمعُ الَّذي تُمَثِّلُ فيه العقيدةُ رابطةَ التَّجمُّعِ الأَساسيَّةَ، والَّذي تعتبرُ فيه العقيدةُ هي الجنسيَّةَ الَّتي تجمعُ بين الأَسودِ، والأَبيضِ، والأَحمرِ، والأَصفرِ، والعربيِّ، والرُّوميِّ، والفارسيِّ، والحبشيِّ، وسائرِ أَجناسِ الأَرض في أُمَّةٍ واحدةٍ، رَبُّها اللهُ، وعبوديَّتُها له وحدَهُ، والأَكرمُ فيها هو الأَتقىٰ، والكلُّ فيها أَندادٌ يلتقونَ علىٰ أَمرٍ شرعَه اللهُ لهم، ولم يشرِّعْه أَحدٌ من العباد!

۞ ۞ ۞

قيمةُ الإنسانِ في المجتمع المسلمِ:

وحين تكونُ «إنسانيَّةُ» الإنسانِ هي القيمةَ العُليا في مجتمعٍ، وتكونُ الخصائصُ الإنسانيَّةُ فيه هي موضعَ التَّكريمِ والاعتبارِ، يكونُ هذا المجتمعُ متحضِّرًا.. فأَمَّا حين تكونُ «المادَّةُ» ـ في أَيَّة صورةٍ ـ هي القيمةَ العُليا.. سواءٌ في صورةِ «النَّظريَّة» كما في التَّفسيرِ الماركسيِّ للتَّاريخِ! أَم في صورِ «الإنتاجِ المادِّيِّ» كما في أَمريكا وأَوربَّا وسائرِ المجتمعاتِ الَّتي تَعتبرُ الإنتاجَ المادِّيَّ قيمةً عُليا تُهْدَرُ في سبيلها القيمُ والخصائصُ الإنسانيَّة.. فإنَّ هذا المجتمعَ يكونُ مجتمعًا مختلِّفًا.. أَو بالمصطلح الإسلاميِّ؛ مجتمعًا جاهليًّا!

إنَّ المجتمعَ المتحضِّرَ.. الإسلاميَّ.. لا يحتقرُ المادَّةَ، لا في صورةِ النَّظريَّة (باعتبارِها هي الَّتي يتأَلَّفُ منها هذا الكونُ الَّذي نعيشُ فيه ونتأَثَّرُ بِهِ، ونُؤثِّرُ فيه أَيضًا) ولا في صورِ **«الإنتاجِ المادِّيِّ»** **«فالإنتاجُ» المادِّيُّ من مقوِّماتِ الخلافةِ في الأَرض عنِ اللهِ، ولكنَّه فقط لا يعتبرُها هي القيمةَ العُليا الَّتي تُهْدَرُ في سبيلِها خصائصُ «الإنسانِ» ومقوِّماتُه!.. وتُهدَرُ من أجلها حرِّيَّةُ الفردِ وكرامتُه، وتهدرُ فيها قاعدةُ «الأُسرة» ومقوِّماتُها، وتُهدرُ فيها أخلاقُ المجتمع وحرماتُه..**

إلىٰ آخر ما تهدرُه المجتمعاتُ الجاهليَّةُ من القيم العُليا، والفضائلِ والحرماتِ، لتحقِّقَ الوفرةَ في الإنتاجِ المادِّيِّ!

وحين تكونُ **«القيمُ الإنسانيَّةُ والأَخلاقُ الإنسانيَّةُ»** الَّتي تقومُ عليها، هي السَّائدةَ في مجتمعٍ، يكونُ هذا المجتمعُ متحضِّرًا.

والقيمُ الإنسانيَّةُ والأَخلاقُ الإنسانيَّةُ ليست مسأَلةً غامضةً مائعةً، وليست كذلك قيمًا **«متطوِّرةً»** متغيِّرةً متبدِّلةً، لا تستقرُّ علىٰ حالٍ ولا ترجعُ إلىٰ أَصلٍ، كما يزعمُ التَّفسيرُ المادِّيُّ للتَّاريخِ، وكما تزعمُ **«الاشتراكيَّةُ العلميَّةُ»**!

إنَّها القيمُ والأَخلاقُ الَّتي تُنمِّي في الإنسانِ خصائصَ الإنسانِ الَّتي يتفرَّدُ بها دونَ الحيوانِ، والَّتي تُغلِّبُ فيه هذا الجانبَ الَّذي يميِّزُه ويَعْرِزُه عن الحيوان، وليست هي القيمَ والأَخلاقَ الَّتي تنمِّي فيه وتغلِّب الجوانبَ الَّتي يشتركُ فيها مع الحيوانِ.

وحين توضعُ المسأَلةُ هذا الوضعَ يبرزُ فيها خطٌّ فاصلٌ وحاسمٌ و«ثابتٌ»، لا يقبلُ عمليّةَ التَّمييعِ المستمرَّةَ الَّتي يحاولُها «التَّطوريُّونَ»! و«الاشتراكيُّونَ العلميُّونَ»!

الفرقُ بينَ القيمِ الإسلاميَّة والجاهليَّة:

عندئذٍ لا يكونُ اصطلاحُ البيئة وعُرفُها هو الَّذي يحدِّدُ القيمَ الأَخلاقيَّةَ، إنَّما يكونُ وراءَ اختلافِ البيئةِ ميزانٌ ثابتٌ.. عندئذٍ لا يكونُ هناك قيمٌ وأَخلاقٌ «زراعيَّة» وأُخرىٰ «صناعيَّة»! ولا قيمٌ وأَخلاقٌ «رأْسماليَّة» وأُخرى «اشتراكيَّة» ولا قيم وأَخلاق «برجوازيَّة» وأُخرىٰ «صعلوكيَّة»! ولا تكونُ هناك أَخلاق من صنعِ البيئةِ ومستوى المعيشةِ وطبيعةِ المرحلةِ.. إلىٰ آخرِ هذه التَّغيُّراتِ السَّطحيَّةِ والشَّكليَّةِ.. إنَّما تكونُ هناكَ ـ من وراء ذلك كلِّهِ ـ قيم وأَخلاق «إنسانيَّة» وقيم وأَخلاق «حيوانيَّة» ـ إذا صحَّ هذا التَّعبيرُ ـ **أَو بالمصطلح الإسلاميِّ: قيمٌ وأَخلاقٌ إسلاميَّةٌ، وقيمٌ وأَخلاقٌ جاهليَّةٌ.**

إنَّ الإسلامَ يقرِّرُ قيمَه وأَخلاقَه هذه «الإنسانيَّة» ـ أَي: الَّتي تنمِّي في الإنسانِ الجوانبَ الَّتي تفرِّقُه وتميِّزُه عن الحيوانِ ـ ويمضي في إنشائِها وتثبيتِها وصيانتِها في كلِّ المجتمعاتِ الَّتي يهيمنُ عليها، سواءٌ كانت هذه المجتمعاتُ في طَورِ الزَّراعةِ، أَم في طورِ الصِّناعةِ، وسواء كانت مجتمعاتٍ بدويَّةً تعيشُ على الرَّعيِ، أَم مجتمعاتٍ حضريَّةً مستقرَّةً، وسواءٌ كانت هذه المجتمعاتُ فقيرةً أَو غنيَّةً..



إِنَّـه يرتقي صُعُدًا بالخصائصِ الإنسـانيَّةِ، ويحرُسُـها من النَّكسـةِ إلـى الحيوانيَّـةِ؛ لأَنَّ الخـطَ الصَّاعـدَ فـي القيـم والاعتبـاراتِ يمضي مـن الـدَّركِ الحيوانـيِّ إلـى المرتفـع الإنسـانيِّ.. فـإذا انتكـسَ هـذا الخـطُّ ـ مـع حضـارةِ المـادَّةِ ـ فلـن يكـونَ ذلـك حضـارةً! إنَّمـا هـو «التَّخلُّـفُ» أَو هـو «الجاهليَّـةُ»!

۞۞۞

الأسرةُ قاعدةُ المجتمع:

وحين تكونُ «الأُسرةُ» هي قاعدةَ المجتمع، وتقومُ هذه الأُسرةُ علىٰ أَساس «التَّخصُّص» بين الزَّوجينِ في العمل، وتكونُ رعايةُ الجيلِ النَّاشئِ هي أَهمَّ وظائفِ الأُسرة.. يكونُ هذا المجتمعُ متحضِّرًا..

ذلك أَنَّ الأَسرةَ علىٰ هذا النَّحوِ ـ في ظلِّ المنهج الإسلاميِّ ـ تكونُ هي البيئةَ الَّتي تنشأُ وتُنَمَّىٰ فيها القيمُ والأَخلاقُ «الإنسانيَّةُ» الَّتي أَشرنا إليها في الفقرةِ السَّابقةِ، ممثَّلةً في الجيلِ النَّاشئِ، والَّتي يستحيلُ أَن تنشأَ في وحدةٍ أُخرىٰ غيرِ وحدةِ الأُسرةِ؛ فأَمَّا حين تكونُ العلاقاتُ الجنسيَّةُ «الحرَّةُ كما يسمُّونها» والنَّسلُ «غيرُ الشَّرعيِّ» هي قاعدةَ المجتمع، حين تقومُ العلاقاتُ بين الجنسينِ علىٰ أَساس الهوىٰ والنَّزوةِ والانفعالِ، لا علىٰ أَساس الواجبِ والتَّخصُّصِ الوظيفيِّ في الأُسرةِ.. حين تصبحُ وظيفةُ المرأَةِ هي الزَّينةَ والغَوايةَ والفتنةَ.. وحين تتخلَّى المرأَةُ عن وظيفتِها الأَساسيَّة في رعاية الجيل الجديد، وتُؤْثِرُ هي ـ أَو يُؤْثِرُ لها

المجتمعُ ـ أَنْ تكونَ مضيفةً في فندقٍ أَو سفينةٍ أَو طائرةٍ.. حين تنفقُ طاقتَها في «**الإنتاجِ الماديِّ وصناعةِ الأَدواتِ**» ولا تنفقُها في «**صناعةِ الإنسانيَّةِ**» لأَنَّ الإنتاجَ الماديَّ يومئذٍ أَغلىٰ وأَعزُّ وأَكرمُ من «**الإنتاجِ الإنسانيِّ**» عندئذٍ يكونُ هنا هو «**التَّخلُّفُ الحضاريُّ**» بالقياسِ الإنسانيِّ.. أَو تكونُ هي «**الجاهليَّةُ**» بالمصطلح الإسلاميِّ.

وقضيَّةُ الأُسرةِ والعلاقاتِ بين الجنسينِ قضيَّةٌ حاسمةٌ في تحديدِ صفةِ المجتمع، متخلِّفٍ أَم متحضِّرٍ، جاهليٍّ أَم إسلاميٍّ.. والمجتمعاتُ الَّتي تسودُ فيها القيمُ والأَخلاقُ والنَّزعاتُ الحيوانيَّةُ في هذه العلاقةِ لا يمكنُ أَن تكونَ مجتمعاتٍ متحضِّرةً، مهما تبلغْ من التَّفوُّقِ الصِّناعيِّ والاقتصاديِّ والعلميِّ! إنَّ هذا المقياسَ لا يُخطئُ في قياسِ مدى التَّقدُّم «**الإنسانيِّ**».

وفي المجتمعاتِ الجاهليَّة الحديثةِ ينحسرُ المفهومُ «**الأَخلاقيُّ**» بحيث يتخلىٰ عن كلِّ ما له علاقةٌ بالتَّميُّزِ «**الإنسانيِّ**» عن الطَّابعِ «**الحيوانيِّ**»! ففي هذهِ المجتمعاتِ لا تعتبرُ العلاقاتُ الجنسيَّةُ غيرُ الشَّرعيَّةِ ـ ولا حتَّى العلاقاتُ الجنسيَّةُ الشَّاذَّةُ ـ رذيلةً أَخلاقيَّةً..

إنَّ المفهومَ الأَخلاقيَّ يكادُ ينحصرُ في المعاملاتِ الاقتصاديَّةِ ـ والسِّياسيَّةِ أَحيانًا ـ في حدودِ «**مصلحةِ الدَّولةِ**» ففضيحةُ كريستين كيلر وبروفيمو الوزيرِ الإنجليزيِّ ـ مثلًا ـ لم تكنْ في عُرفِ المجتمع الإنجليزيِّ فضيحةً بسبب جانبِها الجنسيِّ.. إنَّما كانت فضيحةً؛ لأَنَّ كريستين كيلر كانت صديقةً كذلك للملحقِ البحريِّ الروسيِّ، ومن



هنا يكونُ هناكَ خطرٌ علىٰ أَسرار الدَّولةِ في علاقةِ الوزيرِ بهذه الفتاةِ! وكذلك لأَنَّه افتُضِحَ كذبُه على البرلمان الإنجليزيِّ!

والفضائحُ المماثلةُ في مجلس الشُّيوخ الأَمريكيِّ، وفضائحُ الجواسيسِ والموظَّفينَ الإنجليزِ والأَمريكانِ الَّذينَ هربوا إلىٰ روسيا. إنَّها ليست فضائحَ بسبب شذوذِهم الجنسيِّ! ولكن بسبب الخطر علىٰ أَسرار الدَّولة!

تخلُّفُ المجتمع الجاهليِّ:

والكُتَّابُ والصَّحَفيُّونَ والرِّوائيُّونَ في المجتمعاتِ الجاهليَّة هنا وهناك، يقولونَها صريحةً للفتياتِ والزَّوجاتِ: إنَّ الاتِّصالاتِ «**الحُرَّةَ**» ليست رذائلَ أَخلاقيَّةً. الرَّذيلةُ الأَخلاقيَّةُ أَنْ يخدعَ الفتىٰ رفيقتَه، أَو تخدعَ الفتاةُ رفيقَها، ولا تُخلِصَ له الوُدَّ؛ بل الرذيلةُ أَن تحافظَ الزَّوجةُ علىٰ عفَّتِها؛ إذا كانت شهوةُ الحبِّ لزوجِها قد خمدت! والفضيلةُ أَنْ تبحثَ لها عن صديقٍ تعطيه جسدَها بأَمانةٍ!..

عشراتٌ من القصصِ هذا محورُها! ومئاتُ التَّوجيهات الإخباريَّة، والرُّسوم الكاريكاتوريَّةِ، والنُّكتِ والفكاهاتِ هذه إيحاءاتُها..

مثلُ هذه المجتمعاتِ مجتمعاتٌ متخلِّفةٌ.. غيرُ متحضِّرةٍ.. من وجهةِ نظرِ «**الإنسانِ**» وبمقياس خطِّ التَّقدُّم «**الإنسانيِّ**».

إنَّ خطَّ التَّقدُّمِ الإنسانيِّ يسيرُ في اتِّجاهِ «**الضَّبط**» للنَّزواتِ الحيوانيَّةِ، وحصرِها في نطاقِ «**الأُسرة**» علىٰ أَساس «**الواجب**» لتؤدِّيَ

بذلك «وظيفةً إنسانيَّة» ليستِ اللَّذَّةُ غايتَها، وإنَّما هي إعدادُ جيلٍ إنسانيٍّ يخلُفُ الجيلَ الحاضرَ في ميراثِ الحضارةِ «الإنسانيَّة» الَّتي يميِّزُها بروزُ الخصائصِ الإنسانيَّةِ.. ولا يمكنُ إعدادُ جيلٍ يترقىٰ في خصائصِ الإنسانِ، ويبتعدُ عن خصائص الحيوان؛ إلَّا في مَحضنِ أُسرةٍ مَحُوطةٍ بضماناتِ الأَمنِ والاستقرارِ العاطفيِّ، وقائمةٍ علىٰ أَساس الواجبِ الَّذي لا يتأَرجحُ مع الانفعالاتِ الطَّارئةِ. وفي المجتمع الَّذي تنشئُه تلك التَّوجيهاتُ والإيحاءاتُ الخبيثةُ المسمومةُ، والَّذي ينحسرُ فيه المفهومُ الأَخلاقيُّ، فيتخلىٰ عن كلِّ آدابِ الجنسِ، لا يمكنُ أَن يقومَ ذلك المحضنُ الإنسانيُّ..

من أَجل ذلك كلِّهِ تكون القِيَمُ والأَخلاقُ والإيحاءاتُ والضَّماناتُ الإسلاميَّةُ هي اللَّائقةَ بالإنسان.

ويكونُ «الإسلامُ هو الحضارة» ويكونُ المجتمعُ الإسلاميُّ هو المجتمعَ المتحضِّرَ.. بذلك المقياسِ الثَّابتِ الَّذي لا يتميَّعُ أَو لا «يتطوَّرُ».

۞۞۞

معنىٰ خلافةِ الإنسانِ في الأرضِ:

وأَخيرًا فإنَّهُ حين يقومُ «الإنسان» بالخلافة عن «الله» في أَرضهِ علىٰ وجهِها الصَّحيحِ: بأَن يُخْلِصَ عبوديَّتهُ لله، ويَخْلُصَ من العبوديَّةِ لغيره، وأَنَّ يحقِّقَ منهجَ الله وحدَهُ، ويرفضَ الاعترافَ بشرعيَّةِ منهج



غيره، وأَن يُحَكِّمَ شريعةَ الله وحدَهُا في حياتِه كلِّها، وينكرَ تحكيمَ شريعةٍ سواها، وأَن يعيشَ بالقيَم والأَخلاقِ الَّتي قرَّرَها اللهُ له، ويُسقِطَ القيَمَ والأَخلاقَ المُدَّعاةَ.

ثمَّ بأَن يتعرَّفَ بعد ذلك كلَّه إلى النَّواميسِ الكونيَّةِ الَّتي أَودعها اللهُ في هذا الكونِ المادِّيِّ، ويستخدمَها في ترقيةِ الحياةِ، وفي استنباطِ خاماتِ الأَرض وأَرزاقِها وأَقواتِها الَّتي أَودعَها الله إيَّاها، وجعَلَ تلك النَّواميسَ الكونيَّةَ أَختامَها، ومنحَ الإنسانَ القدرة علىٰ فضِّ هذه الأَختامِ بالقدرِ الَّذي يلزمُ له في الخلافةِ.. أَي: حين ينهضُ بالخلافةِ في الأَرض علىٰ عهدِ الله وشرْطِه.

ويصبحُ وهو يفجِّرُ ينابيعَ الرِّزق، ويصنِّعُ المادَّةَ الخامةَ، ويقيمُ الصِّناعاتِ المتنوِّعةَ، ويستخدمُ ما تُتيحُهُ له كلُّ الخبراتِ الفنِّيَّةِ الَّتي حصلَ عليها الإنسانُ في تاريخِه كلِّهِ..، حين يصبحُ وهو يصنعُ هذا كلَّه «**ربانيًّا**» يقوم بالخلافةِ عن الله علىٰ هذا النَّحوِ ـ عبادةً الله ـ يومئذٍ يكون هذا الإنسانُ كاملَ الحضارةِ، ويكونُ هذا المجتمعُ قد بلغَ قمَّةَ الحضارة..

فأَمَّا «**الإبداعُ المادِّيُّ**» ـ وحدَهُ ـ فلا يُسمَّىٰ في الإسلام حضارةً.. فقد يكونُ وتكونُ معه الجاهليَّةُ.. وقد ذكَرَ اللهُ من هذا الإبداعِ المادِّيِّ في معرضِ وضعِ الجاهليَّة نماذجَ:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٥].

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۞ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۞ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤].

ولكنَّ الإسلامَ ـ كما أَسلفنا ـ لا يحتقرُ المادَّةَ، ولا يحتقرُ الإبداعَ المادِّيَّ؛ إنَّما هو يجعلُ هذا اللَّونَ من التَّقدُّمِ ـ في ظلِّ منهج الله ـ نعمةً من نِعَم الله علىٰ عبادِه، يبشِّرُهم به جزاءً علىٰ طاعتهم:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].



﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المهمُّ هو القاعدةُ الَّتي يقومُ عليها التَّقدُّمُ الصِّناعيُّ، والقيَمُ الَّتي تسودُ المجتمعَ، والَّتي يتألَّفُ من مجموعِها «**الحضارةُ الإنسانيَّةُ**»..

۞ ۞ ۞

المجتمعُ المسلمُ وليدُ حركةِ أفرادِه:

وبعد.. فإنَّ قاعدةَ انطلاقِ المجتمع الإسلاميِّ، وطبيعةَ تكوينِهِ العضويِّ، تجعلانِ منه مجتمعًا فريدًا لا تنطبقُ عليه أيٌّ من النَّظريَّات الَّتي تفسِّر قيامَ المجتمعاتَ الجاهليَّة وطبيعةَ تكوينِها العضويِّ.. **المجتمعُ الإسلاميُّ وليدُ الحركة، والحركةُ فيه مستمرَّةٌ، وهي الَّتي تُعيِّنُ أقدارَ الأشخاصِ فيه وقِيَمَهم، ومن ثَمَّ تحدِّدُ وظائفَهم فيه ومراكزَهم.**

والحركةُ الَّتي يتولَّدُ عنها هذا المجتمعُ ابتداءً حركةٌ آتيةٌ من خارج النِّطاقِ الأرضيِّ، ومن خارجِ المحيطِ البشريِّ.. إنَّها تتمثَّلُ في عقيدةٍ آتيةٍ من الله للبشَرِ، تُنشئُ لهم تصوُّرًا خاصًّا للوجودِ والحياةِ والتَّاريخِ والقِيَم والغاياتِ، وتحدِّدُ لهم منهجًا للعمل يترجمُ هذا التَّصوُّرَ.. الدَّفعةُ الأُولى الَّتي تُطلقُ الحركةَ ليست منبثقةً من نفوسِ النَّاس، ولا من مادَّةِ الكونِ.. إنَّها ـ كما قلنا ـ آتيةٌ لهم من خارجِ النِّطاقِ الأرضيِّ، ومن خارجِ المحيطِ البشَريِّ.. وهذا هو المميِّزُ الأوَّلُ لطبيعةِ المجتمع الإسلاميِّ وتركيبِه.

إنَّـه ينطلقُ مـن عنصرٍ خـارجٍ عن محيطِ الإنسـانِ، وعـن محيطِ الكـونِ المـادِّيِّ. وبهـذا العنصـرِ القَـدَريِّ الغيبـيِّ الَّذي لم يكـن أَحدٌ مـن البشـرِ يتوقَّعُـه، أَو يحسِـبُ حِسـابَه، ودون أَن يكونَ للإنسـانِ يَدٌ فيـه ـ في ابتـداءِ الأَمرِ ـ **تبدأُ أُولـىٰ خطواتِ الحركةِ فـي قيامِ المجتمع الإسـلاميِّ، ويبـدأُ معهـا عمـلُ «الإنسـان» أَيضًـا. إنسـانٌ يؤمـنُ بهذِهِ العقيـدة الآتيَـةِ له مـن ذلك المصدرِ الغيبـيِّ، الجاريةِ بقـدرِ الله وحدَهُ.**

وحين يؤمنُ هذا الإنسانُ الواحدُ بهذِهِ العقيدة، يبدأُ وجودُ المجتمع الإسلاميِّ «حكمًا».. إنَّ الإنسانَ الواحدَ لن يتلقَّىٰ هذه العقيدةَ وينطويَ علىٰ نفسِه.. إنَّه سينطلقُ بها.. هذه طبيعتُها.. طبيعةُ الحركةِ الحيَّةِ..

إنَّ القوَّةَ العُليا الَّتي دفعتْ بها إلىٰ هذا القلبِ تعلمُ أَنَّها ستتجاوزُه حتمًا!..إنَّ الدَّفعةَ الحيَّةَ الَّتي وصلتْ بها هذه العقيدةُ إلىٰ هذا القلبِ ستمضي في طريقِها قُدُمًا.

وحين يبلغُ المؤمنونَ بهذه العقيدة ثلاثةَ نفرٍ؛ فإنَّ هذِهِ العقيدةَ ذاتَها تقولُ لهم: أَنتمُ الآن مجتمعٌ، مجتمعٌ إسلاميٌّ مستقلٌّ، منفصلٌ عن المجتمع الجاهليِّ الَّذي لا يدينُ لهذه العقيدة، ولا تسودُ فيه قِيَمُها الأَساسيَّةُ ـ القِيَمُ الَّتي أَسلفنا الإشارةَ إليها ـ وهنا يكونُ المجتمعُ الإسلاميُّ قدْ وُجِدَ «**فعلًا**»!

والثَّلاثـةُ يصبحونَ عشَـرةً، والعشـرةُ يصبحـونَ مئةً، والمئـةُ أَلفًا، والأَلـفُ يصبحـونَ اثنَـيْ عشَـرَ أَلفًـا.. ويبرزُ ويتقـرَّرُ وجـودُ المجتمع الإسلاميّ!



الحركةُ هي طابعُ المجتمع المسلمِ:

وفي الطَّريقِ تكونُ المعركةُ قد قامتْ بين المجتمع الوليدِ الَّذي انفصلَ بعقيدتِه وتصوُّرِه، وانفصلَ بقِيَمه واعتباراتِه، وانفصلَ بوجودِه وكينونتِه، عن المجتمع الجاهليِّ ـ الَّذي أَخذَ منه أَفرادُه ـ وتكونُ الحركةُ من نقطةِ الانطلاقِ إلىٰ نقطةِ الوجودِ البارزِ المستقلِّ قد ميَّزتْ كلَّ فردٍ من أَفرادِ هذا المجتمع، وأَعطتْه وزنَه ومكانَه في هذا المجتمع ـ حسبَ الميزانِ والاعتبارِ الإسلاميِّ ـ ويكونُ وزنُه هذا معتَرفًا لهُ بهِ من المجتمع دونَ أَن يزكِّيَ نفسَه، أَو يعلنَ عنه؛ بل إنَّ عقيدتَه وقِيَمَهُ السَّائدةَ في نفسِه، وفي مجتمعِه لتضغطُ عليه يومئذٍ؛ ليواريَ نفسَه عن الأَنظارِ المتطلِّعَةِ إليهِ في البيئةِ!

ولكنَّ «**الحركةَ**» الَّتي هي طابعُ العقيدة الإسلاميَّة، وطابعُ هذا المجتمع الَّذي انبثقَ منها، لا تدعُ أَحدًا يتوارىٰ! إنَّ كلَّ فردٍ من أَفرادِ هذا المجتمع لا بُدَّ أَن يتحرَّكَ! الحركةَ في عقيدتِه، والحركةَ في دمِه، والحركةَ في مجتمعِه، وفي تكوينِ هذا المجتمع العضويِّ.. إنَّ الجاهليَّةَ من حولِه، وبقيَّةٌ من رواسبِها في نفسِه وفي نفوسِ مَنْ حولَه، والمعركةُ مستمرَّةٌ، والجهادُ ماضٍ إلىٰ يومِ القيامة.

علىٰ إيقاعاتِ الحركةِ، وفي أَثناءِ الحركةِ، يتحدَّدُ وضعُ كلِّ فردٍ في هذا المجتمع، وتتحدَّدُ وظيفتُه، ويتمُّ التَّكوينُ العضويُّ لهذا المجتمع بالتَّناسقِ بين مجموعةِ أَفرادِه ومجموعةِ وظائفِه.

هذه النَّشأَةُ، وهذا التَّكوينُ؛ خاصيَّتانِ من خصائصِ المجتمع الإسلاميِّ تُميِّزانِه، تُميِّزانِ وجودَه وتركيبَه، وتُميِّزانِ طابعَه وشكلَه، وتُميِّزانِ نظامَه، والإجراءاتِ التَّنفيذيَّةَ لهذا النِّظامِ أَيضًا، وتجعلانِ هذه الملامحَ كلَّها مستقلَّةً، لا تُعالَجُ بمفهوماتٍ اجتماعيَّةٍ أَجنبيَّةٍ عنها، ولا تُدرَّسُ وفقَ منهجٍ غريبٍ عن طبيعتِها، ولا تنفَّذُ بإجراءاتٍ مستمدَّةٍ من نظامٍ آخرَ.

۞۞۞

القيَمُ الإسلاميَّةُ واقعيَّةٌ:

إنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ ـ كما يبدو من تعْريفِنا المستقلِّ للحضارةِ ـ ليس مجرَّدَ صورةٍ تاريخيَّةٍ، يُبحث عنها في ذكرياتِ الماضي؛ إنَّما هو طَلِبَةُ الحاضرِ وأَملُ المستقبلِ، إنه هدفٌ يمكنُ أَنَّ تستشرفَه البشريَّةُ كلُّها اليومَ وغدًا، لترتفعَ به من وهْدةِ الجاهليَّة الَّتي تتردَّىٰ فيها، سواءٌ في هذهِ الجاهليَّة الأممُ المتقدِّمةُ صناعيًّا واقتصاديًّا، والأُمَّمُ المتخلِّفةُ أَيضًا.

إنَّ تلكَ القِيَم الَّتي أَشرنا إليها إجمالًا هي قِيَمُ الإنسانِ، لم تبلغْها الإنسانيَّةُ إلَّا في فترةِ «الحضارةِ الإسلاميَّة» .

(ويجبُ أَنْ ننبِّهَ إلىٰ ما نعنيهِ بمصطلحِ «الحضارةِ الإسلاميَّة» إنَّها الحضارةُ الَّتي توافرتْ فيها تلك القِيَمُ، وليست هي كلَّ تقدُّمٍ صناعيٍّ، أَو اقتصاديٍّ، أَو علميٍّ مع تخلُّفِ القِيَم عنها)!



وهذه القِيَمُ ليست «مثاليَّةً خياليَّةً» إنَّما هي قِيَمٌ واقعيَّةٌ عمليَّةٌ، يمكنُ تحقيقُها بالجهدِ البشريِّ - في ظلِّ المفهوماتِ الإسلاميَّة الصَّحيحةِ - يمكنُ تحقيقُها في كلِّ بيئةٍ بغضِّ النَّظرِ عن نوعِ الحياةِ السَّائدةِ فيها، وعن تقدُّمِها الصَّناعيِّ والاقتصاديِّ والعلميِّ..؛ فهي لا تعارضُ - بل تشجِّعُ بالمنطقِ العقيديِّ ذاتِه - التَّقدُّمَ في كافَّةِ حقولِ الخلافةِ، ولكنَّها في الوقتِ ذاتِه لا تقفُ مكتوفةَ اليدينِ في البلادِ الَّتي لم تتقدَّمْ في هذهِ الحقولِ بعد.

إنَّ الحضارةَ يمكنُ أَنْ تقومَ في كلِّ مكانٍ، وفي كلِّ بيئةٍ.. تقومُ بهذهِ القِيَم. أَمَّا أَشكالُها المادِّيَّةُ الَّتي تتَّخذُها فلا حَدَّ لها، لأَنَّها في كلِّ بيئةٍ تستخدمُ المقدَّراتِ الموجودةَ بها فعلًا وتُنَمِّيها.

المجتمعُ الإسلاميُّ إذنْ - من ناحيةِ شكلِه وحجمِه ونوعِ الحياةِ السَّائدةِ فيه - ليس صورةً تاريخيَّةً ثابتةً، لكنَّ وجودَه وحضارتَه يرتكنانِ إلىٰ قِيَمٍ تاريخيَّةٍ ثابتةٍ.. وحين نقولُ: «**تاريخيَّة**» لا نعني إلَّا أَنَّ هذه القِيَمَ قد عُرفتْ في تاريخٍ معيَّنٍ.. وإلَّا فهي ليستْ من صنعِ التَّاريخِ، ولا علاقةَ لها بالزَّمنِ في طبيعتِها، إنَّها حقيقةٌ جاءتْ إلى البشريَّةِ من مصدرٍ ربَّانيٍّ.. من وراءِ الواقعِ البشَريِّ، ومن وراءِ الوجودِ المادِّيِّ أَيضًا.

الحضارة في المجتمع المسلم:

والحضارةُ الإسلاميَّةُ يمكنُ أَنْ تتَّخذَ أَشكالًا متنوِّعةً في تركيبِها المادِّيِّ والتَّشكيليِّ، ولكن الأُصولَ والقِيَمَ الَّتي تقومُ عليها ثابتةٌ، لأَنَّها هي مقوِّماتُ هذه الحضارةِ: (**العبوديَّةُ لله وحدَهُ، والتَّجمُّعُ علىٰ آصرةِ العقيدة فيه، واستعلاءُ إنسانيَّةِ الإنسانِ على المادَّةِ، وسيادةُ القِيَم الإنسانيَّةِ الَّتي تنمِّي إنسانيَّةَ الإنسانِ لا حيوانيَّتَه.. وحرمةُ الأُسرةِ، والخلافةُ في الأَرض علىٰ عهدِ الله وشرطِه.. وتحكيمُ منهج الله وشريعتِه وحدَها في شؤونِ هذهِ الخلافة**)..

إنَّ «أَشكالَ» الحضارةِ الإسلاميَّة الَّتي تقومُ علىٰ هذهِ الأُسسِ الثَّابتةِ، تتأَثَّرُ بدرجةِ التَّقدُّمِ الصِّناعيِّ والاقتصاديِّ والعلميِّ؛ لأَنَّها تستخدمُ الموجودَ منها فعلًا في كلِّ بيئةٍ.. ومن ثَمَّ لا بُدَّ أَن تختلفَ أَشكالُها.. لا بُدَّ أَن تختلفَ لتضمنَ المرونةَ الكافيةَ لدُّخولِ كافَّةِ البيئاتِ والمستوياتِ في الإطارِ الإسلاميِّ، والتَّكيُّفَ بالقِيَم والمقوِّماتِ الإسلاميَّة.. وهذه المرونةُ ـ في الأَشكالِ الخارجيَّةِ للحضارةِ ـ ليست مفروضةً على العقيدة الإسلاميَّة الَّتي تنبثقُ منها تلك الحضَّارةُ؛ إنَّما هي من طبيعتِها، ولكنَّ المرونةَ ليست هي التَّميُّع.. والفرقُ بينهما بعيدٌ جدًّا!

لقد كانَ الإسلامُ يُنشئُ الحضَارةَ في أَواسطِ إفريقيَّةَ بين العُراةِ؛ لأَنَّه بمجرَّدِ وجودِه هناك تكتسي الأَجسامُ العاريةُ، ويدخلُ النَّاسُ في حضارةِ اللِّباسِ الَّتي يتضمَّنُها التَّوجيهُ الإسلاميُّ



المباشِرُ، ويبدأُ النَّاسُ في الخروجِ كذلكَ من الخمولِ البليدِ إلىٰ نشاطِ العملِ الموجَّهِ لاستغلالِ كنوزِ الكونِ المادِّيِّ، ويخرجونَ كذلك من طَور القبيلةِ ـ أَو العشيرةِ ـ إلىٰ طورِ الأُمَّةِ، وينتقلونَ من عبادةِ الطوطم المنعزلة إلىٰ عبادة ربِّ العالمين..

فما هي الحضارةُ إن لم تكنْ هي هذا؟ إنَّها حضارةُ هذهِ البيئةِ، الَّتي تعتمدُ علىٰ إمكانيَّاتِها القائمةِ فعلًا.. فأَمَّا حين يدخلُ الإسلامُ في بيئةٍ أُخرىٰ فإنَّه يُنشئُ ـ بقيَمِهِ الثَّابتةِ ـ شكلًا آخرَ من أَشكالِ الحضارةِ يستخدمُ فيه موجوداتِ هذه البيئةِ، وإمكانيَّاتِها الفعليَّةِ وينمِّيها.

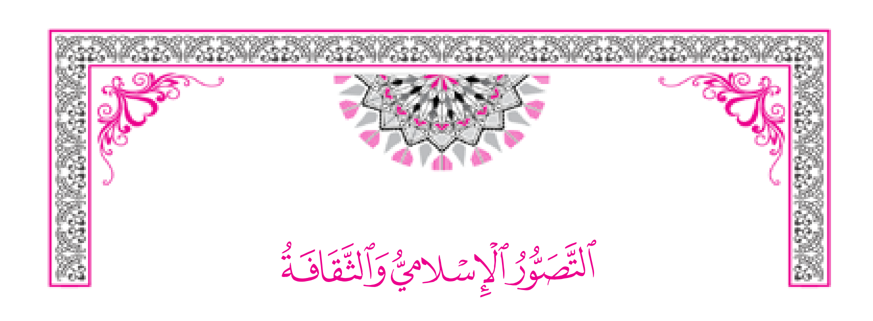
وهكذا لا يتوقَّفُ قيامُ الحضارةِ ـ بطريقةِ الإسلام ومنهجه ـ علىٰ درجةٍ معيَّنةٍ من التَّقدُّمِ الصِّناعيِّ والاقتصاديِّ والعلميِّ.

وإنْ كانتِ الحضارةُ حين تقومُ تستخدمُ هذا التَّقدُّمَ ـ عند وجودِه ـ وتدفعُه إلى الأَمامِ دفعًا، وترفعُ أَهدافَه.

كما أَنَّها تُنشئُه إنشاءً حين لا يكونُ، وتكفلُ نُموَّهُ واطِّرادَهُ.. ولكنَّها تظلُّ في كلِّ حالٍ قائمةً علىٰ أُصولِها المستقلَّة.

ويبقىٰ للمجتمعِ الإسلاميِّ طابعُه الخاصُّ، وتركيبُه العضويُّ، النَّاشئانِ عن نقطةِ انطلاقِه الأُولى، الَّتي يتميَّزُ بها من كلِّ مجتمعاتِ الجاهليَّة..

﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ﴾ [البقرة: ١٣٨].



العبوديَّةُ المطلقةُ لله وحدَهُ هي الشَّطرُ الأَوَّلُ لركنِ الإسلام الأَوَّلِ؛ فهي المدلولُ المطابقُ لشهادةِ أَن لَا إلهَ إلَّا الله.

والتَّلقِّي في كيفيةِ هذه العبوديَّةِ عن رسُولِ الله ﷺ هو الشَّطرُ الثَّاني لهذا الرُّكنِ؛ فهو المدلولُ المطابقُ لشَهادةِ أَنَّ محمَّدًا رسُولُ الله.. كما جاءَ في فصلِ: «**لا إله إلَّا الله؛ منهجُ حياة**»..

والعبوديَّةُ المطلقةُ لله وحدَهُ؛ تتمثَّلُ في اتِّخاذ الله وحدَهُ إلهًا.. عقيدةً وعبادةً وشريعةً.. فلا يعتقدُ المسلمُ أَنَّ «**الأُلوهيَّةَ**» تكونُ لأَحدٍ غيرِ الله ـ سبحانه ـ ولا يعتقدُ أَنَّ «**العبادة**» تكونُ لغيرِه من خلقِه، ولا يعتقدُ أَنَّ «**الحاكميَّة**» تكونُ لأَحدٍ من عبادِه.. كما جاءَ في ذلك الفصلِ أَيضًا.

ولقد أَوضحنا هناك مدلولَ العبوديَّةِ والاعتقادِ والشَّعائِرِ والحاكميَّةِ، وفي هذا الفصلِ نوضحُ مدلولَ «**الحاكميَّة**» وعلاقتَه «**بالثَّقافة**».

إنَّ مدلولَ «**الحاكميَّة**» في التَّصوُّرِ الإسلاميِّ لا ينحصرُ في تَلقِّي الشَّرائعِ القانونيَّة من الله وحدَهُ، والتَّحاكمِ إليها وحدَها، والحكمِ بها دونَ سواها.. إنَّ مدلولَ «**الشَّريعة**» في الإسلام لا ينحصرُ في



التَّشريعاتِ القانونيَّةِ، ولا حتَّىٰ في أُصولِ الحكمِ ونظامِه وأَوضاعِه؛ إنَّ هذا المدلولَ الضَّيِّقَ لا يمثِّلُ مدلولَ «الشَّريعةِ» والتَّصوُّرِ الإسلاميِّ!

مفهومُ الشَّريعةِ في الإسلام:

إنَّ «شريعةَ الله» تعني كلَّ ما شرعَه اللهُ لتنظيمِ الحياةِ البشريَّةِ.. وهذا يتمثَّلُ في أُصولِ الاعتقادِ، وأُصولِ الحكمِ، وأُصولِ الأَخلاقِ، وأُصولِ السُّلوكِ، وأُصولِ المعرفةِ أَيضًا.

يتمثَّلُ في الاعتقادِ والتَّصوُّرِ ـ بكلِّ مقوِّماتِ هذا التَّصوُّرِ ـ تصوُّرِ حقيقةِ الأُلوهيَّةِ، وحقيقةِ الكونِ، وغَيبِه وشُهودِه، وحقيقةِ الحياةِ، غيبِها وشهودِها، وحقيقةِ الإنسانِ، والارتباطاتِ بينَ هذهِ الحقائقِ كلِّها، وتعاملِ الإنسانِ معَها.

ويتمثَّلُ في الأَوضاعِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ، والأُصولِ الَّتي تقومُ عليها، لتتمثَّلَ فيها العبوديَّةُ الكاملةُ لله وحدَه.

ويتمثَّلُ في التَّشريعاتِ القانونيَّةِ، الَّتي تنظِّمُ هذه الأَوضاعَ. وهو ما يطلقُ عليه اسمُ «الشَّريعةِ» غالبًا بمعناها الضَّيِّقِ الَّذي لا يمثِّلُ حقيقةَ مدلولِها في التَّصوُّرِ الإسلاميِّ.

ويتمثَّلُ في قواعدِ الأَخلاقِ والسُّلوكِ، في القِيَم والموازينِ الَّتي تسودُ المجتمعَ، ويقومُ بها الأَشخاصُ والأَشياءُ والأَحداثُ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ.

ثمَّ يتمثَّلُ في «المعرفةِ» بكلِّ جوانبِها، وفي أُصولِ النَّشاطِ

الفكريِّ والفنِّيِّ جملةً. وفي هذا كلِّه لا بُدَّ من التَّلقِّي عن اللهِ، كالتَّلقِّي في الأَحكامِ الشَّرعيَّةِ ـ بمدلولِها الضَّيِّقِ المتداوَلِ ـ سواءً بسواءٍ..

والأَمرُ في «الحاكميَّة» ـ في مدلولِها المختصِّ بالحكمِ والقانونِ ـ قد يكونُ الآنَ مفهومًا بعد الَّذي سقناهُ بشأَنِه من تقريراتٍ.

والأَمرُ في قواعدِ الأَخلاقِ والسُّلوكِ، وفي القِيَم والموازينِ الَّتي تسودُ المجتمعَ، قد يكونُ مفهومًا كذلكَ إلىٰ حدٍّ ما! إذْ إنَّ القِيَمَ والموازينَ وقواعدَ الأَخلاقَ والسُّلوكِ الَّتي تسودُ في مجتمعٍ ما، ترجعُ مباشرةً إلى التَّصوُّرِ الاعتقاديِّ السَّائدِ في هذا المجتمع، وتتلقَّىٰ من ذاتِ المصدرِ الَّذي تتلقَّىٰ منه حقائقَ العقيدة الَّتي يتكيَّفُها ذلك التَّصوُّر.

مفهومُ الفنِّ في الإسلام:

أَمَّا الأَمرُ الَّذي قد يكونُ غريبًا ـ حتَّىٰ علىٰ قُرَّاءِ مثلِ هذه البحوثِ الإسلاميَّة! ـ فهو الرُّجوعُ في شأَنِ النَّشاطِ الفكريِّ والفنِّيِّ إلى التَّصوُّرِ الإسلاميِّ وإلىٰ مصدرِه الرَّبَّانيِّ.

وفي النَّشاطِ الفنِّيِّ صدرَ كتابٌ كاملٌ يتضمَّنُ بيانَ هذه القضيَّةِ باعتبارِ أَنَّ النَّشاطَ الفنِّيَّ كلَّه، هو تعبيرٌ إنسانيٌّ عن تصوُّراتِ الإنسانِ وانفعالاتِه واستجاباتِه، وعن صورةِ الوجودِ والحياةِ في نفسٍ إنسانيَّةٍ.. وهذه كلُّها يحكمُها ـ بل يُنشئُها ـ في النَّفسِ المسلمة تصوُّرُها الإسلاميُّ بشمولِه لكلِّ جوانبِ الكونِ والنَّفسِ والحياةِ! وعلاقتِها بباريءِ الكونِ والنَّفسِ والحياةِ،



وبتصوُّرِها خاصَّةً لحقيقةِ هذا الإنسانِ، ومركزِه في الكونِ، وغايةِ وجودِه، ووظيفتِه، وقِيَمِ حياتِه... وكلُّها متضمَّنةٌ في التَّصوُّرِ الإسلاميِّ، الَّذي ليس هو مجرَّدَ تصوُّرٍ فكريٍّ، إنَّما هو تصوُّرٌ اعتقاديٌّ حَيٌّ مُوحٍ مُؤَثِّرٌ فعَّالٌ دافعٌ مسيطرٌ علىٰ كلِّ انبعاثٍ في الكيانِ الإنسانيِّ»(١).

فأَمَّا قضيَّةُ النَّشاطِ الفكريِّ، وضرورةُ ردِّ هذا النَّشاطِ إلى التَّصوُّرِ الإسلاميِّ ومصدرِه الربَّانيِّ، تحقيقًا للعبوديَّةِ الكاملةِ لله وحدَهُ، فهذه هي القضيَّةُ الَّتي تقتضي منَّا بيانًا كاملًا؛ لأَنَّها قد تكونُ بالقياسِ إلىٰ قُرَّاءِ هذا البيانِ ـ حتَّى المسلمينَ منهم الَّذينَ يرونَ حتميَّةَ ردِّ الحاكميَّةِ والتَّشريعِ لله وحدَهُ ـ غريبةً أَو غيرَ مطروقةٍ!

۞۞۞

ما يتلقَّاهُ المسلمُ من غيرِ المسلمِ:

إنَّ المسلمَ لا يملكُ أَنْ يتلقَّىٰ في أَمرٍ يختصُّ بحقائقِ العقيدة، أَو التَّصوُّرِ العامِّ للوجودِ، أَو يختصُّ بالعبادةِ، أَو يختصُّ بالخُلقِ والسُّلوكِ، والقِيَمِ والموازينِ، أَو يختصُّ بالمبادئِ والأُصولِ في النِّظامِ السِّياسيِّ، أَو الاجتماعيِّ، أَو الاقتصاديِّ، أَو يختصُّ بتفسيرِ بواعثِ النَّشاطِ الإنسانيِّ، وبحركةِ التَّاريخِ الإنسانيِّ.. إلَّا من ذلكَ المصدرِ الربَّانيِّ، ولا يتلقَّىٰ في هذا كلِّه إلَّا عن مسلمٍ يثقُ في دينِه وتقواهُ، ومزاولتِه لعقيدتِه في واقعِ الحياة.

ولكنَّ المسلمَ يملكُ أَنْ يتلقَّىٰ في العلومِ البحتةِ، كالكيمياءِ،

---

(١) كتاب «منهج الفن الإسلامي» لمحمد قُطُب (المُؤَلِّف).

والطَّبيعةِ، والأَحياءِ، والفَلَكِ، والطِّبِّ، والصِّناعةِ، والزِّراعةِ، وطُرقِ الإدارةِ ـ من الناحية الفنِّيَّةِ الإداريَّةِ البحتةِ ـ وطرقِ العملِ الفنِّيَّةِ، وطرقِ الحربِ والقتالِ ـ من الجانب الفنِّيِّ ـ إلىٰ آخرِ ما يشبهُ هذا النَّشاطَ.. يملكُ أَن يتلقىٰ في هذا كلِّه عن المسلمِ وغيرِ المسلمِ..

وإن كان الأَصلُ في المجتمع المسلمِ حين يقومُ، أَن يسعىٰ لتوفيرِ هذه الكِفاياتِ في هذه الحقولِ كلِّها، باعتبارِها فروضَ كفايةٍ، يجبُ أَن يتخصَّصَ فيها أَفرادٌ منه؛ وإلَّا أَثِمَ المجتمعُ كلُّه إذا لم يوفِّرْ هذه الكفاياتِ، ولم يوفِّرْ لها الجوَّ الَّذي تتكوَّنُ فيه وتعيشُ وتعملُ وتنتجُ..

ولكن إلىٰ أَنْ يتحقَّقَ هذا، **فإنَّ للفردِ المسلمِ أَنْ يتلقَّىٰ في هذهِ العلومِ البحتةِ وتطبيقاتِها العمليَّةِ من المسلمِ وغيرِ المسلمِ، وأَن ينتفعَ فيها بجهدِ المسلمِ وغيرِ المسلمِ، وأَن يشغلَ فيها المسلمَ وغيرَ المسلمِ.. لأَنَّها من الأُمورِ الدَّاخلةِ في قولِ رسول الله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»..**

وهي لا تتعلَّقُ بتكوينِ تصوُّرِ المسلمِ عن الحياةِ والكونِ والإنسانِ، وغايةِ وجودِه، وحقيقةِ وظيفتِه، ونوعِ ارتباطاتِه بالوجودِ من حولِه، بخالقِ الوجودِ كلِّه، ولا تتعلَّقُ بالمبادئِ والشَّرائعِ والأَنظمةِ والأَوضاعِ الَّتي تنظِّمُ حياتَه أَفرادًا وجماعاتٍ، ولا تتعلَّقُ بالأَخلاقِ والآدابِ والتَّقاليدِ والعاداتِ والقِيَم والموازينِ الَّتي تسودُ مجتمعَه وتؤلِّفُ ملامحَ هذا المجتمع. ومن ثَمَّ فلا خطرَ فيها من زيغِ عقيدتِه، أَو ارتدادِه إلى الجاهليَّة!



ما لا يجوزُ أَخذُه عن غيرِ المسلمِ:

فأَمَّا ما يتعلَّقُ بتفسيرِ النَّشاطِ الإنسانيِّ كلِّه أَفرادًا أَو مجتمعاتٍ، وهو التَّعلُّقُ بالنَّظرةِ إلىٰ «نفس» الإنسانِ، وإلىٰ «حركةِ تاريخِه» وما يختصُّ بتفسيرِ نشأَةِ هذا الكونِ، ونشأَةِ الحياةِ، ونشأَةِ هذا الإنسانِ ذاتِه ـ من ناحيةِ ما وراءَ الطَّبيعة ـ (وهو ما لا تتعلَّقُ به العلومُ البحتةُ من كيمياءَ وطبيعةٍ وفَلكٍ وطبٍّ... إلخ) فالشأْنُ فيه ـ شأْنُ الشَّرائعِ القانونيَّةِ والمبادئِ والأُصولِ الَّتي تنظِّمُ حياتَه ونشاطَه ـ مرتبطٌ بالعقيدة ارتباطًا مباشِرًا؛ فلا يجوزُ للمسلم أَن يتلقَّىٰ فيه إلَّا عن مسلمٍ، يثقُ في دينِه وتقواهُ، ويعلمُ عنه أَنَّه يتلقَّىٰ في هذا كلِّه عن الله.. والمهمُّ أَن يرتبطَ هذا في حسِّ المسلمِ بعقيدتِه، وأَن يعلمَ أَنَّ هذا مقتضىٰ عبوديَّتِهِ لله وحدَهُ، أَو مقتضىٰ شهادتِه: «أَن لَا إلهَ إلَّا الله، وأَنَّ محمَّدًا رسُول الله» .

إنَّه قد يَطَّلِعُ علىٰ كلِّ آثارِ النَّشاطِ الجاهليِّ، ولكن لا لِيُكوِّنَ منه تصوُّرَه ومعرفتَه في هذه الشؤونِ كلِّها، إنَّما ليعرفَ كيف تنحرفُ الجاهليَّةُ! وليعرفَ كيفَ يصحِّحُ ويقوِّمُ هذه الانحرافاتِ البشريَّةِ، بردِّها إلىٰ أُصولِها الصَّحيحةِ في مقوِّماتِ التَّصوُّرِ الإسلاميِّ، وحقائقِ العقيدة الإسلاميَّة.

ثقافاتٌ جاهليَّةٌ:

إنَّ اتِّجاهاتِ «الفلسفة» بجملتِها، واتِّجاهاتِ «تفسيرِ التَّاريخِ الإنسانيِّ» بجملتِها، واتِّجاهاتِ «علمِ النَّفس» بجملتِها ـ عدا

الملاحظاتِ والمشاهداتِ دون التَّفسيراتِ العامَّةِ لها ـ ومباحثَ «**الأَخلاقِ** بجملتِها، واتِّجاهاتِ دراسةِ «**الأَديانِ المقارنة**» بجملتها، واتِّجاهاتِ «**التَّفسيراتِ والمذاهبِ الاجتماعيَّة**» بجملتِها ـ فيما عدا المشاهداتِ والإحصائيَّاتِ والمعلوماتِ المباشرةِ، لا النتائجَ العامَّةَ المستخلصةَ منها ولا التَّوجيهاتِ الكلِّيَّةَ الناشئةَ عنها ـ إنَّ هذه الاتِّجاهاتِ كلَّها في الفكرِ الجاهليِّ ـ أَي: غيرِ الإسلاميِّ ـ قديمًا وحديثًا، متأَثِّرةٌ تأَثُّرًا مباشِرًا بتصوُّراتٍ اعتقاديَّةٍ جاهليَّةٍ، وقائمةٌ علىٰ هذه التَّصوُّراتِ، ومعظمُها ـ إن لم يكن كلُّها ـ يتضمَّنُ في أُصولِه المنهجيَّةِ عَداءً ظاهرًا أَو خفيًّا للتَّصوُّرِ الدِّينيِّ جملةً، وللتَّصوُّرِ الإسلاميِّ علىٰ وجهٍ خاصٍّ!

والأَمرُ في هذه الأَلوانِ من النَّشاطِ الفكريِّ والعلميِّ! ليس كالأَمرِ في علومِ الكيمياءِ والطَّبيعةِ والفلكِ والأَحياءِ والطِّبِّ، وما إليها، ما دامت هذه في حدودِ التَّجربةِ الواقعيَّة وتسجيلِ النَّتائجِ الواقعيَّة، دونَ أَن تجاوزَ هذه الحدودَ إلى التَّفسيرِ الفلسفيِّ في صورةٍ من صورِه، وذلك كتجاوزِ الداروينيَّةِ مثلًا لمجالِ إثباتِ المشاهداتِ وترتيبِها في علمِ الأَحياءِ، إلىٰ مجالِ القولِ ـ بغير دليلٍ وبغيرِ حاجةٍ للقولِ كذلك إلَّا الرغبةَ والهوىٰ ـ إنَّه لا ضرورةَ لافتراضِ وجودِ قوَّةٍ خارجةٍ عن العالمِ الطَّبيعيِّ لتفسيرِ نشأةِ الحياةِ وتطوُّرِها.

إنَّ لدى المسلمِ الكفايةَ من بيانِ ربِّه الصَّادقِ عن تلك الشؤونِ، وفي المستوى الَّذي تبدُو فيه محاولاتُ البشرِ في هذه المجالاتِ



هزيلةً ومضحكةً.. فضلًا عن أَنَّ الأَمرَ يتعلَّقُ تعلُّقًا مباشِرًا بالعقيدة، وبالعبوديَّةِ الكاملةِ لله وحدَهُ.

الثَّقافةُ الإنسانيَّةُ:

إنَّ حكايةَ أَنَّ «الثَّقافةَ تراثٌ إنسانيٌّ» لا وطنَ له ولا جنسَ ولا دينَ.. هي حكايةٌ صحيحةٌ عندما تتعلَّقُ بالعلومِ البحتةِ وتطبيقاتِها العلميَّةِ دون أَنْ تجاوزَ هذه المنطقةَ إلى التَّفسيراتِ الفلسفيَّةِ «الميتافيزيقيَّة» لنتائجِ هذهِ العلومِ، ولا إلى التَّفسيراتِ الفلسفيَّةِ لنفسِ الإنسانِ ونشاطِه وتاريخِه، ولا إلى الفنِّ والأَدبِ والتَّعبيراتِ الشعوريَّةِ جميعًا، ولكنَّها فيما وراءَ ذلك إحدىٰ مصايدِ اليهودِ العالميَّةِ، الَّتي يهمُّها تمييعُ الحواجزِ كلِّها، بما في ذلك ـ بل في أَوَّلِ ذلك ـ حواجزُ العقيدة والتَّصوُّرِ، لكي ينفُذَ اليهودُ إلىٰ جسمِ العالمِ كلِّه، وهو مُسْتَرخٍ مخدَّرٌ، يُزاولُ اليهودُ فيه نشاطَهم الشَّيطانيَّ، وفي أَوَّله نشاطُهم الرِّبَويِّ، الَّذي ينتهي إلى جعلِ حصيلةِ كَدِّ البشريَّةِ كلِّها، تؤولُ إلىٰ أَصحابِ المؤسَّساتِ الماليَّةِ الرِّبويَّةِ من اليهود!

ولكنَّ الإسلامَ يعتبرُ أَنَّ هناك ـ فيما وراءَ العلومِ البحتةِ وتطبيقاتِها العمليَّةِ ـ نوعينِ اثنينِ من الثَّقافةِ: الثَّقافةُ الإسلاميَّةُ القائمةُ علىٰ قواعدِ التَّصوُّرِ الإسلاميِّ، والثَّقافةُ الجاهليَّةُ القائمةُ علىٰ مناهجَ شتَّىٰ ترجعُ كلُّها إلىٰ قاعدةٍ واحدةٍ.. قاعدةِ إقامةِ الفكرِ البشَّريِّ إلهًا لا يرجعُ إلى الله في ميزانِه.. والثَّقافةُ الإسلاميَّةُ شاملةٌ لكلِّ حقولِ النَّشاطِ الفكريِّ والواقعيِّ

الإنسانيِّ، وفيها من القواعدِ والمناهجِ والخصائصِ ما يكفلُ نموَّ هذا النَّشاطِ وحيويَّتَه دائمًا.

الإسلامُ أصلُ الحضارةِ الغربيَّةِ:

ويكفي أَنْ نعلمَ أَنَّ الاتِّجاهَ التَّجريبيَّ، الَّذي قامتْ عليه الحضارةُ الصناعيَّةُ الأَوروبيَّةُ الحاضرةُ، لم ينشأ ابتداءً في أُوروبا، وإنَّما نشأَ في الجامعاتِ الإسلاميَّة في الأَندلسِ والمشرقِ، مستمِدًّا أُصولَه من التَّصوُّرِ الإسلاميِّ وتوجيهاتِه، إلى الكونِ وطبيعتِه الواقعيَّة، ومدَّخراتِه وأَقواتِه.. ثمَّ استقلَّتِ النَّهضةُ العلميَّةُ في أَوروبا بهذا المنهج، واستمرَّتْ تُنَمِّيهِ وتُرَقِّيه، بينما رُكِدَ وتُركَ نهائيًّا في العالمِ الإسلاميِّ بسببِ بُعْدِ هذا العالمِ تدريجيًّا عن الإسلام؛ بفعل عواملَ بعضُها كاملٌ في تركيبِ المجتمع، وبعضُها يتمثَّلُ في الهجوم عليه من العالمِ الصَّليبيِّ والصُّهيونيِّ.. ثمَّ قطعتْ أَوربا ما بين المنهج الَّذي اقتبسَتْه، وبينَ أُصولِه الاعتقاديَّةِ الإسلاميَّة، وشرَدتْ به نهائيًّا بعيدًا عن الله، في أَثناءِ شرودِها عن الكنيسةِ، الَّتي كانت تستطيلُ على النَّاس ـ بغيًا وعدوًا ـ باسم الله![1].

وكذلكَ أَصبحَ نِتاجُ الفكرِ الأَوربيِّ بجملتِه ـ شأْنُه شأْنُ إنتاجِ الفكرِ الجاهليِّ في جميعِ الأَزمانِ في جميع البقاعِ ـ شيئًا آخرَ، ذا طبيعةٍ مختلفةٍ من أَساسها عن مقوِّماتِ التَّصوُّرِ الإسلاميِّ، ومعاديةٍ في الوقتِ ذاتِه عداءً أَصيلًا للتَّصوُّرِ الإسلاميِّ..

---

(١) راجع فصل: (الفصام النكد) في كتاب: «المستقبل لهذا الدين» (المؤلِّف).



ووجبَ على المسلمِ أَنْ يرجعَ إلىٰ مقوِّماتِ تصوُّرِه وحدَها، وأَلَّا يأْخذَ إلَّا من المصدرِ الربَّانيِّ إنِ استطاعَ بنفسِه، وإلَّا فلا يأْخذْ إلَّا عن مسلمٍ تقيٍّ، يعلمُ عن دينِه وتقواهُ ما يطمئنُه إلى الأَخذِ عنه.

۞۞۞

لا ينفصلُ العلمُ عن صاحبِه:

إنَّ حكايةَ فَصْلِ «العِلْم» عن «صَاحِب العِلم» لا يعرفُها الإسلامُ فيما يختصُّ بكلِّ العلومِ المتعلِّقةِ بمفهوماتِ العقيدة المؤثِّرةِ في نظرةِ الإنسانِ إلى الوجودِ والحياةِ والنَّشاطِ الإنسانيِّ، والأَوضاعِ والقِيَم والأَخلاقِ والعاداتِ، وسائرِ ما يتعلَّقُ بنفسِ الإنسانِ ونشاطِه من هذهِ النَّواحي.

إنَّ الإسلامَ يتسامحُ في أَن يتلقَّى المسلمُ عن غيرِ المسلم، أَو عن غيرِ التَّقيِّ من المسلمينَ، في علمِ الكيمياءِ البحتةِ، أَو الطَّبيعةِ، أَو الفَلَكِ، أَو الطِّبِّ، أَو الصِّناعةِ أَو الزِّراعةِ أَو الأَعمالِ الإداريَّةِ والكتابيَّةِ.. وأَمثالِها؛ وذلك في الحالاتِ الَّتي لا يجدُ فيها مسلمًا تقيًّا يأْخذُ عنه في هذا كلِّه!

كما هو واقعُ مَن يسمُّونَ أَنفسَهم المسلمينَ اليوم، النَّاشئُ من بُعْدِهمِ عن دينِهم ومنهجهم، وعن التَّصوُّرِ الإسلاميِّ لمقتضياتِ الخِلافةِ في الأَرض ـ بإذنِ الله ـ وما يلزمُ لهذهِ الخلافةِ من هذهِ العلومِ والخبراتِ والمهاراتِ المختلفةِ..

ولكنَّه لا يتسامحُ في أَن يتلقَّىٰ أُصولَ عقيدتِه، ولا مقوِّماتِ تصوُّرِه، ولا تفسيرَ قرآنِه وحديثِه وسيرةِ نبيِّه، ولا منهجَ تاريخِه وتفسيرِ نشاطه، ولا مذهبَ مجتمعِه، ولا نظامَ حكمِه، ولا منهجَ سياستِه، ولا

موجباتِ فَنِّه وأَدبِه وتعبيرِه.. إلخ، من مصادرَ غيرِ إسلاميَّةٍ، ولا أَنْ يتلقَّىٰ عن غيرِ مسلمٍ يثقُ في دينِه وتقواه في شيءٍ من هذا كلِّه.

تجربةُ سيد قُطب الثَّقافيَّةُ وحبُّه للقراءةِ والاطِّلاع:

إنَّ الَّذي يكتبُ هذا الكلامَ إنسانٌ عاشَ يقرأُ أُربعينَ سَنَّةً كاملةً!

كان عملُه الأَوَّلُ فيها هو القراءةَ والاطِّلاعَ في معظمِ حقولِ المعرفةِ الإنسانيَّةِ.. ما هو من تخصُّصِه، وما هو من هواياتِه.. ثمَّ عادَ إلىٰ مصادرِ عقيدتِه وتصوُّرِه؛ فإذا هو يجدُ كلَّ ما قرأَهُ ضئيلًا ضئيلًا إلىٰ جانبِ ذلك الرَّصيدِ الضَّخمِ ـ وما كان يمكنُ أَن يكونَ إلَّا كذلك ـ وما هو بنادمٍ علىٰ ما قضىٰ فيه أَربعينَ سَنَةً من عمره؛ فإنَّما عرفَ الجاهليَّةَ علىٰ حقيقتِها، وعلى انحرافِها، وعلىٰ ضآلتِها وعلىٰ قزامتِها.. وعلىٰ جَعْجعتِها وانتفاشِها، وعلىٰ غرورِها وادِّعائها كذلك!!

وعَلِمَ علمَ اليقينِ أَنَّه لا يمكنُ أَنْ يجمعَ المسلمُ بين هذينِ المصدرينِ في التَّلقِّي!

تحريمُ أخذِ الثَّقافةِ عن غيرِ المسلمين:

ومع ذلك فليسَ الَّذي سبقَ في هذه الفقرةِ رأْيًا لي أُبديه.. إنَّ الأَمرَ أَكبرُ من أَن يُفتىٰ فيه بالرأْيِ.. إنَّه أَثقلُ في ميزانِ الله من أَن يعتمدَ المسلمُ فيه علىٰ رأْيه، إنَّما هو قولُ الله ـ سبحانه ـ وقولُ نبيِّه ﷺ نُحَكِّمُهُ في هذا الشأْن، ونرجعُ فيه إلى الله والرَّسُولِ، كما يرجعُ الَّذين آمنوا إلى الله والرَّسُولِ فيما يختلفونَ فيه.

يقولُ الله ـ سبحانه ـ عن الهدفِ النِّهائيِّ لليهودِ والنَّصارىٰ في شأْنِ المسلمينَ بصفةٍ عامَّةٍ:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ويقولُ رسولُ الله ﷺ فيما رواه الحافظُ أَبو يعلىٰ، عن حمَّادٍ، عن الشَّعبيِّ، عن جابرٍ رضي الله عنه:

«لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ وَالله لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»(١).

سوءُ نيَّة المستشرقينَ في أبحاثهم الإسلاميَّة:

وحين يتحدَّدُ الهدفُ النِّهائيُّ لليهودِ والنَّصارىٰ في شأْنِ

(١) رواه أَبو يعلىٰ في «مسنده»: (٤/ ١٠٢). وأَحمد: (٣/ ٣٣٨). والبزار كما في «كشف الأَستار»: (١/ ٧٩). (كلهم من طريق مجالد بن سعيد، وقد ضُعِّف. وله طُرق أُخرىٰ مجموعها حسن، يقتضي أَن له أَصلًا) كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٤).

المسلمينَ علىٰ ذلك النَّحوِ القاطعِ الَّذي يقرِّرُه اللهُ ـ سبحانه ـ يكونُ من البلاهةِ الظَّنُّ لحظةً بأَنَّهم يصدرونَ عن نيَّةٍ طيِّبةٍ في أَيِّ مبحثٍ من المباحثِ المتعلِّقةِ بالعقيدة الإسلاميَّة، أَو التَّاريخِ الاسلاميِّ، أَو التَّوجيهِ في نظامِ المجتمع المسلمِ، أَو في سياستِه، أَو اقتصادِه، أَو يقصدونَ إلىٰ خيرٍ، أَو إلىٰ هدىً، أَو إلىٰ نورٍ.. والَّذينَ يظنُّونَ ذلك فيما عند هؤلاءِ النَّاس ـ بعد تقريرِ الله سبحانَه ـ إنَّما همُ الغافلون!

الوحيانِ الشَّريفانِ هما المصدرُ الوحيدُ للمسلمِ:

كذلك يتحدَّدُ من قولِ الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.. المصدرُ الوحيدُ الَّذي يجبُ على المسلمِ الرُّجوعُ إليه في هذهِ الشُّؤونِ؛ فليس وراءَ هدى الله إلَّا الضَّلالُ، وليس في غيرِه هدًى، كما تُفيدُ صيغةُ القصرِ الواردةُ في النَّصِّ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾..

ولا سبيلَ إلى الشَّكِّ في مدلولِ هذا النَّصِّ، ولا إلىٰ تأْويلِه كذلك!

كذلك يَرِدُ الأَمرُ القاطعُ بالإعراضِ عمَّنْ يتولَّىٰ عن ذكرِ الله، ويقصرُ اهتمامَه علىٰ شؤونِ الحياةِ الدُّنيا، وينصُّ علىٰ أَنَّ مثلَ هذا لا يَعْلَمُ إلَّا ظنًّا، والمسلمُ مَنْهِيٌّ عن اتِّباعِ الظَّنِّ، وأنَّه لا يعلمُ إلَّا ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا، فهو لا يعلمُ علمًا صحيحًا. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠].



﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

مفهومُ العالِمِ في الإسلام:

والَّذي يغفلُ عن ذكرِ الله، ولا يريدُ إلَّا الحياةَ الدُّنيا ـ وهو شأْنُ جميعِ «العلماء!» اليومَ ـ لا يعلمُ إلَّا هذا الظَّاهرَ، وليس هذا هو «العلمَ» الَّذي يثقُ المسلمُ في صاحبِه فيتلقَّىٰ عنه في كلِّ شأْنِه، إنَّما يجوزُ أَنَّ يتلقَّىٰ عنه في حدودِ علمِه المادِّيِّ البحتِ، ولا يتلقَّىٰ منه تفسيرًا، ولا تأْويلًا عامًّا للحياةِ، أَو النَّفسِ، أَو متعلَّقاتِها التَّصويريَّةِ.. كما إنَّه ليسَ هو العِلمَ الَّذي تُشيرُ إليه الآياتُ القرآنيَّةُ وتُثنيْ عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كما يفهمُ الَّذينَ ينتزعونَ النُّصوصَ القرآنيَّة من سياقِها ليستشهدُوا بها في غيرِ مواضعِها؟ فهذا السُّؤالُ التَّقريريُّ واردٌ في آيةٍ هذا نصُّها الكاملُ: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

فهذا القانتُ آناءَ اللَّيلِ، ساجدًا وقائمًا، يَحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه.. هو هذا الَّذي يعلمُ.. وهذا هو العلمُ.. الَّذي تشيرُ إليه الآيةُ، العلمُ الَّذي يهدي إلى الله وتقواهُ.. لا العلمُ الَّذي يفسدُ الفِطَرَ فتُلْحِدُ في الله!

ارتباطُ العلمِ بالإيمان:

إنَّ العلمَ ليسَ مقصورًا علىٰ علمِ العقيدة والفرائضِ الدِّينيَّةِ والشَّرائعِ.. فالعلمُ يشتملُ علىٰ كلِّ شيءٍ، ويتعلَّقُ بالقوانينِ الطَّبيعيَّةِ وتسخيرِها في خلافةِ الأَرض، تَعلُّقَه بالعقيدة والفرائضِ

والشَّـرائعِ.. ولكـنَّ العلـمَ الَّـذي ينقطعُ عـن قاعدتِـه الإيمانيَّـةِ.. ليس هـو العلـمَ الَّذي يعنيهِ القـرآنُ، ويُثني علـىٰ أَهلِه.. إنَّ هنـاكَ ارتباطًا بين القاعـدةِ الإيمانيَّـةِ وعلمِ الفَلكِ، وعلـمِ الأَحياءِ، وعلـمِ الطَّبيعةِ، وعلمِ الكيميـاءِ، وعلمِ طبقاتِ الأَرض.. وسـائرِ العلومِ المتعلِّقـةِ بالنَّواميسِ الكونيَّـةِ، والقوانيـنِ الحيويَّةِ[1]..

إنَّها كلَّها تؤدِّي إلى اللهِ، حين لا يستخدمُها الهوى المنحرفُ للابتعادِ عنِ اللهِ.. كما اتَّجهَ المنهجُ الأَوربِّيُّ في النَّهضةِ العلميَّة ـ مع الأَسفِ ـ بسببِ تلك الملابساتِ النَّكِدةِ الَّتي قامتْ في التَّاريخِ الأَوربِّيِّ خاصةً، بين المشتغلِين بالعلمِ وبينَ الكنيسةِ الغاشمةِ! ثمَّ تركَ آثارَه العميقةَ في مناهجِ الفكرِ الأَوربِّيِّ كلِّها، وفي طبيعةِ التَّفكيرِ الأَوربِّيِّ، وتركَ تلك الرَّواسبَ المسمَّمَةَ بالعَداء لأَصلِ التَّصوُّرِ الدِّينيِّ جملةً ـ لا لأَصلِ التَّصوُّرِ الكنَسيِّ وحدَهُ ولا للكنيسةِ وحدَها ـ في كلِّ ما أَنتجَه

(١) تكلَّم سيِّد قُطُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسهابٍ عن التَّصوُّراتِ الإسلاميَّة، عن اللهِ.. والكونِ.. والإنسانِ.. والحياةِ.. والموتِ.. والدُّنيا والآخرة.. والنَّفسِ البشرية، ودوافعِها وكوابحِها.. وعلاقةِ الخالقِ بالمخلوقِ، وبالكونِ والحياةِ والأَحياءِ؛ كتصوراتٍ تمثِّلُ النظرياتِ الإسلاميَّةَ المقابلةَ للنظرياتِ الغربيةِ.. الَّتي قامت عليها الحضارةُ الغربيةُ. فأَوضحَ النظرياتِ الإسلاميةَ الَّتي قامت عليها الحضارةُ الإسلاميَّةُ منذ فجر التَّاريخ، ثمَّ مع الحلقةِ الأَخيرةِ مع رسول الله ﷺ والَّتي ستقومُ عليها ـ إن شاء الله ـ دورةُ التمكينِ القادمةُ للإسلام؛ فواجه تصوُّراتِ ماركس، وفرويد، ودوركايم، ونيتشه، وغيرهم.. كما واجه نزعاتِ الإلحادِ الغربيةَ، واستند إلى العلومِ الحديثةِ في الفلكِ، والأَحياءِ، والجيولوجيا، والكيمياءِ، وغيرها.. لتقريرِ حقائقِ هذا الدِّين؛ بوجودِ خالقٍ يدبرُ أَمرَ الحياةِ والأَحياءِ، والوجودِ كلِّه، وعلاقاتِه المتشابكةِ.. وأَنه تعالىٰ من العظمةِ والوضوحِ بحيثُ يجده كلُّ عالمٍ، وباحثٍ في نهايةِ كلِّ طريقٍ يسلكُه، وتكلَّمَ عن آلافِ التَّوافقاتِ في الحياةِ والأَحياءِ، وأَنَّها توافقاتٌ مقصودةٌ لقيامِ هذهِ الحياة، وهذا الإنسان، وهذا العَالَم علىٰ وجهِ الخصوصِ، وأَنَّ من ورائِها حكمةً بالغةً عُليا.



الفكرُ الأَوربيُّ، في كلِّ حقلٍ من حقولِ المعرفةِ، سواءٌ كانتْ فلسفةً ميتافيزيقيَّةً، أَو كانت بُحوثًا علميَّةً بحتةً لا علاقةَ لها ـ في الظَّاهر ـ بالموضوعِ الدِّينيِّ ! (١).

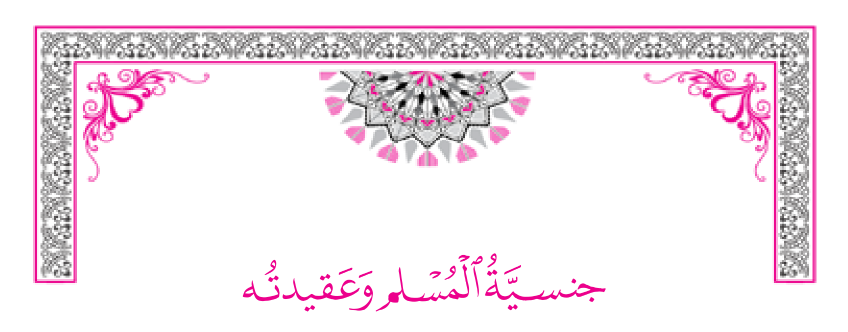
جاهليَّةُ العلومِ الغربيَّةِ:

وإذا تقرَّرَ أَنَّ مناهجَ الفكرِ الغربيِّ، ونتاجَ هذا الفكرِ في كلِّ حقولِ المعرفةِ، يقومُ ابتداءً علىٰ أَساس تلكَ الرَّواسبِ المسمَّمَةِ بالعَداءِ لأَصلِ التَّصوُّرِ الدِّينيِّ جملةً، فإنَّ تلكَ المناهجَ وهذا النِّتاجَ أَشدُّ عَداءً للتَّصوُّرِ الإسلاميِّ خاصَّةً؛ لأَنَّه يعتمدُ هذا العَداءَ بصفةٍ خاصَّةٍ، ويتحرَّىٰ في حالاتٍ كثيرةٍ ـ في خطَّةٍ متعمَّدةٍ ـ تمييعَ العقيدة والتَّصوُّرِ والمفهوماتِ الإسلاميَّة، ثمَّ تحطيمَ الأُسسِ الَّتي يقومُ عليها تميُّزُ المجتمع المسلمِ في كلِّ مقوِّماتِه.

ومن ثَمَّ يكونُ من الغفلةِ المُزْريةِ الاعتمادُ علىٰ مناهجِ الفكرِ الغربيِّ، وعلىٰ نتاجِه كذلك في الدِّراساتِ الإسلاميَّة.. ومن ثمَّ تَجبُ الحِيْطةُ كذلك في أثناءِ دراسةِ العلومِ البحتةِ ـ الَّتي لا بدَّ لنا في موقفِنا الحاضرِ من تلقِّيها من مصادرِها الغربيَّةِ ـ من أَيَّةِ ظِلالٍ فلسفيةٍ تتعلَّقُ بها؛ لأَنَّ هذه الظِّلالَ معاديةٌ في أَساسها للتَّصوُّرِ الدِّينيِّ جملةً، وللتَّصوُّرِ الإسلاميِّ بصفةٍ خاصَّةٍ، وأَيُّ قَدْرٍ منها يكفي لتسميمِ الينبوعِ الإسلاميِّ الصَّافي.

---

(١) يراجع فصل: (الفصام النكد) في كتاب «المستقبل لهذا الدين» (المُؤَلِّف).



جنسيَّةُ ٱلْمُسْلِمِ وَعَقيدتُه

جاءَ الإسلامُ إلىٰ هذه البشريَّةِ بتصوُّرٍ جديدٍ لحقيقةِ الرَّوابطِ والوشائجِ، يومَ جاءها بتصوُّرٍ جديدٍ لحقيقةِ القِيَم والاعتباراتِ، ولحقيقةِ الجهة الَّتي تتَلقَّىٰ منها هذه القِيَمَ وهذه الاعتباراتِ.

جاءَ الإسلامُ ليردَّ الإنسانَ إلىٰ ربِّه، وليجعلَ هذه السُّلطةَ هي السُّلطةَ الوحيدةَ الَّتي يتلقَّىٰ منها موازينَه وقِيَمَه، كما تلقَّىٰ منها وجودَه وحياتَه، والَّتي يرجعُ إليها بروابطِه ووشائجِه، كما أنَّه من إرادتِها صدرَ وإليها يعودُ.

جاءَ ليقرِّرَ أَنَّ هناك وشيجةً واحدةً تربطُ النَّاسَ في اللهِ؛ فإذا انبتَّتْ هذه الوشيجةُ، فلا صِلَةَ ولا مودَّةَ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]..

وأَنَّ هناكَ حِزبًا واحدًا لله لا يتعدَّدُ، وأَحزابًا أُخرىٰ كلَّها للشَّيطانِ وللطَّاغوتِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].



وأَنَّ هناكَ طريقًا واحدًا يصلُ إلى اللهِ، وكلُّ طريقٍ آخرَ لا يؤدِّي إليه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأَنَّ هناك نظامًا واحدًا هو النِّظامُ الإسلاميُّ، وما عداه من النُّظمِ فهو جاهليَّةٌ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وأَنَّ هناكَ شريعةً واحدةً هي شريعةُ اللهِ، وما عداها فهو باطلٌ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وأَنَّ هناكَ حقًّا واحدًا لا يتعدَّدُ، وما عداه فهو الضَّلالُ: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

معنىٰ دارِ الإسلام:

وأَنَّ هناك دارًا واحدةً هي دارُ الإسلام، تلك الَّتي تقومُ فيها الدَّولةُ المسلمةُ، فتُهيمنُ عليها شريعةُ الله، وتُقامُ فيها حدودُه، ويتولَّى المسلمونَ فيها بعضَهم بعضًا، وما عداها فهو دارُ حربٍ، علاقةُ المسلمِ بها إمَّا القتالُ، وإمَّا المُهادنةُ علىٰ عهدِ أَمانٍ، ولكنَّها ليست دارَ إسلامٍ، ولا ولاءَ بينَ أَهلِها وبينَ المسلمينَ[1]:

(١) تنبيه: ما قاله سيد قُطُب رحمه الله هنا هو عينُ ما نصَّ عليه الفقهاءُ رحمهم الله فدارُ الإسلام هي البلادُ الَّتي تظهرُ فيها أَحكامُ الإسلام كما عند الحنفيَّةِ، أَو يستطيعُ أَهلها إظهارَ الإسلام كما هو عندَ الشافعيَّةِ، ودارُ الحـربِ عندهم: هي الدَّارُ الَّتي لا تطبَّقُ فيها أَحكامُ الإسلام الدِّينيَّةُ =

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

= والسِّياسيَّةُ لوجودها خارجَ نطاقَ السِّيادةِ الإسلاميَّة؛ سواء أَكانت هذه البلادُ تحكمُها دولةٌ واحدةٌ، أَم تحكمُها دولٌ متعدِّدةٌ، ويستوي أَن يكونَ بين سكَّانِها المقيمينَ بها إقامةً دائمةً مسلمونَ أَو لا يكون، ما دام المسلمونَ عاجزينَ عن إظهارِ أَحكامِ الإسلام. وهذه المسأَلةُ من المسائلِ النَّازلةِ بعد عهد الصَّحابةِ والتَّابعينَ، واختلفَ العلماءُ فيها لعدمِ وجودِ نصٍّ قاطعٍ، فتَقسيمُه أَمرٌ اجتهاديٌّ؛ لذلك أَفتىٰ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ﷺ بحالةٍ وسطٍ لذلك الواقعِ المتجدِّدِ في عهده، وهي حالةُ البلدِ الَّذي ليس بلدَ إسلامٍ صرفًا.. ولا بلدَ حربٍ صرفًا، وذلك في فتوىٰ الماردينيَّةِ الشَّهيرة.

وأَمَّا حالُ الأُمَّة اليومَ.. فيحتاجُ إلىٰ فقهٍ جديدٍ لتغيُّرِ واقعها بعد سقوطِ دولةِ الإسلام؛ بل نحن في حاجةٍ إلىٰ معرفةِ الأَحكامِ الَّتي قادت إلىٰ هذا التَّقسيم؛ لأَنَّنا نعيشُ واقعًا مختلفًا عن واقعِ تقريراتِ فقهنا فيما سبق.. فلا داعيَ للغيابِ في واقعٍ لم يعدْ موجودًا.. كما أَنَّنا لسنا بحاجةٍ اليوم لحديثٍ عن فقهِ جهادِ الطَّلَبِ وحكمِه؛ لأَنَّنا عاجزونَ عن جهادِ الدَّفعِ، فكيف بجهادِ الطَّلب؟! ففقهاء الأُمَّة قادرونَ أَن يجعلوا فقهَنا يعيشُ حاضرَنا؛ فيجب أَن نحاولُ تنزيلَ تلكَ الأَحكام على الواقعِ بحسب ما يقتضيه الشَّارعُ الحكيم. والقولُ الصَّحيحُ لواقعنا اليوم ـ والله أَعلم ـ أَن يكون الحكمُ على البلدانِ مجزَّأً.. بحسب حالِها وحالِ المسلمِ فيها؛ فرُبَّ بلدٍ إسلاميٍّ تجبُ فيه الهجرةُ علىٰ بعضِهم، إذا تعرَّضوا لاضطهادٍ جائرٍ يمنعُهم من القيام بشعائرِ دينِهم، ورُبَّ بلدٍ حاكمُه كافرٌ، لكنَّ غالبيَّته مسلمونَ.. وشعائرُ الإسلام فيه ظاهرةٌ.

فعندما يصفُ سيِّد ﷺ حالَ الدَّولةِ أَو المجتمع بالجاهليَّة أَو دارِ الحربِ لا يعني أَنَّ أَفرادَها كفارٌ، وأَيضًا وصفُه الدَّارَ بالإسلام لا يعني أَنَّ كلَّ أَفرادِها مسلمونَ؛ فالحكمُ على الفردِ هنا أَو هناكَ يكونُ بحسبِ ما يظهرُ منه من الإسلام أَو الكفرِ بقواعدِ الأُصولِ الشَّرعيَّة المرعيَّةِ؛ لأَنَّ الوصفَ للمجتمعِ أَو الدَّولةِ يخصُّ أَنظمتَها وقوانينَها، ولا يمكنُ أَنْ ينطبقَ على الأَفرادِ إلَّا إذا اعتقدُوا هذا الكفر.. ومَن قال بغيرِ ذلك؛ فقدْ جهلَ حقيقةَ الإسلام!



﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٢ ـ ٧٥].

انتماءُ المسلمِ لعقيدتِه فقط:

بهذه النَّصاعةِ الكاملةِ، وبهذا الجزمِ القاطعِ جاءَ الإسلامُ.. جاءَ يرفعُ الإنسانَ ويخلِّصُه من وشائجِ الأَرضِ والطِّين، ومن وشائجِ اللَّحمِ والدَّمِ ـ وهي من وشائجِ الأَرضِ والطِّينِ ـ **فلا وطنَ للمسلمِ إلَّا الَّذي تُقامُ فيه شريعةُ الله،** فتقومُ الروابطُ بينَه وبينَ سكانِه علىٰ أَساسِ الارتباطِ في اللهِ، **ولا جنسيَّةَ للمسلمِ إلَّا عقيدتُه** الَّتي تجعلُه عضوًا في **الأُمَّة المسلمة في دارِ الإسلام، ولا قرابةَ للمسلمِ إلَّا تلك الَّتي تنبثقُ من العقيدة في اللهِ،** فتصلُ الوشيجةَ بينه وبين أَهلِه في الله.

ليست قرابةُ المسلمِ أَباهُ وأُمَّهُ وأَخاهُ وزوجَه وعشيرتَهُ، ما لم تنعقدِ الآصرةُ الأُولىٰ في الخالقِ، فتتَّصلُ من ثَمَّ بالرَّحمِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

ولا يمنعُ هذا من مُصاحبةِ الوالدينِ بالمعروفِ مع اختلافِ العقيدة، ما لم يقفا في الصَّفِّ المعادي للجبهةِ المسلمة؛ فعندئذٍ لا صلةَ ولا مصاحبةَ[1]. وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ يعطينا المثلَ في جَلاءٍ:

---

(١) **تنبيه: هناك فرق بين عقيدة المعاداة وبين البر والقسط والإحسان!**

فمعاداة المسلم للكفَّار لا تعني الإساءة لهم بالأَقوال أَو الأَفعال، وتجاوز ما وضـعه لنا =

موقفُ عبدِ اللّه بنِ عبدِ اللّه بنِ أُبيٍّ من والدِه رأس النفاق :

روى ابنُ جريرٍ[١] بسنده، عن ابنِ زيادٍ، قالَ: دعا رسولُ الله ﷺ

= ديننا الحنيف من شروط وضوابط في معاملتهم الَّتي مبنيَّة على أَساس العدل والإحسان؛ دون محبَّة القلب وميله، وأَباح الإسلام تبادل المصالح بيننا وبينهم بما يعود بالنفع على المسلمين، وقرَّر شيئًا من التسامح مع بعض الفئات من الكُفَّار المسالمين والمعاهدين غير الحربيِّين بشرط أَلاَّ يكون على حساب الدِّين. والشارع الحكيم يأْمر بحسن المعاملة مع الجميع ما داموا غير محاربين، وهذا لا يعني موالاتهم ومحبَّتهم؛ لأَنَّ البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتواد المنهي عنه في الشريعة. أَمَّا إذا كان هؤلاء الكُفَّار محاربين فإنَّ صلتهم محرَّمة شرعًا بالإجماع.

فموالاة الكُفار درجات عندنا أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة: فهم يرونَ أَنَّ موالاةَ المؤمنينَ بعضهم لبعض، ومعاداتهم للكُفَّار والمشركين؛ واجبٌ شرعًا، ومعاداة بعضهم لبعض، وموالاتهم للكُفَّار والمشركين؛ محرمٌ شرعًا، والموالاة تقع على شُعَبٍ ودرجاتٍ متفاوتة؛ منها ما يُوجب الرِّدَّةَ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرَّمات؛ فالتولي أَخصُّ من الموالاة؛ فكلُّ من تولَّى الكُفَّار فهو كافرٌ مرتد، وليس كلُّ موالاةٍ للكُفَّار يُكفِّرُ صاحبها، وموالاةُ الكُفَّار نوعان:

الموالاة الكُبرى: تُخرج صاحبها من الإسلام، وتُسقطه في الكُفر والرِّدَّةِ؛ وهي تكون بالقلب أَو بالعمل، أَو بكليهما. أَمَّا التولِّي بالقلب: فيكون بحبِّهم وحبِّ مَن يُحِبُّهم، ومودتهم والرضا عنهم، ومعاداة وبغض مَن يبغضهم، وموافقتِهم بالقلب والميل إليهم بالباطن. وأَمَّا التولِّي بالفعل: فيكون بنصرة الكفَّار والدِّفاعِ عنهم، والتَّحالف معهم ضِدَّ المسلمينَ، أَو بمعاونتهم على إنزال العذاب والفتنة بالمسلمين، أَو إعانتهم بالمال والبدن والرأي. وأَمَّا التولِّي بالقلب والفعل: فتكون بموافقتهم في الظَّاهر والباطن؛ أَي: انقياد لهم بالظاهرِ، والميلِ لهم في الباطن.

الموالاةُ الصغرى: هي الموالاةُ دون موالاةٍ، وتكون دون صور الموالاة الكُبرى بمراتب، وهي من الكبائر العظام، وصاحبُها على شفا هلكة، ومُتعرِّضٌ للوعيد، ولكن لا يَخرج من الإسلام. وتكون بالمودَّة والميل والمداهنة لبعض الكفَّار لغرضٍ دنيويٍّ؛ من أَجل مآرب مادية، أَو روابط عرقيةٍ أَو قبليَّةٍ مع سلامة الاعتقاد وعدم إضمار نيَّة الكفر والرِّدَّة عن الإسلام ومعه العلم بالمعصية، والخوف من الذنب، ويكون شأْنُ صاحبه في ذلك شأْنَ كثيرٍ من العُصاة الذين يقترفون بعض الذنوب دون استحلالها، ولكلِّ ذنبٍ حَظُّه وقِسطُه من الوعيد؛ بحسب نيَّة الفاعل وقصده.

(١) تفسير الطبري، ج٢٢، ص ٦٦٦، ط. دار هجر، تحقيق التركي.



عبدَ الله بنَ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ، قال: «**أَلا تَرَىٰ ما يقولُ أَبوكَ؟**»، قال: ما يقولُ أَبِي؟ بأَبي أَنتَ وأُمِّي، قال: «**يقولُ لئنْ رجعْنا إلى المدينةِ ليُخرِجنَّ الأَعزُّ منها الأَذلَّ**»، فقال: فقدَ صدَقَ والله يا رسولَ الله، أَنتَ والله الأَعزُّ وهوَ الأَذلُّ، أَمَا والله لقدْ قدمتَ المدينةَ يا رسولَ الله، وإنَّ أَهلَ يثربَ ليعلمونَ ما بها أَحدٌ أَبرُّ بوالِدِه منِّي، ولئنْ كان يُرضي اللهَ ورسولَه أَنْ آتيهمَا برأْسِه لآتيهما به، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا**».. فلمَّا قدِما المدينةَ قام عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن أُبيٍّ علىٰ بابِها بالسَّيفِ لأَبيهِ، قال: أَنتَ القائلُ: لئن رجعْنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأَعزُّ منها الأَذلَّ؟ أَما والله لتعرِفَنَّ العزَّةَ لك أَو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأْويكَ ظلُّها ولا تأويهِ أَبدًا؛ إلَّا بإذنٍ منَ الله ورسوله، فقال: يا لَلخزرجِ! ابني يمنعُني بيتِي! يا لَلخزرجِ ابنيْ يمنعُني بيتِي! فقالَ: والله لا يأويهِ أَبدًا إلَّا بإذنٍ منهُ، فاجتمعَ إليه رجالٌ فكلَّمُوه، فقال: والله لا يدخلنَّ؛ إلَّا بإذنٍ من الله ورسوله، فأَتوا النَّبيَّ ﷺ فأَخبرُوه، فقال: «**اذهبُوا إليهِ فقولوا له: خَلِّهِ ومسكَنَه**»، فأَتوهُ، فقال: أَما إذْ جاءَ أَمرُ النَّبِيِّ ﷺ فنعم..

المؤمنونَ كلُّهم إخوةٌ:

فإذا انعقدتْ آصرةُ العقيدة فالمؤمنونَ كلُّهم إخوةٌ، ولو لم يجمعهمْ نسبٌ ولا صهرٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾... علىٰ سبيل القَصرِ والتَّوكيدِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وهي ولايةٌ تتجاوزُ الجيلَ الواحدَ إلى الأَجيالِ المتعاقبةِ، وتربِطُ أَوَّلَ هذه الأُمَّة بآخرِها، وآخرَها بأَوَّلها، برباطِ الحبِّ والمودَّةِ والولاءِ والتَّعاطفِ المَكينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩ ـ ١٠].

۞۞۞

الأَنبياءُ قدوةٌ لأقوامِهم:

ويضربُ اللهُ الأَمثالَ للمسلمينَ بالرَّهطِ الكريمِ من الأَنبياءِ الَّذينَ سبقُوهم في موكبِ الإيمانِ الضَّاربِ في شِعابِ الزَّمانِ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ويعتزلُ إبراهيمُ أَباه وأَهلَه حين يرىٰ منهمُ الإصرارَ على الضَّلالِ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

ويحكي اللهُ عن إبراهيمَ وقومِه ما فيه أُسوةٌ وقُدوةٌ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

والفتيةُ أَصحابُ الكهفِ يعتزلونَ أَهلَهم وقومَهم وأَرضَهم ليخلصُوا لله بدينِهم، ويفرُّوا إلىٰ ربِّهم بعقيدتِهم، حين عَزَّ عليهم أَنْ يجدُوا لها مكانًا في الوطنِ والأَهلِ والعشيرةِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۞ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۞ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٦].

وامرأَةُ نوح، وامرأَةُ لوطٍ؛ يُفَرَّقُ بينهما وبينَ زوجَيهما حين تفترقُ العقيدةُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وامرأَةُ فرعونَ على الضِّفَّة الأُخرىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وهكذا تتعدَّدُ الأَمثالُ في جميعِ الوشَائجِ والرَّوابطِ.. وشيجةُ الأَبوَّةِ في قصَّة نوحٍ، ووشيجةُ البُنوَّةِ والوطنِ في قصَّةِ إبراهيمَ، ووشيجةُ الأَهلِ والعشيرةِ والوطنِ جميعًا في قصَّةِ أَصحابِ الكهفِ، ورابطةُ الزَّوجيَّة في قصصِ امرأَتَي نوحٍ ولوطٍ، وامرأَةِ فرعون..

المفاصلةُ عندَ الصَّحابةِ:

وهكذا يمضي الموكبُ الكريمُ في تصوُّرِه لحقيقةِ الرَّوابطِ والوشَائجِ.. حتَّىٰ تجيءَ الأُمَّةُ الوسطُ؛ فتجدَ هذا الرَّصيدَ من الأَمثالِ والنَّماذجِ والتَّجاربِ، فتمضي على النَّهجِ الرَّبَّانيِّ للأُمَّةِ المؤمنةِ، وتفترقُ العشيرةُ الواحدةُ، ويفترقُ البيتُ الواحدُ، حين تفترقُ العقيدةُ، وحيثُ تنبتُ الوشيجةُ الأُولىٰ، ويقولُ اللهُ ـ سبحانه ـ في صفةِ المؤمنينَ قولَه الكريمَ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ



حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وحين انبتَّتْ وشيجةُ القرابةِ بين محمَّدٍ ﷺ وبينَ عمِّه أَبي لهبٍ، وابنِ عمَّه عمرِو بنِ هشامٍ «**أَبو جهل**»[١]، وحين قاتلَ المهاجرونَ أَهلَهم وأَقرباءَهم وقتلُوهم يومَ بدرٍ.. حينئذٍ اتَّصلتْ وشيجةُ العقيدة بين المهاجرينَ والأَنصارِ، فإذا هم أَهلٌ وإخوةٌ، واتَّصلتِ الوشيجةُ بين المسلمينَ العربِ وإخوانِهم: صهيبٍ الروميِّ، وبلالٍ الحَبَشيِّ، وسلمانَ الفارسيِّ، وتوارتْ عصبيَّةُ القبيلةِ، وعصبيَّةُ الجنسِ، وعصبيَّةُ الأَرض، وقال لهم رسولُ الله ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّها مُنْتِنَةٌ**»[٢]..

وقال لهم: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إلىٰ عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ علىٰ عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ علىٰ عَصَبِيَّةٍ**»[٣].. فانتهىٰ أَمرُ هذا النَّتنِ.. نَتنِ عصبيَّةِ النَّسبِ، وماتَتْ هذه النَّعرةُ.. نعرةُ الجنسِ. واختفَتْ تلك اللَّوثةُ.. لوثةُ القومِ، واستروحَ البشرُ أَرَجَ الآفاقِ العليا، بعيدًا عن نتن اللَّحم والدَّم، ولوثةِ الطِّين والأَرض..

---

(١) **تنبيه**: أبوجهل من بني مخزوم.. والنبي ﷺ من بني هاشم؛ فهو ليس ابن عم النبي ﷺ كما قال سيِّد قُطُب رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه أَبو داود (٥١٢١) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما معنىٰ دارِ الإسلام؟

منذُ ذلك اليومِ لم يعدْ وطنُ المسلمِ هو الأَرضَ، إنَّما عادَ وطنُه هو «دارَ الإسلام».. الدَّارُ الَّتي تسيطرُ عليها عقيدتُه وتحكمُ فيها شريعةُ الله وحدَها، الدَّارُ الَّتي يأْوي إليها ويدافعُ عنها، ويستشهدُ لحمايتِها ومَدِّ رقعتِها.. وهي «دارُ الإسلام» لكلِّ مَنْ يدينُ بالإسلام عقيدةً، ويرتضي شريعتَه شريعةً.. وكذلكَ لكلِّ من يرتَضي شريعةَ الإسلام نظامًا ـ ولو لم يكنْ مسلمًا ـ كأَصحابِ الدِّياناتِ الكِتابيَّةِ الَّذينَ يعيشونَ في «دارِ الإسلام»..

والأَرضُ الَّتي لا يهيمنُ فيها الإسلامُ ولا تحكمُ فيها شريعتُه هي «دارُ الحربِ بالقياسِ إلى المسلمِ، وإلى الذِّمِّيِّ المعاهَدِ كذلك.. يحاربُها المسلمُ ولو كانَ فيها مولدُه، وفيها قرابتُه من النَّسبِ وصهرُه، وفيها أَموالُه ومنافعُه.

وكذلكَ حاربَ محمَّدٌ ﷺ مكَّةَ وهي مَسقطُ رأْسِه، وفيها عشيْرتُه وأَهلُه، وفيها دارُه ودورُ أَصحابِه وأَموالُهم الَّتي تركُوها، فلم تصبحْ دارَ إسلامٍ له ولأُمَّتِه إلَّا حينَ دانتْ للإسلام وطُبِّقَت فيها شريعتُه.

۞۞۞

هذا هو الإسلامُ.. هذا هو وحدَه.. فالإسلامُ ليسَ كلمةً تقالُ باللِّسانِ، ولا ميلادًا في أَرضٍ عليها لافتةٌ إسلاميَّةٌ وعنوانٌ إسلاميٌّ! ولا وراثةُ مولدٍ في بيتٍ أَبواهُ مسلمانِ.



﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

هذا هو وحدَهُ الإسلامُ، وهذهِ هي وحدَها دارُ الإسلام.. لا الأَرضُ ولا الجنسُ، ولا النَّسبُ ولا الصِّهرُ، ولا القبيلةُ ولا العشيرةُ.

الولاءُ للإسلام وحدَه:

لقد أَطلقَ الإسلامُ البشرَ من اللُّصوقِ بالطِّينِ ليتطلَّعوا إلى السَّماءِ، وأَطلقَهم من قيدِ الدَّمِ.. قيدِ البهيمةِ.. ليرتفعُوا في علِّيِّينَ.

وطنُ المسلمِ الَّذي يحنُّ إليه، ويدافعُ عنه، ليس قطعةَ أَرضٍ، وجنسيَّةُ المسلمِ الَّتي يُعرفُ بها ليست جنسيَّةَ حُكْمٍ، وعشيرةُ المسلمِ الَّتي يأْوي إليها ويدفعُ عنها ليست قرابةَ دمٍ، ورايةُ المسلمِ الَّتي يعتزُّ بها ويستشهدُ تحتها ليست رايةَ قومٍ، وانتصارُ المسلمِ الَّذي يهفُوا إليه ويشكرُ اللهَ عليه، ليس غلبةَ جيشٍ، إنَّما هو كما قالَ اللهُ عنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣] ...

إنَّه النَّصرُ تحتَ رايةِ العقيدة دونَ سائرِ الرَّاياتِ.. والجهادُ لنصرةِ دينِ الله وشريعتِه لا لأَيِّ هدفٍ من الأَهدافِ، والذِّيادُ عن «دارِ الإسلام» بشروطِها تلكَ لا أَيَّةِ دارٍ، والتَّجرُّدُ بعد هذا كلِّه للهِ، لا لمَغْنمٍ ولا لسُمعةٍ ولا حَميَّةً لأَرضٍ، أَو قومٍ، أَو ذودٍ عن أَهلٍ، أَو

ولدٍ؛ إلَّا لحِمايتِهم من الفتنةِ عن دينِ الله:

عن أَبي موسىٰ رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الرَّجلِ يقاتلُ شجاعةً، ويقاتلُ حميَّةً، ويقاتلُ رياءً، أَيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال:

«مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا؛ فَهُوَ في سَبِيلِ اللهِ»[1].

وفي هذا وحدَهُ تكونُ الشَّهادةُ، لا في أَيَّةِ حربٍ لأَيِّ هدفٍ غيرِ هذا الهدفِ الواحدِ.. لله..

مفهومُ دارِ الحربِ ودارِ الإسلام:

وكلُّ أَرضٍ تُحاربُ المسلمَ في عقيدتِه، وتصدُّهُ عن دينِه، وتعطِّلُ عملَ شريعتِه؛ فهي **«دارُ حرب»**، ولو كانَ فيها أَهلُه، وعشيرتُه، وقومُه، ومالُه، وتجارتُه..

وكلُّ أَرضٍ تقومُ فيها عقيدتُه، وتعملُ فيها شريعتُه؛ فهي **«دارُ إسلام»**، ولو لم يكنْ له فيها أَهلٌ ولا عشيرةٌ ولا قومٌ ولا تجارةٌ.

الوطنُ: دارٌ تحكمُها عقيدةٌ ومنهاجُ حياةٍ وشريعةٌ من اللهِ.. هذا هو معنى الوطنِ اللَّائقِ **«بالإنسان»**.

والجنسيَّةُ: عقيدةٌ ومنهاجُ حياةٍ، وهذه هي الآصرةُ اللَّائقة بالآدميِّينَ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣).



إنَّ عصبيَّةَ العشيرةِ والقبيلةِ والقومِ والجنسِ واللَّونِ والأَرض، عصبيَّةٌ صغيرةٌ متخلِّفةٌ.. عصبيَّةٌ جاهليَّةٌ عرفتْها البشريَّةُ في فتراتِ انحطاطِها الرُّوحيِّ، وسمَّاها رسولُ الله ﷺ: «مُنْتِنَةٌ» بهذا الوصفِ الَّذي يفوحُ منه التَّقزُّزُ والاشمئزازُ.

هل اليهودُ شعبُ الله المختارُ؟

ولمَّا ادَّعى اليهودُ أَنَّهم شعبُ اللَّهِ المختارُ بجنسِهم وقومِهم، ردَّ اللَّهُ عليهِم هذه الدَّعوىٰ، وردَّ ميزانَ القِيَم إلى الإيمانِ وحدَهُ علىٰ توالي الأَجيالِ وتغايرِ الأَقوامِ والأَجناسِ والأَوطانِ:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۞ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٨].

فأَمَّا شعبُ اللَّهِ المختارُ حقًّا: فهو الأُمَّةُ المسلمةُ الَّتي تستظلُّ برايةِ اللَّهِ علىٰ اختلافِ ما بينَها من الأَجناسِ والأَقوامِ والأَلوانِ والأَوطانِ:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الأُمَّـةُ الَّتـي يكـونُ مـن الرَّعيـلِ الأَوَّلِ فيهـا أَبـو بكـرٍ العربـيُّ، وبـلالٌ الحبشـيُّ، وصهيـبٌ الرُّومـيُّ، وسـلمانُ الفارسـيُّ، وإخوانُهم الكـرامُ، والَّتـي تتوالـىٰ أَجيالُها علىٰ هذا النَّسـقِ الرَّائعِ.. الجنسـيَّةُ فيها هـي العقيـدةُ، والوطـنُ فيهـا هـو دارُ الإسـلام، والحاكمُ فيها هـو اللهُ، والدُّسـتورُ فيهـا هو القـرآنُ.

توجيهاتٌ وضوابطُ للدُّعاةِ:

هذا التَّصوُّرُ الرَّفيعُ للدَّارِ، وللجنسيَّةِ وللقرابةِ هو الَّذي ينبغي أَنْ يسيطرَ علىٰ قلوبِ أَصحابِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، والَّذي ينبغي أَنْ يكونَ من الوضوحِ بحيثُ لا تختلطُ به أَوشابُ(١) التَّصوُّراتِ الجاهليَّة الدَّخيلةِ، ولا تتسرَّبُ إليه صورُ الشِّركِ الخفيَّةُ: الشِّركُ بالأَرض، والشِّركُ بالجنسِ، والشِّركُ بالقومِ، والشِّركُ بالنَّسبِ، والشِّركُ بالمنافعِ الصَّغيرةِ القريبةِ، تلك الَّتي يجمعُها اللهُ ـ سبحانه ـ في آيةٍ واحدةٍ فيضعُها في كفَّةٍ، ويضعُ الإيمانَ ومقتضياتِه في كفَّةٍ أُخرىٰ، ويَدَعُ للنَّاسِ الخيارَ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ

---

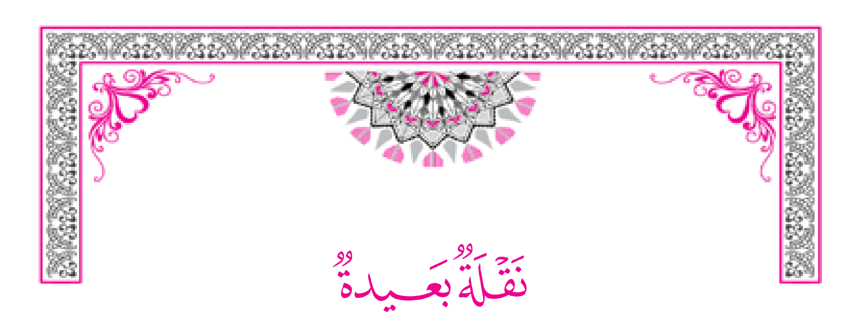
(١) «الأوشابُ»: الأَخْلاطُ منَ النَّاسِ والأَوْباشُ، واحدُهم وشْبٌ.

بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

كذلكَ لا ينبغي أَنْ تقومَ في نفوسِ أَصحابِ الدَّعوةِ إلى الله تلكَ الشُّكوكُ السَّطحيَّةُ في حقيقةِ الجاهليَّة وحقيقةِ الإسلام، وفي صفةِ دارِ الحربِ ودارِ الإسلام..

فمن هنا يُؤتى الكثيرُ منهم في تصوُّراتِه ويقينِه.. إنَّه لا إسلامَ في أَرضٍ لا يحكمُها الإسلامُ ولا تقومُ فيها شريعتُه، ولا دارَ إسلامٍ إلَّا الَّتي يهيمنُ عليها الإسلامُ بمنهجه وقانونِه، وليس وراءَ الإيمانِ إلَّا الكفرُ، وليسَ دونَ الإسلام إلَّا الجاهليَّةُ.. وليسَ بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ..





نَقْلَةٌ بعـيدةٌ

هنـاك حقيقـةٌ أَوَّليَّـةٌ؛ ينبغـي أَنَّ تكـونَ واضحـةً فـي نفوسِـنا تمامًـا ونحـن نقـدِّمُ الإسـلامَ للنَّـاسِ: الَّذينَ يؤمنـونَ بـه، والَّذين لا يؤمنـونَ بـه على السَّـواء.. هـذه الحقيقـةُ تنبثقُ مـن طبيعةِ الإِسـلامِ ذاتِـه، وتنبـعُ مـن تاريخِه.

إنَّ الإسلامَ تصوُّرٌ مستقلٌّ للوجودِ والحياةِ، تصوُّرٌ كاملٌ ذو خصائصَ متميِّزةٍ، ومن ثَمَّ ينبثقُ منه منهجٌ ذاتيٌّ مستقلٌّ للحياةِ كلِّها، بكلِّ مقوِّماتِها وارتباطاتِها، ويقومُ عليه نظامٌ ذو خصائصَ معيَّنةٍ.

هذا التَّصوُّرُ يخالفُ مخالفةً أَساسيَّةً سائرَ التَّصوُّراتِ الجاهليَّة قديمًا وحديثًا. وقد يلتقي مع هذهِ التَّصوُّراتِ في جزئياتٍ عَرَضيَّةٍ جانبيَّةٍ، ولكنَّ الأُصولَ الَّتي تنبثقُ منها هذه الجزئيَّاتُ مختلفةٌ عن سائرِ ما عرفتْه البشريَّةُ من نظائرِها.

ووظيفةُ الإسلام الأُولىٰ هي أَنْ يُنشئَ حياةً إنسانيَّةً توافقُ هذا التَّصوُّرَ، وتمثِّلهُ في صورةٍ واقعيَّةٍ، وأَن يقيمَ في الأَرض نظامًا يتبعُ المنهجَ الربَّانيَّ الَّذي اختارَه اللهُ، وهو يُخرجُ هذه الأُمَّةَ المسلمةَ



لتمثِّلَه وتقومَ عليه، وهو ـ سبحانه ـ يقولُ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويقولُ في صفةِ هذهِ الأُمَّة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

۞۞۞

تعريفٌ دقيقٌ جامعٌ ومانعٌ لمصطلحِ الجاهليَّة:

وليست وظيفةُ الإسلام إذن أَنْ يصطلحَ مع التَّصوُّراتِ الجاهليَّة السَّائدةِ في الأَرض، ولا الأَوضاعِ الجاهليَّة القائمةِ في كلِّ مكانٍ.. لم تكنْ هذهِ وظيفتُه يومَ جاءَ، ولن تكونَ هذه وظيفتُه اليومَ، ولا في المستقبلِ..

فالجاهليَّةُ هي الجاهليَّةُ؛ **الجاهليَّةُ هي الانحرافُ عن العبوديَّةِ لله وحدَهُ، وعن المنهجِ الإلهيِّ في الحياةِ، واستنباطُ النُّظمِ، والشَّرائعِ، والقوانينِ والعاداتِ والتَّقاليدِ والقِيَم، والموازينِ من مصدرٍ آخرَ غيرِ المصدرِ الإلهيِّ**.. والإسلامُ هو الإسلامُ، ووظيفتُه هي نقلُ النَّاسِ من الجاهليَّة إلى الإسلام!

«الجاهليَّةُ»: هي عبوديَّةُ النَّاسِ للنَّاسِ؛ بتشريعِ بعضِ النَّاسِ للنَّاسِ ما لم يأْذنْ به اللهُ، كائنةً ما كانتِ الصُّورةُ الَّتي يتمُّ بها هذا التَّشريعُ..

و«**الإسلامُ**»: هو عبوديَّةُ النَّاسِ لله وحدَهُ، بِتلقِّيهم منه وحدَهُ تصوُّراتِهم وعقائدَهم، وشرائعَهم وقوانينَهم، وقيمَهم وموازينَهم، والتَّحرُّرُ من عبوديَّةِ العبيدِ!

هذه الحقيقةُ المنبثقةُ من طبيعةِ الإسلام، وطبيعةِ دورِه في الأَرض، هي الَّتي يجبُ أَن نقدِّمَ بها الإسلامَ للنَّاسِ: الَّذينَ يؤمنونَ به، والَّذين لا يؤمنونَ به على السَّواءِ!

لا مداهنةَ مع الجاهليَّة:

«**إنَّ الإسلامَ لا يقبلُ أَنصافَ الحلولِ مع الجاهليَّة**»، لا من ناحيةِ التَّصوُّرِ، ولا من ناحيةِ الأَوضاعِ المنبثقةِ من هذا التَّصوُّرِ..فإمَّا إسلامٌ وإمَّا جاهليَّةٌ، وليس هنالكَ وضعٌ آخرُ نصفُه إسلامٌ ونصفُه جاهليَّةٌ يقبلُه الإسلامُ ويرضاهُ.. فنظرةُ الإسلام واضحةٌ في أَنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّدُ، وأَنَّ ما عدا هذا الحقَّ فهو الضَّلالُ، وهما غيرُ قابلينِ للتَّلبُّسِ والامتزاجِ، وأَنَّه إمَّا حكمُ اللهِ، وإمَّا حكمُ الجاهليَّة، وإمَّا شريعةُ الله، وإمَّا الهوىٰ.. والآياتُ القرآنيَّةُ في هذا المعنىٰ متواترةٌ كثيرةٌ:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾. [الشورى: ١٥].



﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فهما أَمرانِ لا ثالثَ لهما. إمَّا الاستجابةُ لله والرَّسُولِ، وإمَّا اتِّباعُ الهوىٰ، إمَّا حكمُ اللهِ، وإمَّا حكمُ الجاهليَّة، إمَّا الحكمُ بما أَنزلَ اللهُ كلِّه، وإمَّا الفتنةُ عمَّا أَنزلَ اللهُ.. وليس بعدَ هذا التَّوكيدِ الصَّريحِ الجازمِ من الله ـ سبحانه ـ مجالٌ للجدالِ أَو للمِحالِ..

جاءَ الإسلامُ ليقودَ البشريَّةَ:

وظيفةُ الإسلام إذنْ هي إقصاءُ الجاهليَّة من قيادةِ البشريَّةِ، وتولِّي هذهِ القيادةِ علىٰ منهجه الخاصِّ، المستقلِّ الملامحِ، الأَصيلِ الخصائصِ، يريدُ بهذهِ القيادةِ الرشيدةِ الخيرَ للبشريَّة واليسرَ.

الخيرَ الَّذي ينشأُ من ردِّ البشريَّةِ إلىٰ خالقِها، واليسرَ الَّذي ينشأُ من التَّنسيقِ بين حركةِ البشريَّةِ، وتولِّي هذه القيادةِ علىٰ منهجه الخاصِّ المستقلِّ، ترتفعُ إلى المستوى الكريمِ الَّذي أَرادَه اللهُ لها، وتَخْلُصُ من

حكمِ الهوىٰ. أَو كما قال ربعيُّ بنُ عامرٍ، حين سأَلَه رستمُ قائدُ الفرسِ: ما الَّذي جاء بكم؟ فكان جوابُه: (**اللهُ ابتَعثنا لنُخرجَ مَن شاءَ، من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَهُ، ومن ضيقِ الدُّنيا إلىٰ سَعَةِ الدُّنيا والآخرةِ، ومن جَوْرِ الأَديانِ إلىٰ عدلِ الإسلام**).

لم يجئ الإسلامُ إذن لِيُربِّتَ علىٰ شهواتِ النَّاسِ المُمَثَّلةِ في تصوُّراتِهم وأَنظمتِهم وأَوضاعِهم وعاداتِهم وتقاليدِهم.. سواءٌ منها ما عاصَر مجيءَ الإسلام، أَو ما تخوضُ البشريَّةُ فيه الآنَ، في الشَّرقِ أَو في الغربِ سواءً.. إنَّما جاءَ ليلغيَ هذا كلَّه إلغاءً، وينسخَه نسخًا، ويقيمَ الحياةَ البشريَّةَ علىٰ أَسسِه الخاصَّةِ، جاء لينشئَ الحياةَ إنشاءً، لينشئَ حياةً تنبثقُ منه انبثاقًا، وترتبطُ بمحورِه ارتباطًا.

وقد تُشابِهُ جزئياتٌ منه جزئياتٍ في الحياةِ الَّتي يعيشُها النَّاسُ في الجاهليَّة، ولكنَّها ليستْ هي، وليسَتْ منها؛ إنَّما هي مجرَّدُ مصادفةِ هذا التَّشابهِ الظَّاهريِّ الجانبيِّ في الفروعِ، أَمَّا أَصلُ الشَّجرةِ فهو مختلفٌ تمامًا، تلك شجرةٌ تُطْلِعُها حكمةُ الله، وهذه شجرةٌ تُطْلِعُها أَهواءُ البشَر: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

لا التقاءَ بين الإسلام والجاهليَّة:

وهذهِ الجاهليَّةُ خبثَتْ قديمًا، وخبثَتْ حديثًا.. يختلفُ خَبَثُها في مظهرِه وشكلِه، ولكنَّه واحدٌ في مَغْرِسه وأَصلِه.. إنَّه هوى البشَرِ



الجُهَّالِ المغرضينَ، الَّذين لا يملكونُ التَّخلُّصَ من جهلِهم وغرضِهم، ومصلحةُ أَفرادٍ منهم، أَو طبقاتٍ، أَو أُممٍ، أَو أَجناسٍ يُغلِّبونَها على العدلِ والحقِّ والخيرِ؛ حتَّىٰ تجيءَ شريعةُ الله فتنسخَ هذا كلَّه، وتشرِّعَ للنَّاسِ جميعًا تشريعًا لا يشوبُه جهلُ البشرِ، ولا يلِّوثه هواهُم، ولا تميلُ به مصلحةُ فريقٍ منهم.

ولأَنَّ هذا هو الفارقُ الأَصيلُ بين طبيعةِ منهج الله ومناهجِ النَّاسِ، فإنَّه يستحيلُ الالتقاءُ بينهما في نظامٍ واحدٍ، ويستحيلُ التَّوفيقُ بينهما في وضعٍ واحدٍ، ويستحيلُ تلفيقُ منهجٍ نصفُهُ من هنا ونصفُه من هناك، وكما أَنَّ اللهَ لا يغفرُ أَنَّ يُشْركَ به؛ فكذلكَ هو لا يقبلُ منهجًا مع منهجه.. هذه كتلكَ سواءً بسواءٍ؛ لأَنَّ هذه هي تلكَ علىٰ وجهِ اليقينِ.

هذه الحقيقةُ ينبغي أَن تكونَ من القوَّةِ والوضوحِ في نفوسِنا ونحنُ نقدِّمُ الإسلامَ للنَّاسِ، بحيثُ لا نتلجلجُ في الإدلاءِ بها ولا نتلعثمُ، ولا ندَعُ النَّاسَ في شكٍّ منها، ولا نتركُهم حتَّىٰ يستيقنوا أَنَّ الإسلامَ حين يفيئونَ إليه سيبدِّلُ حياتَهم تبديلًا.. سيبدِّلُ تصوُّراتِهم عن الحياةِ كلِّها، كما سيبدِّلُ أَوضاعَهم كذلك، سيبدِّلُها ليعطيَهم خيرًا منها بما لا يقاسُ، سيبدِّلُها ليرفعَ تصوُّراتِهم ويرفعَ أَوضاعَهم، ويجعلَهم أَقربَ إلى المستوى الكريمِ اللَّائق بحياةِ الإنسانِ، ولن يبقيَ لهم شيئًا من أَوضاع الجاهليَّة الهابطةِ الَّتي هم فيها، اللَّهُمَّ إلَّا الجزيئاتِ الَّتي يتصادفُ أَن يكونَ لها من جزئيَّاتِ النِّظامِ الإسلاميّ شبيهٌ، وحتَّىٰ هذه لن تكونَ هي بعينِها؛ لأَنَّها ستكونُ مشدودةً إلىٰ

أَصلٍ كبيرٍ يختلفُ اختلافًا بيِّنًا عنِ الأَصلِ الَّذي هم مشدودونَ إليه الآن، أَصلِ الجاهليَّة النَّكِدِ الخبيثِ! وهو في الوقتِ ذاتِه لن يسلبَهم شيئًا من المعرفةِ «العلميَّةِ البحتةِ» بل سيدفعُها قويَّةً إلى الأَمامِ..

يجبُ أَلَّا ندعَ النَّاسَ؛ حتَّىٰ يدركُوا أَنَّ الإسلامَ ليس هو أَيَّ مذهبٍ من المذاهبِ الاجتماعيَّةِ الوضعيَّةِ، كما أَنَّه ليسَ أَيَّ نظامٍ من أَنظمةِ الحكمِ الوضعيَّةِ.. بشتَّىٰ أَسمائِها وشِيَاتِها[1] وراياتِها جميعًا.. وإنَّما هو الإسلامُ فقط! الإسلامُ بشخصيَّتِه المستقلَّةِ، وتصوُّرِه المستقلِّ، وأَوضاعِه المستقلَّة. الإسلامُ الَّذي يحقِّقُ للبشريَّة خيرًا مما تحلُم به كلِّه من وراءِ هذهِ الأَوضاع.

الإسلامُ الرَّفيعُ النَّظيفُ المتناسقُ الجميلُ الصَّادرُ مباشرةً من الله العليِّ الكبيرِ.

۞۞۞

الدَّعوةُ إلىٰ دينِ الإسلام تكونُ بالثِّقةِ والرَّحمةِ:

وحين ندركُ حقيقةَ الإسلام علىٰ هذا النَّحوِ، فإنَّ هذا الإدراكَ بطبيعتِه سيجعلُنا نخاطبُ النَّاسَ ونحن نقدِّمُ لهم الإسلامَ في ثقةٍ وقوَّةٍ، وفي عطفٍ كذلك ورحمةٍ.. ثقةِ الَّذي يستيقنُ أَنَّ ما معه هو الحقُّ، وأَنَّ ما عليه النَّاسُ هو الباطلُ.

---

(١) «الشِّيَةُ»: العلامَةُ، وأَصْلُها وشية، والجمعُ شِيَاتٌ مثلُ عِدَاتٍ. وهي في أَلوانِ البَهائِمِ سَوَادٌ في بَياضٍ أَو بالعكسِ.



وعطفِ الَّذي يرىٰ شِقْوةَ البشرِ، وهو يعرفُ كيفَ يسعدُهم، ورحمةِ الَّذي يرىٰ ضلالَ النَّاسِ وهو يعرفُ أَين الهدى الَّذي ليسَ بعدَه هدىً!

لن نتدسَّسَ إليهم بالإسلام تدسُّسًا، ولن نرَبِّتَ علىٰ شهواتِهم وتصوُّراتِهم المنحرفةِ.. سنكونُ صرحاءَ معهم غايةَ الصَّراحةِ، هذه الجاهليَّةُ الَّتي أَنتم فيها نجسٌ، واللهُ يريدُ أَنْ يطهِّركُم.. هذه الأوضاعُ الَّتي أَنتم فيها خَبَثٌ، واللهُ يريدُ أَنْ يطيِّبَكم، هذه الحياةُ الَّتي تحيونها دونٌ، واللهُ يريدُ أَنْ يرفعَكم.. هذا الَّذي أَنَّتم فيه شِقوةٌ وبؤسٌ ونَكَدٌ، والله يريدُ أَنْ يخفِّفَ عنكم ويرحمَكم ويسعدَكم..

والإسلامُ سيغيِّرُ تصوُّراتِكم وأَوضاعَكم وقيمَكم، وسيرفعُكم إلىٰ حياةٍ أُخرىٰ تنكرونَ معها هذه الحياةَ الَّتي تعيشونَها، وإلىٰ أَوضاعٍ أُخرىٰ تحتقرونَ معها أَوضاعَكم في مشارقِ الأَرض ومغاربِها، وإلىٰ قيمٍ أُخرىٰ تشمئزُّون معها من قيمِكم السَّائدةِ في الأَرض جميعًا..

وإذا كنتم أَنتم ـ لشِقْوَتِكُم ـ لم ترَوا صورةً واقعيَّةً للحياةِ الإسلاميَّة؛ لأَنَّ أَعداءَكم ـ أَعداءَ هذا الدِّين ـ يتكتَّلونَ للحيلولةِ دونَ قيامِ هذهِ الحياةِ، ودون تجسُّدِ هذهِ الصُّورةِ؛ فنحنُ قد رأَيناها ـ والحمدُ لله ـ ممثَّلةً في ضمائرِنا من خلال قرآنِنا وشريعتِنا وتاريخِنا وتصوُّرِنا المبدعِ للمستقبلِ الَّذي لا نشكُّ في مجيئِه!

۞۞۞

هكذا ينبغي أَنْ نخاطبَ النَّاسَ، ونحن نقدِّمُ لهم الإسلامَ؛ لأَنَّ هذه هي الحقيقةُ؛ ولأَنَّ هذه هي الصُّورةُ الَّتي خاطبَ الإسلامُ النَّاسَ بها أَوَّلَ مرَّةٍ؛ سواءٌ في الجزيرةِ العربيَّةِ أَم في فارسَ أَم في الرُّومِ، أَم في أَيِّ مكانٍ خاطبَ النَّاسَ فيه.

نظرَ إليهم من عَلٍ؛ لأَنَّ هذهِ هي الحقيقةُ، وخاطبَهم بلغةِ الحبِّ والعطفِ؛ لأَنَّه حقيقةٌ كذلك في طبيعتِه، وفاصَلَهم مفاصلةً كاملةً لا غموضَ فيها ولا تردُّدَ؛ لأَنَّ هذهِ هي طريقتُه.. ولم يقلْ لهم أَبدًا: إنَّه لنْ يمسَّ حياتَهم وأَوضاعَهم وتصوُّراتِهم وقيمَهم إلَّا بتعديلاتٍ طفيفةٍ! أَو أَنَّه يُشْبِهُ نُظُمَهم وأَوضاعَهم الَّتي أَلِفوهَا.. كما يقولُ بعضُنا اليومَ للنَّاسِ وهو يقدِّمُ إليهمُ الإسلامَ.. مرَّةً تحتَ عنوانِ: «**ديمقراطيَّةِ الإسلام**»! ومرَّةً تحتَ عنوانِ: «**اشتراكيَّةِ الإسلام**»! ومرَّةً بأَنَّ الأَوضاعَ الاقتصاديَّةَ والسِّياسيَّةَ والقانونيَّةَ القائمةَ في عالمِهم لا تحتاجُ من الإسلام إلَّا لتعديلاتٍ طفيفةٍ!! إلىٰ آخرِ هذا التَّدسُّسِ النَّاعمِ والتَّربيتِ على الشَّهواتِ![1]

---

(١) **تنبيه**: رأي سيِّد قُطُب رحمه الله في أُسلوب الدعوة هو امتداد للدعوة النبوية.. الَّتي اتفق عليها العلماء.. بأَنَّ على الدُّعاةِ تقديمَ حقائقِ الإسلامِ ومناهجِه ابتداءً.. وليس إيرادَ الشُّبهاتِ والرَّدَّ عليها.. ثمَّ إعطاءَ النَّاسِ ميزانَ الحقِّ، ودعوتَهم إلىٰ أُصولِ الدِّين، ومخاطبتَهم علىٰ قدرِ عقولِهم بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ والرَّحمةِ والشَّفقةِ، والتَّعرُّفَ علىٰ مداخلِ نفوسِهم وسيلةٌ لهدايتِهم، واستعمالَ الأَلفاظِ الشَّرعيَّةِ لدقَّتِها وانضباطِها، وتجنُّبَ الأَلفاظِ الدَّخيلةِ والملتويةِ.. كالشورىٰ والديمقراطيَّة!



الانتقالُ من الجاهليَّة إلى الإسلام:

كلَّا. إنَّ الأَمرَ مختلفٌ جدًّا، والانتقالُ من هذه الجاهليَّة الَّتي تعمُّ وجهَ الأَرض إلى الإسلام نقلةٌ واسعةٌ بعيدةٌ، وصورةُ الحياةِ الإسلاميَّة مغايرةٌ تمامًا لصورِ الحياةِ الجاهليَّة قديمًا وحديثًا، وهذهِ الشِّقوةُ الَّتي تعانيها البشريَّةُ لن يرفعَها عنها تغييراتٌ طفيفةٌ في جزئيَّاتِ النُّظم والأَوضاعِ، ولن ينجيَ البشرَ منها إلَّا تلكَ النَّقلةُ الواسعةُ البعيدةُ، النَّقلةُ من مناهجِ الخَلْقِ إلىٰ منهج الخالقِ، ومن نُظمِ البشرِ إلىٰ نظامِ ربِّ البشرِ، ومن أَحكامِ العبيدِ إلىٰ حكمِ ربِّ العبيدِ.

هذه حقيقةٌ. وحقيقةٌ مثلُها أَنْ نجهرَ بها ونصدعَ، وأَلَّا ندعَ النَّاسَ في شكٍّ منها ولا لَبْسٍ. وقد يكرهُ النَّاسُ هذا في أَوَّلِ الأَمرِ، وقد يجفلونَ منه ويُشفقونَ، ولكنَّ النَّاسَ كذلك كرهُوا مثلَ هذا وأَشفقُوا منه في أَوَّلِ العهدِ بالدَّعوةِ إلى الإسلام؛ أَجفَلوا وآذاهمْ أَنَّ يُحقِّرَ محمَّدٌ ﷺ تصوُّراتِهم، ويَعيبَ آلهتَهم، ويُنكرَ أَوضاعَهم، ويعتزلَ عاداتِهم وتقاليدَهم، ويتَّخذَ لنفسِه وللقلَّةِ المؤمنةِ معهُ أَوضاعًا وقيمًا وتقاليدَ غيرَ أَوضاعِ الجاهليَّة وقيمِها وتقاليدِها.

ثمَّ ماذا؟ ثمَّ فاؤوا إلى الحقِّ الَّذي لم يعجبْهم أَوَّلَ مرَّة، والَّذي أَجفلوا منه: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠ ـ ٥١].

والَّذي حاربُوه ودافعُوه بكلِّ ما يملكونَ من قوَّةٍ وحيلةٍ، والَّذي عذَّبوا أَهلَه عذابًا شديدًا وهم ضعافٌ في مكَّةَ، ثمَّ قاتلوهمْ قتالًا عنيدًا وهم أَقوياءُ في المدينة..

بداياتُ الدَّعوةِ:

ولم تكنِ الدَّعوةُ في أَوَّلِ عهدِها في وضعٍ أَقوىٰ ولا أَفضلَ منها الآنَ.. كانت مجهولةً مستنكرةً من الجاهليَّة، وكانت محصورةً في شِعابِ مكَّةَ، مطاردةً من أَصحابِ الجاه والسُّلطانِ فيها، وكانتْ غريبةً في زمانِها في العالمِ كلِّه، وكانت تَحُفُّ بها امبراطوريَّاتٌ ضخمةٌ عاتيةٌ تنكرُ كلَّ مبادئِها وأَهدافِها.

ولكنَّها مع هذا كلِّه كانت قويَّةً، كما هي اليومَ قويَّةٌ، وكما هي غدًا قويَّةٌ.. إنَّ عناصرَ القوَّةِ الحقيقيَّةِ كامنةٌ في طبيعةِ هذه العقيدة ذاتِها، ومن ثَمَّ فهي تملكُ أَنْ تعملَ في أَسوأِ الظُّروفِ وأَشدِّها حرجًا.

إنَّها تكمُنُ في الحقِّ البسيطِ الواضحِ الَّذي تقومُ عليه، وفي تناسقِها مع الفطرةِ الَّتي لا تملكُ أَن تقاومَ سلطانَها طويلًا، وفي قدرتِها علىٰ قيادةِ البشريَّةِ صُعُدًا في طريقِ التَّقدُّمِ، في أَيَّةِ مرحلةٍ كانت البشريَّةُ من التَّأَخُّرِ أَو التَّقدُّمِ الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ والعلميِّ والعقليِّ.. كما أَنَّها تكمنُ في صراحتِها هذه وهي تواجهُ الجاهليَّةَ بكلِّ قواها المادِّيَّةِ، فلا تَخْرِمُ حرفًا واحدًا من أُصولِها، ولا تربِّتُ علىٰ شهواتِ الجاهليَّة، ولا تتدسَّسُ إليها تدسُّسًا، إنَّما تصدعُ بالحقِّ صدعًا مع إشعار النَّاس بأَنَّها خيرٌ ورحمةٌ وبركةٌ.

واللهُ الَّذي خلقَ البشَرَ علمَ طبيعةَ تكوينِهم ومداخلَ قلوبِهم، ويعلمُ كيف تستجيبُ حين تصدعُ بالحقِّ صدعًا، في صراحةٍ وقوَّةٍ، وبلا تلعثمٍ ولا وصْوصَةٍ!



إنَّ النَّفسَ البشريَّةَ فيها الاستعدادُ للانتقالِ الكاملِ من حياةٍ إلىٰ حياةٍ، وذلك قدْ يكونُ أَيسرَ عليها من التَّعديلاتِ الجزئيَّةِ في أَحيانٍ كثيرةٍ.. والانتقالُ الكاملُ من نظامِ حياةٍ إلىٰ نظامٍ آخرَ أَعلىٰ منه وأَكملُ وأَنظفُ، انتقالٌ له ما يبرِّرُه في منطقِ النَّفسِ.. ولكن ما الَّذي يبرِّرُ الانتقالَ من نظامِ الجاهليَّة إلىٰ نظامِ الإسلام، إذا كان النِّظامُ الإسلاميُّ لا يزيدُ إلَّا تغييرًا طفيفًا هنا، وتعديلًا طفيفًا هناك؟

إنَّ البقاءَ على النِّظامِ المأْلوفِ أَقربُ إلى المنطقِ؛ لأَنَّه على الأَقلِّ نظامٌ قائمٌ، قابلٌ للإصلاحِ والتَّعديلِ؛ فلا ضرورةَ لطَرْحِه، والانتقالِ إلىٰ نظامٍ غيرِ قائمٍ ولا مطبَّقٍ، مادامَ أَنَّهُ شبيهٌ به في معظمِ خصائصِه!

۞۞۞

الإسلامُ قويٌّ بذاتِه:

كذلكَ نجدُ بعضَ الَّذينَ يتحدَّثونَ عن الإسلام يقدِّمونَه للنَّاسِ كأَنَّه مُتَّهمٌ يحاولونَ هم دفعَ التُّهمةِ عنه! ومن بيْنِ ما يدفعونَ به أَنَّ الأَنظمةَ الحاضرةَ تفعلُ كذا وكذا مما تعيبُ على الإسلام مثلَه، وأَنَّ الإسلامَ لم يصنعْ شيئًا ـ في هذه الأُمورـ إلَّا ما تصنعُه «**الحضاراتُ**» الحديثةُ بعد أَلفٍ وأَربعِ مئةٍ عامٍ!

وهَانَ ذلكَ دفاعًا! وساءَ ذلكَ دفاعًا!

إنَّ الإسلامَ لا يتَّخذُ المبرِّراتِ له من النُّظمِ الجاهليَّة والتَّصرُّفاتِ النَّكِدةِ الَّتي تنبعثُ منها. وهذه «**الحضاراتُ**» الَّتي تبهرُ الكثيرينَ

وتهزِمُ أَرواحَهم، ليستْ سوىٰ نظمٍ جاهليَّةٍ في صميمِها. وهي نظمٌ معيبةٌ مهلهلةٌ هابطةٌ حين تقاسُ إلى الإسلام.. ولا عبرةَ بأَنَّ حالَ أَهلِها بخيرٍ من حالِ السُّكانِ في ما يسمَّى الوطنَ الإسلاميَّ أَو «**العالَمَ الإسلاميَّ**»! فهؤلاءِ صاروا إلىٰ هذا البؤسِ بتركِهم للإسلام لا لأَنَّهم مسلمونَ.. وحجَّةُ الإسلام الَّتي يدلِي بها للنَّاسِ: أَنَّه خيرٌ منها بما لا يقاسُ، وأَنَّه جاءَ ليغيِّرَها لا ليقِرَّها، وليرفعَ البشريَّةَ عن وهدتِها لا ليباركَ تَمرُّغَها في هذا الوحلِ الَّذي يبدو في ثوبِ «**الحضارة**»..

فلا تبلغْ بنا الهزيمةُ أَن نتلمَّسِ للإسلام مشابهاتٍ في بعضِ الأَنظمةِ القائمةِ، وفي بعضِ المذاهبِ القائمةِ، وفي بعضِ الأَفكارِ القائمةِ؛ فنحنُ نرفضُ هذه الأَنظمةَ في الشَّرقِ أَو في الغربِ سواءً.. إنَّنا نرفضُها كلَّها لأَنَّها منحطَّةٌ ومتخلِّفةٌ بالقياسِ إلىٰ ما يريدُ الإسلامُ أَنَّ يبلغَ بالبشريَّةِ إليه.

وحين نخاطبُ النَّاسَ بهذه الحقيقةِ، ونقدِّمُ لهم القاعدةَ العقيديَّةَ للتَّصوُّرِ الإسلاميِّ الشَّاملِ، يكونُ لديهم في أَعماقِ فطرتِهم ما يبرِّرُ الانتقالَ من تصوُّرٍ إلىٰ تصوُّرٍ، ومن وضعٍ إلىٰ وضعٍ؛ ولكنَّنا لا نخاطبُهم بحُجَّةٍ مقنعةٍ حين نقولُ لهم: تعالَوا من نظامٍ قائمٍ فعلًا إلىٰ نظامٍ آخرَ غيرِ مطبَّقٍ، لا يغيِّرُ في نظامِكم القائم إلَّا قليلًا، وحجَّتُه إليكم أَنَّكم تفعلونَ في هذا الأَمرِ وذاك مثلَما يفعلُ هو، ولا يكلِّفُكم إلَّا تغييرَ القليلَ من عاداتِكم وأَوضاعِكم وشهواتِكم، وسيُبقي لكم كلَّ ما تحرِصونَ عليه منها ولا يمسُّه إلَّا مسًّا خفيفًا!



هذا الَّذي يبدو سهلًا في ظاهرِه، ليسَ مُغريًا في طبيعتِه، فضلًا علىٰ أَنَّه ليسَ هو الحقيقةَ.. فالحقيقةُ أَنَّ الإسلامَ يبدِّلُ التَّصوُّراتِ والمشاعرَ، كما يبدِّلُ النُّظمَ والأَوضاعَ، كما يبدِّلُ الشَّرائعَ والقوانينَ تبديلًا أَساسيًّا لا يَمتُّ بصلةٍ إلىٰ قاعدةِ الحياةِ الجاهليَّة، الَّتي تحياها البشريَّةُ.. ويكفي أَنْ ينقلَهم جملةً وتفصيلًا من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَهُ..

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

مُهمَّةُ الدُّعاةِ إلى الله:

والمسأَلةُ في حقيقتِها هي مسأَلةُ كفرٍ وإيمانٍ، مسأَلةُ شركٍ وتوحيدٍ، مسأَلةُ جاهليَّةٍ وإسلامٍ. وهذا ما ينبغي أَنْ يكونَ واضحًا.. إنَّ النَّاسَ ليسوا مسلمينَ ـ كما يدَّعونَ ـ وهم يَحْيَوْنَ حياةَ الجاهليَّة، وإذا كانَ فيهم من يحبُّ أَنْ يخدعَ نفسَه أَو يخدعَ الآخرينَ، فيعتقدَ أَنَّ الإسلامَ يمكنُ أَنْ يستقيمَ مع هذه الجاهليَّة فلهُ ذلك، ولكنَّ انخداعَه أَو خِداعَه لا يغيِّرُ من حقيقةِ الواقعِ شيئًا.. ليسَ هذا إسلامًا، وليسَ هؤلاءِ مسلمينَ، والدَّعوةُ اليومَ إنَّما تقومُ لتردَّ هؤلاءِ الجاهلينَ إلى الإسلام، ولتجعلَ منهم مسلمينَ من جديدٍ.

وظيفةُ الدَّاعيةِ التَّجرُّدُ للّه والإخلاصُ له:

ونحنُ لا ندعو النَّاسَ إلى الإسلام لننالَ منهم أَجرًا، ولا نريدُ علوًّا

في الأَرض ولا فسادًا، ولا نريدُ شيئًا خاصًّاً لأَنفسِنا إطلاقًا، وحسابُنا وأَجرُنا ليسَ على النَّاسِ؛ إنَّما نحنُ ندعو النَّاسَ إلى الإسلام لأَنَّنا نحبُّهم ونريدُ لهم الخيرَ.. مهما آذَونا؛ لأَنَّ هذه هي طبيعةُ الدَّاعيةِ إلى الإسلام، وهذه هي دوافعُه..

ومن ثَمَّ يجبُ أَنْ يعلموا منَّا حقيقةَ الإسلام، وحقيقةَ التَّكاليفِ الَّتي سيطلبُها إليهم، في مقابلِ الخيرِ العميقِ الَّذي يحملُه لهم، كما يجبُ أَنْ يعرفوا رأْيَنا في حقيقةِ ما هم عليهِ من الجاهليَّة.. إنَّها الجاهليَّةُ وليست في شيءٍ من الإسلام، إنَّها «**الهوىٰ**» ما دامَ أَنَّها ليستْ هي «**الشَّريعةَ**» إنَّها «**الضَّلالُ**» ما دام أَنَّها ليستْ هي الحقَّ.. فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ!

۞۞۞

الإسلامُ فوقَ الاتِّهام:

وليسَ في إسلامِنا ما نخجلُ منه، وما نضطرُّ للدِّفاعِ عنه، وليسَ فيه ما نتدسَّسُ به للنَّاسِ تدسُّسًا، أَو ما نتلعثمُ في الجهرِ به علىٰ حقيقتِه.. إنَّ الهزيمةَ الرُّوحيةَ أَمامَ الغربِ، وأَمامَ الشَّرقِ، وأَمامَ أَوضاعِ الجاهليَّة هنا وهناك، هي الَّتي تجعلُ بعضَ النَّاسِ.. «**المسلمين**».. يتلمَّسُ للإسلام موافقاتٍ جزئيَّةً من النُّظمِ البشريَّة، أَو يتلمَّسُ من أَعمالِ «**الحضارةِ**» الجاهليَّة ما يسندُ به أَعمالَ الإسلام، وقضاءَه في بعضِ الأُمور..

إنَّهُ إذا كانَ هناكَ من يحتاجُ للدِّفاعِ والتَّبريرِ والاعتذارِ؛ فليسَ هو الَّذي يقدِّمُ الإسلامَ للنَّاس.. وإنَّما هو ذاكَ الَّذي يحيا في هذه الجاهليَّة



المهلهلةِ المليئةِ بالمتناقضاتِ وبالنَّقائصِ والعيوبِ، ويريدُ أَن يتلمَّسَ المبرِّراتِ للجاهليَّةِ، وهؤلاءِ هم الَّذينَ يهاجمونَ الإسلامَ ويُلْجِئونَ بعضَ مُحِبِّيه الَّذين يجهلونَ حقيقتَه إلى الدِّفاعِ عنه، كأَنَّه متَّهمٌ مضطرٌّ للدِّفاعِ عن نفسِه في قفصِ الاتِّهام!

مواجهةُ سيِّد قُطُب للجاهليَّةِ الغربيَّةِ:

بعضُ هؤلاءِ كانوا يواجهونَنا ـ نحن القلائلَ المنتسبينَ إلى الإسلام في أَمريكا في السَّنواتِ الَّتي قضيتُها هناك ـ وكان بعضُنا يتَّخذُ موقفَ الدِّفاعِ والتَّبريرِ..

وكنتُ على العكسِ أَتَّخذُ موقفَ المهاجمِ للجاهليَّةِ الغربيَّةِ.. سواءٌ في معتقداتِها الدِّينيةِ المهلهلةِ، أَو في أَوضاعِها الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والأَخلاقيَّةِ المؤذيةِ.. هذه التَّصوُّراتُ عن الأَقانيمِ وعن الخطيئةِ وعن الفداءِ، وهي لا تستقيمُ في عقلٍ ولا ضميرٍ..

وهذه الرأْسماليَّةُ باحتكارِها ورِباها وما فيها من بشاعةٍ كالحةٍ.. وهذه الفرديَّةُ الأثرةُ الَّتي ينعدمُ معها التَّكافلُ إلَّا تحتَ مطارقِ القانونِ.. وهذا التَّصوُّرُ المادِّيُّ التَّافهُ الجافُّ للحياةِ.. وحرِّيَّةُ البهائمِ الَّتي يسمُّونَها «**حرِّيَّةَ الاختلاطِ**».. وسوقُ الرَّقيقِ الَّتي يسمُّونَها «**حرِّيَّةَ المرأَة**».. والسُّخفُ والحرجُ والتَّكلُّفُ المضادُّ لواقع الحياة في نظمِ الزَّواجِ والطَّلاقِ، والتَّفريقُ العنصريُّ الحادُّ الخبيثُ.. ثمَّ.. ما في الإسلام من منطقٍ وسُموٍّ وإنسانيَّةٍ وبشاشةٍ، وتطلُّعٍ إلىٰ آفاقٍ، تطَّلعُ البشريَّةُ دونَها ولا تبلغُها.

ومن مواجهةِ الواقعِ في الوقتِ ذاتِه، ومعالجتِه معالجةً تقومُ علىٰ قواعدِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ السَّليمةِ.

وكانت هذهِ حقائقَ نواجهُها في واقع الحياة الغربيَّةِ.. وهي حقائقُ كانت تُخْجِلُ أَصحابَها حين تعرضُ في ضوءِ الإسلام، ولكنَّ ناسًا ـ يدَّعون الإسلامَ ـ ينهزمونَ أَمامَ ذلك النتنِ الَّذي تعيشُ فيه الجاهليَّةُ، حتَّىٰ ليتلمَّسونَ للإسلام مشابهاتٍ في هذا الرِّكاب المضطربِ البائسِ في الغربِ، وفي تلك الشَّناعةِ المادِّيَّةِ البشعةِ في الشَّرقِ أَيضًا![1]

---

(١) سيِّد قُطُب رحمه الله عَرفَ المجتمعاتِ الجاهليَّةَ، و ورأَها عن كثبٍ، ودخلَ أَمريكا (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠م) وقرأَ كتبَهم.. ثمَّ كتبَ عنهم من مركزِ قوَّةٍ؛ بل هو يُعتبرُ من أَبرزِ الكُتَّابِ المعاصرينَ الَّذين نقدوا الحضارةَ الغربيَّةَ بعلمٍ وثقةٍ، وكشفوا عوراتها، وفضحوا الاستعمارَ الغربيَّ وأَطماعَه في العالمِ الإسلاميِّ، وقدَّم نقدًا لاذعًا للأَنظمة الرأْسماليَّة والشُّيوعيَّة..
ولعلَّ مقالَه الشَّهيرَ «إسلام أَمريكاني» الَّذي نُشرَ في «مجلة الرِّسالة» سنة (١٩٥٢م) يفضحُ سياسةَ أَمريكا وعملائها في المنطقة، وفيه يقولُ رحمه الله: (**الإسلامُ الَّذي يريدُه الأَميركان وحلفاؤهم في الشَّرقِ الأَوسطِ، ليسَ هو الإسلامَ الَّذي يقاومُ الاستعمارَ، وليس هو الإسلامَ الَّذي يقاومُ الطُّغيانَ؛ إنَّهم لا يريدونَ للإسلام أَن يحكمَ؛ لأَنَّ الإسلامَ حين يحكمُ سيُنَشِّئُ الشُّعوبَ نشأَةً أُخرىٰ، وسيعلِّمُ الشُّعوبَ أَنَّ إعدادَ القوَّةِ فريضةٌ، وأَنَّ طردَ المستعمرِ فريضةٌ، وأَنَّ الشُّيوعيَّةَ كالاستعمارِ وباءٌ؛ فكلاهما عدوٌّ**).
وكان رحمه الله يرىٰ أَنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ هي منبعُ الفسادِ الخلُقيِّ، ويصفُ أَمريكا بأَنها الورشةُ الَّتي تنقصُها الرُّوحُ، قال: (**حتَّى الحبُّ جسديٌّ حيوانيٌّ خالٍ من الرُّوحِ، حتَّى الغزلُ غيرُ موجودٍ فيه، فأَمريكا جميلةٌ لكنَّهم لا يعرفونَ إلَّا الشَّهوةَ**).
وقال: (**شعبٌ يبلغُ في عالمِ العلمِ والعملِ قمَّةَ النُّموِّ والارتقاءِ، بينما هو في عالمِ الشُّعورِ والسُّلوكِ بدائيٌّ لم يفارقْ مدارجَ البشريَّةِ الأُولىٰ؛ بل أَقلُّ من بدائيٍّ في بعضِ نواحي الشُّعورِ والسُّلوكِ**).
ومن فطنتِه وذكائه الثَّاقبِ ـ أَيضًا ـ أَنَّه انتقدَ العقليَّةَ الأَمريكيَّةَ.. حتَّىٰ في الأُمورِ التَّرفيهيَّةِ من الأَلعابِ ـ وخصوصًا لعبةَ كرةِ القدمِ الأَمريكية ـ وهو ما لمسَ فيه الاستهانةَ بالمُثل =



كيفَ نواجهُ الجاهليَّةَ حولنا؟

ولستُ في حاجةٍ بعد هذا إلىٰ أَنْ أَقولَ: إنَّنا نحنُ الَّذين نقدِّمُ الإسلامَ للنَّاسِ، ليس لنا أَنْ نجاريَ الجاهليَّةَ في شيءٍ من تصوُّراتِها، ولا في شيءٍ من أَوضاعِها، ولا في شيءٍ من تقاليدِها؛ مهما يشتدُّ ضغطُها علينا.

إنَّ وظيفتَنا الأُولىٰ هي إحلالُ التَّصوُّراتِ الإسلاميَّة، والتَّقاليدِ الإسلاميَّة في مكانِ هذه الجاهليَّة، ولن يتحقَّقَ هذا بمجاراةِ الجاهليَّة، والسَّيرِ معها خطواتٍ في أَوَّلِ الطَّريقِ، كما قد يُخَيَّلُ إلى البعضِ منَّا.. إنَّ هذا معناهُ إعلانُ الهزيمةِ منذُ أَوَّلِ الطَّريقِ..

= والمبادئ والأَخلاقِ! قال ﷺ: (ويبدو الأَمريكيُّ بدائيًّا في الإعجاب بالقوى العضليَّة، والقوى المادِّيَّة بوجهٍ عامٍّ: بقدرِ ما يستهينُ بالمثلِ والمبادئ والأَخلاقِ في حياتِه الفرديَّةِ وفي حياتِه العائليَّةِ وفي حياتِه الاجتماعيَّةِ، فيما عدا دائرةَ العملِ بأَنواعِه، وعلاقاتِ الاقتصادِ والمالِ. ومنظرُ الجماهيرِ وهي تتابعُ مبارياتِ كرةِ القدمِ على الطَّريقةِ الأَمريكيَّةِ الخشنةِ الَّتي ليسَ لها من اسمِها كرةِ القدمِ أَيُّ نصيبٍ، إذ إنَّ القدمَ لا تشتركُ في اللَّعبِ، إنَّما يحاولُ كلُّ لاعبٍ أَن يخطفَ الكرةَ بين يديهِ، ويجريَ بها ليقذفَ بها إلى الهدفِ، بينما يحاولُ لاعبو الفريقِ الآخرِ أَن يعوِّقوهُ بكلِّ وسيلةٍ، بكلِّ عنفٍ وكلِّ شراسةٍ، منظرُ الجماهيرِ وهي تتابعُ هذه اللُّعبةَ، أَو تشاهدُ حفلاتِ الملاكمةِ والمصارعةِ الوحشيَّةِ الدَّاميةِ، منظرُها في هياجِها الحيوانيِّ، المنبعثِ من إعجابِها بالعنفِ القاسي، وعدمِ التفاتِها إلىٰ قواعدِ اللَّعبِ وأُصولِه، بقدرِ ما هي مأْخوذةٌ بالدَّمِ السَّائلِ والأَوصالِ المهشَّمةِ، وصراخُها هاتفةً، كلٌّ يشجِّعُ فريقَه: حطِّمْ رأسَه، دقَّ عنقَه، هشِّمْ أَضلاعَه، اعجنْهُ عجينًا! هذا المنظرُ لا يدعُ مجالًا للشكِّ في بدائيَّةِ الشُّعورِ الَّتي تفتنُّ بالقوَّةِ العضليَّةِ وتهواها) انظر: «مجلة الرسالة» العدد: ٩٥٩. (أَمريكا الَّتي رأَيت).

إنَّ ضغْطَ التَّصوُّراتِ الاجتماعيَّةِ السَّائدةِ، والتقاليدِ الاجتماعيَّةِ الشَّائعةِ، ضغطٌ ساحقٌ عنيفٌ، وبخاصَّةٍ في دُنيا المرأَةِ.

والمرأَةُ المسلمةُ تواجِهُ في هذه الجاهليَّة ضغطًا قاسيًا مشؤومًا حقًّا.. ولكن لا بُدَّ ممَّا ليسَ منه بُدٌّ، لا بُدَّ أَن نَثْبُتَ أَوَّلًا، ولا بُدَّ أَن نستعليَ ثانيًا، ولا بُدَّ أَن نُريَ الجاهليَّةَ حقيقةَ الدَّرْكِ الَّذي هي فيهِ، بالقياسِ إلى الآفاقِ العُليا المشرقةِ للحياةِ الإسلاميَّة الَّتي نريدُها.

ولن يكونَ هذا بأَن نجاريَ الجاهليَّةَ في بعضِ الخطواتِ، كما أَنَّه لن يكونَ بأَنْ نقاطعَها الآنَ وننزويَ عنها وننعزلَ.. كلَّا؛ إنَّما هي المخالطةُ مع التَّميُّزِ، والأَخذُ والعطاءُ مع التَّرفُّعِ، والصَّدعُ بالحقِّ في مودَّةٍ، والاستعلاءُ بالإيمانِ في تواضعٍ.

والامتلاءُ بعد هذا كلِّه بالحقيقةِ الواقعةِ: وهي أَنَّنا نعيشُ في وسطِ جاهليَّةٍ، وأَنَّنا أَهدىٰ طريقًا من هذهِ الجاهليَّة، وأَنَّها نقلةٌ بعيدةٌ واسعةٌ، هذه النَّقلةُ من الجاهليَّة إلى الإسلام، وأَنَّها هوَّةٌ فاصلةٌ لا يقامُ فوقَها مَمَرٌّ للالتقاءِ في منتصفِ الطَّريقِ؛ ولكنْ لينتقلَ عليه أَهلُ الجاهليَّة إلى الإسلام، سواءٌ كانوا ممَّن يعيشونَ فيما يسمَّى الوطنَ الإسلاميَّ، ويزعمونَ أَنَّهم مسلمونَ، أَم كانوا يعيشونَ في غيرِ الوطنِ «الإسلاميِّ» وليخرجُوا من الظُّلماتِ إلى النُّور، ولينجُوا من هذه الشِّقوةِ الَّتي هم فيها، وينعمُوا بالخيرِ الَّذي ذقناه نحنُ الَّذينَ عرفْنا الإسلامَ وحاولْنا أَنَّ

نعيشَ بهِ.. وإلَّا فلنقلْ ما أَمرَ اللهُ ـ سبحانَه ـ رَسُولَه ﷺ أَنْ يقولَه:

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦][(١)].

---

(١) تنبيه: كلامُ سيِّد قُطُب رحمه الله هنا فيه ردٌّ واضحٌ وصريحٌ على الَّذين فهمُوه خطأً واتَّهموه بأَنَّهُ يدعو إلى المُفَاصلةِ الحسيَّةِ للمجتمعِ والعزلةِ، مثل: مقاطعةِ المساجدِ، والمدارسِ والجامعاتِ، ومؤسَّساتِ الدَّولةِ كالوظائفِ والتَّعليمِ، وممارسةِ أَعمالِ التِّجارةِ وغيرِها؛ بحجَّةِ أَنَّ عدمَ انسلاخِهم يجعلُهم يساهمونَ في تقويةِ المجتمع الكافرِ، بينما الواجبُ أَنْ يعملُوا علىٰ هدمِه!

* وفي حقيقةِ الأَمرِ فإنَّه رحمه الله يرىٰ أَنَّ المفاصلةَ مرحلتانِ: مفاصلةٌ شعوريَّةٌ ومفاصلةٌ عمليَّةٌ، قال رحمه الله: (**إنَّ الخُطوةَ الأُولى تبدأُ دعوةً للنَّاسِ بالدُّخولِ في الإسلام، والدينونةِ لله وحدَه بلا شريكٍ، ونبذِ الدَّينونةِ لأَحدٍ من خلقِه ـ في صورةٍ من صورِ الدَّينونةِ ـ ثمَّ ينقسمُ القومُ الواحدُ قسمينِ، ويقفُ المؤمنونَ الموحِّدونَ الَّذين يدينونَ لله وحدَه صفًّا ـ أَو أُمَّةً ـ ويقفُ المشركونَ الَّذين يدينونَ لأَحدٍ من خلقِ الله صفًّا آخرَ، ثمَّ يفاصلُ المؤمنونَ المشركينَ، ثمَّ يحقُّ وعدُ الله بنصرِ المؤمنينَ والتَّدميرِ على المشركينَ، كما وقعَ باطِّرادٍ علىٰ مدارِ التَّاريخِ البشريِّ، ولقد تطولُ فترةُ الدَّعوةِ قبلَ المفاصلةِ العمليَّةِ، ولكنَّ المفاصلةَ العقيديَّةَ الشُّعوريَّةَ يجبُ أَنْ تتمَّ منذُ اللَّحظةِ الأُولىٰ**). ج٤/ ص١٩٤٧ «الظلال» سورة هود.

* وفي توضيحِ مسأَلةِ العزلةِ والمفاصلةِ، قال أَيضًا: (**فلم تكنْ هناكَ عزلةٌ إلَّا العزلةَ بالتَّصوُّرِ الإيمانيِّ الجديدِ، وعدمِ خلطِه بأَيَّةِ رقعٍ غريبةٍ عنه في أَثناءِ التَّكوينِ النَّفسيِّ لهذه الجماعةِ، وكانت التَّربيةُ المستمرَّةُ متَّجهةً دائمًا إلى إنشاءِ هذا التَّصوُّرِ الإيمانيِّ الخاصِّ المميَّزِ، المنعزلِ بحقيقتِه وطبيعتِه عن التَّصوُّراتِ السَّائدةِ في العالمِ كلِّه يومذاك، وفي الجزيرةِ العربيَّةِ بصفةٍ خاصَّة. أَمَّا النَّاسُ الَّذين ينشأُ هذا التَّصوُّرُ المتميِّزُ في نفوسِهم فلم يكونوا بمعزلٍ عن واقعِ الحياة ومضطربِ الأَحداثِ، بل كانوا يصهرونَ في بوتقةِ الحوادثِ يومًا بعد يومٍ، ومرَّةً بعد مرَّةٍ، ويعادُ صهرُهم في الأَمرِ الواحدِ والخلقِ الواحدِ مرَّاتٍ كثيرةً، وتحتَ مؤثِّراتٍ متنوِّعةٍ**) ج٦/ ص٣٥٣٦. «الظلال» سورة الممتحنة. =

....

= **فمن خلال كلام سيِّد قُطُب** رحمه الله **تبيَّنَ**: أَنَّهُ يرى **المفاصلَة المعنويَّةَ** الَّتي تكونُ بالقلبِ، ولا يطَّلعُ عليها أَحدٌ إلَّا اللهُ، وهذه يجبُ أَنَ تكونَ اعتقاديَّةً؛ فلا محبَّةَ ولا مناصرةَ مع أَهلِ الباطلِ، وتكونُ في حالةِ القوَّةِ والمَنَعَةِ، أَو في حالةِ الاستضعافِ، ولا تمنعُ المفاصلةُ عنده من إحسانِ الصِّلةِ والمعاملةِ الطَّيِّبةِ مع الأَهلِ والأَقاربِ والنَّاسِ، وتقديم القدوةِ الطَّيِّبةِ لهم من حُسْنِ المعاشرةِ ماداموا لم يُظهروا العداءَ. وأَمَّا **المفاصلةُ العمليَّةُ**: فتكونُ في المعاملاتِ الماديَّةِ الظَّاهرةِ، وقد يكونُ في مسأَلةٍ، أَو بعضِ المواقفِ، مثلِ المعاصي، وفيما يخالَفُ به شرعُ اللهِ، فلا يخالطُهم، أَو يشاركُهم في باطلِهم، قال رحمه الله : **(حيث نعتزلُ النَّاسَ لأَنَّنا نحسُّ أَنَّنا أَطهرُ منهم روحًا، أَو أَطيبُ منهم قلبًا، أَو أَرحبُ منهم نفسًا، أَو أَذكىٰ منهم عقلًا، لا نكونُ قد صنعنا شيئًا كبيرًا، لقد اخترْنا لأَنفسِنا أَيسرَ السُّبلِ، وأَقلَّها مؤونةً! إنَّ العظمةَ الحقيقيَّةَ أَنْ نخالطَ هؤلاء النَّاسَ متشبِّعينَ بروحِ السَّماحةِ، والعطفِ علىٰ ضعفِهم ونقصِهم وخطئِهم، وروحِ الرَّغبةِ الحقيقيَّةِ في تطهيرِهم وتنقيتِهم ورفعِهم إلىٰ مستوانا بقدرِ ما نستطيعُ، إنَّه ليسَ معنىٰ هذا أَنْ نتخلَّىٰ عن آفاقِنا العُليا ومُثلِنا السَّاميةِ، أَو أَنْ نتملَّقَ هؤلاءِ النَّاسَ، ونثنيَ علىٰ رذائلِهم، أَو أَنْ نشعرَهم أَنَّنا أَعلىٰ منهم أُفقًا، إنَّ التَّوفيقَ بين هذهِ المتناقضاتِ وسعةَ الصَّدرِ لما يتطلَّبُه هذا التَّوفيقُ من جهدٍ هو العظمةُ الحقيقيَّةِ)**. «من الرِّسالةِ الَّتي كتبها سيِّد قُطُب إلىٰ أُختِه قبلَ إعدامِه مباشرةً».

فهل مثلُ هذا الرَّجلِ الرَّقيقِ رحمه الله الَّذي يعطفُ على النَّاسِ ويحثُّ علىٰ تقديم القدوةِ الطَّيِّبةِ لهم مع المعاشرةِ الحسنةِ؛ يقاطعُهم ويعاديهم ولا يتمنىٰ أَو يسعىٰ بالخيرِ لهم، أَو يحكمُ عليهم بالكفرِ؟!

ومن هنا تظهرُ جليًّا حقيقةُ موقفِه من أَمرِ العُزلةِ، أَو تكفيرِ المجتمع، وأَنَّه كانَ يدعو للتَّمييزِ والعزلةِ الشُّعوريَّةِ بالفهمِ الإسلاميِّ الصَّحيحِ الرَّاقي مع معايشةِ المجتمع، والقيامِ بواجبِ الدَّعوةِ فيه دونَ استعلاءٍ يدعو إلى الكبرِ، وإنَّما هو استعلاءٌ بالفهمِ الصَّحيحِ للإسلام؛ وهو الَّذي يجعلُنا لا نقبلُ بغيرِ الإسلام ونُظمِه وتشريعاتِه بديلًا.

***

* **أَمَّا تفسيرُه** لقولِ الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]. والَّتي فُهِمَ منها اعتزالُ المجتمع ذاتِه، فإنَّما كانَ يقصدُ اعتزالَ جاهليَّةِ المجتمع، وفي حالِ مطاردةِ المؤمنينَ، فيقولُ في تفسيرِ الآيةِ: (**أَوحى اللهُ إلىٰ موسى وهارون أَن يتَّخذا لبني إسرائيلَ بيوتًا خاصَّةً بهم، وذلك لفرزِهم وتنظيمِهم استعدادًا للرَّحيلِ من مصرَ في** =

....

= الوقتِ المختارِ؛ وكلَّفهم تطهيرَ بيوتِهم، وتزكيةَ نفوسِهم، والاستبشارَ بنصرِ اللهِ، وتلك هي التَّعبئةُ الرُّوحيَّةُ إلى جوارِ التَّعبئةِ النِّظاميَّة، وهما معًا ضروريَّتانِ للأَفرادِ والجماعاتِ، وبخاصَّةٍ قبيلَ المعاركِ والمشقَّاتِ.

ولقد يستهينُ قومٌ بهذه التَّعبئةِ الرُّوحيَّةِ، ولكنَّ التَّجاربَ ما تزالُ إلى هذه اللَّحظةِ، تنبئُ بأَنَّ العقيدةَ هي السَّلاحُ الأَوَّلُ في المعركةِ، وأَنَّ الأَداةَ الحربيَّةَ في يدِ الجنديِّ الخائرِ العقيدة لا تساوي شيئًا كثيرًا في ساعةِ الشِّدَّةِ، وهذه التَّجربةُ الَّتي يعرضُها الله على العصبةِ المؤمنةِ ليكونَ لها فيها أُسوةٌ، ليست خاصَّةً ببني إسرائيلَ، فهي تجربةٌ إيمانيَّةٌ خالصةٌ.

وقد يجدُ المؤمنونَ أَنفسَهم ذاتَ يومٍ مطاردينَ في المجتمع الجاهليِّ، وقد عمَّتِ الفتنةُ وتجبَّرَ الطَّاغوتُ، وفسدَ النَّاسُ، وأَنتنتِ البيئةُ ـ وكذلك كانَ الحالُ على عهدِ فرعونَ في هذهِ الفترةِ ـ وهنا يرشدُهم اللهُ إلى أُمورٍ:

ـ اعتزالُ الجاهليَّة بنتنِها وفسادِها وشرِّها ـ ما أَمكنَ ذلك ـ وتجمُّعُ العصبةِ المؤمنةِ الخيِّرةِ النَّظيفةِ علىٰ نفسِها، لتطهِّرَها وتزكِّيَها، وتدرِّبَها وتنظِّمها، حتَّىٰ يأْتيَ وعدُ الله لها.

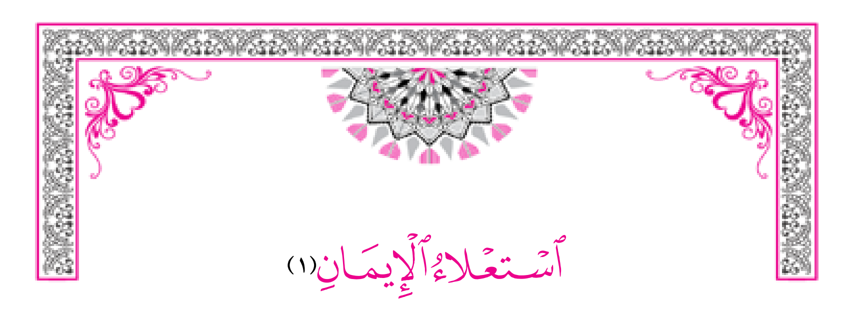
ـ اعتزالُ معابدِ الجاهليَّة واتِّخاذُ بيوتِ العصبةِ المسلمة مساجدَ، تحسُّ فيها بالانعزالِ عن المجتمع الجاهليِّ؛ وتزاولُ فيها عبادتَها لربِّها على نهجٍ صحيحٍ؛ وتزاولُ بالعبادةِ ذاتِها نوعًا من التَّنظيمِ في جوِّ العبادةِ الطَّهورِ).

ففكرة التَّعبئةِ هذه لا شيءَ يمنعُها؛ فبنو إسرائيلَ قد اضْطُهِدُوا، ولم يستطيعوا ممارسةَ العبادةِ علانيةً في المجتمع.. فأَمرَهم اللهُ بالصَّلاةِ في البيوتِ.

فمن سنَّةِ الإسلام وهديِ نبيِّه ﷺ أَنْ يُصلِّيَ المسلمُ النَّوافلَ في بيتِه، أَمَّا الفرائضُ فلا تُصلَّىٰ في البيوتِ؛ بل القولُ الرَّاجحُ وجوبُ صلاةِ الجماعةِ في المساجدِ إلَّا لعذرٍ شرعيٍّ، أَو كانتْ هناكَ فتنةٌ، أَو أَصبحتِ المساجدُ مصيدةً للقبضِ على المسلمِ وسجنِه وإيذائِه، كما جرىٰ ذلك في أَكثرِ الدُّولِ الإسلاميَّة، وعاشَ المسلمونَ هذهِ الحقيقةَ!

فسيِّد قُطُب إذًا يتحدَّثُ عن احتماليَّةِ مطاردةِ المجتمع الجاهليِّ ـ كمثلِ عهدِ فرعونَ ـ للمؤمنينَ، وأَنْ تعمَّ الفتنةُ، ويتجبَّرَ الطَّاغوتُ، ويفسدَ النَّاسُ والبيئةُ.

ومن الظُّلمِ والإجحافِ أَنْ نقولَ: إنَّ سيِّدًا أَفتىٰ بالصَّلاةِ في البيوتِ، وعدمِ الصَّلاةِ في المساجدِ، واعتزالِ المجتمع؟! ونقدِّم فكرَه وكتاباتِه علىٰ أَنَّ هذه هيَ قضيَّتُه؟!



ٱسۡتِعۡلَاءُ ٱلۡإِيمَانِ(١)

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦].

أَوَّلُ ما يتبادرُ إلى الذِّهنِ من هذا التَّوجيهِ، أَنَّه يَنصبُّ علىٰ حالةِ الجهاد الممثَّلةِ في القتالِ.. ولكنَّ حقيقةَ هذا التَّوجيهَ ومداهُ أَكبرُ وأَبعدُ من هذه الحالةِ المفردةِ، بكلِّ ملابساتِها الكثيرةِ.

---

(١) من روائعِ ما طرحَه سيِّد قُطُب ﷺ هو «استعلاءُ الإيمانِ»: فَبِهِ يصبرُ العبدُ علىٰ مشاقِّ هذا الطَّريقِ الوعِرِ الَّذي لن ينتهيَ بمُلكٍ أَو سلطانٍ، أَو تمكينٍ في الأَرض، ولكنَّه ينتهي في رحابِ اللهِ، والشَّهادةِ في سبيلِ الله؛ فاعتزازُ المؤمنِ بربِّه ودِينِه ونفسِه يمنَحُهُ طاقةَ المواجهةِ: مواجهةِ الحياةِ بالعملِ الطَّيِّبِ، ومواجهةَ المحتاجينَ بكلِّ عونٍ شريفٍ، ومواجهةِ أَعداءِ الدِّينِ والحقِّ بالقوَّةِ والصَّلابةِ والشُّموخِ.. إنَّ المؤمنَ هو الأَعلىٰ.. أَعلىٰ سندًا ومصدرًا، وأَعلىٰ ضميرًا وشعورًا وخلقًا وسلوكًا، وأَعلىٰ شريعةً ومنهاجًا.. واستعلاءُ الإيمانِ يجعَلُ الحقيقةَ الإيمانيَّةَ في نظَرِ صاحبها أَقوىٰ وأَثرىٰ من أَقطارِ هذه الأَرض بما جمعَت، ويبعَثُ فيه الحميَّةَ الَّتي لا تعرِفُ التَّوقُّفَ ولا المهانةَ.. فإذا هو الكاسبُ في كلِّ حالٍ؛ إن انتَصَر.. فهذا كَسْبٌ عظيمٌ، وإن استُشهِدَ.. فذاك كسبٌ أَعظمُ؛ لذلك كان المؤمنُ مِن واقعِ هذه العزَّةِ، ومِن مَعِينِ هذا الاستعلاءِ الإيمانيِّ، مُطالَبًا بالتَّمسُّكِ بحقِّه، وعدم التَّفريطِ فيه، أَو النُّزولِ عن بعضِه. فمشروعُ سيِّد قُطُب ﷺ مشروعٌ متكاملٌ ربَّانيٌّ.. إيمانيٌّ.. تربويٌّ؛ مادَّتُه مُستقاةٌ من الوحيينِ الشَّريفينِ، وأُسوتُه مدرسةُ دارِ الأَرقمِ المكيَّةُ.. وما عانىٰ أَصحاب هذه المدرسة النبوية من المعاناة الشَّديدة.. كما أَنَّ نموذجه الحيِّ الَّذي يُقتدىٰ به في الاستعلاءِ بالإيمانِ؛ هو ذلك العملاقُ الشَّامخُ.. الشُّجاعُ.. الصَّابرُ.. الثَّابتُ ثبوتَ جبالِ مكَّةَ الشَّامخاتِ.. العبدُ الأَسودُ.. الَّذي لا وزنَ له في العُرفِ، ولا قيمةَ له في المجتمع؛ بل كان يُباعُ ويُشترىٰ كأَيٍّ بضاعةٍ مزجاة! وفَجْأَةً يتحوَّلُ هذا =



إِنَّه يمثِّلُ الحالةَ الدَّائمةَ الَّتي ينبغي أَن يكونَ عليها شُعورُ المؤمنِ وتصوُّرُه وتقديرُه للأَشياءِ، والأَحداثِ، والقِيَم، والأَشخاصِ سواءً.

إِنَّه يمثِّلُ حالةَ الاستعلاءِ الَّتي يجبُ أَن تستقرَّ عليها نفسُ المؤمنِ إزاءَ كلِّ شيءٍ، وكلِّ وضعٍ، وكلِّ قيمةٍ، وكلِّ أَحدٍ، الاستعلاءِ بالإيمانِ وقيَمِه علىٰ جميعِ القِيَم المنبثقةِ من أَصلٍ غيرِ أَصلِ الإيمان.

الاستعلاءُ علىٰ قوى الأَرض الحائدةِ عن منهج الإيمان، وعلىٰ قيمِ الأَرض الَّتي لم تنبثِقْ من أَصلِ الإيمانِ، وعلىٰ تقاليدِ الأَرض الَّتي لم يَصُغْها الإيمانُ، وعلىٰ قوانينِ الأَرض الَّتي لم يشرِّعْها الإيمانُ، وعلىٰ أَوضاعِ الأَرض الَّتي لم يُنشئْها الإيمانُ.

الاستعلاء.. مع ضعفِ القوَّةِ، وقلَّةِ العددِ، وفقرِ المالِ، كالاستعلاءِ مع القوَّةِ والكثرةِ والغنىٰ على السَّواءِ.

= العبدُ الحبشيُّ بعد انتسابِه لمدرسةِ دارِ الأَرقمِ الإيمانيَّةِ.. إلىٰ بطلٍ صنديدٍ مغوارٍ، يواجهُ أَئمَّةَ الكُفرِ وأَسيادَها.. في صحراءِ مكَّةَ الحارقةِ؛ فينتصرُ عليهم باستعلائِه بإيمانِه في ثلاثةِ أَيَّام انتصارًا عظيمًا، يُسجِّلُهُ التَّاريخُ الإسلاميُّ في صدارتِه.. ويدخلُه من أَوسعِ أَبوابِه.. ثمَّ يدخلُ في دارِ الآخرةِ، جنَّةِ الخُلدِ بين يديْ مَن لا يُفتحُ بابُ الجنَّةِ إلَّا لَهُ.. عليه أَفضلُ الصَّلاةِ وأَتمُّ التَّسليمِ!

فمشروعُ سيِّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشروعُ تجديدِ إيمانِ المؤمنِ بمبادئِ دينِه العظيمِ.. وشحذِ هممِه نحو نهضةِ أُمَّتِه المجيدةِ.. وصناعةِ مستقبلٍ أَفضلَ لها مع شريعةِ الله؛ تضمنُ السِّيادةَ والرِّيادةَ على المعمورةِ.. والسَّعادةَ في الدَّارينِ.. والتَّحذيرَ الدَّائمَ من الخضوعِ لنمطيَّةِ الواقعِ والتَّحريرِ منها، أَو التَّقولبِ في عصرٍ من العصورِ البائسةِ الفاشيةِ، وإنَّما عصرُ السَّعادةِ؛ هو العصرُ النَّبويُّ.. عصرُ الجيلِ القرآنيِّ الفريدِ.. بمرحلتيهِ المكِّيَّةِ والمدنيَّةِ؛ هو عصرُ الإسلام الحقِّ.. الَّذي يؤسِّسُ لحضارةٍ جديدةٍ.. يُظلُّها شرعُ الله الحكيمُ، وهديُه القويمُ.

الاستعلاءُ الَّذي لا يتهاوىٰ أَمامَ قوَّةٍ باغيَةٍ، ولا عُرفٍ اجتماعيٍّ ولا تشريعٍ باطلٍ، ولا وضْعٍ مقبولٍ عندَ النَّاسِ ولا سندَ له منَ الإيمانِ.

وليست حالةُ التَّماسكِ والثَّباتِ في الجهاد؛ إلَّا حالةً واحدةً من حالاتِ الاستعلاءِ الَّتي يشملُها هذا التَّوجيهُ الإلهيُّ العظيمُ.

۞۞۞

الاستعلاءُ على المجتمع المنحرفِ:

والاستعلاءُ بالإيمانِ ليسَ مجرَّدَ عَزْمةٍ مفردةٍ، ولا نَخْوةٍ دافعةٍ، ولا حماسةٍ فائرةٍ؛ إنَّما هو الاستعلاءُ القائمُ على الحقِّ الثَّابتِ المركوزِ في طبيعةِ الوجودِ، الحقِّ الباقي وراءَ منطقِ القوَّةِ، وتصوُّرِ البيئةِ، واصطلاحِ المجتمع، وتعارفِ النَّاسِ؛ لأَنَّه موصولٌ باللهِ الحيِّ الَّذي لا يموتُ.

إنَّ للمجتمعِ منطقَه السَّائدَ، وعُرفَه العامَّ، وضغطَه السَّاحقَ، ووزنَه الثَّقيلَ علىٰ مَن ليسَ يحتمي منه بركنٍ ركينٍ، وعلىٰ مَن يواجهُه بلا سندٍ متينٍ.. وللتَّصوُّراتِ السَّائدةِ والأَفكارِ الشَّائعةِ إيحاؤهما الَّذي يصعبُ التَّخلُّصُ منه بغيرِ الاستقرارِ علىٰ حقيقةٍ تَصغُرُ في ظلِّها تلك التَّصوُّراتُ والأَفكارُ، والاستمدادِ من مصدرٍ أَعلىٰ من مصدرِها وأَكبرَ وأَقوىٰ.

والَّذي يقفُ في وجهِ المجتمعِ، ومنْطقِه السَّائدِ، وعُرفِه العامِّ، وقيَمِه واعتباراتِه، وأَفكارِه وتصوُّراتِه، وانحرافاتِه ونزواتِه.. يشعرُ بالغُربةِ كما يشعرُ بالوهنِ، ما لم يكنْ يستندُ إلىٰ سندٍ أَقوىٰ من النَّاسِ، وأَثبتَ من الأَرضِ، وأَكرمَ منَ الحياةِ.



واللهُ لا يتركُ المؤمنَ وحيدًا يواجهُ الضَّغطَ، وينوءُ به الثِّقلُ، ويهدُّه الوهنُ والحُزنُ، ومن ثمَّ يجيءُ هذا التَّوجيهُ:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يجيءُ هذا التَّوجيهُ ليواجهَ الوهنَ كما يواجهُ الحزنَ، هما الشُّعورانِ المباشرانِ اللَّذانِ يُساورانِ النَّفسَ في هذا المقامِ.. يواجهُهما بالاستعلاءِ لا بمجرَّدِ الصَّبرِ والثَّباتِ، الاستعلاءِ الَّذي ينظرُ من عَلٍ إلى القوَّةِ الطَّاغيَّةِ، والقِيَم السَّائدةِ، والتَّصوُّراتِ الشَّائعةِ، والاعتباراتِ والأَوضاعِ والتَّقاليدِ والعاداتِ، والجماهيرِ المتجمِّعةِ على الضَّلالِ.

علوُّ المؤمنِ في عقيدتِه وسلوكِه:

إنَّ المؤمنَ هو الأَعلىٰ.. الأَعلىٰ سندًا ومصدرًا.. فما تكونُ الأَرضُ كلُّها؟ وما يكونُ النَّاسُ؟ وما تكونُ القِيَمُ السَّائدةُ في الأَرض؟ والاعتباراتُ الشَّائعةُ عند النَّاسِ؟ وهو من الله يتلقَّىٰ، وإلى الله يرجعُ، وعلىٰ منهجه يسيرُ؟

وهو الأَعلىٰ إدراكًا وتصوُّرًا لحقيقةِ الوجودِ.. فالإيمانُ بالله الواحدِ في هذه الصُّورةِ الَّتي جاءَ بها الإسلامُ هو أَكملُ صورةٍ للمعرفةِ بالحقيقةِ الكبرىٰ، وحين تقاسُ هذه الصُّورةُ إلىٰ ذلكَ الرُّكامِ من التَّصوُّراتِ والعقائدِ والمذاهبِ، سواءٌ ما جاءتْ به الفلسفاتُ الكبرىٰ قديمًا، وما انتهتْ إليه العقائدُ الوثنيَّةُ والكتابيَّةُ المحرَّفةُ، وما اعْتسَفَتْه[1] المذاهبُ المادِّيَّةُ الكالحةُ.. حين تُقَاسُ هذه الصُّورةُ

---

(١) «اعْتَسَفَه»: استخدمَهُ، واعْتَسَفَ: عَسَفَ فِي الأَمْرِ، أي: فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ وَلَا رَوِيَّةٍ. والمعنى: اسْتخدمته ومَشَت به على غير هُدًى.

المشرقةُ الواضحةُ الجميلةُ المتناسقةُ، إلىٰ ذلكَ الرُّكامِ وهذهِ التَّعسُّفاتِ، تتجلَّىٰ عظمةُ العقيدة الإسلاميَّة كما لم تَتَجَلَّ قطُّ. وما من شكٍّ أَنَّ الَّذينَ يعرفونَ هذه المعرفةَ هم الأَعلونَ علىٰ كلِّ مَن هناك[1].

وهو الأَعلىٰ تصوُّرًا للقيمِ والموازينِ الَّتي تُوزَنُ بها الحياةُ و«الأَحداثُ والأَشياءُ والأَشخاصُ» فالعقيدةُ المنبثقةُ عن المعرفةِ باللهِ، بصفاتِه كما جاءَ بها الإسلامُ، ومن المعرفةِ بحقائقِ القِيَم في الوجودِ الكبيرِ لا في ميدانِ الأَرض الصَّغيرِ.

هذه العقيدةُ من شأْنها أَنْ تمنحَ المؤمنَ تصوُّرًا للقيمِ أَعلىٰ وأَضبطَ من تلكَ الموازينِ المختلفةِ في أَيدي البشرِ، الَّذين لا يدركونَ إلَّا ما تحتَ أَقدامِهم، ولا يَثبُتونَ علىٰ ميزانٍ واحدٍ في الجيلِ الواحدِ؛ بل في الأُمَّة الواحدةِ؛ بل في النَّفسِ الواحدةِ من حينٍ إلىٰ حينٍ.

وهو الأَعلىٰ ضميرًا وشعورًا، وخُلقًا وسلوكًا؛ فإنَّ عقيدتَه في الله ذي الأَسماءِ الحُسنىٰ، والصِّفاتِ المُثلىٰ، هي بذاتِها موحيةٌ بالرِّفعةِ والنَّظافةِ والطَّهارةِ والعفَّة والتَّقوىٰ، والعملِ الصَّالحِ والخلافةِ الرَّاشدةِ. فضلًا علىٰ إيحاءِ العقيدة عن الجزاءِ في الآخرةِ، الجزاءِ الَّذي تهونُ أَمامَه متاعبُ الدُّنيا وآلامُها جميعًا، ويطمئنُّ إليه ضميرُ المؤمنِ، ولو خرجَ من الحياةِ الدُّنيا بغيرِ نصيبٍ.

وهو الأَعلىٰ شريعةً ونظامًا، وحين يراجعُ المؤمنُ كلَّ ما عرفتْه البشريَّةُ قديمًا وحديثًا، ويقيْسُه إلىٰ شريعتِه ونظامِه، فسيراهُ

---

(١) يُراجع: فصل (تيه وركام) في كتاب: «خصائص التَّصوُّر الإسلامي ومقوماته» **(المُؤَلِّف)**.

كلُّهُ أَشبَه شيءٍ بمحاولاتِ الأَطفالِ وخبْطِ العُمْيانِ، إلىٰ جانبِ الشَّريعةِ النَّاضجةِ والنِّظامِ الكاملِ، وسينظرُ إلى البشريَّةِ الضَّالَّةِ من علٍ في عطفٍ وإشفاقٍ علىٰ بؤسِها وشِقْوتها، ولا يجدُ في نفسِه إلَّا الاستعلاءَ علىٰ الشِّقوةِ والضَّلالِ.

۞۞۞

وهكذا كان المسلمونَ الأَوائلُ يقفونَ أَمام المظاهرِ الجوفاءِ، والقوى المُتنفِّجةِ[1]، والاعتباراتِ الَّتي كانت تتعبَّدُ النَّاسَ في الجاهليَّة.. **والجاهليَّةُ ليست فترةً من الزَّمانِ، وإنَّما هي حالةٌ من الحالاتِ تتكرَّرُ كلَّما انحرفَ المجتمعُ عن نهجِ الإسلام، في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ على السَّواء..**

۞۞۞

استعلاءُ الإيمانِ، وموقفٌ للمغيرةِ بنِ شعبةَ:

هكذا وقفَ المغيرةُ بنُ شُعبةَ أَمامَ صورِ الجاهليَّة وأَوضاعِها وقيمِها وتصوُّراتِها في معسكرِ رستمَ قائدِ الفُرسِ المشهورِ: (عن أَبي عثمانَ النَّهديِّ قال: لمَّا جاءَ المغيرةُ إلى القَنطرةِ، فعبَرها إلىٰ أَهلِ فارسَ أَجلسُوه، واستأْذنوا رستمَ في إجازتِه، ولم يُغيِّروا شيئًا من شارتِهم تقويةً لتهاونِهم، فأَقبلَ المغيرةُ بنُ شعبةَ والقومُ في زِيِّهم، عليهم التِّيجانُ والثِّيابُ المنسوجةُ بالذَّهبِ، وبُسُطهم علىٰ غَلْوةٍ ـ والغَلوةُ: مسافةُ رميةِ سهمٍ وتقدَّر بثلاثِ مئةٍ أَو أَربعِ مئةِ خُطوةٍ ـ لا يصلُ إلىٰ صاحبِهم حتَّىٰ

(١) «**المُتنفِّجةِ**»: نَفَجْتُ الشيءَ فانْتفج؛ أَي: رفَعتُه وعظَّمْتُه. فمعناه: التَّعاظُم والتَّكبُّر والخُيَلاء.

يمشيَ علىٰ غَلوةٍ، وأَقبلَ المغيرةُ ولهُ أَربعُ ضفائرَ يمشِي؛ حتَّىٰ جلسَ علىٰ سريرِه ووسادتِه، فوثبُوا عليهِ فترترُوه وأَنزلُوه ومغثُوه[١]، فقال: كانتْ تَبلُغُنا عنكمُ الأَحلامُ، ولا أَرىٰ قومًا أَسفهَ منكُم، إنا معشرَ العربِ سواءٌ لا يستعبدُ بعضُنا بعضًا، إلَّا أَنْ يكونَ محاربًا لصاحبِه، فظننتُ أَنَّكم تواسونَ قومَكم كما نتواسىٰ، وكان أَحسنَ من الَّذي صنعتُم أَن تخبرونِي أَنَّ بعضَكم أَربابُ بعضٍ، وأَنَّ هذا الأَمرَ لا يستقيمُ فيكُم، فلا نصنعَه.. ولم آتِكُم، ولكنْ دعوتمُوني.. اليومَ علمتُ أَنَّ أَمرَكم مضمحلٌّ، وأَنَّكم مغلوبونَ، وأَنَّ مُلْكًا لا يقومُ علىٰ هذه السِّيرةِ، ولا علىٰ هذهِ العقولِ).

موقفٌ لربعيٍّ بنِ عامرٍ:

كذلك وقفَ ربعيٌّ بنُ عامرٍ مع رستمَ هذا وحاشيتِه قبلَ وقعةِ القادسيَّةِ: (أَرسلَ سعدُ بنُ أَبي وقاصٍ قبلَ القادسيَّةِ ربعيَّ بنَ عامرٍ رسولًا إلىٰ رستمَ قائدِ الجيوشِ الفارسيَّةِ وأَميرِهم؛ فدخلَ عليهِ وقد زيَّنوا مجلسَه بالنَّمارقِ والزَّرابيِّ الحريرِ[٢]، وأَظهرَ اليواقيتَ واللَّآلئَ الثَّمينةَ العظيمةَ، وعليهِ تاجُه، وغيرُ ذلك من الأَمتعةِ الثَّمينةِ، وقد جلسَ علىٰ سريرٍ من ذهبٍ، ودخلَ ربعيٌّ بثيابٍ صَفيقةٍ وتُرْسٍ وفَرَسٍ قصيرةٍ، ولم يزلْ راكبَها حتَّىٰ داسَ بها علىٰ طرفِ البساطِ، ثم نزلَ وربطَها ببعضِ تلكَ الوسائدِ، وأقبَلَ وعليه سلاحُه وبيضتُه

---

(١) «**ترترُوه**»: حرَّكوه وزعزعُوه. «**ومغثوه**»: صرعُوه (المُؤَلِّف).

(٢)« **النَّمارق** »: الوسائد والحشايا للاتِّكاء. و«**الزَّرابيُّ**»: البُسط المخملة (المُؤَلِّف).



علىٰ رأسِه. فقالوا له: ضَعْ سلاحَكَ. فقال: إنِّي لم آتِكم، وإنَّما جئتُكم حين دَعَوتُمُوني، فإنْ تركتمُوني هكذا وإلَّا رجعتُ. فقالُ رستمُ: ائذنُوا له. فأَقبلَ يتوكَّأُ علىٰ رمحِه فوقَ النَّمارقِ فخرَّق عامَّتها. فقالَ له رستمُ: ما جاءَ بكم؟ فقالَ: **اللهُ ابتعثنا لنُخرجَ من شاءَ من عبادةِ العبادِ إلىٰ عبادةِ الله وحدَهُ، ومن ضيقِ الدُّنيا إلىٰ سعةِ الدُّنيا والآخرةِ، ومن جَورِ الأَديانِ إلىٰ عدلِ الإسلام**) .

۞۞۞

المؤمنُ القابضُ على الجمرِ:

وتتبدَّلُ الأَحوالُ ويقفُ المسلمُ موقفَ المغلوبِ المجرَّدِ من القوَّةِ المادِّيَّةِ؛ فلا يفارقُه شعورُه بأَنَّه الأَعلىٰ، وينظرُ إلىٰ غالبِه من علٍ ما دامَ مؤمنًا، ويستيقنُ أَنَّها فترةٌ وتمضيْ، وأَنَّ للإيمانِ كرَّةً لا مفرَّ منها، وهَبْها كانتِ القاضيةَ؛ فإنَّه لا يحنِي لها رأْسًا، إنَّ النَّاسَ كلَّهم يموتونَ، أَمَّا هو فيُستَشهَدُ، وهو يغادرُ هذه الأَرضَ إلى الجنَّةِ، وغالبُه يغادرُها إلى النَّارِ. وشتَّانَ شتَّانَ.. وهو يسمعُ نداءَ ربِّهِ الكريمِ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ * لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾

[آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٨].

وتسودُ المجتمعَ عقائدُ وتصوُّراتٌ وقيمٌ وأَوضاعٌ كلُّها مغايرٌ لعقيدتِه وتصوُّرِه وقيمِه وموازينِه؛ فلا يفارقُه شعورُه بأَنَّه الأَعلىٰ،

وبأَنَّ هؤلاءِ كلَّهم في الموقفِ الدُّونِ، وينظرُ إليهمْ من علٍ في كرامةٍ واعتزازٍ، وفي رحمةٍ كذلك وعطفٍ، ورغبةٍ في هدايتِهم إلى الخيرِ الَّذي معَه، ورفعِهم إلى الأُفقِ الَّذي يعيشُ فيه.

ويَضجُّ الباطلُ ويَصخَبُ، ويرفعُ صوتَه وينفُشُ ريشَه، وتُحيطُ به الهالاتُ المصطنعةُ الَّتي تُغشِّي على الأَبصارِ والبصائرِ؛ فلا ترىٰ ما وراءَ الهالاتِ من قُبْحٍ شَائِهٍ[1] دميمٍ، وفَجْرٍ كالحٍ لئيمٍ.. وينظرُ المؤمنُ من عَلٍ إلى الباطلِ المنتفشِ، وإلى الجموعِ المخدوعةِ؛ فلا يَهِنُ ولا يحزنُ، ولا ينقصُ إصرارُه على الحقِّ الَّذي معَه، وثباتُه على النَّهجِ الَّذي يتَّبعُه، ولا تضعفُ رغبتُه كذلكَ في هدايةِ الضَّالِّينَ والمخدوعينَ[2].

ويغرقُ المجتمعُ في شهواتِه الهابطةِ، ويمضِي مع نزواتِه الخليعةِ، ويلصقُ بالوحلِ والطِّينِ، حاسبًا أَنَّه يستمتعُ وينطلقُ من الأَغلالِ والقيودِ، وتَعِزُّ في مثلِ هذا المجتمع كلُّ متعةٍ بريئةٍ، وكلُّ طيِّبةٍ حلالٍ،

---

(١) «**شَائِه**»: من شوَّهَ. رجلٌ أَشْوَهُ: قبيحُ الوجهِ.

(٢) كتبَ الله تعالىٰ لسيِّدٍ قُطُب رَحِمَهُ الله أَن يتمثل هذه الفكرة في واقعه حياته؛ فقد بذل حياته ثمنًا رخيصًا لأَفكاره.. ورفض أَن يقدم اعتذارًا لقاتله.. كان من الممكن أَن ينقذ حياته بذلك، ولكنَّه استعلىٰ بإيمانه.. ورأَها رخيصة أَمام عزَّة نفسه.. وها نحن اليوم نتعلم منه هذا الفقه السَّديد؛ نتعلمه نظريًا يقدمها لنا من فكره وقلمه، ونتعلمه تطبيقًا من واقعه ومواقفه العظيمة؛ لذلك بقيت هذه الفكرة علىٰ قيد الحياة.. ولم تمت بموته، وكيف لا.. وهو القائل: (**كل فكرة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان.. أَمَّا الأَفكار الَّتي لم تُطْعَمْ هذا الغذاء المقدَّس، فقد وُلدت ميتة، ولم تدفع بالبشرية شبرًا واحدًا إلى الأَمام**) «أَفراح الروح» رسالة بعث بها إلى أُخته أَمينة قطب.



ولا يبقىٰ إلَّا المَشْرَعُ(١) الآسنُ، وإلَّا الوحْلُ والطِّينُ. وينظرُ المؤمنُ من عَلٍ إلى الغارقينَ في الوحلِ اللَّاصقينَ بالطِّينِ.. وهو مُفْرَدٌ وحيدٌ؛ فلا يهنُ ولا يحزنُ، ولا تراودُه نفسُه أَنْ يخلعَ رداءَه النَّظيفَ الطَّاهر، وينغمسَ في الحَمأَةِ، وهو الأَعلىٰ بمتعةِ الإيمانِ ولذَّةِ اليقينِ.

ويقفُ المؤمنُ قابضًا علىٰ دينِه كالقابضِ على الجمرِ في المجتمع الشَّاردِ عنِ الدِّين، وعن الفضيلةِ، وعن القِيَم العُليا، وعن الاهتماماتِ النَّبيلةِ، وعن كلِّ ما هو طاهرٌ نظيفٌ جميلٌ.. ويقفُ الآخرونَ هازئينَ بوقْفتِه، ساخرينَ من تصوُّراتِه، ضاحكينَ من قِيَمِه.. فما يَهِنُ المؤمنُ وهو ينظرُ من علٍ إلى السَّاخرينَ والهازئينَ والضَّاحكينَ، وهو يقولُ كما قالَ واحدٌ من الرَّهطِ الكرامِ الَّذينَ سبقُوه في موكبِ الإيمانِ العريقِ الوضيءِ، في الطَّريقِ اللَّاحبِ الطِّويل، نوحٌ عليه السلام:

﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وهو يرىٰ نهايةَ الموكبِ الوضيءِ، ونهايةَ القافلةِ البائسةِ في قولِه تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۞ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۞ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٦].

(١) «المَشْرَعُ»: مَشْرَعةُ الماءِ: هي مَورِدُ الشاربةِ الَّتي يشرعُها النَّاسُ؛ فيشربُونَ منها ويَسْتَقُون.

وقديمًا قصَّ علينا القرآنُ الكريم قولَ الكافرينَ للمؤمنينَ:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣].

أَيُّ الفريقينِ؟ الكبراءُ الَّذينَ لا يؤمنونَ بمحمَّدٍ ﷺ؟ أَم الفقراءُ الَّذينَ يلتفُّونَ حولَه؟ أَيُّ الفريقينِ؟ النَّضرُ بنُ الحارثِ، وعمرُو ابنُ هشامٍ، والوليدُ بنُ المغيرةِ، وأَبو سفيانَ بنِ حربٍ؟ أَم بلالٌ وعمَّارٌ وصهيبٌ وخَبَّابٌ؟ أَفَلَوْ كانَ ما يدعو إليه محمَّدٌ ﷺ خيرًا أَفكانَ أَتباعُه يكونونَ هم هؤلاءِ النَّفرِ، الَّذينَ لا سلطانَ لهم في قريشٍ ولا خطرَ، وهم يجتمعونَ في بيتٍ متواضعٍ كـ«دارِ الأَرقمِ»، ويكونُ معارضُوه هم أَولئك أَصحابُ النَّدوةِ الفخمةِ الضَّخمةِ، والمجدِ والجاهِ والسُّلطانِ؟!

المؤمنُ يعلو بإيمانِه:

إنَّه منطقُ الأَرض، منطقُ المحجوبينَ عن الآفاقِ العُليا في كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وإنَّها لحكمةُ الله أَن تقفَ العقيدةُ مجرَّدةً من الزِّينةِ والطِّلاءِ، عاطلةً من عواملِ الإغراءِ، لا قُربىٰ من حاكمٍ، ولا اعتزازَ بسُّلطانٍ، ولا هتافَ بلذَّةٍ، ولا دغدغةَ لغريزةٍ، وإنَّما هو الجهدُ والمشقَّةُ والجهادُ والاستشهادُ.. ليُقبلَ عليها من يُقبلُ، وهو علىٰ يقينٍ من نفسِه أَنَّه يريدُها لذاتِها خالصةً لله من دونِ النَّاسِ، ومن دونِ ما تواضعُوا عليهِ من قيمٍ ومُغْرِياتٍ، ولينصرفَ عنها من يبتغِي المطامعَ والمنافعَ، ومن يشتهِي الزِّينةَ والأُبَّهةَ، ومن يطلبُ المالَ والمتاعَ، ومَن يقيمُ لاعتباراتِ النَّاسِ وزنًا حين تَخِفُّ في ميزانِ اللهِ.

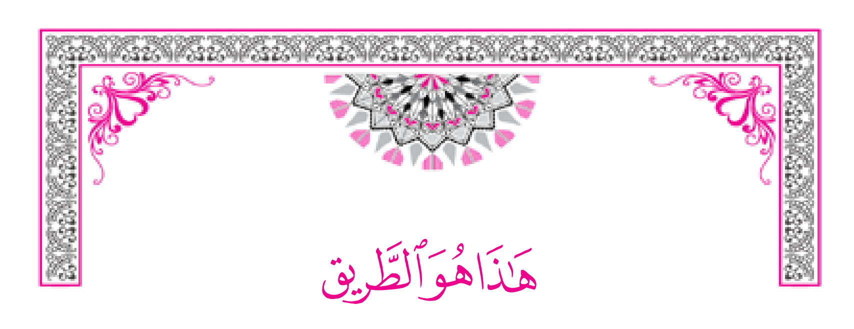


إنَّ المؤمنَ لا يستمدُّ قيَمَهُ وتصوُّراتِه وموازينَه من النَّاسِ حتَّىٰ يأسىٰ علىٰ تقديرِ النَّاسِ، إنَّما يستمدُّها من ربِّ النَّاسِ، وهو حَسْبُه وكافيهِ.. إنَّه لا يستمدُّها من شهواتِ الخلقِ حتَّىٰ يتأَرجحَ مع شهواتِ الخلقِ، إنَّما يستمدُّها من ميزانِ الحقِّ الثَّابتِ الَّذي لا يتأَرجحُ ولا يميلُ.. إنَّه لا يتلقَّاها من هذا العالَمِ الفاني المحدودِ، إنَّما تنبثقُ في ضميرِه من ينابيعِ الوجودِ، فأَنَّىٰ يجدُ في نفسِه وهنًا، أَو يجدُ في قلبِه حزنًا، وهو موصولٌ بربِّ النَّاسِ، وميزانِ الحقِّ، وينابيعِ الوجودِ؟

إنَّهُ على الحقِّ.. فماذا بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟ وليكنْ للضَّلالِ سُلطانُهُ، وليكنْ له هَيْلُه وهيلَمانُه، ولتكنْ معه جموعُهُ وجماهيرُهُ.. إنَّ هذا لا يغيِّرُ من الحقِّ شيئًا، إنَّه على الحقِّ وليسَ بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، ولن يختارَ مؤمنٌ الضَّلالَ على الحقِّ ـ وهو مؤمنٌ ـ ولن يَعدلَ بالحقِّ الضَّلالَ كائنةً ما كانتِ الملابساتُ والأَحوالُ..

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٨ ـ ٩]..





هَذَا هُوَ ٱلطَّرِيق

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١ ـ ١٦]..

إنَّ قصَّةَ أَصحابِ الأُخدودِ ـ كما وردتْ في سورةِ البروجِ ـ حقيقةٌ بأَن يتأَمَّلها المؤمنونَ الدَّاعونَ إلى الله في كلِّ أَرضٍ وفي كلِّ جيلٍ.

فالقرآنُ بإيرادِها في هذا الأُسلوبِ مع مقدِّمتِها والتَّعقيباتِ عليها، والتَّقريراتِ والتَّوجيهاتِ المصاحبةِ لها.. كان يَخطُّ بها خطوطًا عميقةً في تصوُّرِ طبيعةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، ودورِ البشرِ فيها، واحتمالاتِها المتوقَّعةِ في مجالِها الواسعِ ـ وهو أَوسعُ رقعةً من الأَرض، وأَبعدُ مدًى من الحياةِ الدُّنيا ـ وكان يرسمُ للمؤمنينَ معالمَ الطَّريقِ، ويُعِدُّ نفوسَهم



لتلقِّي أَيٍّ من هذِهِ الاحتمالاتِ الَّتي يجرِي بها القدرُ المرسومُ، وفقَ الحكمةِ المكنونةِ في غيبِ الله المستورِ.

ثباتُ أصحابِ الأخدودِ علىٰ دينِهم:

إنَّها قصَّةُ فئةٍ آمنَت بربِّها، واستعلنتْ حقيقةَ إيمانِها، ثمَّ تعرَّضت للفتنةِ من أَعداءٍ جبَّارينَ بَطَّاشينَ مستهترينَ بحقِّ «الإنسان» في حرِّيَّةِ الاعتقادِ بالحقِّ، والإيمانِ بالله العزيزِ الحميدِ، وبكرامةِ الإنسانِ عندَ الله عن أَن يكونَ لعبةً يتسلَّى الطُّغاةُ بآلامِ تعذيبِها، ويَتلهَّونَ بمنظرِها في أَثناءِ التَّعذيبِ بالحريقِ!

وقد ارتفعَ الإيمانُ بهذه القلوبِ على الفتنةِ، وانتصرَت فيها العقيدةُ على الحياةِ، فلم ترضخْ لتهديدِ الجبَّارينَ الطُّغاة، ولم تُفْتَنْ عن دينِها، وهي تُحرقُ بالنَّارِ حتَّىٰ تموتَ.

لقد تحرَّرتْ هذه القلوبُ من عبوديَّتِها للحياةِ، فلم يستذلَّها حبُّ البقاءِ وهي تُعاينُ الموتَ بهذه الطَّريقةِ البشعةِ، وانطلقتْ من قيودِ الأَرض وجواذبِها جميعًا، وارتفعتْ علىٰ ذواتِها بانتصارِ العقيدة على الحياةِ فيها.

خِسّةُ الطُّغاة:

وفي مقابلِ هذه القلوبِ المؤمنةِ الخيِّرةِ الرَّفيعةِ الكريمةِ كانت هناك جِبِلَّاتٌ جاحدةٌ شرِّيرةٌ مجرمةٌ لئيمةٌ، وجلس أَصحابُ هذه

الجبلَّاتِ على النَّار، يشهدونَ كيف يتعذَّبُ المؤمنونَ ويتألَّمونَ، جلسوا يتلهَّونَ بمنظرِ الحياةِ تأكلُها النَّارُ، والأَناسيُّ الكرامُ يتحوَّلونَ وقودًا وترابًا.

وكلَّما أُلقيَ فتًى أو فتاةٌ، صبيَّةٌ أَو عجوزٌ، طفلٌ أَو شيخٌ، من المؤمنينَ الخيِّرينَ الكرامِ في النَّارِ، ارتفعتِ النَّشوةُ الخسيسةُ في نفوسِ الطُّغاةِ، وعربدَ السُّعارُ المجنونُ بالدِّماءِ والأَشلاءِ!

هذا هو الحادثُ البشعُ الَّذي انتكسَت فيه جِبلَّاتُ الطُّغاةِ، وارتكسَتْ في هذه الحَمأَةِ، فراحَتْ تَلتَذُّ مشهدَ التَّعذيبِ المروِّعِ العنيفِ، بهذه الخساسةِ الَّتي لم يرتكسْ فيها وحشٌ قطُّ، فالوحشُ يفترسُ ليقْتاتَ، لا ليلتذَّ آلامَ الفريسةِ في لؤمٍ وخسَّةٍ!

وهو ذاتُه الحادثُ الَّذي ارتفعتْ فيه أَرواحُ المؤمنينَ، وتحرَّرتْ وانطلقَت إلىٰ ذلكَ الأَوْجِ السَّامي الرَّفيعِ، الَّذي تَشْرُفُ به البشريَّةُ في جميعِ الأَجيالِ والعصورِ.

من المنتصرُ في هذهِ المواجهةِ؟

في حسابِ الأَرض يبدو أَنَّ الطُّغيانَ قدِ انتصرَ على الإيمانِ، وأَنَّ هذا الإيمانَ الَّذي بلغَ تلك الذِّرْوةَ العاليةَ، في نفوسِ الفئةِ الخيِّرةِ الكريمةِ الثَّابتةِ المستعليةِ.. لم يكنْ له وزنٌ ولا حسابٌ في المعركةِ الَّتي دارَت بينَ الإيمانَ والطُّغيان!



ولا تذكرُ الرِّواياتُ الَّتي وردَت في هذا الحادثِ، كما لا تذكرُ النُّصوصُ القرآنيَّةُ؛ أَنَّ اللهَ قد أَخذَ أُولئكَ الطُّغاةِ في الأَرض بجريمتِهم البشِعةِ، كما أَخذَ قومَ نوحٍ وقومَ هودٍ وقومَ صالحٍ وقومَ شعيبٍ وقومَ لوطٍ، أَو كما أَخذَ فرعونَ وجنودَه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

ففي حسابِ الأَرض تبدو هذه الخاتمةُ أَسيفةً أَليمةً!

أَفَهكذا ينتهي الأَمرُ، وتذهبُ الفئةُ المؤمنةُ الَّتي ارتفعتْ إلىٰ ذِروةِ الإيمانِ؟ تذهبُ مع آلامِها الفاجعةِ في الأُخدودِ؟ بينما تذهبُ الفئةُ الباغيةُ، الَّتي ارْتكسَتْ إلىٰ هذه الحمأَةِ ناجيةً؟

في حسابِ الأَرض يحيكُ في الصَّدرِ شيءٌ أَمامَ هذهِ الخاتمةِ الأَسيفةِ!

ولكنَّ القرآنَ يُعَلِّمُ المؤمنينَ شيئًا آخرَ، ويكشفُ لهم عن حقيقةٍ أُخرىٰ، ويُبَصِّرُهم بطبيعةِ القِيَم الَّتي يَزِنُونَ بها، وبمجالِ المعركةِ الَّتي يخوضونَها.

انتصارُ الإيمانِ:

إنَّ الحياةَ وسائرَ ما يلابسُها من لذائذَ وآلامٍ، ومن متاعٍ وحرمانٍ.. ليستْ هي القيمةَ الكبرىٰ في الميزانِ.. وليست هي السِّلعةَ الَّتي تقرِّرُ حسابَ الرِّبحِ والخسارةِ، والنَّصرُ ليسَ مقصورًا على الغلبةِ الظَّاهرةِ؛ فهذه صورةٌ واحدةٌ من صورِ النَّصرِ الكثيرةِ.

إنَّ القيمةَ الكبرىٰ في ميزانِ الله هي قيمةُ العقيدة، وإنَّ السِّلعةَ الرَّائجةَ في سوقِ الله هي سلعةُ الإيمانِ، وإنَّ النَّصرَ في أَرفعِ صورةٍ هو انتصارُ الرُّوحِ على المادَّةِ، وانتصارُ العقيدة على الأَلمِ، وانتصارُ الإيمانِ على الفتنةِ.. وفي هذا الحادثِ انتصرَتْ أَرواحُ المؤمنينَ على الخوفِ والأَلمِ، وانتصرَتْ علىٰ جواذبِ الأَرض والحياةِ، وانتصرتْ على الفتنةِ انتصارًا يُشَرِّفُ الجنسَ البشريَّ كلَّه في جميعِ الأَعصارِ.. وهذا هو الانتصارُ..

إنَّ النَّاسَ جميعًا يموتونَ، وتختلفُ الأَسبابُ، ولكنَّ النَّاسَ جميعًا لا ينتصرونَ هذا الانتصارَ، ولا يرتفعونَ هذا الارتفاعَ، ولا يتحرَّرونَ هذا التَّحرُّرَ، ولا ينطلقونَ هذا الانطلاقَ إلىٰ هذهِ الآفاقِ.. إنَّما هو اختيارُ الله وتكريمُه لفئةٍ كريمةٍ من عبادِه لتشاركَ النَّاسَ في الموتِ، وتنفردَ دونَ النَّاسِ في المجدِ، المجدِ في الملأِ الأَعلىٰ، وفي دنيا النَّاسِ أَيضًا. إذا نحنُ وضعنا في الحسابِ نظرةَ الأَجيالِ بعدَ الأَجيالِ!

لا مساومةَ معَ الطُّغاةِ:

لقد كانَ في استطاعةِ المؤمنينَ أَن ينجُوا بحياتِهم في مقابلِ الهزيمةِ لإيمانِهم، ولكنْ كم كانوا يخسرونَ هم أَنفسُهم؟ وكم كانتِ البشريَّةُ كلُّها تخسرُ؟ كم كانوا يخسرونَ وهم يقتلونَ هذا المعنى



الكبيرِ، معنىٰ زهادةِ الحياةِ بلا عقيدةٍ، وبشاعتِها بلا حرِّيَّةٍ، وانحطاطِها حين يسيطرُ الطُّغاةُ على الأَرواحِ بعد سيطرتِهم على الأَجسادِ؟

إنَّه معنًى كريمٌ جدًّا، ومعنًى كبيرٌ جدًّا، هذا الَّذي ربحوهُ وهم بَعْدُ في الأَرض، ربحوهُ وهم يجدونَ مَسَّ النَّارِ، فتحترقُ أَجسادُهم الفانيةُ، وينتصرُ هذا المعنى الكريمُ الَّذي تُزكِّيهِ النَّارُ!

مقياسُ النَّصرِ:

ثمَّ إنَّ مجالَ المعركةِ ليسَ هو الأَرضَ وحدَها، وليسَ هو الحياةَ الدُّنيا وحدَها، وشهودُ المعركةِ ليسوا هم النَّاسَ في جيلٍ من الأَجيالِ. إنَّ الملأَ الأَعلىٰ يشاركُ في أَحداثِ الأَرض ويشهدُها ويُشهِدُ عليها، ويزِنُها بميزانٍ غيرِ ميزانِ الأَرض في جيلٍ من أَجيالِها، وغيرِ ميزانِ الأَرض في أَجيالِها جميعًا. والملأُ الأَعلىٰ يضمُّ من الأَرواحِ الكريمةِ أَضعافَ أَضعافِ ما تضمُّ الأَرضُ من النَّاسِ. وما من شكٍّ أَنَّ ثناءَ الملأِ الأَعلىٰ وتكريمَه أَكبرُ وأَرجحُ في أَيِّ ميزانٍ من رأيِ أَهلِ الأَرض وتقديرِهم على الإطلاقِ!

وبعدَ ذلكَ كلِّه هناكَ الآخرةُ، وهي المجالِ الأَصيلِ الَّذي يلحقُ به مجالُ الأَرض، ولا ينفصلُ عنه، لا في الحقيقةِ الواقعةِ، ولا في حسِّ المؤمنِ بهذهِ الحقيقةِ.

فالمعركةُ إذنْ لم تنتهِ، وخاتمتُها الحقيقيَّةُ لم تجيءْ بعدُ، والحُكْمُ عليها بالجزءِ الَّذي عُرِضَ منها على الأَرض حكْمٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأَنَّه حكْمٌ على الشَّطرِ الصَّغيرِ منها والشَّطرِ الزَّهيدِ.

۞۞۞

المقياسُ الإيمانيُّ للمواقفِ:

النَّظرةُ الأُولىٰ: هي النَّظرةُ القصيرةُ الضَّيِّقةُ المجالِ، الَّتي تعنُّ للإنسانِ العَجُولِ. والنَّظرةُ الثَّانيةُ الشَّاملةُ البعيدةُ المدىٰ: هي الَّتي يُرَوِّضُ القرآنُ المؤمنينَ عليها؛ لأَنَّها تمثِّلُ الحقيقةَ الَّتي يقومُ عليها التَّصوُّرُ الإيمانيُّ الصَّحيحُ.

ومن ثَمَّ كان وعدُ الله للمؤمنينِ جزاءً على الإيمانِ والطَّاعةِ، والصَّبرِ على الابتلاءِ، والانتصارِ علىٰ فِتَنِ الحياةِ، هو طمأنينةَ القلبِ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهو الرِّضوانُ والودُّ من الرَّحمنِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦].

وهو الذِّكْرُ في الملأ الأَعلىٰ: قال رسُولُ الله ﷺ: «**إِذا مَاتَ وَلَدُ العَبدِ قالَ اللهُ لِمَلائِكتهِ: قَبضْتُمْ ولَدَ عَبدِي؟ فيقولُونَ: نَعم. فيقولُ: قَبضْتُم**



ثَمرَةَ فؤادِهِ؟ فَيقولُونَ: نَعمْ. فيقولُ: مَاذا قالَ عَبْدِي؟ فَيقولُونَ: حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ. فيقولُ: اِبْنُوا لِعَبْدِي بَيتًا في الجَنَّةِ، وسَمُّوهُ بَيتَ الحَمْدِ»(١).

وقال ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: أَنا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بي، وأَنَا معهُ حينَ يَذْكُرنِي؛ فَإذا ذَكَرنِي في نَفْسِهِ ذَكرتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرني في مَلأٍ ذَكَرتُهُ في مَلأٍ خيرٍ مِنْهِ؛ فَإن اقْتَربَ إلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إليهِ ذِرَاعًا، وإنِ اقتربَ إليَّ ذِرَاعًا اقتربْتُ مِنْهُ بَاعًا، وإنْ أتاني يَمْشِي أَتيتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

وهو اشتغالُ الملأِ الأَعلىٰ بأَمرِ المؤمنينَ في الأَرض:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وهو الحياةُ عندَ الله للشُّهداءِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

---

(١) رواه الترمذي (١٠٢١) وقال: حسن غريب. وابن حبان في «الصحيح» (٢٩٤٨) من حديث أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٠). ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه.

إمهالُ اللّه تعالىٰ للطُّغاة:

كمـا كانَ وعـدُه المتكـرِّرُ بأْخـذِ المكذِّبيـن والطُّغـاةِ والمجرمينَ فـي الآخرةِ، والإمـلاءِ لهم فـي الأَرض والإمهالِ إلىٰ حيـنٍ.. وإن كانَ أَحيانًـا قـد أَخـذَ بعضَهم فـي الدُّنيا.. ولكـنَّ التَّركيـزَ كلَّهُ علـى الآخرةِ في الجـزءِ الأَخيرِ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۞ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢ ـ ٤٤].

وهكذا اتَّصلتْ حياةُ النَّاسِ بحياةِ الملأِ الأَعلىٰ، واتَّصلتِ الدُّنيا بالآخرةِ، ولم تعُدِ الأَرضُ وحدَها هي مجالَ المعركةِ بين الخيرِ والشَّرِّ، والحقِّ والباطلِ، والإيمانِ والطُّغيان. ولم تعُدِ الحياةُ الدُّنيا هي خاتمةَ المطافِ، ولا موعدَ الفصلِ في هذا الصِّراعِ.. كما أَنَّ الحياةَ وكلَّ ما يتعلَّقُ بها من لذائذَ وآلامٍ ومَتاعٍ وحرمانٍ، لم تعُدْ هي القيمةَ العُليا في الميزانِ.



انفسحَ المجالُ في المكانِ، وانفسحَ المجالُ في الزَّمانِ، وانفسحَ المجالُ في القِيَم والموازينِ، واتَّسعتْ آفاقُ النَّفسِ المؤمنةِ، وكبُرتْ اهتماماتُها، فصَغُرتِ الأَرضُ وما عليها، والحياةُ الدُّنيا وما يتعلَّقُ بها، وكبُر المؤمنُ بمقدارِ ما رأَىٰ وما عرفَ من الآفاقِ والحيواتِ، وكانتْ قصَّةُ أَصحابِ الأُخدودِ في القمَّةِ في إنشاءِ هذا التَّصوُّرِ الإيمانيِّ الواسعِ الشَّاملِ الكبيرِ الكريمِ.

۞۞۞

نماذج منوعة من تاريخِ الدُّعوة إلى الله:

هناكَ إشعاعٌ آخرُ تُطلِقُه قصَّةُ أَصحابِ الأُخدودِ وسورةُ البُروجِ حولَ طبيعةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، وموقفِ الدَّاعيةِ أَمامَ كلِّ احتمالٍ.

لقد شهدَ تاريخُ الدَّعوةِ إلى الله نماذجَ منوَّعةً من نهاياتٍ في الأَرض مختلفةٍ للدَّعواتِ..

شهدَ مصارعَ قومِ نوحٍ، وقومِ هودٍ، وقومِ شعيبٍ، وقومِ لوطٍ، ونجاةَ الفئةِ المؤمنةِ القليلةِ العددِ، مجرَّدَ النَّجاةِ. ولم يذكرِ القرآنُ للنَّاجينَ دورًا بعدَ ذلك في الأَرض والحياةِ.

وهذه النَّماذجُ تقرِّرُ أَنَّ اللهَ ﷻ يريدُ أَحيانًا أَنْ يُعجِّلَ للمكذِّبينَ الطُّغاةِ بقسطٍ من العذابِ في الدُّنيا، أَمَّا الجزاءُ الأَوفىٰ؛ فهو مرصودٌ لهم هناكَ.

وشـهدَ تاريـخُ الدَّعـوةِ مصْـرَعَ فرعونَ وجنـودِهِ، ونجاةَ موسـىٰ وقومِـه، مـع التَّمكيـنِ للقـومِ فـي الأَرض فتـرةً كانـوا فيهـا أَصلحَ ما كانـوا في تاريخِهـم، وإنْ لم يرتقُوا قـطُّ إلى الاسـتقامةِ الكاملةِ، وإلىٰ إقامـةِ ديـنِ الله فـي الأَرض منهجًا للحياةِ شـاملًا.. وهذا نمـوذجٌ غيرُ النَّمـاذجِ الأُولىٰ.

وشهدَ تاريخُ الدَّعوةِ كذلك مصرعَ المشركينَ الَّذينَ استعْصَوا على الهدىٰ والإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ وانتصارَ المؤمنينَ انتصارًا كاملًا. مع انتصارِ العقيدة في نفوسِهم انتصارًا عجيبًا. وتمَّ للمرَّةِ الوحيدةِ في تاريخِ البشريَّة أَنْ أُقيمَ منهجُ الله مهيمنًا على الحياةِ في صورةٍ لم تعرفْها البشريَّةُ قطُّ، من قبلُ ولا من بعدُ..

وشهدَ ـ كما رأَينا ـ نموذجَ أَصحابِ الأُخدودِ..

وشهدَ نماذجَ أُخرىٰ أَقلَّ ظهورًا في سجلِّ التَّاريخِ الإيمانِّي في القديمِ والحديثِ. وما يزالُ يشهدُ نماذجَ تتراوحُ بين هذه النِّهاياتِ الَّتي حفظَها علىٰ مدارِ القرونِ.

ولم يكنْ بُدٌّ من النَّموذجِ الَّذي يمثِّلُه حادثُ الأُخدودِ، إلىٰ جانبِ النَّماذجِ الأُخرىٰ. القريبِ منها والبعيدِ..



دروسٌ وعبرٌ للدُّعاةِ:

لم يكنْ بُدٌّ من هذا النَّموذجِ الَّذي لا ينجُو فيه المؤمنونَ، ولا يُؤخَذُ الكافرونَ! ذلك ليستقرَّ في حِسِّ المؤمنينَ ـ أَصحابِ دعوةِ الله ـ أَنَّهم قد يُدعَونَ إلى نهايةٍ كهذه النِّهايةِ في طريقِهم إلى اللهِ، وأَنْ ليسَ لهم من الأَمرِ شيءٌ، إنَّما أَمرُهم وأَمرُ العقيدة إلى اللهِ!

إنَّ عليهم أَن يُؤَدُّوا واجبَهم، ثمَّ يذهبُوا، وواجبُهم أَنْ يختاروا اللهَ، وأَنْ يؤثِروا العقيدةَ على الحياةِ، وأَنْ يستعلُوا بالإيمانِ على الفتنةِ، وأَنْ يصدقُوا اللهَ في العملِ والنِّـيَّةِ، ثمَّ يفعلُ اللهُ بهم وبأَعدائِهم، كما يفعلُ بدعوتِهِ ودينِهِ ما يشاءُ. وينتهِي بهم إلىٰ نهايةٍ من تلك النِّهاياتِ الَّتي عرفَها تاريخُ الإيمانِ، أَو إلىٰ غيرِها مما يعلمُه هو ويراهُ.

إنَّهم أُجراءُ عندَ الله، أَينما وحيثُما وكيفما أَرادَهم أَنْ يعملُوا، عملُوا وقبضُوا الأَجرَ المعلومَ! وليسَ لهم ولا عليهم أَنْ تتَّجهَ الدَّعوةُ إلىٰ أَيِّ مصيرٍ، فذلكَ شأَنُ صاحبِ الأَمرِ، لا شأَنُ الأَجيرِ!

وهم يقبضونَ الدُّفعةَ الأُولىٰ طمأَنينةً في القلبِ، ورِفعةً في الشُّعورِ، وجمالًا في التَّصوُّرِ، وانطلاقًا من الأَوْهاق[١] والجواذبِ، وتحرُّرًا من الخوفِ والقلقِ، في كلِّ حالٍ من الأَحوالِ.

---

(١) «الْوَهَقُ» : حَبْلٌ يُلْقَى في عُنُقِ الشَّخصِ يؤخذُ به ويوثَقُ، وأَصلُهُ للدَّوابِّ. والمعنى: التَّحَرُّر من الحَبْس والقُيود.

وهم يقبضونَ الدُّفعةَ الثَّانيةَ ثناءً في الملأِ الأَعلىٰ وذكرًا وكرامةً، وهم بَعْدُ في هذهِ الأَرض الصَّغيرةِ.

ثم هم يقبضونَ الدُّفعةَ الكبرىٰ في الآخرةِ حسابًا يسيرًا ونعيمًا كبيرًا. ومع كلِّ دفعةٍ ما هو أَكبرُ منها جميعًا، رِضوانُ اللهِ، وأَنَّهم مختارونَ ليكونوا أَداةً لقدَرِه وستارًا لقُدرتِه، يفعلُ بهم في الأَرض ما يشاءُ.

۞۞۞

أمثلةٌ من صبرِ الصَّحابةِ:

وهكذا انتهتِ التَّربيَّةُ القرآنيَّةُ بالفئةِ المُختارةِ من المسلمينَ في الصَّدرِ الأَوَّلِ إلىٰ هذا التَّطوُّرِ، الَّذي أطلقَهم من أَمْرِ ذواتِهم وشُخوصِهم؛ فأَخرجُوا أَنفسَهم من الأَمرِ أَلبتَّةَ، وعملُوا أُجراءَ عند صاحبِ الأَمرِ، ورضوا خِيْرةَ الله علىٰ أَيِّ وضعٍ وعلىٰ أَيِّ حالٍ.

وكانتِ التَّربيَّةُ النَّبويَّةُ تتمشَّىٰ مع التَّوجيهاتِ القرآنيَّةِ، وتُوجِّهُ القلوبَ والأَنظارَ إلى الجنَّةِ، وإلى الصَّبرِ على الدَّورِ المختارِ حتَّىٰ يأْذنَ اللهُ بما يشاءُ في الدُّنيا والآخرةِ سواءً.

كان ﷺ يرىٰ عَمَّارًا وأُمَّه وأَباهُ رضي الله عنهم يُعذَّبونَ العذابَ الشَّديدَ في مكَّةَ؛ فما يزيدُ علىٰ أَنْ يقولَ: «**صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمُ الجَنَّةُ**»[1].

---

(١) رواه ابن إسحاق في «السِّيرة» : ج١، ص ٣٠٢ ، بلاغًا، ووصَله الحاكم وحسَّنه الألباني لطرقه في تخريج « فقه السِّيرة » للغزالي . ص ١١١ ، طبعة دار القلم: دمشق .

وعن خبَّابِ بنِ الأَرتِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: شَكونا إلىٰ رسول الله ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردَةً في ظلِّ الكعبةِ، فقلنا: أَلا تستنصرُ لنا؟ أَو تدعو لنا؟ فقال: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَرُ لَهُ في الأَرض فَيُجْعَلُ فِيها، ثُمَّ يُؤْتىٰ بالمِنْشارِ فيوضَعُ علىٰ رأْسِهِ فيُجعَلُ نِصْفَينِ، ويُمشْطُ بأَمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحمِهِ وعَظْمِهِ، ما يُبعِدُه ذلكَ عَنْ دينِهِ، والله ليُتِمَّنَّ اللهُ تَعالىٰ هذا الأَمرَ حتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكبُ مِنْ صَنعاءَ إلىٰ حَضْرَمَوْتَ؛ فَلا يَخَافُ إلَّا اللهَ، والذِّئْبَ علىٰ غَنَمِهِ، ولَكنَّكُم تَسْتَعْجِلُونَ**»[1].

۞۞۞

الحِكمُ الإلهيَّة:

إنَّ لله حكمةً وراءَ كلِّ وضعٍ ووراءَ كلِّ حالٍ، ومُدبِّرُ هذا الكونِ كلِّه، المطَّلعُ علىٰ أَوَّلِه وآخرِه، المنسِّقُ لأَحداثِه وروابطِه، هو الَّذي يعرفُ الحكمةَ المكنونةَ في غيبِه المستورِ، الحكمةَ الَّتي تتَّفقُ مع مشيئتِه في خطِّ السَّيرِ الطَّويلِ.

وفي بعضِ الأَحيانِ يكشفُ لنا ـ بعد أَجيالٍ وقرونٍ ـ عن حكمةِ حادثٍ لم يكنْ معاصرُوه يدركونَ حكمتَه، ولعلَّهم كانوا يسأَلونَ: لماذا؟ لماذا يا ربِّ يقعُ هذا؟

وهذا السُّؤالُ نفسُه هو الجهلُ الَّذي يَتوقَّاهُ المؤمنُ؛ لأَنَّه يعرفُ

(١) رواه البخاري (٦٥٤٤) من حديث.

ابتداءً أَنَّ هناكَ حكمةً وراءَ كلِّ قدَرٍ؛ ولأَنَّ سَعَةَ المجالِ في تصوُّرِه، وبُعْدَ المدىٰ في الزَّمانِ والمكانِ والقِيَم والموازينِ تُغنيهِ عن التَّفكيرِ ابتداءً في مثلِ هذا السُّؤالِ؛ فيسيرُ مع دورةِ القدَرِ في استسلامٍ واطمئنانٍ.

الآخرةُ غايةُ الدُّعاةِ:

لقد كانَ القرآنُ يُنشئُ قلوبًا يُعِدُّها لحملِ الأَمانةِ، وهذه القلوبُ كان يجبُ أَنْ تكونَ من الصَّلابةِ والقوَّةِ والتَّجرُّدِ بحيثُ لا تتطلَّعُ ـ وهي تبذلُ كلَّ شيءٍ، وتحتملُ كلَّ شيءٍ ـ إلىٰ شيءٍ في هذهِ الأَرضٍ، ولا تنظرُ إلَّا إلى الآخرةِ، ولا ترجو إلَّا رِضوانَ اللهِ.. قلوبًا مستعدَّةً لقطعِ رحلةِ الأَرض كلِّها في نَصَبٍ وشقاءٍ وحرمانٍ وعذابٍ وتضحيةٍ حتَّى الموتِ، بلا جزاءٍ في هذه الأَرض قريبٍ، ولو كانَ هذا الجزاءُ هو انتصارَ الدَّعوةِ، وغلبةَ الإسلام وظهورَ المسلمينَ؛ بل لو كانَ هذا الجزاءُ هو هلاكَ الظَّالمينَ بأَخْذِهم أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، كما فعلَ بالمكذِّبينَ الأَوَّلينَ!

حتَّىٰ إذا وُجدتْ هذه القلوبُ، الَّتي تعلمُ أَنْ ليسَ أَمامَها في رحلةِ الأَرض إلَّا أَنْ تعطيَ بلا مقابلٍ ـ أَيِّ مقابلٍ ـ وأَنْ تنتظرَ الآخرةَ وحدَها موعدًا للفصلِ بينَ الحقِّ والباطلِ؛ حتَّىٰ إذا وُجِدَتْ هذه القلوبُ، وعلمَ اللهُ منها صِدْقَ نيَّتِها علىٰ ما بايعَت وعاهدَت، آتاها النَّصرَ في الأَرض، وائتمنَها عليه.. لا لنفسِها، ولكن لتقومَ بأَمانةِ المنهجِ الإلهيِّ، وهي أَهلٌ لأَداءِ الأَمانةِ منذ كانَت لم تُوعَدْ



بشـيءٍ مـن المغنـمِ فـي الدُّنيـا تتقاضـاهُ، ولـم تتطلَّـعْ إلـىٰ شـيءٍ من المغنـمِ فـي الأَرض تُعطاهُ. وقـد تجـرَّدَتْ لله حقًّا يومَ كانـت لا تعلمُ لهـا جـزاءً إلَّا رضاهُ.

وكلُّ الآياتِ الَّتي ذُكرَ فيها النَّصرُ، وذكرَ فيها المغانمُ، وذكرَ فيها أَخذُ المشركينَ في الأَرض بأَيدِي المؤمنينَ نزلَتْ في المدينةِ.. بعد ذلك.. وبعد أَنْ أَصبحَت هذه الأُمورُ خارجَ برنامجِ المؤمنِ وانتظارِه وتطلُّعِه.

وجـاءَ النَّصـرُ ذاتُـه؛ لأَنَّ مشـيئةَ الله اقتضَـتْ أَنْ تكـونَ لهـذا المنهـج واقعيَّـةٌ فـي الحيـاةِ الإنسـانيَّةِ، تقـرِّرُه فـي صـورةٍ عمليَّـةٍ محـدَّدةٍ تراهـا الأَجيـالُ.. فلـم يكـنْ جـزاءً علـى التَّعـبِ والنَّصـبِ والتَّضحيـةِ والآلامِ، إنَّمـا كان قَـدَرًا من قـدَرِ الله تكْمـنُ وراءَه حكمةٌ نحـاولُ رؤيتَهـا الآنَ.

وصايا لدُعاةِ الحقِّ:

وهذه اللَّفتةُ جديرةٌ بأَنْ يتدبَّرَها الدُّعاةُ إلى اللهِ، في كلِّ أَرضٍ وفي كلِّ جيلٍ؛ فهي كفيلةٌ بأَنْ تُريَهم معالمَ الطَّريقِ واضحةً بلا غَبَشٍ، وأَنْ تثبِّتَ خُطى الَّذينَ يريدونَ أَنْ يقطعُوا الطَّريقَ إلىٰ نهايتِه، كيفما كانتْ هذه النِّهايةُ.

ثمَّ يكونُ قدرُ الله بدعوتِه وبهِم ما يكونُ، فلا يلتفتونَ في أَثناءِ الطَّريقِ الدَّامي المفروشِ بالجماجمِ والأَشلاءِ، وبالعرقِ والدِّماء، إلىٰ

نصرٍ أَو غَلَبةٍ، أَو فَيصلٍ بين الحقِّ والباطلِ في هذهِ الأَرض.. ولكنْ إذا كانَ اللهُ يريدُ أَنْ يصنعَ بهم شيئًا من هذا لدعوتِه ولدينِه فَسيتمُّ ما يريدُهُ اللهُ.. لا جزاءً على الآلامِ والتَّضحياتِ.. لا، فالأَرضُ ليست دارَ جزاءٍ.. وإنَّما تحقيقًا لقدرِ الله في أَمرِ دعوتِه ومنهجه علىٰ أَيدي ناسٍ من عبادِه يختارُهم ليُمضيَ بهم من الأَمرِ ما يشاءُ، وحَسْبُهم هذا الاختيارُ الكريمُ، الَّذي تهونُ إلىٰ جانبِه وتصْغرُ هذهِ الحياةُ، وكلُّ ما يقعُ في رحلةِ الأَرض من سرَّاءَ أَو ضرَّاءَ[1].

المعركةُ معركة عقيدةٍ:

هنالكَ حقيقةٌ أُخرىٰ يشيرُ إليها أَحدُ التَّعقيباتُ القرآنيَّةِ علىٰ قصَّةِ الأُخدودِ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[البروج: ٨]. حقيقةٌ ينبغِي أَنْ يتأَمَّلها المؤمنونَ الدَّاعونَ إلى الله في كلِّ أَرضٍ، وفي كلِّ جيلٍ.

إنَّ المعركةَ بين المؤمنينَ وخصومِهم هي في صميمِها معركةُ

(١) هكذا تكلَّمَ سيِّد قُطُب رحمه الله عن الشَّهادةِ؛ قبل أَن يؤدِّيَها لربِّه ـ جلَّ في عُلاه ـ بكلِّ إخلاصٍ.. ثمَّ لأُمَّته المرحومةِ بكلِّ صدقٍ ومحبَّةٍ؛ لأَنَّ الشَّهادَةَ: ليست نهاية فرد.. ولا نهاية قصَّةِ حياةٍ؛ بل هي طاقةٌ جبَّارةٌ.. وقوَّةٌ إيجابيَّةٌ؛ لتعديلِ مسارِ الحياةِ، وقرعٌ صاخبٌ للدَّلالةِ على الحقِّ، وإزعاجٌ داوٍ للباطلِ، وإسقاطٌ عميقٌ له، وإفقادٌ لشرعيَّتِه، وهزيمةٌ لانتفاشتِه! فصدقَ رحمه الله عندما قالَ: (ستظلُّ كلماتُنا عرائسَ من الشُّموعِ لا روحَ فيها ولا حياةَ؛ حتَّىٰ إذا متْنا في سبيلِها دبَّتْ فيها الرُّوحُ، وكتبتْ لها الحياةُ!).



عقيدةٍ وليستْ شيئًا آخرَ على الإطلاقِ، وإنَّ خصومَهم لا ينقمونَ منهم إلَّا الإيمانَ، ولا يسخطونَ منهم إلَّا العقيدةَ..

إنَّها ليستْ معركةً سياسيَّةً، ولا معركةً اقتصاديَّةً، ولا معركةً عنصريَّةً.. ولو كانتْ شيئًا من هذا لَسَهُلَ وقفُها، وسَهُلَ حَلُّ إشكالِها، ولكنَّها في صميمِها معركةُ عقيدةٍ؛ إمَّا كفرٌ وإمَّا إيمانٌ.. إمَّا جاهليَّةٌ وإمَّا إسلامٌ!

ولقد كانَ كبارُ المشركينَ يَعرِضونَ علىٰ رسول الله ﷺ المالَ والحُكْمَ والمَتاعَ في مقابلِ شيءٍ واحدٍ، أَن يَدَعَ معركةَ العقيدة وأَن يُدْهِنَ في هذا الأَمرِ! ولو أَجابَهم ـ حاشَاه ـ إلىٰ شيءٍ مما أَرادوهُ ما بقيَتْ بينَهم وبينَه معركةٌ على الإطلاقِ!

إنَّها قضيَّةُ عقيدةٍ ومعركةُ عقيدةٍ.. وهذا ما يجبُ أَنْ يستيقنَه المؤمنونَ حيثما واجهوا عدوًّا لهم؛ فإنَّه لا يعادِيهم لشيءٍ إلَّا لهذهِ العقيدة، ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ويُخْلِصوا له وحدَه الطَّاعةَ والخضوعَ!

وقد يحاولُ أَعداءُ المؤمنينَ أَنْ يرفعوا للمعركةِ رايةً غيرَ رايةِ العقيدة، رايةً اقتصاديَّةً أَو سياسيَّةً أَو عنصريَّةً، كي يموِّهوا على المؤمنينَ حقيقةَ المعركةِ، ويطفِئوا في أَرواحِهم شعلةَ العقيدة. فمن واجبِ المؤمنينَ أَلا يُخْدَعوا، ومن واجبِهم أَنْ يدركُوا أَنَّ هذا تمويهٌ

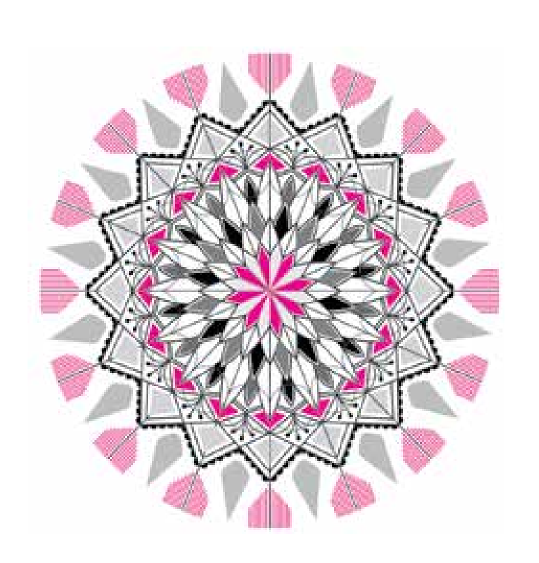
لغرضٍ مبيَّتٍ، وأَنَّ الَّذي يُغيِّرُ رايةَ المعركةِ إنَّما يريدُ أَنْ يخدعَهم عن سلاحِ النَّصرِ الحقيقيِّ فيها، النَّصرِ في أَيَّةِ صورةٍ من الصُّورِ، سواءٌ جاءَ في صورةِ الانطلاقِ الرُّوحيِّ كما وقعَ للمؤمنينَ في حادثِ الأُخدودِ، أَم في صورةِ الهيمنةِ ـ النَّاشئةِ من الانطلاقِ الرُّوحيِّ ـ كما حدثَ للجيلِ الأَوَّلِ من المسلمينَ.

ونحنُ نشهدُ نموذجًا من تمويهِ الرَّايةِ في محاولةِ الصَّليبيَّةِ العالميَّةِ اليومَ أَنْ تخدعَنا عن حقيقةِ المعركةِ، وأَن تُزَوِّرَ التَّاريخَ، فتزعمَ لنا أَنَّ الحروبَ الصَّليبيَّةَ كانت ستارًا للاستعمارِ.. كلَّا.. إنَّما كانَ الاستعمارُ الَّذي جاءَ متأَخرًا هو السِّتارَ للرُّوحِ الصَّليبيَّةِ، الَّتي لم تعدْ قادرةً على السُّفورِ كما كانتْ في القرونِ الوسطىٰ! والَّتي تحطَّمتْ علىٰ صخرةِ العقيدة بقيادةِ مسلمينَ من شتَّى العناصرِ، وفيهم صلاحُ الدِّين الكرديُّ، وتُوران شاه المملوكيِّ، العناصرُ الَّتي نسيَتْ قوميَّتَها وذكرَتْ عقيدتَها فانتصرتْ تحتَ رايةِ العقيدة..

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وصدقَ الله العظيمُ، وكذبَ المُمَوِّهونَ الخادعونَ!







موضوعات الكتاب



***

(١) كل عنوان وضع بجواره حرف (ح) فهو من تعليقات وتنبيهات المعتني في الحاشية.









۞ ۞ ۞

تمَّ بحَمْدِ الله تعَالى وتوفيقِه

و«الحمَدُ لله الَّذي بِنعْمَتِه تَتمُ الصَّالحات».

ISBN : 978- 605- 2107 - 39- 3

